رحلة ابن جبير

أبي الحسين محمد بن أحمد بن جبير
الكناني الأندلسي البلنسي
تغمده الله برحمته

دار الكتاب اللبناني
مكتبة المدرسة

رحلة

الكاتب الأديب البارع اللبيب

أبي الحسين محمد بن أحمد بن جبير
الكناني الأندلسي البلنسي

تغمده الله برحمته

مقدمة

بقلم الدكتور محمد مصطفى زيادة

ورثت الدولة الاسلامية من امبراطورية الرومان القديمة معظم أقاليم البحر الأبيض المتوسط ، كمصر وشمالي افريقية والأندلس وصقلية والشام والعراق الأعلى .

واستخدمت وسائل الحكم ونظم الادارة الرومانية بهذه الأقاليم المفتوحة ، لتدعيم سلطانها الجديد هناك ، ومن تلك الوسائل الطرق الرومانية المعبدة ، ونظام البريد الذى ينم اسمه عن أصله اللاتينى ڤيريدى (Veredii) ومعناه خيل البريد ، والدينار وهو معرب اللفظ ديناريوس (Denarius) .

على أن دولة المسلمين قد فاقت امبراطورية الرومان في فتوحها وأملاكها ، وقد استلزم ذلك فضلا عما كان هنالك من قبل كثيرا من طرق البريد ومصانعه وموظفيه ، مما توجد تفاصيله فى الكتب العربية التى ألفت لارشاد العاملين فى تلك الناحية من الادارة الاسلامية ، وهذه الكتب هى أول ما كتب المسلمون فى وصف البلاد التى خضعت لحكمهم .

على أن اهتمام المسلمين بجغرافية فتوحهم وما يجاورها من البلاد ، وتأليفهم وترجمتهم للكتب فى الجغرافية الوصفية ، لم ينشأ عن ضرورات الادارة والبريد وضبط الضرائب فحسب ، بل كان لتأدية فريضة الحج ، والتجارة فى البر والبحر ، والاشتغال بالجغرافيا كعلم لأجل ذاته ، وحب الرحلة لتدوين المشاهدات ، أثر ملموس فى عدد المؤلفات التى وصلت الينا من تراث المسلمين .

ومن هذه كتاب رحلة ابن جبير المعروف باسم « تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار » ، الذى كتبه مؤلفه حوالى سنة ٥٨٢ هـ (١١٨٦ م) ، وتداولته أيدى القراء مخطوطا فى الشرق والغرب ، حتى قام على نشره وطبعه ويليام رايت (William Wright) الانجليزى سنة ١٨٥٢ م ، وراجعه بعده دى خويه (De Goeje) الهولندى سنة ١٩٠٧ ، فى الجزء الخامس من سلسلة جب التذكارية تحت اسم :
(Travels of Ibn Jubayr. E. W. Gibb. Mem. Series. V. 1907)

كان ابن جبير عربيا أندلسيا ، واسمه أبو الحسين محمد بن جبير الكنانى ، وقد ولد فى بلنسية سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥ م) ، وتعلم على أبيه وغيره من علماء عصره . ثم استخدمه أمير غرناطة أبو سعيد بن عبد المؤمن ملك الموحدين فى وظيفة كاتم سره ، فاستوطن من وقتئذ غرناطة .

ويقال ان الأمير أبا سعيد استدعاه يوما ليكتب عنه كتابا وهو على شرابه ، فمد يده اليه بقدح من نبيذ ، فاعتذر ابن جبير وأبى واسترجع ، فأقسم عليه الأمير يمينا مغلظة

ليشربن منها سبعا ، فشربها صاغرا ، ثم ردها عليه أبو سعيد سبع أقداح من الدنانير .

لذلك أزمع ابن جبير الحج بتلك الدنانير تكفيرا عن خطيئته ، وأقام فى سفره سنتين ، ودون مشاهداته وملاحظاته فى يوميات هى المعروفة برحلة ابن جبير ، فجاءت مدونة وافية لجميع ما شاهده ، وصفحة واضحة لبعض تاريخ البلاد الاسلامية والمسيحية التى مر بها ، وقاموسا لمصطلح عصره في بناء السفن والملاحة البحرية ، وثبتا بأسماء البارزين من علماء المسلمين وملوكهم فى أواخر القرن السادس الهجرى ، وهذا فضلا عن أنها كانت — على ما يظهر لى — كتاب دعاية لدولة الموحدين ، تمنى ابن جبير فيه أكثر من مرة أن يمتد نفوذ تلك الدولة شرقا الى مصر والحجاز .

ترك ابن جبير غرناطة مع صديق اسمه أحمد ابن حسان ، يوم الخميس الثامن من شوال سنة ٥٧٨ هـ (٣ فبراير سنة ١١٨٣) ، الى جزيرة الطريف (الطرف الأغر) ، وعبر البحر من هناك الى سبتة (Cutae) ، فألفى بها سفينة للجنَوية (Genoese) مقلعة الى الاسكندرية ، فركبها يوم الخميس ٢٩ شوال (٢٤ فبراير) .

وسارت السفينة عبر الزقاق (Gibralter) مساحلة شاطىء الأندلس حتى ثغر دانية (Denia) ، ثم اتجهت غربا فمرت بجزائر ميورقة ومينورقة وسردانية ، وطرأ عليها قبالة بر سردانية نوء وأمواج كادت تقذف بها الى حيث أتت ، ثم استطاع رائسها أن يصل بها الى الشاطىء السردانى ، فجدد المسافرون هناك الماء وامتاروا .

ثم أقلعت المركب تريد جزيرة صقلية ، فوصلت اليها على متن ريح عاتية ، وأرست على شاطئها عند موضع لم يذكره ابن جبير . ثم فارقت بر صقلية ، واتجهت غربا حتى حاذت بر جزيرة اقريطش (Crete) تقديرا لا عيانا ، واستقر بها النوى أخيرا عند الاسكندرية يوم ٢٩ ذى القعدة (٢٦ مارس) ، أى أنها استغرقت فى سفرها من جزيرة الطريف الى الاسكندرية ثلاثين يوما .

كان أول ما شاهده ابن جبير بثغر الاسكندرية أن طلع أمناء السلطان — وهو وقتئذ صلاح الدين الأيوبى — الى المركب ، وطلبوا جميع من كان فيها من المسلمين واحدا واحدا ، لتقييد أسمائهم وصفاتهم وبضائعهم قبل النزول الى البر .

وقد آلم ابن جبير أن يطلب الى المسافرين — وهم حجاج مسلمون ، لم يستصحبوا معهم سوى زاد طريقهم — أن يؤدوا الزكاة عن جميع ما معهم ، من غير تفرقة بين ما كان ولم يكن قد حال عليه الحول .

ثم طاف ابن جبير بالمدينة ، فزار المنار ، وصلى بالمسجد المشيد فى أعلاه ، وشاهد بقايا العمائر البطليموسية والرومانية ، وذكر المدرسة والمارستان المخصصين للغرباء ، كما لاحظ كثرة المساجد بالاسكندرية بحيث كانت منها الأربعة والخمسة فى موضع واحد ، وربما كانت مبنية بعضها فوق بعض .

وقد شاهد ابن جبير وهو بالاسكندرية دخول جماعة كثيرة من أسرى الحملة الصليبية الجريئة التى كان أرناط (Renaut) de Châtillon

صاحب الكرك ، قد أنفذها ذلك العام فى البحر الأحمر لغزو بلاد العرب والاستيلاء على مكة والمدينة ، ليصيب المسلمين فى مقتلهم ، وصلاح الدين بعيد فى شمالى الشام ، وقد فشلت هذه الحملة بعد أن قاربت سفنها ساحل الحجاز ، وكان أولئك الذين شاهدهم ابن جبير من الأسرى جزءا مما وقع فى أيدى المسلمين من جنودها .

انما يلاحظ أن ابن جبير أهمل أو أنسى أن يذكر أيضا ما حدث لبقية المسافرين من الفرنجة والروم والجنويين على يد عمال صلاح الدين بالاسكندرية ، وهذا نقص يؤسف له ، لو تداركه ابن جبير بجملة من قلمه لساعد المشتغلين بتاريخ الحروب الصليبية على وزن الحقائق المعروفة بصدد معاملة المسيحيين فى الموانىء الاسلامية من جديد ، ولأوجب عليهم القصد فى العبارة المتواترة فى كتب التاريخ القديمة بأن سوء معاملة الحجاج المسيحيين فى الموانىء الاسلامية كان من أكبر الأسباب التى أثارت أوربا للحروب الصليبية .

ثم رحل ابن جبير عن الاسكندرية يوم الأحد ٨ ذى الحجة (٣ ابريل) الى القاهرة ، حيث نزل بفندق أبى الثناء بزقاق القناديل قرب جامع عمرو بن العاص .

وأقام ابن جبير بالقاهرة أياما زار فى أثنائها مسجد الحسين ، حيث رأى فى جدار الحائط الذى يستقبله الداخل حجرا شديد السواد ، والبصيص فيه يصف الأشخاص كلها كأنه المرآة الحديثة الصقل .

ثم زار القرافة ، ومسجد الشافعى ، والمدرسة الناصرية التى بناها بجواره السلطان صلاح الدين ، وقد وصف ابن جبير تلك المدرسة بأنه لم يعمر بهذه البلاد مثلها سعة ، « يخيل لمن يتطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته ، بازائها الحمام الى غير ذلك من مرافقها » .

ولقد لقى ابن جبير شيخ هذه المدرسة وهو نجم الدين الحبوشانى ، ولم يلق من رجال مصر سواه ، وليته صادف أو عمل على لقاء صلاح الدين ، أو أخيه العادل ، أو بهاء الدين قراقوش ، أو القاضى الفاضل ، ووصف لنا بعض أولئك الرجال الذين أسسوا الدولة الأيوبية فى مصر ، على أنه لم يفوت مناسبة بغير أن يشيد بذكر صلاح الدين وأعماله وحسن سيرته فى بلاد الشرق الأدنى ، وقد صوره فى عبارة أنيقة دقيقة فقال :

« انه لا يأوى لراحة ، ولا يخلد الى دعة ، ولا يزال سرجه مجلسه ، وسمعنا أحد فقهاء ... المسلمين بسدة هذا السلطان والحاضرين مجلسه يذكر عنه ... ثلاث مناقب فى ثلاث كلمات حكاها عنه : احداها أن الحلم من سجاياه ، فقال ، وقد صفح عن جريرة أحد الجناة عليه ، أما أنا فلأن أخطىء فى العفو أحب الى من أن أصيب فى العقوبة ، وقال أيضا ، وقد تنوشدت بحضرته الأشعار ، وجرى ذكر من سلف من أكارم العرب وأجوادهم : والله لو وهبت الدنيا للقاصد الآمل لما كنت أستكثرها له ، ولو استفرغت له جميع ما فى خزانتى لما كان عوضا مما أراقه من حر ماء وجهه فى استمناحه اياى ... »

وحضره أحد مماليكه المتميزين (كذا) لديه بالحظوة والأثرة مستعديا على جمال ذكر أنه باعه جملا معيبا ... ، فقال السلطان له : ما عسى أن أصنع لك وللمسلمين قاض يحكم بينهم ، والحق الشرعى مبسوط للخاصة والعامة ... ، وانما أنا عبد الشرع ... ، فالحق يقضى لك أو عليك ... » .

هذه صورة لصلاح الدين الذى تم على يده تأسيس الدولة الأيوبية فى مصر والشام ، وكان له الفضل فى اعادة السنية اليهما . وكان صلاح الدين قد أبدل الدعاء للفاطميين من منابر القاهرة بالدعوة لبنى العباس منذ المحرم سنة ٥٦٧ (سبتمبر سنة ١١٧١) ، وقد لاحظ ابن جبير ذلك فى كثير من الاغتباط .

وترك فى يوسياته صورة دقيقة لخطيب الجمعة كما رآه بالقاهرة ، اذ « يأتى للخطبة لابسا السواد على رسم العباسية ، وصيفة لباسه بردة سوداء عليها طيلسان شرب أسود ، وهو الذى يسمى بالمغرب الاحرام ، وعمامة سوداء ، متقلدا سيفا ، وعند صعوده المنبر يضرب بنعل سيفه المنبر فى أول ارتقائه ضربة يسمع بها الحاضرين ، كأنها ايذان بالانصات ، وفى توسطه أخرى ، وفى انتهاء صعوده ثالثة ، ثم يسلم على الحاضرين يمينا وشمالا ، ويقف بين رايتين سوداوين فيهما تجزيع بياض ، قد ركزتا فى أعلى المنبر » .

وقد لاحظ ابن جبير مثل ذلك بمكة ، وزاد عليه أن الخطيب دخل الحرم « يتهادى بين رايتين سوداوين يمسكهما رجلان من قومة المؤذنين ، وبين يديه ساعيا أحد القومة ، وفى يده عود مخروط أحمر قد ربط فى رأسه مرس من الأديم المفتول رقيق طويل ، فى طرفه عذبة صغيرة ينفضها بيده فى الهواء نفضا فتأتى بصوت عال يسمع من داخل الحرم وخارجه ، كأنه ايذان بوصول الخطيب ، لا يزال فى نفضها الى أن يقرب من المنبر ، ويسمونها الفرقعة » .

ومما شاهده ابن جبير بالقاهرة القلعة ، ولما يكتمل بناؤها ، كما عاين سور القاهرة والخندق المحدق به ، والقناطر التى ابتناها صلاح الدين من قرب الجيزة الحالية على امتداد طريق الاسكندرية الصحراوى ، وكان القائم على ذلك كله بهاء الدين قراقوش .

وقد بين ابن جبير أن صلاح الدين أراد أن يتخذ من القلعة سكنا وحصنا ، وأن يمد فى السور حتى ينتظم مصر والقاهرة ، وأن يجعل من القناطر سدا يدفع به عادية الطامعين فى مصر من أهل المغرب وبقايا الفاطميين ، ولاحظ أيضا أن جميع المسخرين لتلك المنشئات كان من أسرى الفرنج .

وهذا كله صحيح متواتر فى المراجع المعاصرة ، وهو دليل على دقة ابن جبير وصحة استقصائه . غير أنه قرن وجود مارستانين لصلاح الدين بالقاهرة ومصر ، وشرح رسم أولهما ، وقال ان الثانى على مثل ذلك الرسم بعينه . على أنه ليس من المعروف أن صلاح الدين ابتنى مارستانا ما على نسق ما ابتناه مخدومه نور الدين بن زنكى بدمشق ، ما عدا أنه أمر بأن تعمل خزانة الأشربة التى كانت للقصر الكبير الفاطمى مارستانا للمرضى .

ولعل ابن جبير رأى فعلا مارستان أحمد بن طولون بين القاهرة ومصر ، فظنه أيضا من

مستحدثات صلاح الدين ، وكان جامع ابن طولون قد تحول فى ذلك العهد الى مأوى للغرباء من أهل المغرب يسكنون ويحلقون فيه ، أى يعقدون حلقات الدرس به .

وقد زار ابن جبير أهرام الجيزة الثلاثة ، ووصفها وصفا يدل على أنها كانت فى أيام صلاح الدين مثلما هى عليه الآن تقريبا ، وسمى هرمى خوفو وخفرع باسم «الكبيرين» وهرم منقرع باسم « الصغير » ، وذكر أنه كان دون هذا « الصغير » خمسة صغار متصلة ، فكأنه رأى الهرم الرابع ، كما رأى تمثال أبى الهول ، وسماه باسم « أبى الأهوال » .

وقد زار ابن جبير عدا ذلك بلدة الجيزة ، وجزيرة الروضة ، ومقياس النيل ، وجامع عمرو بالفسطاط ، حيث شاهد بعض آثار الحريق الذى أحدثه بها الصليبيون فى أواخر أيام الدولة الفاطمية .

ثم سافر ابن جبير من القاهرة فى النيل الى قوص ، فاجتاز على مدن الصعيد دون أن ينزل باحداها ، ما عدا المدن التى توقفت المركب عندها بأمر السلطات المحلية ، كمنية ابن خصيب وأسيوط وأخميم ، حيث أحصى المسافرون واستدفعوا الزكاة عن ما لديهم من المال كما حدث بالاسكندرية . وقد وصف ابن جبير هذه المطالب المتكررة بأنها سرقة مقنعة ، و « ادخال للأيدى الى أواسط التجار » .

ووصل ابن جبير الى قوص يوم الخميس ٢٤ محرم سنة ٥٧٩ (١٩ مايو سنة ١١٨٣) ، فوجدها حفيلة الأسواق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار من مصر والمغرب واليمن والهند والحبشة .

ثم فصل منها الى عيذاب عن طريق الصحراء المشهور ، وهو طريق التجارة الدولية فى الفلفل وأنواع البهار التى انبنت على مكاسبها عظمة الدولتين الأيوبية والمملوكية ، كما انبنت عظمة الامبراطورية البريطانية على تجارة الشاى وتوابل الهند فى القرن الثامن عشر .

ولا مبالغة فى وصف ابن جبير لضخامة تلك التجارة ، حين قال انه رام فى هذه الطريق « احصاء القوافل الواردة والصادرة فما تمكن ، ولا سيما القوافل العيذابية المتحملة لسلع الهند ، الواصلة الى اليمن ، ثم من اليمن الى عيذاب ... من ... أحمال الفلفل ، فلقد خيل الينا لكثرته أنه يوازى التراب قيمة » .

وقد امتدح ابن جبير أحوال الأمن العام فى هذا الطريق ، حين قال : « ومن عجيب ما شاهدناه بهذه الصحراء أنك تلتقى بقارعة الطريق أحمال الفلفل والقرفة وسائرها من السلع مطروحة لا حارس لها ، تترك بهذا السبيل اما لاعياء الابل الحاملة لها أو غير ذلك من الأعذار ، وتبقى بموضعها الى أن ينقلها صاحبها مصونة من الآفات ، على كثرة المار عليها من أطوار الناس » .

ووصل ابن جبير عيذاب ليعبر البحر الأحمر منها الى جدة ، فاكترى مكانا فى احدى السفن المخصصة لنقل الحجاج بين الثغرين ، واسمها الجلاب والواحدة جلبة .

وقد وصف ابن جبير هذه السفن وصفا فريدا فى مؤلفات المسلمين ، فقال بأنها « ملفقة البناء ، لا يستعمل فيها مسمار البتة ،

انما هى مخيطة بأمراس من القنبار ، وهو قشر جوز النارجيل ، يدرسونه الى أن يتخيط ، ويفتلون منه أمراسا يخيطون بها المراكب ، ويخللونها بدسر من عيدان النخل ، فاذا فرغوا من انشاء الجلبة على هذه الصفة ، سقوها بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن القرش وهو أحسنها ، وهذا القرش حوت عظيم ، ومقصدهم فى دهان الجلبة ليلين عودها ويرطب ، لكثرة الشعاب المعترضة فى هذا البحر ، ولذلك لا يصرفون فيه المركب المسمارى . ومن أعجب أمر هذه الجلاب أن شرعها منسوجة من خوص شجر المقل ، فمجموعها متناسب فى اختلال البنية ووهنها» .

على أن أصحاب تلك السفن لم يبالوا بالحجاج أو راحتهم ، بل كان كل همهم أن يشحنوا بهم الجلاب ، حتى يجلس بعضهم على بعض كأنهم فى أقفاص الدجاج ، فيستوفى صاحب الجلبة منهم ثمنها فى سفرة واحدة ، ولا يبالى بما يصنع البحر بها بعد ذلك ، وكأن أصحاب تلك السفن يقولون علينا بالألواح (ألواح السفينة) وعلى الحجاج بالأرواح . والواقع أن هذه السفن لم تخلق فى نفوس الحجاج شيئا من الطمأنينة ، وكفى قول ابن جبير فى هذا الصدد انه وأصحابه فى هذه الرحلة ماتوا مرارا وحيوا مرارا .

ثم فصل ابن جبير من جدة يوم ١١ ربيع الآخر ٥٧٩ (٣ أغسطس سنة ١١٨٣) قاصدا مكة ، فوصلها بعد ثلاثة أيام ، ودخلها من باب العمرة ، وطاف بالكعبة طواف القدوم . ثم طفق يتعرف على أماكن الزيارة ، وقد ترك وصفا دقيقا ضافيا للمسجد الحرام ومكة نفسها فى سبعين صفحة من كتابه ، فجاء وثيقة أثرية لتلك البقاع وأحوالها فى أواخر القرن السادس الهجرى .

ويتخلل هذا الوصف ملاحظات لابن جبير ذات أهمية فى دراسة التاريخ الاسلامى : منها أن أهل الحجاز عامة كانوا يعتبرون الحجاج — وليس موسم الحج — من أعظم غلاتهم التى يستغلونها ، ينتهبونهم انتهابا بأنواع المكوس ، وأن مكثرا الحسنى أمير مكة فى ذلك الوقت ، لم يشذ عن بقية أهل الحجاز فى جشعهم وترويعهم للحجاج ، وأن ما أحدثه السلطان صلاح الدين من ابطال هذه المكوس ، وتعويضه أمير مكة بمال وطعام يرسله اليه كل سنة ، عدا اقطاعات عينها له بصعيد مصر ، قد خفف كثيرا من متاعب الحجاج .

ومن ملاحظات ابن جبير أيضا أن أشراف مكة كانوا على مذهب الزيدية ، يزيدون فى الأذان « حى على خير العمل » ، ولا يجتمعون مع الناس فى الصلاة ، انما يؤمهم امام خاص . ومن ملاحظاته أيضا عادة التهنئة بالهلال الجديد عند أهل مكة ، يتصافحون ويتغافرون ويدعو بعضهم لبعض كفعلهم فى الأعياد ، وكان الأمير مكثر يبكر الى الحرم فى أول كل شهر بحاشيته وقواده وحرابته لاستقبال التهنئة بالشهر الجديد ، باعتباره السلطان الحاضر فى مكة ، على أن السيادة العليا كانت للخلافة العباسية ، فيدعو خطيب الجمعة للخليفة ، ثم لأمير مكة ، ثم للسلطان صلاح الدين ولولى عهده وأخيه العادل أبى بكر .

وقد لاحظ ابن جبير في صلوات الجمعة بمكة أنه عندما يأتي الخطيب على ذكر صلاح الدين تخفق الألسنة بالتأمين من كل مكان ، اعترافا بفضله على العالم الاسلامي عامة ، ولا عجب أن يفرد أهل السنة هذا السلطان بتأميناتهم الهالعة ، فقد هدم الدولة الفاطمية ودعوتها من مصر بغير حرب ، بعد أن عجزت الخلافة العباسية عن ذلك بمختلف الوسائل ، وهذا فضلا عما بلغه من التوفيق في الحروب ضد الصليبيين حتى آخر عهده .

وقد رأى ابن جبير وهو بمكة مقدم الملك سيف الاسلام طغتكين أخي صلاح الدين من مصر ، وكان في طريقه الى اليمن التي دانت للأيوبيين ، وقد وصف ابن جبير موكب هذا الملك وصفا دقيقا ، حيث مشى الأمير مكثر الى جانب طغتكين مشية التابع الخاضع ، والناس في موسم الحج من جميع الأقطار على جانبي الطريق ، وفي ذلك دلالة على أن هيبة الدولة الأيوبية كانت تفوق كل هيبة في عصرها .

الى هنا كان ابن جبير قد أقام بمكة ستة شهور قمرية تقريبا ، وهذه الحقيقة وحدها مما يؤكد لنا أن ما جاء بكتابه في وصف معالم مكة قد كتب عن روية وتحقيق .

ثم أهل شوال ، وهو فاتحة أشهر الحج ، فحج ابن جبير وترك في مدوته وصفا دقيقا لجميع المناسك والمراسم في عصره ، وذكر في خلال ذلك الوصف أعيان الحجاج ذلك العام من الرجال والنساء .

ثم رحل الى المدينة ، وأكمل حجته بزيارة المسجد النبوي ، كما أكمل كتابه بوصف ذلك المسجد الشريف ، ولم يبق لديه من أغراض السفر سوى الرجوع الى وطنه .

غير أنه لم يرجع من حيث أتى ، بل رافق الركب الشامل لحاج العراق وخراسان وكردستان والشام ، فسار الى العراق في ٨ المحرم سنة ٥٨٠ (٢١ أبريل سنة ١١٨٤) ، واتبع طريقا طويلا الى الأندلس ، فأضاف الى مؤلفه قيمة جديدة بما دونه فيه من ملاحظات هامة عن كثير من مدن الشرق الأدنى وثغور البحر الأبيض المتوسط في عصره ، كما سيلي .

مر ابن جبير في طريقه الى العراق بالقادسية وكانت ابان الفتوح الاسلامية الأولى ثغرا من ثغور دولة الفرس ، وعندها انتصر سعد بن أبي وقاص بجيشه القليل على الجيوش الفارسية بقيادة رستم . وقد وجدها ابن جبير قرية كبيرة فيها حدائق من النخيل ، ومشارع من ماء الفرات .

ثم نزل على الكوفة ، وهي المدينة التي أمر ببنائها الخليفة عمر بن الخطاب بعد وقعة القادسية لتكون معسكرا دائما للمسلمين في فتوحهم الجديدة ، وقد صارت عاصمة للدولة الاسلامية في خلافة على ، وفي أوائل أيام الخلافة العباسية أيضا ، وألفاها ابن جبير مدينة كبيرة عتيقة البناء ، قد استولى الخراب على أكثرها ، الغامر منها أكثر من العامر .

ثم رحل الى الحلة ، وعبر الفرات عندها على جسر معقود على مراكب كبار متصلة من الشط الى الشط ، تحف بها من جانبيها سلاسل من حديد قد ربطت الى خشب مثبتة

فى كلا الشطين ، وقد اجتاز ابن جبير بقرب الحلة جسرا ثانيا على نهير يسمى النيل ، وهو أحد فروع الفرات .

ثم وصل ابن جبير الى المدائن ، عاصمة الدولة الفارسية قبل الاسلام ، فوجدها خرابا . ودخل بغداد ، فأقام بها ثلاثة عشر يوما ، وشاهد بها دور الخلافة والمدارس والحمامات ، كما شاهد بجهاتها كثيرا من الخراب مما جعله يقرر في يومياته أن بغداد « وان لم تزل حضرة الخلافة العباسية ... ، قد ذهب أكثر رسمها ، ولم يبق منها الا شهير اسمها » .

وقد جاء وصف ابن جبير لأحوال بغداد وثيقة تاريخية كبرى ، فهو بالاضافة الى ما جاء في كتاب الخطيب البغدادى مثلا أوضح تصوير لعاصمة العباسيين قبيل كارثة المغول على يد هولاكو وجنوده ، يرجع اليه المؤرخ ليقارن بينه وبين وصف بغداد بعد ذلك الحادث ، فيعرف بالضبط مدى ما أحدثه المغول بها .

وفضلا عن ذلك ففى ثنايا وصف ابن جبير لبغداد ملاحظات دقيقة في أحوال الخلافة العباسية في أواخر القرن السادس ، منها وصف الخليفة الناصر لدين الله ، وقد رآه ابن جبير مرتين وهو يتطلع من منظرته بالقصر الخليفى ، فاذا به « فى فتاء من سنه ، أشقر اللحية صغيرها ، كما اجتمع بها وجهه ، حسن الشكل ، جميل المنظر ، أبيض اللون ، معتدل القامة ، رائق الرواء ، سنه نحو الخمس وعشرين سنة ، لابسا ثوبا أبيض شبه القباء ، برسوم ذهب فيه ، وعلى رأسه قلنسوة مذهبة مطوقة بوبر أسود من الأوبار الغالية ... متعمدا بذلك زى الأتراك » .

ومن ملاحظات ابن جبير فى بغداد أيضا أن جميع العباسيين كانوا فى الواقع معتقلين فى دورهم اعتقالا جميلا ، لا يخرجون ولا يظهرون ، وأنه لم يكن للخليفة نفسه وزير فى ذلك العصر ، انما له قيم يعرف بالصاحب الأستادار ، يقوم على جميع شئون الدور الخليفية ، ويدعى له اثر الدعاء للخليفة .

هذا ولابن جبير ملاحظة عامة فى أهل بغداد ، وهى أنهم كانوا — كأهل روما فى أواخر أيام الدولة الرومانية — « لا تكاد تلقى منهم الا من يتصنع بالتواضع رياء ، ويذهب بنفسه عجبا وكبرياء ، يزدرون الغرباء ، ويظهرون لمن دونهم الأنفة والاباء .... قد تصور كل منهم فى معتقده وخلده أن الوجود كله يصغر بالاضافة لبلده ، فهم لا يستكرمون فى معمور البسيطة مثوى غير مثواهم ، كأنهم لا يعتقدون أن لله بلادا أو عبادا سواهم » .

ترك ابن جبير بغداد الى الموصل يوم الاثنين ١٥ صفر سنة ٥٨٠ (٢٨ مايو سنة ١١٨٤) صحبة من بقى من الحجاج من أهل الشام وكردستان والعراق الأعلى ، وقد تأمر على الركب سلجوقة خاتون زوج نور الدين صاحب آمد ، وخاتون أم عز الدين صاحب الموصل . فمر بسامرا ، وهى سر من رأى عاصمة العباسيين أيام المعتصم والواثق والمتوكل ، فوجدها عبرة من رأى ، قد استولى عليها الخراب الا بعض جهات قليلة .

ثم وصل تكريت ، وهو البلد الذى ولد فيه السلطان صلاح الدين ، وفيه كانت تنشئة بنى أيوب قبل أن يتصلوا بعماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود بالشام .

ثم نزل على الموصل فأقام بها أربعة أيام ، وشاهد استقبال الأمير عز الدين لوالدته ، ووصفه بأنه كان من أحفل المشاهد الدنيوية المزيبة ، ولعله لم يعجبه بروز نساء البلد راكيات لاستقبال الأميرة وهى تدخل المدينة فى عسكر من الجوارى ، على أنه أعجب بحسن معاملة المواصلة للغرباء ، كما راقه ما رآه بالموصل نفسها من حصون ومدارس وجوامع ومارستانات .

ثم رحل ابن جبير الى نصيبين ، ومنها الى دارا ، فماردين ، فدنيسر ، فرأس عين التى سميت بهذا الاسم لنبع نهير الخابور من عيون بقربها .

ولابن جبير ملاحظة لطيفة بصدد أمراء تلك البلاد ، اذ شبههم بملوك الطوائف بالأندلس ، « كلهم قد تحلى بحلية تنسب الى الدين ، فلا تسمع الا ألقابا هائلة ، وصفات لذى التحصيل غير طائلة .... ، ليس فيهم من ارتسم بسمة به تليق ، أو اتصف بصفة هو بها خليق » ، الا صلاح الدين الأيوبى الذى أفرده ابن جبير فى كل مناسبة بما هو قمين به من التبجيل ، فقال ان هذا « اسم وافق مسماه ، ولفظ طابق معناه ، وما سوى ذلك فى سواه فزعازع ريح ، وشهادات يردها التجريح » .

ثم وصل ابن جبير الى حران ، فألفاها اسما على مسمى من شدة ما لاقاه من حرها ، ووصفها بأنها بلد لا حسن لديه قد اشتق اسمه من هوائه ، ثم رحل منها الى سروج التى نسب الحريرى اليها أبا زيد السروجى بطل مقاماته .

وعبر ابن جبير الفرات عند سروج الى قلعة نجم ، التى عرفت قبل باسم جسر منبج ، وصار بذلك فى مملكة صلاح الدين الأيوبى ، على أنه لم يشأ أن يفوت تلك الفرصة بدون أن يقرر أن حدود النفوذ الأيوبى كانت أبعد مدى من ذلك الحد الجغرافى ، وأن سيادة صلاح الدين كانت حقيقة ملموسة فى جميع البلاد التى مر بها من الموصل الى سروج .

ثم قصد ابن جبير الى حلب عن طريق الرسبة ومنبج والبزاعة والباب ، وقال بصدد حلب انها سميت بذلك الاسم لأن ابراهيم عليه السلام كان يحلب عندها غنما له ، ويتصدق بلبنها ، على أنها كانت حسبما جاء فى دائرة المعارف الاسلامية من منشئات الحيثيين ، واسمها فى لغتهم حلاب ، ومنها اسم حلب الحالى .

ثم رحل ابن جبير من حلب الى دمشق ، فمر على قنسرين وتل تاجر وباقدين ، وتمنى والمعرة وجبل لبنان ، وحماة والرستن وحمص ، وقد لاحظ أنه كان بكل مدينة من هذه المدن مارستان ، وأن جميع الخانات التى أوى اليها فى طريقه كانت كأنها القلاع امتناعا وحصانة وأمنا .

ووصف ابن جبير الجامع الأموى بدمشق وصفا بديعا وأتى على تاريخه تفصيلا ، كما وصف حجرة الساعة الدقاقة به ، وسماها

المنجانة كتسمية أهل الأندلس في ذلك العصر للساعات الدقاقة التى اشتهرت بها بلادهم .

على أن عبارات ابن جبير بصدد ما شاهده بدمشق من المباني والعمائر تشتمل على ملاحظات له ذات أهمية كبرى فى معرفة الحال الدينية والاقتصادية بالشام والشرق الأدنى فى ذلك الوقت ، ومنها أن الشيعة كانوا أكثر من السنيين بدمشق والشام عامة ، وقد عمـوا البلاد بمذاهبهم وهم فرق شتى ، منهم الرافضة والزيدية والامامية والاسماعيلية والنصيرية والغرابية وغيرها . وفى ذلك دليل على أن الشيعة والدولة الفاطمية لم يكن قد ذهب ريحهما تماما على يد صلاح الدين .

على أن ابن جبير لم ينس أن يذكر طائفة من الطوائف السنية التى نشأت لمناهضة الشيعة فى ذلك العصر ، وهى طائفة النبوية ، وكانت تدين بالفتوة ، وتكفى الاشارة هنا الى الفتوة وسراويلها ، فهى موضوع يحتاج حتى الآن لبحث طويل ، بدأه الأستاذ أحمد أمين بمقالة منذ سنوات ، ونرجو أن يتوفر عليه ليوضحه للناس .

أما ما جاء فى ابن جبير هنا بشأن الحال الاقتصادية بالشام ، فهو أن الحروب الصليبية بين دول المسلمين والفرنج لم تعطل من حركة التجارة بين رعية الفريقين فى أنحاء البلاد ، وقد دلل على ذلك بما شاهده من نشاط وتبادل بين دمشق الاسلامية وعكا الصليبية ، على الرغم من قيام صلاح الدين وقتئذ بحرب أرناط صاحب حصن الكرك ، ومحاصرته لذلك الحصن المانع لسبيل المسلمين بين الشام ومصر والحجاز . وهذا نص عبارة ابن جبير : « ومن أعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى ، وربما يلتقى الجمعان ويقع المصاف بينهم ، ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم ، شاهدنا فى هذا الوقت .... من ذلك خروج صلاح الدين بجميع عسكر المسلمين لمنازلة حصن الكرك .... فنازله هذا السلطان وضيق عليه وطال حصاره ، واختلاف القبائل من مصر الى دمشق على بلاد الافرنج غير منقطع ، واختلاف المسلمين من دمشق الى عكا كذلك ، وتجار النصارى أيضا لا يمنع أحد منهم ولا يعترض ، وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها فى بلادهم ، وهى من الأمنة على غاية ، وتجار النصارى أيضا يؤدون فى بلاد المسلمين على سلعهم ، والاتفاق بينهم والاعتدال فى جميع الأحوال ، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم ، والناس فى عافية ، والدنيا لمن غلب ، هذه سيرة أهل هذه البلاد »

هذا والى أحيل من يطلب المزيد فى هذا الموضوع الى مذكرات أسامة بن منقذ الشيزرى ، المعروفة باسم كتاب الاعتبار ، والى قصة الطلسم التى ربت حديثا ليرى أن الحروب الصليبية لم تفسد كثيرا من العلاقات الفردية بين أبناء الدينين ، محاربين ومدنيين .

وأخيرا أزمع ابن جبير الرحيل عن دمشق الى عكا بعد اقامة شهرين وزيادة ، ليركب البحر منها الى بلاده ، ولا يكاد القارىء يأتى على الجملة الأولى من يوميات ابن جبير بصدد عكا ، حتى يأتى على عبارة فيها التفات ، وهى أن أسفار السفن من عكا فى الخريف — وهو

أحسن أوقات السفر حين ذاك — كانت تعرف عند أهل الشام باسم « الصليبية » ، لتصليب أشرعة السفن موافقة للريح فى تلك الأسفار . فهل استمد اسم الحملات والحروب الصليبية — التي كانت على أشدها ابان ذلك الوقت — من ذلك الاسم العربى ، فجاءت سمية دقيقة ورمية من غير رام .

هذ وقد سجل ابن جبير فى ثنايا مذكراته بصدد الطريق من دمشق الى عكا ، وهو فى أرض الصليبيين أنهم كانوا يمكسون المسافرين من المغاربة دون جميع المسلمين بمكس اضافى عن المعتاد ، مقداره دينار صورى على الشخص الواحد ، وأن أصل ذلك المكس أن فئات من المغاربة اشتركت مع نور الدين بن زنكى فى جهاد الصليبيين ، فجزاهم الفرنج من وقتئذ بتلك الضريبة الاستثنائية .

وأهمية ذلك كله أن هنا مادة تاريخية لمعرفة مدى ما استجاب به المسلمون الى نداء نور الدين ، ولتقرير ما خفى على بعض المؤلفين فى تاريخ الحروب الصليبية ، وهو أن المغاربة من المرابطين ثم للموحدين كانوا أول من أثار فكرة الجهاد العام ضد الحركة الصليبية لسبب واضح ، وأن تلك الحروب الدينية ثارت فى الواقع بالأندلس قبل أن تمتد الى الشام .

ووصل ابن جبير عكا فى ١٠ جمادى الآخرة سنة ٥٨٠ (١٨ سبتمبر سنة ١١٨٤) وكانت أهم ثغور الدولة الصليبية ، وقد شبهها ابن جبير فى العظم بالقسطنطينية التى لم يرها .

ثم علم أن مركبا فرنجيا على وشك الابحار من مدينة صور الى بجاية بتونس ، فذهب الى صور يريد السفر ، غير أنه استصغر المركب ، فرجع الى عكا بحرا ، واكترى هناك مكانا فى سفينة جنوية ، قصدها مسينة بصقلية ، فأبحرت به يوم الخميس ١٠ رجب (١٨ أكتوبر سنة ١١٨٤) . وكانت تلك السفينة من سفن الحج التى أنشأتها المدن الايطالية لنقل الحاج من المسلمين والنصارى .

وقد ذكر ابن جبير أن حجاج النصارى كانوا يعرفون باسم البلغريين ، وهو تعريب حرفى تقريبا للكلمة اللاتينية (Peregrini)، أو الايطالية(Pellegrini) ، ومعناها الحاج فى هاتين اللغتين ، كما قرر ابن جبير أن كلا من المسلمين والنصارى المسافرين اتخذ من السفينة مكانا مستقلا ، وأن السفينة نفسها كانت كالمدينة الجامعة ، بها كل ما يحتاج اليه المسافر من خبز وماء وفاكهة ، حتى البصل والثوم والجبن .

وقد ذكر ابن جبير أيضا بصدد هذا السفر أن عددا من حجاج المسلمين والنصارى توفى على ظهر السفينة ، فقذفوا فى البحر ، وورثهم رائس المركب ، اذ كانت العادة أنه لا سبيل لوارث الميت الى ميراثه اذا مات فى البحر .

استغرقت تلك السفينة فى سفرها الى مسينة شهرين ، وكان أقصاه فى العادة خمسة عشر يوما ، فأرست على الشاطىء الصقلى يوم ٤ رمضان سنة ٥٨٠ (٩ ديسمبر ١١٨٤) بعد عناء ورياح وأمواج كادت تذهب بها أكثر من مرة ، وقد تطلب ذلك كله مهارة وصبرا فى قيادة السفينة وابدال ما تكسر من شرعها وقلاعها فى عرض البحر ، مما وصفه ابن جبير فى دقة وتفصيل ، فجاء ما كتبه فى هذا الصدد

وثيقة فى شرح فنون البحر فى العصور الوسطى .

وكانت جزيرة صقلية وجنوبى ايطاليا تابعة وقتئذ للنورمان (الشماليين) الذين أتوا فى أوائل القرن الحادى عشر من بلاد نورمانديا الى جنوبى ايطاليا مرتزقة يطلبون الخدمة فى حروب الدويلات اللمباردية والولايات البيزنطية هناك ، وقد برزت الحوادث من بينهم روبرت جويسكارد (Robert Guiscard) الذى تملك على تلك البلاد وأسس منها مملكة واحدة ، ثم امتدت أطماعه الى صقلية الاسلامية ، فانتزعها من ملوكها المتنازعين فيما بينهم بعد حروب دامت عشرين عاما .

ويعتبر النورمان فى التاريخ من طلائع النشاط الذى حرك أوربا الى دفع المسلمين عن فتوحهم المطلة على شواطىء البحر الأبيض المتوسط ، وقد ساهموا من بعد استيلائهم على صقلية فى الحروب الصليبية أيضا ، وهدموا الدولتين الزيرية والحمادية بافريقية ، واستولوا على المهدية سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨م) كما هددوا الدولة الفاطمية بمصر ، والدولة الموحدية بالأندلس .

والدولة النورمانية فى صقلية ، بحكم وضعها الجغرافى والزمنى ، هى فى الواقع أوج نماذج الحكم والادارة والثقافة والمدنية فى التاريخ الأوربى فى العصور الوسطى ، اذ التقت فيها المدنيات والثقافات الرومانية والمسيحية والبيزنطية ، والجرمانية والاسلامية والنورمانية ، وامتزجت هناك مزجا لم يتم مثله فى غيرها من البلاد .

ومن شواهد ذلك فى كتاب ابن جبير أن النورمان استخدموا ما وجدوه من أنظمة المسلمين فى حكم تلك البلاد ، واستأدوا بعض الزعماء فى ترويض الناس على الحكم النورمانى ، واستعملوا كثيرا من المسلمين على الوظائف ولا سيما فى البلاط الملكى ، وسلكوا أبناءهم فى الجيش ، وحافظوا على بعض الأسماء العربية للوظائف ، كما سمحوا للمسلمين بقسط من الحرية الدينية ، ولم ينسوا أن يقرنوا ذلك بشىء من الضغط المالى والتضييق على الحرية الشخصية لحمل من ضعف ايمانه على دخول المسيحية .

وقد جاء ما كتبه ابن جبير فى يومياته بصدد صقلية مصدقا لكل ذلك ، وكان ملكها غليام الثانى (William II) حينما نزل ابن جبير بعاصمتها بلارمة (Palermo) ، وهذا نص ما جاء بيوميات ابن جبير بشأن هذا الملك ومبلغ اعتماده على المسلمين : « وشأن ملكهم هذا عجيب فى حسن السيرة واستعمال المسلمين ، واتخاذ الفتيان المجابيب ، وهو كثير الثقة بالمسلمين ، وساكن اليهم فى أحواله والمهم من أشغاله ، حتى ان الناظر فى مطبخته رجل من المسلمين ، وله جملة من العبيد السود المسلمين ، وعليهم قائد منهم ، ووزراؤه وحجابه الفتيان ، وله منهم جملة كبيرة ، هم أهل دولته والمترسمون بخاصته .

« ومن عجيب شأنه المتحدث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية ، وأما جواريه وحظاياه فى قصره فمسلمات كلهن ، ومن أعجب ما حدثنا به خديمه يحيى بن فتيان الطراز ، أن الافرنجية من النصرانيات تقع فى قصره فتعود

مسلمة ، تعيدها الجوارى المذكورات مسلمة ، وأما فتيانه الذين هم عيون دولته وأهل عمالته فى ملكه فهم مسلمون ، ما منهم الا من يصوم الأشهر تطوعا وتأجرا » .

على أنه لا يجب أن يؤدى ذلك الوصف الخاص ببلاط الملك الى الاعتقاد بأن عامة المسلمين بصقلية النورمانية كانوا أسعد حالا من اخوانهم فى البلاد المسيحية الأخرى ، فعلى الرغم من الجوامع والمساجد والزوايا ، والأسواق والرباع الاسلامية التى شاهدها ابن جبير بمدن صقلية ، قد ضرب النورمان على المسلمين أتاوة تدفع مرتين فى العام الواحد ، وحالوا بينهم وبين تملك الأرض ، بل كان المسلمون الملحقون بخدمة غليام كلهم أو أكثرهم كاتم ايمانه ، وكذلك نسوة القصر من المسلمات ، فاذا حان وقت الصلاة وهم فى خدمة الملك ، خرجوا أفذاذا من حضرته ليقضوا صلاتهم ، وهذا فضلا عن أنه لم يكن للمسلمين جمعة ، بسبب الخطبة المحظورة عليهم .

ولقد زار ابن جبير من بلاد صقلية مدينة مسينة التى ارسى عندها أولا ، ثم شفلودى وثرمة وبالرمة وعلقمة وحصن الحمة وأطرابنش Trepanes) . ثم أقلع من ميناء المدينة الأخيرة يوم الاثنين ٢١ ذى الحجة سنة ٥٨٠ (٢٥ مارس سنة ١١٨٤) على ظهر سفينة جنوية الى الأندلس ، فوصل قرطاجنة يوم الخميس ١٥ المحرم سنة ٥٨١ ، وسافر منها الى مرسية ثم لبرالة ثم لورقة ثم المنصورة ثم قنالش (Caniles) حتى وصل الى منزله بغرناطة ٢٢ محرم سنة ٥٨١ (٢٥ ابريل سنة ١١٨٤) .

لم يقم ابن جبير بعد رحلته هذه بالأندلس طويلا ، بل رحل الى الشرق ثانية ، ويقال بصدد ذلك نقلا عن كتاب الاحاطة بتاريخ غرناطة للسان الدين ابن الخطيب ، انه لما شاع الخبر باستيلاء السلطان صلاح الدين على بيت المقدس من الصليبيين سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) ، عزم ابن جبير على الرحلة للحج ثانية ، فسافر من غرناطة فى ٩ ربيع الأول سنة ٥٨٥ هـ (٢٧ ابريل سنة ١١٨٩) .

ولست أعلم من تفصيلات تلك الرحلة سوى القصيدة التى نظمها ابن جبير ليشكو بها الى صلاح الدين عسف رجاله وأمنائه بالحجاج فى ميناء الاسكندرية ، وهى قصيدة طويلة فى ثلاثة وخمسين بيتا ، وقد أشار فيها ابن جبير الى الفتح الصلاحى لبيت المقدس . وقد رجع ابن جبير من رحلته هذه الى غرناطة فى ١٣ شعبان سنة ٥٨٧ (٥سبتمبر سنة ١١٩١) .

ثم انتقل ابن جبير عن غرناطة الى مالقة ، ثم سبتة ، ثم فاس ، وانقطع الى اسماع الحديث والتصوف وترويه الشعر . على أنه لم يقم بالمغرب طويلا تلك المرة أيضا ، بل رحل الى الشرق مرة ثالثة ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) . وسبب تلك الرحلة — حسبما ورد فى كتاب الاحاطة أيضا — أن زوجته عاتكة بنت الوزير الوقشى ماتت ، وكان كلفه بها جما ، فعظم وجده عليها ، فرحل الى مكة وجاور بها ، ثم انتقل عنها الى بيت المقدس ، وتحول بعد ذلك الى الاسكندرية ، فأقام يحدث ويؤخذ عنه حتى توفى بها فى شهر شعبان من السنة المتقدمة ، وكان قد جاوز السبعين .

ترجمة المصنف

من كتاب « الاحاطة بما تيسر من تاريخ غرناطة »
للوزير لسان الدين بن الخطيب ، رحمه الله

محمد بن أحمد بن جبير بن سعيد بن جبير ابن سعيد بن جبير بن محمد بن عبد السلام الكنانى الواصل الى الأندلس .

اوليته

دخل جده عبد السلام بن جبير الأندلسى ، فى طالعة بلج بن بشر بن عياض القشيرى ، فى محرم سنة ١٢٣ ، وكان نزوله بكورة شذونة ، وهو من ولد ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس * ، بلنسى الأصل ، ثم غرناطى الاستيطان ، شرّق وغرّب ، وعاد الى غرناطة .

حاله

كان أديبا بارعا ، شاعرا مجيدا ، سنيا فاضلا ، نزيه الهمة ، سرى النفس ، كريم الأخلاق ، أنيق الطريقة . كتب بسبتة عن أبى سعيد عثمان بن عبد المؤمن ، وبغرناطة عن غيره من ذوى قرابته ، وله فيهم أمداح كثيرة ، ثم نزع عن ذلك ، وتوجه الى المشرق ، وجرت بينه وبين طائفة من أدباء عصره مخاطبات ظهرت فيها براعته واجادته . ونظمه فائق ، ونثره بديع ، وكلامه المرسل سهل حسن ، وأغراضه جليلة ، ومحاسنه ضخمة ، وذكره شهير ، ورحلته نسيجة وحدها طارت كل مطار . رحمه الله .

رحلته

قال من عنى بخبره : رحل ثلاثا من الأندلس الى المشرق ، وحج فى كل واحدة منها . فصل عن غرناطة أول ساعة من يوم الخميس ، لثمان خلون من شوال سنة ٥٧٨ ، صحبة أبى جعفر بن حسان ، ثم عاد الى وطنه غرناطة لثمان بقين من محرم عام ٨١ ، ولقى بها أعلاما ° يأتى التعريف بهم فى مشيخته ، وصنف الرحلة المشهورة ، وذكر ما نقله فيها وما شاهده من عجائب البلدان وغرائب المشاهد وبدائع المصانع ٨ . وهو كتاب مؤنس ممتع ، مثير سواكن النفوس الى تلك المعالم .

ولما شاع الخبر المبهج بفتح « بيت » المقدس على يد السلطان الناصر صلاح

الدين يوسف بن أيوب بن شاذى [١٢] ، قوى عزمه على أعمال الرحلة الثانية . فتحرك [١٣] اليها من غرناطة يوم الخميس لتسع خلون من ربيع الأول من سنة ٥٨٥ ، ثم آب الى غرناطة يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من شعبان سنة ٨٧ ، وسكن غرناطة [١٤] ، ثم مالقة ، ثم سبتة ، ثم فاس ، منقطعا الى اسماع الحديث ، والتصوف ، وتروية ما عنده . وفضله بديع ، وورعه يتحقق [١٥] ، وأعماله الصالحة تذكر [١٦] .

ثم رحل الثالثة من سبتة بعد موت زوجه عاتكة ، أم المجد ، بنت الوزير أبى جعفر الوقشى [١٧] — وكان كلفه بها جما [١٨] ، فعظم وجده عليها — فوصل مكة ، وجاور بها طويلا ، ثم بيت المقدس ، ثم تحول لمصر [١] والاسكندرية ، فأقام يحدث ، ويؤخذ عنه الى أن لحق بربه .

مشيخته

روى بالأندلس عن أبيه ، وأبى الحسن بن محمد بن أبى العيش ، وأبى عبد الله بن أحمد ابن عروس ، وابن الأصيلى [٢] ، وأخذ العربية عن أبى الحجاج [٣] بن يسعون ، وبسبتة عن أبى عبد الله بن عيسى التميمى السبتى .

وأجاز له أبو الوليد بن سبكة [٤] ، وأبو ابراهيم اسحاق بن ابراهيم الغسانى التونسى ، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى التميمى السبتى [٥] ، وأبو حفص عمر بن عبد المجيد بن عمر [٦] القرشى الميانشى [٧] نزيل مكة ، وأبو جعفر أحمد بن على القرطبى الفنكى [٨] ، وأبو الحجاج يوسف بن أحمد بن على بن ابراهيم بن محمد البغدادى ، وصدر الدين أبو محمد عبد اللطيف الخجندى [٩] رئيس الشافعية بأصبهان . وببغداد العالم الواعظ [١٠] المستبحر ، نادرة الفلك ، أبو [١١] الفرج — وكناه أبا الفضائل [١٢] ابن الجوزى — وحضر بعض مجالسه الوعظية ، فشاهد [١٣] رجلا ليس من عمرو ولا زيد ، وفى جوف الفرا كل الصيد [١٤] . وبدمشق أبو الحسن أحمد * بن حمزة بن على بن عبد الله بن عباس السلمى الجوارى [١] ، وأبو سعيد عبد الله بن محمد بن أبى عصرون ، وأبو الطاهر بركات [٢] الخشوعى وسمع عليه ، وعماد الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد الأصبهانى ، من أيمة الكتاب [٣] ، وأخذ عنه بعض كلامه وغيره ، وأبو القاسم عبد الرحمن بن الحسين بن الأخضر بن على بن عساكر وسمع عليه ، وأبو الوليد اسماعيل بن على بن ابراهيم ، والحسين بن هبة الله بن محفوظ بن نصر الربعى [٤] ، وعبد الرحمن بن اسماعيل بن أبى سعيد الصوفى ، وأجازوا له ، وبحران [٥] المتكلم الصوفى العارف أبو البركات حيان بن عبد العزيز ، وابنه الحاذى حذوه .

من اخذ عنه

قال ابن عبد الملك * : أخذ عنه أبو اسحاق ابن مهيب ، وابن الواعظ ، وأبو [٦] تمام بن اسماعيل ، وأبو الحسن بن نصر بن فاتح بن عبد الله البجائى ، وأبو الحسن الشارى [٧] ، وأبو سليمان بن حوط الله ، وأبو زكريا ،

وأبو بكر يحيى بن محمد بن أبى الغمر ، وأبو عبد الله بن حسين بن مجبر ، وأبو العباس بن عبد المؤمن البنانى ، وأبو محمد ابن الحسن اللوابى بن تامتيت ، وابن محمد الموروري ، وأبو عمرو بن سالم ، وعثمان بن سفيان بن أشقر التميمى التونسى .

وممن روى عنه بالاسكندرية : رشيد الدين أبو محمد عبد الكريم بن عطاء الله ، وبمصر رشيد الدين بن عطار ، وفخر القضاة ابن الجباب * ، وابنه جمال القضاة .

تصانيفه

منها نظمه ، قال ابن عبد الملك : وقفت منه على مجلد يكون على قدر ديوان أبى تمام حبيب بن أوس ، وجزء سماه « نتيجة وجد الجوانح فى تأبين القرين الصالح » فى مراثى زوجه أم المجد ، وجزء سماه « نظم الجمان فى التشكى من اخوان الزمان » ، وله ترسيل بديع ، وحكم مستجادة ، وكتاب رحلته . وكان أبو الحسن الشارى يقول : انها ليست من تصانيفه ، وانما قيد معانى ما تضمنته ، فتولى ترتيبها وتنضيد معانيها بعض الآخذين عنه على ما تلقاه والله أعلم .

شعره

من ذلك القصيدة الشهيرة التى نظمها وقد شارف المدينة المكرمة طيبة ، على ساكنها من الله أفضل الصلوات وأزكى التسليم

أقول وآنست بالليل نارا
لعل سراج الهدى قد أنارا

والا فما بال أفق الدجى
كأن سنا البرق فيه استطار

ونحن من الليل فى حندس
فما باله قد تجلى نهارا

وهذا نسيم شذا المسك قد
أعير أم المسك منه استعارا

وكانت رواحلنا تشتكى
وجاها فقد سبقتنا ابتدارا

وكنا شكونا عناء السرى
فعدنا نبارى سراع المهارا

أظن النفوس قد استشعرت
بلوغ هوى تخذته شعارا

بشائر صبح السرى آذنت
بأن الحبيب تدانى مزارا

جرى ذكر طيبة ما بيننا
فلا قلب فى الركب الا وطارا

حنينا الى أحمد المصطفى
وشوقا يهيج الضلوع استعارا

ولاح لنا أحد مشرقا
بنور من الشهداء استنارا *

فمن أجل ذلك ظل الدجى
يحل عقود النجوم انتثارا

ومن ذلك الترب طار النسيم
نشرا ، وعم الجهات انتشارا

ومن طرب الركب حث الخطى
اليها ونادى البدار البدارا

ولما حللنا فناء الرسول
نزلنا بأكرم خلق [9] جوارا
وحين دنونا لفرض السلام
قصرنا الخطى ولزمنا الوقارا
فما نرسل اللحظ الا اختلاسا
ولا نرفع [10] الطرف الا انكسارا
ولا نظهر الوجد الا اكتتاما
ولا نلفظ القول [11] الا سرارا
سوى أننا لم نطق أعينا
بأدمعها غلبتنا انفجارا
وقفنا بروضة دار السلام [12]
نعيد السلام عليها [13] مرارا
ولولا مهابته في النفوس [14]
لثمنا الثرى والتزمنا [15] الجدارا
قضينا بزورته [1] حجنا
وبالعمرتين ختمنا اعتمارا
اليك اليك نبي الهدى
ركبت البحار وجبت [2] القفارا
وفارقت أهلي ولا منة
ورب كلام يجر [3] اعتذارا
وكيف نمن على من به
نؤمل للسيئات اغتفارا
دعاني اليك هوى كامن
أثار من الشوق ما قد أثارا
فناديت لبيك داعي الهدى
وما كنت عنك أطيق اصطبارا
ووطنت نفسي بحكم [4] الهوى
عليّ وقلت رضيت اختيارا

أخوض الدجى وأروض الـ
ـسرى ولا أطعم النوم الا غرارا
ولو كنت لا أستطيع السبيل
لطرت ولو لم أصادف مطارا
وأجدر من نال منك الرضى
محب ثراك على البعد ثارا [5]
عسى لحظة منك لي في غد
تمهد لي في الجنان القرارا [6]
فما ضل من بسراك [7] اهتدى
ولا ذل من بذراك استجارا

وفي غبطة من منّ الله عليه بحج بيته ، وزيارة قبر نبيه صلى الله عليه وسلم ، يقول :

هنيئا لمن حج بيت الهدى
وحط عن النفس أوزارها
وان [9] السعادة مضمونة [10]
لمن حج طيبة أو زارها

وفي مثل ذلك يقول :

اذا بلغ المرء [11] أرض الحجاز
فقد نال أفضل ما أمّ له [12]
وان [13] زار قبر نبي الهدى
فقد أكمل الله ما أمله

وقال في [1] تفضيل المشرق :

لا يستوي شرق البلاد وغربها
الشرق حاز الفضل باستحقاق
أنظر ترى للشمس [2] عند طلوعها
زهوا يعجب [3] بهجة الاشراق

وانظر لها عند الغروب كهيئة
صفراء تعقب ظلمة الآفاق

وكفى بيوم طلوعها من غربها
أن تؤذن الدنيا بعزم [4] فراق

وقال فى الوصايا :

عليك بكتمان المصائب واصطبر
عليها فما أبقى الزمان شقيقا

كفاك بشكوى الناس اذ ذاك أنها [5]
تسر عدوا أو تسوء صديقا

وقال :

ومصانع المعروف فلتة غافل [6]
ان لم تضعها فى محل عاقل

كالنفس فى شهواتها ان لم تكن
وقفا لها عادت بضر عاجل

نثره

من حكمه قوله : ان شرف الانسان فبشرف واحسان ، وان فاق فبفضل [7] وارفاق ، ينبغى أن يحفظ الانسان لسانه كما يحفظ الجفن انسانه ، فرب كلمة تقال تحدث عثرة لا تقال ، كم كست فلتات الألسنة الحداد من ورائها ملابس الحداد [8] ، نحن فى زمان لا يحظى [9] فيه بنفاق الا من عامل بنفاق [10] .

شغل الناس عن الطريق بزخارف الأعراض ، فمخوا [11] الصدور عنها والاعراض . آثروا دنيا هى أضغاث أحلام ، وكم هفت فى حبها من أحلام ، أطالوا [12] فيها آمالهم [13] ، وقصروا أعمالهم ، ما بالهم لم يتفرغوا [14] لغيرها ! ما لهم فى غير ميدانها استباق ، ولا لسوى هداها اشتياق [1] .

تالله لو كشف الأسرار ، لما كان هذا الاسرار ، لسهرت العيون ، وتفجرت من شئونها الجفون [2] ، فلو [3] أن عين البصيرة من سنتها هابة ، لرأت جميع [4] ما فى الدنيا ريحا هابة ، ولكن استولى العمى على البصائر [5] ، ولا يعلم الانسان ما اليه صائر . أسأل الله هداية سبيله ، ورحمة تورد نسيم الفردوس وسلسبيله ، انه الحنّان المنّان ، لا رب سواه .

ومنها : فلتات الهبات [6] أشبه شيء بفلتات الشهوات : منها نافع لا يعقب ندما ، ومنها ضار [7] يبقى فى النفس ألما . فضرر الهبة [8] وقوعها عند من لا يعتقد لحقها أداء ، وربما أثرت عنده اعتداء ، وضرر الشهوات [9] ان لم توافق [10] ابتداء ، فتصيير لمتبيعها [11] داء ، مثلها كمثل المسكر يلتذ صاحبه بحلاوة [12] جناه ، فاذا صحا [13] يعرف ما قد جناه ، وعكس [14] هذه القضية هى [15] الحالة المرضية

مولده : ببلنسية سنة ٥٣٩ ، وقيل بشاطبة سنة ٥٤٠ [16] .

وفاته : توفى بالاسكندرية ليلة الأربعاء التاسع [17] والعشرين لشعبان سنة ١١٤

ترجمة المصنف

من تاريخ مصر الكبير المقفى
للشيخ تقى الدين احمد المقريزى رحمة الله

محمد بن أحمد بن جبير بن محمد بن جبير ابن سعيد بن جبير بن سعيد بن جبير بن سعيد بن جبير بن محمد بن مروان بن عبد السلام بن مروان بن عبد السلام بن جبير ، الداخل الى الأندلس ، من ولد ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، أبو الحسين بن أبى جعفر الكنانى الأندلسى البلنسى .

مولده : ليلة السبت عاشر ربيع الأول سنة ٥٤٠ ببلنسية ، وقيل فى مولده غير ذلك .

وسمع من أبيه بشاطبة ، ومن أبى عبد الله الأصيلى ، وأبى الحسن بن أبى العيش ، وأخذ عنه القراءات ، وعنى بالأداب فبلغ الغاية فيه ، وتقدم فى صناعة القريض وصناعة الكتابة ، ونال بها دنيا عريضة ، ثم رفضها وزهد فيها ، وحدث بكتاب الشفاء [1] عن أبى عبد الله محمد بن عيسى التميمى السبتى ، عن القاضى عياض ، وتوجه الى الحج ، ودخل بغداد والشام ، وسمع بهما .

وقدم مصر ، فسمع منه الحافظان أبو محمد المنذرى ، والحافظ أبو الحسين يحيى بن على القرشى ، وتوفى فى يوم الأربعاء السابع والعشرين من شعبان سنة ٦١٤

ترجمة المصنف

من الباب الخامس من كتاب
« نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب »
للشيخ احمد المقرى رحمه الله

ومنهم — يعنى من الراحلين الى المشرق من الأندلس — « أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير » الكنانى ، صاحب الرحلة ، وهو من ولد ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، أندلسى شاطبى بلنسى ، مولده ليلة السبت عاشر ربيع الأول سنة ٥٤٠ ببلنسية ، وقيل فى مولده غير ذلك .

وسمع من أبيه بشاطبة ، ومن أبى عبد الله الأصيلى ، وأبى الحسن بن أبى العيش ، وأخذ عنه القراءات ، وعنى بالأدب فبلغ الغاية فيه ، وتقدم فى صناعة القريض والكتابة .

ومن شعره قوله — وقد دخل الى بغداد ، فاقتطع غصنا نضيرا من أحد بساتينها ، فذوى فى يده — :

لا تغترب عن وطن
واذكر تصاريف النوى

أما ترى الغصن اذا
ما فارق الأصل ذوى

وقال رحمه الله يخاطب الصدر الخجندى :

يا من حواه الدين فى عصره
صدرا يحل العلم فيه فؤاد

ماذا يرى سيدنا المرتضى
فى زائر يخطب منه الوداد

لا يبتغى منه سوى أحرف
يعتدها أشرف زخر يفاد

ترسمها أنمله مثل ما نمق
زهر الروض كف العهاد

فى رقعة كالصبح أهدى لها
يد المعالى مسك ليل المداد

اجازة يورثنيها العلى
جائزة تبقى وتفنى البلاد

يستصحب الشكر خديما لها
والشكر للامجاد أسنى عتاد

فأجابه الصدر الخجندى :

لك الله من خاطب خلتى
ومن قابس يجتدى سقط زندى

أجزت له ما أجازوه لى
وما حدثوه وما صح عندى

وكاتب هذى السطور التى
تراهن عبد اللطيف الخجندى

ورافق ابن جبير فى هذه الرحلة أبو جعفر أحمد بن حسان بن أحمد بن الحسن القضاعى وأصله من أندة من عمل بلنسية ، رحل معه فأديا الفريضة ، وسمعا بدمشق عن أبى

الطاهر الخُشُوعى ، وأجاز لهما أبو سعيد بن أبى عصرون ، وأبو محمد القاسم بن عساكر وغيرهما ، ودخلا بغــداد ، وتجولا مدة ، ثم قفلا جميعا الى المغرب ، فسمع منهما به بعض ما كان عندهما .

وكان أبو جعفر هذا متحققا بعلم الطب ، وله فيه تقييد مفيد ، مع المشاركة الكاملة فى فنون العلم ، وكتب عن السيد أبى سعيد بن عبد المؤمن ، وجده لأمه القاضى أبو محمــد عبد الحق ابن عطية . وتوفى أبو جعفر هذا بمراكش سنة ٨ أو ٥٩٩ ولم يبلغ الخمسين فى سنه ، رحمه الله .

رجع الى ابن جبير : قال لسان الدين فى حقه : انه من علماء الأندلس بالفقه والحديث والمشاركة فى الآداب ، وله الرحلة المشهورة ، واشتهرت فى السلطان الناصر صلاح الدين ابن أيوب له قصيدتان احداهما أولها :

أطلت على أفقك الزاهر
سعود من الفلك الدائر

ومنها قوله :

رفعت مغارم مكس الحجاز
بانعمك الشامل الغامر

وآمنت أكنــاف تلك البلاد
فهال السبيل على العابر

وسحب أياديك فياضــة
على وارد وعلى صادر

فكم لك بالشرق من حامد
وكم لك بالغرب من شاكر

والأخرى منهما فى الشكوى بابن شكر ، الذى كان آخــذ المــكس من النــاس فى الحجاز :

وما نال الحجاز بكم صلاحا
وقد نالته مصر والشآم

ومن شعره :

أخلاء هذا الزمان الخئــون
توالت عليهم حروف العلل

قضيت التعجب من بابهم
فصرت أطالع باب البدل

وقوله :

غــريب تذكر أوطــانه
فهيَّج بالذكر أشــجانه

يحل عرى صبره بالأسى
ويعقد بالنجم أجفــانه

وقال رحمه الله لما رأى البيت الحرام ، زاده الله شرفا :

بدت لى أعلام بيت الهدى
بمكة والنور باد عليــه

فأحرمت شوقا له بالهــوى
وأهديت قلبى هديا اليه

وقوله يخاطب من أهدى له موزا :

يامهدى الموز تبقى
وميمــه لك فاء

وزايه عن قــريب
لمن يعــاديك تاء

وقال رحمه الله :

قد ظهــرت فى عصرنا فرقة
ظهورها شؤم على العصر

لا تقتدي في الدين الا بها
سن ابن سينا وأبو نصر [٣]

وقال :

ياوحشة الاسلام من فرقة
شاغلة أنفسها بالسفه
قد نبذت دين الهدى خلفها
وادعت الحكمة والفلسفه

وقال :

ضلت بأفعالها الشنيعه
طائفة عن هدى الشريعة
ليست ترى فاعلا حكيما
يفعل شيئا سوى الطبيعه

وكان انفصاله ، رحمه الله ، من غرناطة ، بقصد الرحلة المشرقية ، أول ساعة من يوم الخميس الثامن لشوال سنة ٥٧٨ ، ووصل الاسكندرية يوم السبت التاسع والعشرين من ذي [١] القعدة الحرام من السنة . فكانت اقامته على متن البحر من الأندلس الى الاسكندريه ثلاثين يوما ، ونزل البر الاسكندراني في الحادي والثلاثين ، وحج رحمه الله ، وتجول في البلاد ، ودخل الشام والعراق والجزيرة وغيرها

وكان رحمه الله — كما قال ابن الرقيق — من أعلام العلماء العارفين بالله . كتب في أول أمره عن السيد أبي سعيد بن عبد المؤمن صاحب غرناطة ، فاستدعاه لأن يكتب عنه كتابا ، وهو على شرابه ، فمد يده اليه بكأس ، فأظهر الانقباض ، وقال . ياسيدي ما شربتها قط ، فقال : والله لتشربن منها سبعا .

فلما رأى العزيمة شرب سبع أكؤس ، فملأ له السيد الكأس من دنانير سبع مرات ، وصب ذلك في حجره ، فحمله الى منزله ، وأضمر أن يجعل كفارة شربه الحج بتلك الدنانير ، ثم رغب للسيد وأعلمه أنه حلف بأيمان ، لا خروج له عنها ، أنه يحج في تلك السنة ، فأسعفه ، وباع ملكا له تزوّد به ، وأنفق تلك الدنانير في سبيل البر .

ومن شعره في جارية تركها بغرناطة :

طول اغتراب وبرح شوق
لا صبر والله لي عليه
اليك أشكو الذي ألاقي
ياخير من يشتكى اليه
ولي بغرناطة حبيب
قد غلق الرهن في يديه
ودعته وهو بارتماض
يظهر لي بعض ما لديه
فلو ترى طل نرجسيه
ينهل في ورد وجنتيه
أبصرت درا على عقيق
من دمعه فوق صفحتيه

وله رحله مشهورة بأيدي الناس .

ولما وصل بغداد تذكر بلده :

سقى الله باب الطاق صوب غمامة
ورد الى الأوطان كل غريب [١]
(انتهى)

وقال في رحلته في حق دمشق : جنة المشرق ، ومطلع حسنه المؤنق المشرق ... الخ .

قال العلامة بن جابر الوادى آشى ، بعد ذكره وصف ابن جبير لدمشق ، ما نصه : ولقد أحسن فيما وصف منها وأجاد ، وتوق الأنفس للتطلع على صورتها بما أفاد : هذا ولم تكن له بها اقامة فيعرب عنها بحقيقة علامة ، وما وصف ذهبيات أصيلها وقد حان من الشمس غروب ، ولا أزمان فصولها المنوعات ، ولا أوقات سرورها المهنآت ، وقد اختصر من قال ألفيتها كما تصف الألسن ، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ لأعين . انتهى .

رجع الى كلام ابن جبير ، فنقول : ثم ذكر فى وصف الجامع أنه من أشهر جوامع الاسلام حسنا واتقان بناء ، وغرابة صنعة ، واحتفال تنميق وتزيين ... الخ ثم مد النفس فى وصف الجامع ، وما به من العجائب .

ثم قال بعد عدة أورق مانصه : وعن يمين الخارج من باب جرون ، فى جدار البلاط الذى أمامه ، غرفة ، ولها هيئة طاق كبير ، الخ .

***

وحكى ابن سعيد وغيره أن غرناطة تسمى دمشق الأندلس ، لسكنى أهل دمشق الشام بها عند دخولهم الأندلس ، وقد شبهوها بها لما رأوها كثيرة المياه والأشجار ، وقد أطل عليها جبل الثلج ، وفى ذلك يقول ابن جبير صاحب الرحلة :

يادمشق العرب هاذ
يك لقد زدت عليها
تحتك الأنهار تجرى
وهى تنصب اليها

قال ابن سعيد : أشار ابن جبير الى أن غرناطة فى مكان مشرف ، غوطتها تحتها تجرى فيها الأنهار ، ودمشق فى وهدة تنصب اليها الأنهار ، وقد قال الله تعالى فى وصف الجنة « تجرى من تحتها الأنهار » ، انتهى .

***

رجع الى ابن جبير رحمه الله ، ومن شعره قوله :

اياك والشهوة فى ملبس
والبس من الأثواب أسمالها

تواضع الانسان فى نفسه
أشرف للنفس وأسمى لها

وقال :

تنزه عن العوراء مهما سمعتها
صيانة نفس ، فهو بالحر أشبه

اذا أنت جاوبت السفيه مشاتما
فمن يتلقى الشتم بالشتم أسفه

وقال :

أقول وقد حان الوداع وأسلمت
قلوب الى حكم الأسى ومدامع

أيارب أهلى فى يديك وديعة
وما عدمت صونا لديك الودائع

وقال أبو عبد الله بن الحاج ، المعروف بمدغليس ، صاحب الموشحات يمدح ابن جبير المذكور :

لأبي الحسين مكارم لو أنها
عدت لما فرغت ليوم المحشر

وله عليّ فضائل قد قصرت
عن بعض نعماها [٣] عظام الأبحر

وقال ابن جبير من قصيدة مطلعها :

ياوفود الله فزتم بالمنا
فهنيئا لكم أهل منى

قد عرفنا عرفات بعدكم
فلهذا برّح الشوق بنا

نحن في الغرب ويجري ذكركم
بغروب الدمع يجري هتّنا

ومنها :

فنناديه على شحط النوى
من لنا يوما فقلبت ملنا

سر بنا ياحادي الركب عسى
أن نلاقي يوم جمع سر بنا [١]

ما دعا داعي النوى لما دعا
غير صب شفّه برح العنا

شم لنا البرق اذا لاح وقل
جمع الله بجمع شملنا

علنا نلقى خبالا منكم
بلذيذ الذكر وهنا علّنا

لو حنا الدهر علينا لقضى
باجتماع بكم بالمنحنى

لاح برق موهنا من نحوكم
فلعمري ما هنّا العيش هنّا

أنتم الأحباب نشكو بعدكم
هل شكوتم بعدنا من بعدنا

وله رحمه الله قصيدة مطولة أولها [٣] :

لعل بشير الرضى والقبول
يعلل بالوصل قلب الخليل

وله أخرى أنشدها عند استقباله المدينة المشرفة ، على صاحبها الصلاة وأتم السلام ، وهي ثلاثة وثلاثون بيتا من الغر ، أولها :

أقول وآنست بالليل نارا
... (الأبيات الثلاثة)

وكان أبو الحسين بن جبير المترجم به قد نال بالأدب دنيا عريضة ، ثم رفضها وزهد فيها .

***

وقال صاحب الملتمس في حقه : الفقيه الكاتب أبو الحسين بن جبير ، ممن لقيته وجالسته كثيرا ، ورويت عنه ، وأصله من شاطبة ، وكان أبوه أبو جعفر من كتابها ورؤسائها ، ذكره ابن [٣] اليسع في تاريخه . ونشأ أبو الحسين على طيقة أبيه ، وتولع بغرناطة فسكن بها .

قال : ومما أنشدنيه لنفسه قوله يخاطب أبا عمران الزاهد باشبيلية :

أبا عمران قد خلفت قلبي
لديك وأنت أهل للوديعه

صحبت بك الزمان أخا وفاء
فها هو قد تنمر للقطيعه

قال : وكان من أهل المروءات ، عاشقا في قضاء الحوائج ، والسعي في حقوق الاخوان ، والمبادرة لايناس الغرباء ، وفي ذلك يقول :

يحسب النـاس بأني متعب
في الشفاعات وتكليف الورى

والذي يتعبهـم من ذاك لي
راحة في غيرها لن أفكرا

وبودي لو أقضي العمر في
خدمة الطلاب حتى في الكرى

قال : ومن أبدع ما أنشده ، رحمه الله ، أول رحلته :

طال شـوقي الى بقاع ثلاث
لا تشد الرحال الا اليها

ان للنفس في سماء الأماني
طائرا لا يحوم الا عليها

قص منه الجناح فهو مهيض
كل يوم يرجو الوقوع لديها

وقال :

اذا بلغ العبد أرض الحجاز ... البيتين .

وعاد ، رحمه الله ، الى الأندلس بعد رحلته الأولى التي حل فيها دمشق والموصل وبغداد ، وركب الى المغـرب من عـكا مع الافرنج ، فعطب في خليج صقلية الضيق ، وقاسى شدائد الى أن وصل الأندلس سـنة ٥٨١ ، ثم أعاد المسـير الى المشرق بعـد مدة الى أن مات بالاسكندرية كما تقدم .

ومن شعره أيضا :

لي صـديق خسرت فيه ودادي
حين صارت سلامتي منـه ربحا

حسن القول سيىء الفعل كالجز
ار سمى وأتبع القول ذبحا

وحدث ، رحمه الله ، بكتاب « الشفاء » عن أبي عبد الله محمـد بن عيسى التميمي ، عن القاضي عياض . ولما قدم مصر سمـع منـه الحافظان أبو محمد المنذري ، وأبو الحسين يحيى بن علي القرشي .

وتوفي ابن جبير بالاسكندرية يوم الأربعاء السابع والعشرين من شعبـان سـنة ٦١٤ ، والدعاء عند قبره مستجاب ، قاله ابن الرقيق رحمـه الله . وقال ابن الرقيق : في السـنة بعدها .

وقال أبو الربيع بن سالم : أنشدني أبو محمد عبد الله بن التميمي البجائي — ويعرف بابن الخطيب — لأبي الحسـين بن جُبير ، وقال وهو مما كتب به اليّ من الديار المصرية في رحلته الأخيرة ، لما بلغـه ولايتي قضـاء سبتة ، وكان أبو الحسين سكنها قبل ذلك ، وتوفيت هنالك زوجته بنت أبي جعفر الوقشي فدفنها بها :

بسبتة لي سكن في الثرى
وخل كريم اليها أتى

فلو أستطيع ركبت الهوى
فزرت بها الحي والميتا

وأنشد ابن جبير ، رحمه الله ، لنفسه عند صدوره عن الرحلة الأولى الى غرناطة ، أو في [٢] طريقها قوله :

لي نحو أرض المنى من شرق أندلس
شوق يؤلف بين الماء والقبس

الى آخرها . ومن شعره قوله :

ياخير مولى دعاه عبد
أعمل في الباطل اجتهاده

هب لي ما قد علمت مني
ياعالم الغيب والشهاده

وقال رحمه الله :

واني لأوثر من أصطفي
وأغضي على زلة العاثر

وأهوى الزيارة ممن أحب
لأعتقد الفضل للزائر

وقال رحمه الله :

عجبت للمرء في دنياه تطمعه
في العيش والأجل المحتوم يقطعه

يمسي ويصبح في عشواء يخبطها
أعمى البصيرة والآمال تخدعه

يغتر بالدهر مسرورا بصحبته
وقد تيقن أن الدهر يصرعه

ويجمع المال حرصا لا يفارقه
وقد درى أنه للغير يجمعه

تراه يشفق من تضييع درهمه
وليس يشفق من دين يضيعه

وأسوأ الناس تدبيرا لعاقبة
من أنفق العمر فيما ليس ينفعه

وقال :

صبرت على غدر الزمان وجهده
وشاب لي السم الذعاف بشهده

وجربت اخوان الزمان فلم أجد
صديقا جميل الغيب في حال بعده

وكم صاحب عاشرته وألفته
فما دام لي يوما على حسن عهده

وكم غرني تحسين ظني به فلم
يضيء لي على طول اقتداحي لزنده

وأغرب من عنقاء في الدهر مغرب
أخو ثقة يسقيك صافي وده

بنفسك صادم كل أمر تريده
فليس مضاء السيف الا بحده

وعزمك جرد عند كل مهمة
فما نافع مكث الحسام بغمده

وشاهدت في الأسفار كل عجيبة
فلم أر من قد نال جدا بجده

فكن ذا اقتصاد في أمورك كلها
فأحسن أحوال الفتى حسن قصده

وما يحرم الانسان رزقا لعجزه
كما لا ينال الرزق يوما بكده

حظوظ الفتى من شقوة وسعادة
جرت بقضاء لا سبيل لرده

وقال :

الناس مثل ظروف حشوها صبر
وفوق أفواهها شيء من العسل

تغر ذائقها حتى اذا كشفت
له تبين ما تحويه من دخل [1]

وقال .

تغير اخوان هذا الزمان
وكل صديق عراه الخلل
وكانوا قديما على صحة
فقد داخلتهم حروف العلل
قضيت التعجب من أمرهم
فصرت أطالع باب البدل

وقد تقدم بيتان من هذه الثلاثة على وجه آخر اول ترجمة المذكور ، ورأيت بخط ابن سعيد البيتين على وجه آخر وهو قوله :

ثكلت أخلاء هذا الزمان
فعندى مما جنوه خلل
قضيت التعجب من شأنهم
فصرت أطالع باب البدل
انتهى .

ولابن جبير رحمه الله تعالى [1] :

من الله فاسأل [2] كل أمر تريده
فما يملك الانسان نفعا ولا ضرا
ولا تتواضع للولاة فانهم
من الكبر في حال تموج [3] بهم سكرا
واياك أن ترضى بتقبيل راحة
فقد قيل عنها [4] انها السجدة الصغرا

وهو نحو قول القائل :

أيها المستطيل بالبغى أقصر
ربما طأطأ الزمان الرؤوسا
وتذكر قول الاله تعالى
ان قارون كان من قوم موسى

وقال وقد شهد العيد بطندتة من قرى مصر [6] :

شهدنا صلاة العيد فى أرض غربة
بأجواز مصر والأحبة قد بانوا [7]
فقلت لخلى فى النوى جِدّ بمدمع [8]
فليس لنا الا المدامع قربان

وقال ابن جبير :

قد أحدث الناس أمورا فلا
تعمل بها انى امرؤ ناصح
فما جماع الخير الا الذى
كان عليه السلف الصالح

وقال [1] :

رب ان لم تؤتنى سعة
فاطو عنى فضلة العمُر
لا أحب اللبث فى زمن
حاجتى فيه الى البشر
فهم كسر لمنجبر
ما هم جبر لمنكسر

ولما وصل ابن جبير ، رحمه الله ، مكة ١٣ ربيع الآخر سنة ٥٧٩ ، أنشد قصيدته التى أولها :

بلغت المنى وحللت الحرم
فعاد شبابك بعد الهرم
فأهلا بمكة أهلا بها
وشكرا لمن شكره يلتزم

وهى طويلة ، وسيأتى بعضها .

وقال رحمه الله عند تحركه للرحلة الحجازية :

أقول وقد دعا للخير داع
حننت له حنين المستهام

حرام أن يلذّ لى اغتماض
ولم أرحل الى البيت الحرام

ولا طافت بى الآمال ان لم
أطف ما بين زمزم والمقام

ولا طابت حياة لى اذا لم
أزر فى طَيْبة خير الأنام

وأهديه السلام وأقتضيه
رضى يدنى الى دار السلام

وقال :

هنيئا لمن حج بيت الهدى ... (البيتين)

ولنختم ترجمته بقوله :

أحب النبى المصطفى وابن عمه
عليا وسبطيه وفاطمة الزهرا

همُ أهل بيت أذهب الرجس عنهم
وأطلعهم أفق [٢] الهدى أنجما زهرا

موالاتهم فرض على كل مسلم
وحبهم أسنى الذخائر للأخرى *

وما أنا للصحب الكرام بمبغض
فانى أرى البغضاء فى حقهم كفرا

همُ جاهدوا فى الله حقّ جهاده
وهم نصروا دين الهدى بالظبى نصرا

عليهم سلام الله ما دام ذكرهم
لدى الملأ الأعلى وأكرم به ذكرا

وقوله فى آخر الميمية :

نبى شفاعته عصمة
فيوم التنادى به يعتصم

عسى أن تجاب لنا دعوة
لديه فنكفى بها ما أهم

ويرعى لزواره فى غد
ذماما فما زال يرعى الذمم

عليه السلام وطوبى لمن
ألم بتربته فاستلم

أخى كم نتابع أهواءنا
ونخبط عشواءها فى الظلم

رويدك جرت فعج واقتصد
أمامك نهج الطريق الأعم

وتب قبل عض بنان الأسى
ومن قبل قرعك سن الندم

ومنها :

وقل رب هب رحمة فى غد
لعبد بسيمى العصاة اتسم

جرى فى ميادين عصيانه
مسيئا ودان بكفر النعم

فيارب صفحك عما جنى
ويارب عفوك عما اجترم

***

وقال المقرى [١] ، رحمة الله عليه ، فى الباب السابع من كتابه ما نصه : ومن الحكايات فى مروءة أهل الأندلس ، ماذكره صاحب

« الملتمس » فى ترجمة الكاتب الأديب الشهير أبى الحسين بن جبير صاحب الرحلة ، وقد قدمنا ترجمته فى الباب الخامس من هذا الكتاب ، وذكرنا هنالك أنه كان من أهل المروءات عاشقا [2] فى قضاء الحوائج ، والسعى فى حقوق الاخوان * ، وأنشدنا هنالك قوله « يحسب الناس بأنى متعب » .. الخ .

وقد ذكر ذلك كله صاحب « الملتمس » ، ثم قال (أعنى صاحب الملتمس) : ومن أغرب ما يحكى أنى كنت أحرص الناس على أن أصاهر قاضى غرناطة أبا محمد عبد المنعم ابن الفرس ، فجعلته (يعنى ابن جبير) الواسطة حتى تيسر ذلك ، فلم يوفق الله ما بينى وبين الزوجة ، فجئته وشكوت له دلك ، فقال : أنا ما كان القصد لى فى اجتماعكما ، ولكن سعيت جهدى فى غرضك ، وهاأنا أسعى أيضا فى افتراقكما اذ هو من غرضك .

وخرج فى الحين ، ففصل القضية ، ولم أر فى وجهه أولا ولا أخيرا عنوانا لامتنان ولا تصعيب . ثم انه طرق بابى ، ففتحت له ، ودخل وفى يده محفظة فيها مائة دينار مؤمنية ، فقال : ياابن أخى أعلم أنى كنت السبب فى هذه القضية ، ولم أشك أنك خسرت فيها ما يقارب هذا القدر الذى وجدته الآن عند عمك ، فبالله الا ما سرزتنى بقبوله

فقلت له : أنا ما أستحيى منك فى هذا الأمر ، والله ان أخذت هذا المال لأتلفنه فيما أتلفت فيه مال والدى من أمور الشباب ، ولا يحل لك أن تمكننى [1] به بعد أن شرحت لك أمرى .

فتبسم وقال : لقد احتلت فى الخروج عن المنة بحيلة ، وانصرف بماله . انتهى .

ثم قال صاحب الملتمس : وتذاكرنا يوما معه حالة الزاهد أبى عمران المارتلى ، فقال : صحبته مدة فما رأيت مثله ، وأنشدنى شعرين ما نسيتهما ، ولا أنساهما ما استطعت ، فالأول قوله :

الى كم أقول فلا أفعل
وكم ذا أحوم ولا أنزل

وأزجر عينى فلا ترعوى
وأنصح نفسى فلا تقبل

وكم ذا تعلل لى ويحها
بعلّ وسوف وكم تمطل

وكم ذا أؤمل طول البقا
وأغفل والموت لا يغفل

وفى كل يوم ينادى بنا
منادى الرحيل ألا فارحلوا

أمن بعد سبعين أرجو البقا
وسبع أتت بعدها تعجل

كأن بى وشيكا الى مصرعى
يساق بنعشى ولا أمهل

فياليت شعرى بعد السؤال
وطول المقام ، لما أنقل

والثانى قوله [1] :

اسمع أخى نصيحتى
والنصح من محض الديانه

لا تقربن الى الشهـا
دة والوسـاطة والأمانة

تسلم من ان تعزى لزو
ر أو فضول أو خيانه

قال : فقلت له : أراك لم تعمل بوصيته فى الوساطة ، فقال : ما ساعدتنى رقة وجهى على ذلك . انتهى .

***

وفى كتاب « رحلة العبدرى » ما صورته : قال : وأنشدنى (شيخنا أبو زيد) أيضا ، قال : أنشدنى أبو عمرو بن الشقر ، قال : أنشدنى الفقيه الزاهد ، المنقطع الى الله بمهجته ، أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكنانى بالاسكندرية لنفسه[٢] :

تأن [٣] فى الأمر لا تكن عجلا
فمن تأنى أصاب أو كادا

وكن بحبل الله الاله [٤] معتصما
تامن به بـغىَ كل من كادا

فمن رجاه فنال بغيته
عبدٌ مسىء بنفسه كادا

ومن تطل صحبـة الزمان له
يلق خطوبا به وأنكادا

وبنحوه له :

صن العقل [١] عن لحظة فى هوى
فان البصيرة طوع البصر

وغض جفونك [٢] عن عفـة
فان زناء العيون النظر

وأنشدنى أيضا بمثله :

أما فى الدهر معتبر
ففيه الصـفو والكدر

فسلنى [٣] عـن تقلبـه
فعند جهينـة الخبـر

صـحبناه الى أجـل
نراقبـه ونحتـذر

فياعجبـا لمرتحـل
ولا يدرى متى السفر

وقال العبـدرى أيضـا ، بعـد وصفـه الاسكندرية وعجائبها [٤] : ومن الأمر المستغرب والحال الذى أفصح عن قلة دينهم (يعنى أهل الاسـكندرية) أنهم يترصـون الحجاج ، ويجرعـونهم من بحر الاهانة الملح الأجاج ، ويأخـذون على وفدهم الطرق والفجـاج ، يبحثـون عمـا بأيديهم من مال ، ويأمرون بتفتيش النساء والرجال .

وقد رأيت من ذلك ، يوم ورودنا عليهم ، ما اشتد له عجبى ، وجعل الانفصـال عنهم غاية أربى . وذلك لما وصـل اليها الركب ، جاءت شرذمة [٥] من الحرس — لا حرس الله مهجتهم الخسيسـة ، ولا أعدم منهم لأسـد الآفات فريسة [٦] — فمدوا فى الحجاج أيديهم ، وفتشوا الرجال والنسـاء ، وألزموهم أنواعا من المظالم ، وأذاقوهم ألوانا من الهوان ، ثم استخلفوهم وراء ذلك كله .

وما رأيت هذه العـادة الذميمة ، والشيمة اللئيمة ، فى بلد [٧] من البلاد . ولا رأيت فى الناس أقسى قلوبا ، ولا أقل حياء ومروءة ،

ولا أكثر اعراضا عن الله سبحانه ، وجفاء لأهل دينه ، من أهل هذا البلد . نعوذ بالله من الخذلان ، فلو شاء لاعتدل المائل ، واتتبه الوسنان .

وكنت اذ رأيت فعل المذكورين ، ظننت أن ذلك أمر [٢] أحدثوه ، حتى حدثنى نور الدين أبو عبد الله بن زين الدين أبى الحسن يحيى ابن الشيخ وجيه الدين أبى على منصور بن عبد العزيز بن حباسة الاسكندرى ، بمدرسة جده [٣] المذكور ، حكاية اقتضت أن لهم فى هذه الفضائح سلفا غير صالح .

وذلك أنه حدثنى املاء من كتابه ، قال : حدثنى الشيخ الصالح أبو العباس أحمد بن عمر بن محمد السبتى الحميرى ، بثغر الاسكندرية سنة ٦٦٢ ، قال : حدثنى الشيخ الامام المحدث أبو الحسين [٤] محمد بن أحمد ابن جبير ، الكنانى الأندلسى [٥] ، سنة ٦١١ : أنه ورد الى الاسكندرية ، فى ركب عظيم عن المغاربة ، برسم الحج ، فأمر الناظر على البلاد بسد اليد فيهم التفتيش ، والبحث عما بأيديهم ، ففتش الرجال والنساء . وهتكت حرمة الحرم ، ولم يكن فيهم ابقاء على أحد .

قال : فلما جاءتنى النوبة — وكانت معى حرم — ذكرتهم بالله ووعظتهم ، فلم يعرجوا [٦] على قولى ، ولا التفتوا الى كلامى ، وفتشونى كما فتشوا غيرى . فاستخرت الله تعالى ، ونظمت هذه القصيدة ناصحا لأمير المسلمين صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ومذكرا له بالله فى حقوق المسلمين ، ومادحا له ، فقلت :

أطلت على أفقك [٧] الزاهر
سعود من الفلك الدائر

فأبشر فان رقاب العدى
تمد الى سيفك الباتر

وعما قليل يحل الردى
بكيدهم الناكث الغادر

وخصب الورى يوم يسقى [١]
الثرى سحائب من دمها الهامر

فكم لك من فتكة فيهم
حكت فتكة الأسد الخادر

كسرت صليبهم عنوة
فلله درك من كاسر

وغيرت آثارهم كلها
فليس لها الدهر من جابر

وأمضيت جدك فى غزوهم
فتعسا لجدهم العاثر

فأدبر ملكهم بالشآم
وولى كأمسهم الدابر [٢]

جنودك بالرعب منصورة
فناجز متى شئت أو صابر

فكلهم غارق هالك
بتيار عسكرك الزاخر

ثأرت لدين الهدى فى العدى
فآثرك الله من ثائر

وقمت بنصر اله الورى
فسماك بالملك الناصر

وتسهر جفنك فى حق من
سيرضيك فى جفنك الساهر

فتحت المقدس من أرضه
فعادت الى وصفها الطاهر

وجئت الى قدسه المرتضى
فخلصته من يد الكافر

وأعليت فيه منار الهدى
وأحييت من رسمه الداثر

لكم زخر الله هذى [3] الفتوح
من الزمن الأول الغابر

وخصك من بعد ما زرته
بها لاصطناعك فى الآخر

محبتكم ألقيت فى النفوس
بذكر لكم فى الورى طائر

فكم لهم عند ذكر الملوك
بمثلك من مثل سائر

رفعت مغارم أرض [4] الحجاز
بانعامك الشامل الغامر

(وآمنت أكناف تلك البلاد
فهان السبيل على العابر)

(وسحب أياديك فياضة
على وارد وعلى صادر)

فكم لك بالشرق من حامد
وكم لك فى الغرب [1] من شاكر

وكم بالدعاء لكم كل عام
بمكة من معلن جاهر

وكم بقيت حسبة فى الظلوم
وتلك الذخيرة فى الذاخر

يعنت حجاج بيت الاله [2]
ويسطو بهم سطوة الجائر

ويكشف عما بأيديهم
وناهيك من موقف صاغر

وقد أوقفوا بعدما كوشفوا
كأنهم فى يد الآسر

ويلزمهم حلفا باطلا
وعقبى اليمين على الفاجر

وان عرضت بينهم حرمة
فليس لها عنه من ساتر

أليس يخاف غدا عرضه
على الملك القادر القاهر

وليس على حرم المسلمين
بتلك المشاهد من غائر

ولا حاضر نافع زجره
فيا ذلة الحاضر الزاجر

ألا ناصح مبلغ نصحه
الى الملك الناصر الظافر [3]

ظلوم تضمن مال الزكاة
لقد تعست صفقة الخاسر

يسر الخيانة فى باطن
ويبدى النصيحة فى الظاهر

فأوقع به حادث الله
يقبح أحدوثة الذاكر

فمــا للمنــاكر من زاجر
سواك وبالعرف من آمر

وحاشاك ان لم تزل رسمها
فما لك فى الناس من عاذر

ورفعـك أمثـالها موسـع
رداء فخارك من ناشر

وآثرك العز تبغى بهـا
وتلك المآثر للآثر [4]

نذرت النصيحة فى حقكم
وحق الوفاء على الناذر

وحسبك أنطقنى بالقـريض
وما أبتغى صلة الشـاعر

ولا كان فيما مضى مكسبى
وبئس البضـاعة للتـاجر [1]

اذا الشعر صار شعار الفتى
فناهيك من لقب شـاهر

وان كان نظمى له ناذرا
فقد قيل لا حكم للنـاذر

ولـكنها خطرات الهـوى
تعـز ، فتغلب بالخاطر [2]

وأمنّا وقد زار تلك العلى
فقد فاز بالشرف البـاهر

وان كان منك قبول له
فتـلك الـكرامة للزائـر

ويكفيك سمعك من سامع
ويكفيـك لحظك للنـاظر

ويزهى عـلى الروض غِب الحيا
بمـا حاز من ذلك المـاطر

قلت : هكذا حدثنى أبو عبـد الله بهـذه الحكاية ، وقد وقعت فى كتابه مشهورة ، لم يذكر فيه الا ما أثبته ، وبالله التوفيق .

وأنشدنى أبو عبـد الله أيضـا ، عن أبى العباس المذكور ، عن ابن جبير ، قصيدة نظمها ارتجالا حين تراءت له مدينة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وهى هذه :

أقول وآنست ... الأبيات .

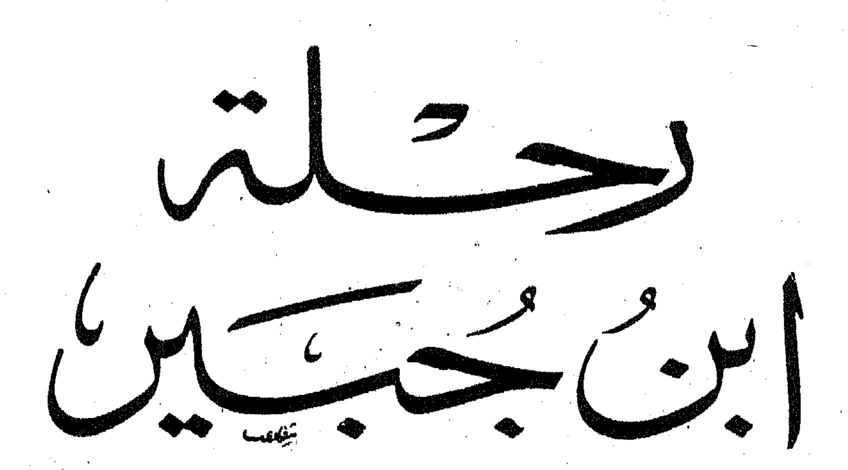
***

وقال على بن ظافر فى « بدائع البداية » [3] : أنبأنى المسكى : نزلت من القرافة لوداع الأجلّ أبى الحسين بن جبير ، فقال لى : كنت عـلى المجىء اليك ، فقلت : وهمة سيدى هى التى آتت بى ، فسألنى عن القرافة ، فقلت : هى موضع يصلح للخير والشر ، من طلب شـيئا وجده ، فقـال : خذ هـذه الحكاية ، كنت متفرجا فى مكان وبت به ، ثم أقبلت منـه بكرة ، فلقينى تلميذ لى فقال :

من أين أقبلت يامن لا نظير له
ومن هو الشمس والدنيا له فلك !

فأجبته مسرعا :

من موضع تعجب النساكَ خلوته
وفيه ستر على الفتاك ان فتكوا


رحلة
ابن جبير

وامر المسلمون بتنزيل أسبابهم ، ومافضل من أزودتهم ، وعلى ساحل البحر أعوان يتوكلون بهم ، وبحمل جميع ما أنزلوه الى الديوان . فاستدعوا واحدا واحدا ، وأحضر ما لكل واحد من الأسباب ، والديوان قد غص بالزحام .

فوقع التفتيش لجميع الأسباب ما دق منها وما جل ، واختلط بعضها ببعض ، وأدخلت الأيدى الى أوساطهم بحثا عما عسى أن يكون فيها ، ثم استحلفوا بعد ذلك هل عندهم غير ما وجدوا لهم أم لا ، وفى أثناء ذلك ذهب كثير من أسباب الناس ، لاختلاط الأيدى وتكاثر الزحام ، ثم أطلقوا بعد موقف من الذل والخزى عظيم . نسأل الله أن يعظم الأجر بذلك [٢] .

وهذه لا محالة من الأمور الملبَّس فيها على السلطان الكبير ، المعروف بصلاح الدين ، ولو علم بذلك — على مايؤثر عنه من العدل ، وايثار الرفق — لأزال ذلك ، وكفى الله المؤمنين تلك الخطة الشاقة ، واستؤدوا [٣] الزكاة على أجمل الوجوه . وما لقينا ببلاد هذا الرجل ، ما يلم به قبيح لبعض الذكر ، سوى هذه الأحدوثة التى هى من نتائج عمال الدواوين .

ذكر بعض اخبار الاسكندرية وآثارها

فأول ذلك حسن وضع البلد ، واتساع مبانيه [٤] ، حتى انا ماشاهدنا بلدا أوسع مسالك منه ، ولا أعلى مبنى ، ولا أعتق ولا أحفل منه ، وأسواقه فى نهاية من الاحتفال أيضا .

ومن العجب فى وضعه [٥] أنّ بناءه تحت الأرض كبنائها فوقها ، وأعتق وأمتن ، لأن الماء [٦] من النيل يخترق جميع ديارها وأزقتها تحت الأرض ، فتتصل الآبار بعضها ببعض ، ويمد بعضها بعضا .

وعاينا فيها أيضا من سوارى الرخام ، وألواحه كثرة وعلوا واتساعا [١] وحسنا ، ما لا يتخيل [٢] بالوهم ، حتى انك تلقى فى بعض الممرات [٣] بها سوارى يغص الجو بها صعودا لا يدرى ما معناها ، ولا لما كان أصل وضعها . وذكر لنا أنه كان عليها فى القديم مبان للفلاسفة [٤] خاصة ، ولأهل الرئاسة فى ذلك الزمان ، والله أعلم ، ويشبه أن يكون ذلك للرصد .

ومن أعظم ما شاهدناه من عجائبها «المنار» الذى قد وضعه الله عز وجل ، على يدى من سخر لذلك ، آية للمتوسمين [٥] ، وهداية للمسافرين ، لولاه ما اهتدوا فى البحر الى بر الاسكندرية ، يظهر [٦] على أزيد من سبعين ميلا . ومبناه فى غاية العتاقة والوثاقة طولا وعرضا ، يزاحم الجو سموا وارتفاعا ، يقصر عنه الوصف ، وينحسر دونه الطرف ، الخبر عنه يضيق ، والمشاهدة له تتسع . ذرعنا أحد جوانبه الأربعة [٧] ، فألفينا فيه نيفا وخمسين باعا ، ويذكر أن فى طوله أزيد من مائة وخمسين قامه .

وأما داخله فمرأى هائل ، اتساع معارج ومداخل [٨] وكثرة مساكن ، حتى ان المتصرف فيها ، والوالج فى مسالكها [٩] ، ربما ضل ،

بســـــم الله الرحمن الرحيـــم

اللهم صل على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار

ابتدىء بتقييدها يوم الجمعة ، الموفى ثلاثين لشهر شوال سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ، على متن البحر بمقابلة جبل شُلَيْر ، عرفنا الله السلامة بمنه .

وكان انفصال أحمد بن حسان ومحمد بن جبير من غرناطة — حرسها الله — للنية الحجازية المباركة — قرنها الله بالتيسير والتسهيل ، وتعريف الصنع الجميل — أول ساعة من يوم الخميس الثامن لشوال المذكور ، وبموافقة اليوم الثالث لشهر فبراير الأعجمي .

وكان الاجتياز على « جَيَّان » لقضاء بعض الأسباب ، ثم كان الخروج منها أول ساعة من يوم الاثنين التاسع عشر لشهر شوال المذكور ، وبموافقة اليوم الرابع [1] عشر لشهر فبراير المذكور أيضا .

وكانت مرحلتنا الأولى منها الى « حصن القبذاق » ، ثم منه الى « حصن قبرة » [2] ، ثم منه الى مدينة « استجة » ، ثم [3] منها الى « حصن أشونة » ، ثم منه الى «شَلَنْبَر» [4] ، ثم منه الى « حصن أركش » ، ثم منه الى قرية تعرف بقرية « النشمة » من قرى مدينة ابن السليم ، ثم منها الى « جزيرة طريف » ، وذلك يوم الاثنين السادس والعشرين من الشهر المؤرخ [5] .

فلما كان ظهر يوم الثلاثاء من اليوم الثاني من نزولنا [5] ، يسر الله علينا في عبور البحر الى « قصر مصمودة » تيسيرا عجيبا والحمد لله ، ونهضنا منه الى « سبتة » غدوة يوم الأربعاء الثامن والعشرين منه ، وألفينا بها مركبا للروم الجنويين مقلعا الى الاسكندرية — بحول الله عز وجل — فسهل الله علينا في الركوب فيه ، وأقلعنا ظهر يوم الخميس التاسع والعشرين منه ، وبموافقة الرابع والعشرين من فبراير المذكور ، بحول الله تعالى وعونه لا رب غيره .

وكان طريقنا في البحر محاذيا لبر الأندلس ، وفارقناه يوم الخميس السادس لذي القعدة بعده عندما حاذينا دانية . وفي صبيحة يوم الجمعة ، السابع من الشهر المذكور آنفا ، قابلنا بر جزيرة يابسة ، ثم يوم

السبت بعده قابلنا بجزيرة ميورقة ، ثم يوم الأحد بعده قابلنا جزيرة منورقة[2] ، ومن سبتة اليها نحو ثمانية مجار ، والمجرى مائة ميل .

وفارقنا بر هذه الجزيرة المذكورة ، وقام معنا بر جزيرة سردانية ، أول ليلة الثلاثاء الحادي عشر من الشهر المذكور ، وهو الثامن من مارس [3] ، دفعة واحدة على نحو ميل أو أقل ، وبين الجزيرتين سردانية ومنورقة [4] نحو الأربعمائة ميل ، فكان قطعا مستغربا فى السرعة ، وطرأ علينا من مقابلة البر فى الليل هول عظيم ، عصم الله منه بريح أرسلها الله تعالى فى الحين من تلقاء البر ، فأخرجنا عنه ، والحمد لله على ذلك .

وقام علينا نوء هال له البحر صبيحة يوم الثلاثاء المذكور ، فبقينا مترددين بسببه حول بر سردانية الى يوم الأربعاء بعده ، فأطلع الله علينا — فى حال الوحشة وانغلاق الجهات بالنوء ، فلا نميز شرقا [5] من غرب — مركبا للروم قصدنا الى أن حاذانا ، فسئل عن مقصده ، فأخبر أنه يريد حزيرة صقلية ، وأنه من قرطاجنة عمل مُرسية .

وقد كنا استقبلنا طريقه التى جاء منها من غير علم ، فأخذنا عند ذلك فى اتباع أثره — والله الميسر لا رب سواه — فخرج علينا طرف من بر سردانية المذكور ، فأخذنا فى الرجوع عودا على بدء ، الى أن وصلنا طرفا من البر المذكور يعرف [1] بقوسمركة — وهو مرسى معروف عندهم — فأرسينا به ظهر يوم الأربعاء المذكور والمركب المذكور معنا ، وبهذا الموضع المذكور أثر لبنيان قديم ، ذكر لنا أنه كان منزلا لليهود فيما سلف ، ثم انا أقلعنا منه ظهر يوم الأحد السادس عشر من الشهر المذكور .

وفى مدة مُقامنا بالمرسى المذكور ، جددنا فيه الماء والحطب والزاد ، وهبط واحد من المسلمين ، ممن يحفظ اللسان الرومى ، مع جملة من الروم الى أقرب المواضع المعمورة منا ، فأعلمنا أنه رأى جملة من أسرى المسلمين نحو الثمانين ، بين رجال ونساء ، يباعون فى السوق ، وكان ذلك عند وصول العدو — دمره الله — بهم من سواحل البحر ببلاد المسلمين ، والله يتداركهم برحمته .

ووصل الى المرسى المذكور ، يوم الجمعة الثالث من يوم أرسينا فيه ، سلطان الجزيرة المذكورة مع جملة من الخيل ، فنزل اليه أشياخ المركب من الروم ، واجتمعوا به ، وطال مقامهم عنده ، ثم انصرفوا وانصرف الى موضع سكناه . وتركنا المركب المذكور فى موضع ارسائه ، بسبب مغيب بعض أصحابه فى البلد ، عند هبوب الريح الموافقة لنا فى [2] ليلة الثلاثاء الثامن عشر لذى القعدة المذكور ، والخامس عشر من شهر مارس المذكور أيضا ، وفى الربع الباقى منها ، فارقنا بر سردانية المذكورة ، وهو بر طويل جرينا بحذائه نحو المائتى ميل ، ومنتهى دور الجزيرة — على ما ذكر لنا — الى أزيد من خمسمائة ميل ، ويسر الله علينا فى التخلص من بحرها لأنه أصعب ما فى الطريق ، والخروج منه يتعذر فى أكثر الأحيان ، والحمد لله على ذلك .

وفي ليلة الأربعاء بعدها ، من أولها ، عصفت علينا ريح هال لها البحر ، وجاء معها مطر ترسله الرياح بقوة كأنه شآبيب سهام . فعظم الخطب ، واشتد الكرب ، وجاءنا الموج من كل مكان أمثال الجبال السائرة ، فبقينا على تلك الحال الليل كله ، واليأس قد بلغ منا مبلغه ، وارتجينا مع الصباح فرجة تخفف عنا بعض ما نزل بنا .

فجاء النهار — وهو يوم الأربعاء التاسع عشر من ذي القعدة [1] — بما هو أشد هولا ، وأعظم كربا ، وزاد البحر اهتياجا ، واربدت [2] الآفاق سوادا ، واستشرت الريح والمطر عصوفا حتى لم يثبت معها شراع . فلُجِئ الى استعمال الشرع الصغار ، فأخذت الريح أحدها ومزقته ، وكسرت الخشبة التي ترتبط الشرع فيها — وهي المعروفة عندهم بالقَرّيّة — فحينئذ تمكن اليأس من النفوس ، وارتفعت أيدي المسلمين بالدعاء الى الله عز وجل ، وأقمنا على تلك الحال النهار كله . فلما جن الليل فترت الحال بعض فتور ، وسرنا في هذه الحالة كلها بريح [3] الصواري سيرا سريعا .

وفي ذلك اليوم حاذينا بر جزيرة صقلية ، وبتنا [4] تلك الليلة — التي هي ليلة الخميس التالية لليوم المذكور — مترددين بين الرجاء واليأس . فلما أسفر الصبح نشر الله رحمته ، وأقشعت السحاب ، وطاب الهواء ، وأضاءت الشمس ، وأخذ في السكون البحر ، فاستبشر الناس ، وعاد الأنس ، وذهب اليأس . والحمد لله الذي أرانا عظيم قدرته ، ثم تلافى بجميل رحمته ولطيف رأفته ، حمدا يكون كفاء لمنته ونعمته .

وفي هذا الصباح المذكور ظهر لنا بر صقلية ، وقد أجزنا أكثره ، ولم يبق منه الا الأقل . وأجمع من حضر من رؤساء البحر من الروم ، ومن شاهد الأسفار والأهوال في البحر من المسلمين ، أنهم لم يعاينوا قط مثل هذا الهول فيما سلف من أعمارهم ، والخبر عن هذه الحالة يصغر في خبرها . وبين البرين المذكورين — بر سردانية وبر صقلية — نحو الأربعمائة ميل ، واستصحبنا من بر صقلية أزيد من مائتي ميل ، ثم ترددنا بحذائه بسبب سكون الريح .

فلما كان عصر يوم الجمعة ، الحادي والعشرين من الشهر المذكور ، أقلعنا من الموضع الذي كنا أرسينا فيه ، وفارقنا البر المذكور أول تلك الليلة ، وأصبحنا يوم السبت وبيننا وبينه مسافة بعيدة ، وظهر لنا اذ ذاك الجبل الذي كان فيه البركان ، وهو جبل عظيم مصعد في جو السماء قد كساه الثلج ، وأعلمنا أنه يظهر في البحر مع الصحو على أزيد من مسيرة مائة ميل .

فأخذنا ملججين ، وأقرب ما نؤمله من البر الينا جزيرة اقريطش ، وهي من جزائر الروم ، ونظرها الى صاحب القسطنطينية ، وبينها وبين جزيرة صقلية مسيرة سبعمائة ميل ، والله كفيل بالتيسير والتسهيل بمنه . وفي طول هذه الجزيرة ، جزيرة اقريطش المذكورة ، نحو من ثلثمائة ميل .

وفي ليلة الثلاثاء الخامس والعشرين من الشهر المذكور ، وهو الثاني والعشرون [1] من شهر مارس ، حاذينا البر المذكور تقديرا لا عيانا ، وفي صبيحة اليوم المذكور فارقناه متوجهين لقصدنا ، وبين هذه الجزيرة المذكورة وبين الاسكندرية ستمائة ميل أو نحوها .

وفي صبيحة يوم الأربعاء ، السادس والعشرين منه ، ظهر لنا البر الكبير المتصل بالاسكندرية — المعروف ببر الغرب [2] — وحاذينا منه موضعا يعرف بجزائر الحمام [3] ، على ما ذكر لنا ، وبينه وبين الاسكندرية نحو الأربعمائة ميل على ما ذكر لنا ، فأخذنا في السير والبر المذكور منا يمينا .

وفي صبيحة يوم السبت، التاسع والعشرين من الشهر المذكور ، أطلع الله علينا البشرى بالسلامة [4] بظهور منار الاسكندرية على نحو العشرين ميلا ، والحمد على ذلك حمدا يقتضي المزيد من فضله وكريم صنعه . وفي آخر الساعة الخامسة منه ، كان ارساؤنا بمرسى البلد ، ونزولنا اثر ذلك ، والله المستعان فيما بقي بمنه .

فكانت اقامتنا على متن البحر ثلاثين يوما ، ونزلنا في الحادي والثلاثين · لأن ركوبنا اياه كان يوم الخميس التاسع والعشرين من شهر شوال ، ونزولنا عنه في يوم السبت التاسع والعشرين من شهر ذي القعدة ، وبموافقة السادس والعشرين من مارس والحمد لله على ما من به من التيسير والتسهيل ، وهو سبحانه المسئول بتتميم النعمة علينا ببلوغ الغرض من المقصود ، وتعجيل الاياب الى الوطن على خير وعافية ، انه المنعم بذلك لا رب سواه .

وكان نزولنا بها [1] بفندق يعرف بفندق الصفّار ، بمقربة من الصبّانة .

شهر ذي الحجة من السنة المذكورة

أوله يوم الأحد ثاني يوم نزولنا بالاسكندرية . فمن أول ما شاهدنا فيها ، يوم نزولنا ، أن طلع أمناء الى المركب ، من قبل [2] السلطان بها ، لتقييد جميع ما جلب فيه .

فاستحضر جميع من كان فيه من المسلمين ، واحدا واحدا ، وكتبت أسماؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم ، وسئل كل واحد عما لديه من سلع أو ناض ، ليؤدي زكاة ذلك كله ، دون أن يبحث عما حال عليه الحول من ذلك أو ما لم يحل . وكان أكثرهم متشخصين لأداء الفريضة ، لم يستصحبوا سوى زاد لطريقهم ، فلزموا [3] أداء زكاة ذلك دون أن يسأل هل حال [4] عليه حول أم لا .

واستنزل أحمد بن حسان منا ، ليسأل عن أنباء المغرب وسلع المركب ، فطيف به مرقبا على السلطان أولا ، ثم على القاضي ، ثم على أهل الديوان ، ثم على جماعة من حاشية السلطان ، وفي كل يستفهم ثم يقيد [1] قوله ، فخلى سبيله .

وامر المسلمون بتنزيل أسبابهم ، ومافضل من أزودتهم ، وعلى ساحل البحر أعـوان يتوكلون بهم ، وبحمل جميـع ما أنزلوه الى الديوان . فاستدعوا واحدا واحدا ، وأحضر ما لكل واحد من الأسباب ، والديوان قـد غص بالزحام .

فوقع التفتيش لجميع الأسباب ما دق منها وما جل ، واختلط بعضها ببعض ، وأدخلت الأيدي الى أوساطهم بحثا عما عسى أن يكون فيها ، ثم استحلفوا بعد ذلك هل عندهم غير ما وجدوا لهم أم لا ، وفى أثنـاء ذلك ذهب كثير من أسباب النـاس ، لاختلاط الأيدى وتكاثر الزحام ، ثم أطلقوا بعـد موقف من الذل والخزى عظيـم . نسـأل الله أن يعظم الأجر بذلك [٢] .

وهذه لا محالة من الأمور الملبّس فيها على السلطان الكبير ، المعروف بصلاح الدين ، ولو علم بذلك — على مايؤثر عنه من العدل ، وايثـار الرفـق — لأزال ذلك ، وكفى الله المؤمنين تلك الخطـة الشـاقة ، واستؤدوا [٣] الزكاة على أجمل الوجوه . وما لقينا ببلاد هذا الرجل ، ما يلم به قبيح لبعض الذكر ، سوى هذه الأحـدوثة التى هى من نتـائج عمـال الدواوين .

ذكر بعض اخبار الاسكندرية وآثارها

فأول ذلك حسن وضع البلد ، واتسـاع مبانيه [٤] ، حتى انا ماشاهدنا بلدا أوسع مسالك منه ، ولا أعلى مبنى ، ولا أعتق ولا أحفـل منه ، وأسواقه فى نهاية من الاحتفال أيضا .

ومن العجب فى وضـعه [٥] أن بناءه تحت الأرض كبنـائها فوقها ، وأعتق وأمتن ، لأن الماء [٦] من النيل يخترق جميع ديارها وأزقتها تحت الأرض ، فتتصل الآبار بعضها ببعض ، ويمد بعضها بعضا .

وعاينا فيها أيضـا من سـوارى الرخام ، وألواحه كثرة وعلوا واتساعا [١] وحسنا ، ما لا يتخيـل [٢] بالوهم ، حتى انك تلقى فى بعض الممرات [٣] بها سوارى يغص الجو بها صـعودا لا يدرى ما معنـاها ، ولا لما كان أصـل وضعها . وذكر لنا أنه كان عليها فى القديم مبان للفلاسفة [٤] خاصة ، ولأهل الرئاسـة فى ذلك الزمان ، والله أعلم ، ويشبه أن يـكون ذلك للرصد .

ومن أعظم ما شاهدناه من عجائبها «المنار» الذى قد وضعه الله عز وجل ، على يدى من سخر لذلك ، آية للمتـوسمين [٥] ، وهـداية للمسافرين ، لولاه ما اهتدوا فى البحر الى بر الاسكندرية ، يظهر [٦] على أزيد من سبعين ميلا . ومبنـاه فى غاية العتاقة والوثاقة طولا وعرضا ، يزاحم الجو سموا وارتفاعا ، يقصر عنـه الوصف ، وينحسر دونه الطرف ، الخبر عنه يضيق ، والمشاهدة له تتسع . ذرعنا أحد جوانبه الأربعة [٧] ، فألفينا فيـه نيفا وخمسين باعا ، ويـذكر أن فى طـوله أزيد من مائة وخمسين قامة .

وأما داخله فمرأى هائل ، اتسـاع معارج ومداخل [٨] وكثرة مساكن ، حتى ان المتصرف فيها ، والوالج فى مسالكها [٩] ، ربما ضل ،

وبالجملة لا يحصلها القول ، والله لا يخليه من دعوة الاسلام ويبقيه . وفى أعلاه مسجد موصوف بالبركة ، يتبرك الناس بالصلاة فيه ، طلعنا اليه يوم الخميس الخامس لذى الحجة المؤرخ ، وصلينا فى المسجد المبارك المذكور ، وشاهدنا من شأن ميناه عجبا لا يستوفيه وصف واصف

ومن مناقب هذا البلد ، ومفاخره العائدة فى الحقيقة الى سلطانه ، المدارس والمحارس الموضوعة فيه [1] لأهل الطلب والتعبد ، يفدون من الأقطار النائية ، فيلقى كل واحد منهم مسكنا يأوى اليه ، ومدرسا يعلمه الفن الذى يريد تعليمه ، واجراء يقوم به فى جميع أحواله .

واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين ، حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا الى ذلك ، ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم ، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم ، وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر فى مصالحهم التى يشيرون بها من علاج وغذاء .

وقد رتب أيضا فيه أقوام ، برسم الزيارة للمرضى الذين يتنزهون عن الوصول للمارستان المذكور من الغرباء خاصة ، وينهون الى الأطباء أحوالهم ، ليتكفلوا بمعالجتهم .

ومن أشرف هذه المقاصد أيضا أن السلطان عين لأبناء السبيل من المغاربة خبزتين لكل انسان [2] فى كل يوم ، بالغا ما بلغوا ، ونصب لتفريق ذلك ، كل يوم ، انسانا أمينا من قبله ، فقد ينتهى فى اليوم الى ألفى خبزة أو أزيد بحسب القلة والكثرة ، هكذا دائما .

ولهذا كله أوقاف من قبله ، حاشى ما عينه من زكاة العين لذلك ، وأكد على المتولين لذلك ، متى نقصهم من الوظائف المرسومة شىء ، أن يرجعوا الى صلب ماله . وأما أهل بلده ففى نهاية من الترفيه واتساع الأحوال ، لا يلزمهم وظيف البتة .

ولا فائد للسلطان بهذا البلد سوى الأوقاف المحبسة ، المعينة من قبله بهذه الوجوه ، وجزية اليهود والنصارى ، وما يطرأ من زكاة العين خاصة ، ليس له [3] منها سوى ثلاثة أثمانها ، والخمسة الأثمان مضافة للوجوه المذكورة .

وهذا السلطان الذى سن هذه السنن المحمودة ، ورسم هذه الرسوم [4] الكريمة — على عدمها فى المدة البعيدة — هو صلاح الدين ابو المظفر يوسف بن أيوب وصل الله صلاحه وتوفيقه .

ومن أعجب ما اتفق للغرباء ، أن بعض من يريد التقرب بالنصائح الى السلطان ، ذكر أن أكثر هؤلاء يأخذون جراية الخبز ، ولا حاجة لهم بها ، رغبة فى المعيشة ، لأنهم لا يصلون الا بزاد يقلهم ، فكاد يؤثر سعى هذا المتنصح .

فلما كان فى أحد الأيام ، خرج السلطان المذكور ، على سبيل التطلع خارج بلده ، فتلقى منهم جماعة قد لفظتهم الصحراء المتصلة بطرابلس ، وهم قد ذهبت رسومهم عطشا

وجوعا ، فسألهم عن وجهتهم ، واستطلع ما لديهم ، فأعلموه أنهم قاصدون بيت الله الحرام ، وأنهم ركبوا البر ، وكابدوا مشقة صحرائية

فقال : لو وصل هؤلاء — وهم قد اعتسفوا هذه المجاهل التى اعتسفوها ، وكابدوا من الشقاء ما كابدوه — وبيد كل واحد منهم زنته ذهبا وفضة ، لوجب أن يشاركوا ، ولا يقطعوا عن العادة التى أجريناها لهم ، فالعجب ممن يسعى على مثل هؤلاء ، ويروم التقرب الينا بالسعى فى قطع ما أوجبناه لله عز وجل خالصا لوجهه . ومآثر هذا السلطان ومقاصده فى العدل ، ومقاماته فى الذب عن حوزة الدين ، لا تحصى كثرة .

ومن الغريب أيضا ، فى أحوال هذا البلد ، تصرف الناس فيه بالليل كتصرفهم بالنهار فى جميع أحوالهم ، وهو أكثر بلاد الله مساجد ، حتى ان تقدير الناس لها يطفف ، فمنهم المكثر والمقلل : فالمكثر ينتهى فى تقديره الى اثنى عشر ألف مسجد ، والمقلل ما دون ذلك لا ينضبط : فمنهم من يقول ثمانية آلاف ، ومنهم من يقول غير ذلك .

وبالجملة فهى كثيرة جدا ، تكون منها الأربعة والخمسة فى موضع ، وربما كانت مركبة وكلها بأيمة مرتبين من قبل السلطان : فمنهم من له فوق ذلك ، ومنهم من له دونه . وهذه منقبة كبيرة من مناقب السلطان ، الى غير ذلك مما يطول ذكره من المآثر التى يضيق عنها الحصر .

ثم كان الانفصال عنها — على بركة الله تعالى وحسن عونه — صبيحة يوم الأحد ، الثامن لذى الحجة المذكور ، وهو الثالث لابريل . فكانت مرحلتنا منه الى موضع يعرف بدمنهور ، وهو بلد مسور ، فى بسيط من الأرض أفيح ، متصل من الاسكندرية اليه الى مصر ، والبسيط كله محرث ، يعمه النيل بفيضه ، والقرى فيه يمينا وشمالا لا تحصى كثرة .

ثم فى اليوم الثانى ، وهو يوم الأثنين ، أجزنا النيل بموضع يعرف بصا ، فى مركب تعدية ، واتصل سيرنا الى موضع يعرف ببرمة ، فكان مبيتنا بها ، وهى قرية كبيرة فيها السوق وجميع المرافق .

ثم بكرنا منها يوم الثلاثاء ، وهو يوم عيد النحر من سنة ثمان وسبعين وخمسمائة المؤرخة ، فشاهدنا الصلاة بموضع يعرف بطندتة [1] ، وهى من القرى الفسيحة الآهلة ، فأبصرنا بها مجمعا حفيلا ، وخطب الخطيب بخطبة بليغة جامعة ، واتصل سيرنا الى موضع يعرف بسبك ، وكان مبيتنا بها ، واجتزنا فى ذلك اليوم على موضع حسن يعرف بمليج ، والعمارة متصلة ، والقرى منتظمة فى طريقنا كلها .

ثم بكرنا منها يوم الأربعاء بعده ، فمن أحسن بلد مررنا عليه موضع يعرف بقليوب ، على ستة أميال من القاهرة ، فيه الأسواق الجميلة ، ومسجد جامع كبير حفيل البنيان ، ثم بعده المنية ، وهو موضع أيضا حفيل ، ثم

منها الى القاهرة ، وهي مدينة السلطان الحفيلة المتسعة ، ثم منها الى مصر المحروسة .

وكان دخولنا فيها اثر صلاة العصر من يوم الأربعاء ، وهو الحادى عشر من ذى الحجة المذكور ، والسادس من ابريل ، عرفنا الله فيها الخير والخيرة ، وتمم علينا صنعه الجميل بالوصول [٣] الى الغرض المأمول ، ولا أخلانا من التيسير والتسهيل بعزته وقدرته ، انه على ما يشاء قدير .

وفي يوم الأربعاء المذكور ، أجزنا القسم الثانى من النيل ، في مركب تعدية أيضا بموضع يعرف بدجوة ، وذلك وقت الغداة الصغرى ، وكان نزولنا فى مصر بفندق أبى الثناء ، فى زقاق القناديل ، بمقربة من جامع عمرو بن العاص ، رضى الله عنه ، فى حجرة كبيرة على باب الفندق المذكور .

ذكر مصر والقاهرة وبعض آثارها العجيبة

فأول ما نبدأ بذكره منها ، الآثار والمشاهد المباركة ، التى ببركتها يمسكها الله عز وجل . فمن ذلك المشهد العظيم الشان ، الذى بمدينة القاهرة ، حيث رأس الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما [١] ، وهو فى تابوت فضة مدفون تحت الأرض ، قد بنى عليه بنيان حفيل يقصر الوصف عنه ، ولا يحيط الادراك به ، مجلل بأنواع الديباج ، محفوف بأمثال [٢] العمد الكبار شمعا أبيض ، ومنه ما هو دون ذلك ، قد وضع أكثرها فى أتوار فضة خالصة ، ومنها مذهبة ، وعلقت عليه قناديل فضة ، وحف أعلاه كله بأمثال التفافيح ذهبا ، فى مصنع شبيه الروضة يقيد الأبصار حسنا وجمالا ، فيه من أنواع الرخام المجزع ، الغريب الصنعة البديع الترصيع ، ما لا يتخيله المتخيلون ، ولا يلحق أدنى وصفه الواصفون .

والمدخل الى هذه الروضة على مسجد على مثالها في التأنق والغرابة ، حيطانه كلها رخام على الصفة المذكورة ، وعن يمين الروضة المذكورة وشمالها بيتان [٣] من كليهما المدخل اليها ، وهما أيضا على تلك الصفة بعينها ، والأستار البديعة الصنعة من الديباج معلقة على الجميع .

ومن أعجب ما شاهدناه ، فى دخولنا الى هذا المسجد المبارك ، حجر موضوع فى الجدار الذى يستقبله الداخل ، شديد السواد والبصيص ، يصف الأشخاص كلها كأنه المرآة الهندية الحديثة الصقل . وشاهدنا من استلام الناس للقبر المبارك ، واحداقهم به ، وانكبابهم عليه ، وتمسحهم بالكسوة التى عليه ، وطوافهم حوله مزدحمين داعين باكين ، متوسلين الى الله سبحانه ببركة التربة المقدسة ، ومتضرعين ما [١] يذيب الأكباد ، ويصدع الجماد ، والأمر فيه أعظم ، ومرأى الحال أهول ، نفعنا الله ببركة ذلك المشهد الكريم .

وانما وقع الالماع بنبذة من صفته ، مستدلا [٢] على ما وراء ذلك ، اذ لا ينبغى لعاقل أن يتصدى لوصفه ، لأنه يقف موقف التقصير والعجز . وبالجملة فما أظن فى الوجود كله

مصنعا أحفل منه ، ولا مرأى من البناء أعجب ولا أبدع ، قدّس الله العضو الكريم الذي فيه بمنه وكرمه .

وفي ليلة اليوم المذكور ، بتنا بالجبانة المعروفة بالقرافة ، وهي [3] أيضا احدى عجائب الدنيا لما تحتوى عليه من مشاهد الأنبياء ، صلوات الله عليهم ، وأهل البيت رضوان الله عليهم ، والصحابة والتابعين والعلماء والزهاد والأولياء ، ذوى الكرامات الشهيرة والأنباء الغريبة .

وانما ذكرنا منها ما أمكنتنا مشاهدته : فمنها قبر ابن النبى صالح ، وقبر روبيل بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم خليل الرحمن ، صلوات الله عليهم أجمعين ، وقبر آسية امرأة فرعون رضى الله عنها ، ومشاهد أهل البيت رضى الله عنهم أجمعين : مشاهد أربعة عشر من الرجال ، وخمس من النساء ، وعلى كل واحد منها بناء حفيل ، فهى بأسرها روضات بديعة الاتقان ، عجيبة البنيان ، قد وكل بها قَوَمَة يسكنون فيها ويحفظونها ، ومنظرها منظر عجيب ، والجرايات متصلة لقوامها فى كل شهر

ذكر مشاهد أهل البيت رضى الله عنهم

مشهد على بن الحسين بن على رضى الله عنه ، ومشهدان لابنى جعفر بن محمد الصادق رضى الله عنهم ، ومشهد القاسم بن محمد بن جعفر الصادق بن محمد بن على زين العابدين المذكور رضى الله عنهم ، ومشهدان لابنيه الحسن والحسين رضى الله عنهما ، ومشهد ابنه عبد الله بن القاسم [1] رضى الله عنه ، ومشهد ابنه يحيى بن القاسم ، ومشهد على ابن عبد الله بن القاسم رضى الله عنهم ، ومشهد أخيه عيسى بن عبد الله رضى الله عنهما ، ومشهد يحيى بن الحسن بن زيد بن الحسن رضى الله عنهم ، ومشهد محمد بن عبد الله بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين ابن على [2] رضى الله عنهم ، ومشهد جعفر بن محمد من ذرية على بن الحسين رضى الله عنهم ، وذكر لنا أنه كان ربيب مالك رضى الله عنه .

مشاهد الشريفات العلويات رضى الله عنهم

مشهد السيدة أم كلثوم ابنة القاسم بن محمد بن جعفر رضى الله عنهم ، ومشهد السيدة زينب ابنة يحيى بن زيد بن على بن الحسين [4] رضى الله عنهم ، ومشهد أم كلثوم ابنة محمد بن جعفر الصادق رضى الله عنهم ، ومشهد السيدة أم عبد الله بن القاسم بن [5] محمد رضى الله عنهم .

وهذا ذكر ما حصله العيان من هذه المشاهد العلوية المكرمة ، وهى أكثر من ذلك ، وأخبرنا أن فى جملتها مشهدا مباركا لمريم ابنة لعلى [5] بن أبى طالب رضى الله عنه ، وهو مشهور ، لكنا [6] لم نعاينه .

وأسماء أصحاب هذه المشاهد المباركة انما [7] تلقيناها من التواريخ الثابتة عليها ، مع تواتر الأخبار بصحة ذلك ، والله أعلم بها . وعلى كل واحد منها بناء حفيل ، فهى بأسرها

روضات بديعة الاتقان ، عجيبة البنيان ، قد وكل بها قومة يسكنون فيها ويحفظونها ، ومنظرها منظر عجيب ، والجرايات متصلة لقوامها في كل شهر .

ذكر مشاهد بعض اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرافة المذكورة ومشاهد التابعين والايمة والعلماء والزهاد والأولياء المشتهرين بالكرامات ، رضي الله عنهم اجمعين

والمقيد يبرأ من القطع بصحة [1] ذلك ، وانما رسم من أسمائهم ما وجده مرسوما في تواريخها ، وبالجملة فالصحة غالبة لا يشك فيها ان شاء الله عز وجل :

مشهد معاذ بن جبل رضي الله عنه ، مشهد عقبة بن عامر الجهني حامل راية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مشهد صاحب برده صلى الله عليه وسلم ، مشهد أبي الحسن صائغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مشهد سارية الجبل رضي الله عنه [2] ، مشهد محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ، مشهد أولاده رضي الله عنهم ، مشهد أحمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، مشهد أسماء ابنة أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ، مشهد ابن للزبير [3] بن العوام رضي الله عنهما ، مشهد عبد الله بن حذافة السهمي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مشهد ابن حليمة رضيع [4] رسول الله صلى الله عليه وسلم .

مشاهد الأيمة العلماء الزهاد رضي الله عنهم اجمعين

مشهد الامام الشافعي رضي الله عنه ، وهو من المشاهد العظيمة احتفالا واتساعا ، وبني بازائه مدرسة لم يعمر [5] بهذه البلاد مثلها ، لا أوسع مساحة ولا أحفل بناء ، يخيل لمن يتطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته ، بازائها الحمام الى غير ذلك من مرافقها ، والبناء فيها حتى الساعة ، والنفقة عليها لا تحصى ، تولى ذلك بنفسه الشيخ الامام الزاهد العالم ، المعروف بنجم الدين الخبوشاني [6] ، وسلطان هذه الجهات صلاح الدين يسمح له بذلك كله ، ويقول [7] زد احتفالا وتأنقا ، وعلينا القيام بمؤنة ذلك كله . فسبحان الذي جعله صلاح دينه كاسمه .

ولقينا هذا الرجل الخبوشاني المذكور تبركا بدعائه ، لأنه قد كان ذكر لنا أمره بالأندلس ، فألفيناه في مسجده بالقاهرة ، وفي البيت الذي يسكنه داخل المسجد المذكور ، وهو بيت ضيق الفناء ، فدعا لنا وانصرفنا ، ولم نلق من رجال مصر سواه .

مشهد المزني صاحب الامام الشافعي رضي الله عنه ، مشهد أشهب صاحب مالك رضي الله عنه ، مشهد عبد الرحمن بن القاسم صاحب مالك رضي الله عنهما ، مشهد أصبغ صاحب مالك رضي الله عنهما ، مشهد القاضي عبد الوهاب رضي الله عنه ، مشهد عبد الله بن عبد الحكم ، ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم رضي الله عنهما [1] ، مشهد الفقيه الواعظ الزاهد

أبى الحسن الدينَوري رضى الله عنه ، مشهد بنان العابد رضى الله عنه ، مشهد الرجل الصالح العابد الزاهد المعروف بصاحب الابريق ، وقصته عجيبة فى الكرامة ، مشهد أبى مسلم الخولانى رضى الله عنه ، مشهد المرأة الصالحة المعروفة بالعيناء رضى الله عنها ، مشهد الروذبارى رضى الله عنه ، مشهد محمد ابن مسعود بن محمد بن هارون الرشيد — المعروف بالسبتى رضى الله عنه ، مشهد الرجل الصالح مقبل الحبشى رضى الله عنه ، مشهد ذى النون بن ابراهيم المصرى رضى الله عنه ، مشهد القاضى الأنبارى ، قبر الناطق الذى سمع عند وضعه فى لحده يقول : « اللهم أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين » [2] رضى الله عنه مشهد المروس — ولها أثر من الكرامة ، فى حال جلوتها على زوجها ، لم [3] يسمع أعجب منه — ومشهد الصامت الذى يحكى عنه أنه لم يتكلم أربعين سنة ، مشهد العصافيرى مشهد عبد العزيز بن أحمد بن على بن الحسن الخوارزمى ، مشهد الفقيه الواعظ الأفضل [4] الجوهرى ، ومشاهد أصحابه بازائه رضى الله عنهم أجمعين ، مشهد شقران شيخ ذى النون المصرى ، مشهد الرجل الصالح المعروف بالأقطع المغربى ، مشهد المقرىء ورش ، مشهد الطبرى ، مشهد شيبان الراعى .

والمشاهد الكريمة بها أكثر من أن تضبط بالتقييد ، أو تتحصل بالاحصاء ، وانما ذكرنا منها ما أمكنتنا مشاهدته . وبقبلة القرافة المذكورة بسيط متسع ، يعرف بموضع قبور الشهداء ، وهم الذين استشهدوا مع سارية • رضى الله عن جميعهم . والبسيط المذكور مسنَّم كله للعيان ، على مثال أسنمة القبور دون بناء .

ومن العجب أن القرافة المذكورة كلها مساجد مبنية ، ومشاهد معمورة ، يأوى اليها الغرباء والعلماء والصلحاء والفقراء ، والاجراء على كل موضع منها متصل من قبلّ السلطان فى كل شهر ، والمدارس التى بمصر والقاهرة كذلك ، وحقق عندنا أن الاجراء على ذلك كله نيف على ألفى دينار مصرية فى الشهر ، وهى أربعة آلاف دنار مؤمنية ، وذكر لنا أن لجامع عمرو بن العاص بمصر من الفائد ، نحو الثلاثين دينارا مصرية فى كل يوم ، تتفرق فى مصالحه ومرتبات قومته وسدنته وأيمته والقراء فيه .

ومما شاهدناه بالقاهرة أربعة جوامع ، حفيلة البنيان ، أنيقة الصنعة ، لى مساجد عدة ، وفى أحد الجوامع الخطبة اليوم ، ويأخذ الخطيب فيها مأخذ سنى ، يجمع فيها الدعاء للصحابة رضى الله عنهم ، وللتابعين ومن سواهم ، ولأمهات المؤمنين زوجات النبى صلى الله عليه وسلم ، ولعميه الكريمين حمزة والعباس رضى الله عنهما ، ويلطف الوعظ ، ويرقق التذكير حتى تخشع القلوب القاسية ، وتتفجر العيون الجامدة . ويأتى للخطبة لابسا السواد على رسم العباسية ، وصفة لباسه بردة سوداء ، عليها طيلسان شرب أسود — وهو الذى يسمى بالمغرب

الاحرام — وعمامة سوداء ، متقلدا [1] سيفا . وعند صعوده المنبر يضرب بنعل سيفه المنبر ، فى أول ارتقائه ، ضربة يسمع بها الحاضرين كأنها ايذان بالإنصات ، وفى توسطه [2] أخرى ، وفى انتهاء صعوده ثالثة ، ثم يسلم على الحاضرين يمينا وشمالا ، ويقف بين رايتين سوداوين فيهما [3] تجزيع بياض قد ركزتا فى أعلى المنبر .

ودعاؤه فى هذ التاريخ للامام العباسى أبى العباس أحمد الناصر لدين الله ابن الامام أبى محمد الحسن المستضىء بالله ابن الامام أبى المظفر يوسف المستنجد بالله ، ثم لمحيى دولته أبى المظفر يوسف بن أيوب صلاح الدين ، ثم لأخيه ولى عهده أبى بكر سيف الدين .

وشاهدنا أيضا بنيان القلعة ، وهو حصن يتصل بالقاهرة حصين المنعة ، يريد السلطان أن يتخذه موضع سكناه ، ويمد سوره حتى ينتظم بالمدينتين مصر والقاهرة . والمسخرون فى هذا البنيان ، والمتولون لجميع امتهاناته ومؤنته العظيمة — كنشر الرخام ، ونحت الصخور العظام ، وحفر الخندق المحدق بسور الحصن المذكور ، وهو خندق ينقر بالمعاول نقرا فى الصخر ، عجبا من العجائب الباقية الآثار — العلوج الأسارى من الروم ، وعددهم لا يحصى كثرة ، ولا سبيل أن يمتهن فى ذلك البنيان أحد سواهم [1] .

وللسلطان أيضا بمواضع أخر بنيان ، والأعلاج يخدمون فيه ، ومن يمكن استخدامه من المسلمين فى مثل هذه المنفعة العامة مرفه [2] عن ذلك كله ، ولا وظيفة فى شىء من ذلك على أحد .

ومما شاهدناه أيضا ، من مفاخر هذا السلطان ، المارستان الذى بمدينة القاهرة ، وهو قصر من القصور الرائقة حسنا واتساعا ، أبرزه لهذه الفضيلة تأجرا واحتسابا ، وعين قيما من أهل المعرفة ، وضع لديه خزائن العقاقير ، ومكنه من استعمال الأشربة واقامتها على اختلاف أنواعها ، ووضعت فى مقاصر ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسى . وبين يدى ذلك القيم خدمة يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشية ، فيقابلون من الأغذية والأشربة بما يليق بهم .

وبازاء هذا الموضع موضع مقتطع للنساء المرضى ، ولهن أيضا من يكفلهن ، ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء ، فيه مقاصير عليها شبابيك الحديد ، اتخذت محابس للمجانين ، ولهم أيضا من يتفقد فى كل يوم أحوالهم ، ويقابلها بما يصلح لها ، والسلطان [3] يتطلع هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال ، ويؤكد فى الاعتناء بها والمثابرة عليها غاية التأكيد .

وبمصر مارستان آخر على مثل [1] ذلك الرسم بعينه .

وبين مصر والقاهرة المسجد الكبير ، المنسوب الى أبى العباس أحمد بن طولون ، وهو من الجوامع العتيقة الأنيقة الصنعة الواسعة البنيان ، جعله السلطان مأوى للغرباء

من المغاربة يسكنونه ، ويحلقون فيه ، وأجرى عليهم الأرزاق فى كل شهر .

ومن أعجب ما حدثنا به أحد المتخصصين منهم أن السلطان جعل أحكامهم اليهم ، ولم يجعل يدا لأحد عليهم . فقدموا من أنفسهم حاكما يمتثلون أمره ، ويتحاكمون فى طوارىء أمورهم عنده ، واستصحبوا الدعة والعافية ، وتفرغوا لعبادة ربهم ، ووجدوا من فضل السلطان أفضل معين على الخير الذى هم بسبيله .

وما منها جامع من الجوامع ، ولا مسجد من المساجد ، ولا روضة من الروضات المبنية على القبور ، ولا محرس من المحارس ، ولا مدرسة من المدارس ، الا وفضل السلطان يعم جميع من يأوى اليها ويلزم السكنى فيها ، تهون عليه فى ذلك نفقات بيوت الأموال .

ومن مآثره الكريمة ، المعربة عن اعتنائه بأمور المسلمين كافة ، أنه أمر بعمارة محاضر ألزمها معلمين لكتاب الله عز وجل ، يعلمون أبناء الفقراء والأيتام خاصة ، وتجرى عليهم الجراية الكافية لهم .

ومن مفاخر هذا السلطان ، وآثاره الباقية المنفعة للمسلمين ، القناطر التى شرع فى بنائها بغربى مصر ، وعلى مقدار سبعة أميال منها ، بعد رصيف ابتدىء به من حيز النيل بازاء مصر ، كأنه جبل ممدود على الأرض ، تسير فيه مقدار ستة أميال حتى يتصل [٢] بالقنطرة المذكورة ، وهى [٣] نحو الأربعين قوسا من أكبر ما يكون من قسى القناطر ، والقنطرة متصلة بالصحراء التى يفضى منها الى الاسكندرية ،

له فى ذلك تدبير ، عجيب من تدابير الملوك الحزمة اعدادا لحادثة تطرأ [١] من عدو يدهم [٢] جهة ثغر الاسكندرية عند فيض النيل ، وانغمار الأرض به ، وامتناع سلوك العساكر بسببه ، فأعد ذلك مسلكا فى كل وقت ان احتيج الى ذلك ، والله يدفع عن حوزة المسلمين كل متوقع ومحذور بمنه .

ولأهل مصر فى شأن هذه القنطرة انذار من الانذارات الحدثانية ، يرون أن حدوثها ايذان باستيلاء الموحدين عليها ، وعلى الجهات الشرقية . والله أعلم بغيبه ، لا اله سواه .

وبمقربة من هذه القنطرة المحدثة « الأهرام » القديمة ، المعجزة البناء ، الغريبة المنظر ، المربعة الشكل ، كأنها القباب المضروبة قد قامت فى جو السماء ، ولا سيما الاثنان منها ، فانهما يغص الجو بهما سموا ، فى سعة الواحد منها ، من أحد أركانه الى الركن الثانى ، ثلثمائة خطوة وست وستون خطوة .

قد أقيمت من الصخور العظام المنحوتة ، وركبت تركيبا هائلا بديع الالصاق ، دون أن يتخللها ما يعين على الصاقها ، محددة الأطراف فى رأى العين ، وربما أمكن الصعود اليها على خطر ومشقة ، فتلقى [٣] أطرافها المحددة كأوسع ما يكون من الرحاب ، لو رام أهل الأرض نقض بنائها لأعجزهم ذلك . للناس فى أمرها اختلاف : فمنهم من يجعلها قبورا لعاد وبنيه ، ومنهم من يزعم غير ذلك ، وبالجملة فلا يعلم شأنها الا الله عز وجل .

ولأحد الكبيرين منها باب يصعد اليه على نحو القامة من الأرض أو أزيد ، ويدخل منه الى بيت كبير سعته نحو خمسين شبرا ، وطوله نحو ذلك . وفي جوف ذلك البيت رخامة طويلة مجوفة ، شبه التي تسميها العامة البيلة ، يقال انها قبر ، والله أعلم بحقيقة ذلك .

ودون الكبير هرم سعته ، من الركن الواحد الى الركن الثاني ، مائة وأربعون خطوة . ودون هذا الصغير خمسة صغار ثلاثة متصلة ، والاثنان * على مقربة منها متصلان .

وعلى مقربة من هذه الأهرام ، بمقدار غلوة ، صورة غريبة من حجر ، قد قامت كالصومعة على صفة آدمي هائل المنظر ، وجهه الى الأهرام ، وظهره الى القبلة مهبط النيل ، تعرف بأبي الأهوال .

وبمدينة مصر المسجد الجامع المنسوب لعمرو بن العاص رضي الله عنه ، وله أيضا بالاسكندرية جامع آخر ، وهو مصلى الجمعة للمالكيين .

وبمدينة مصر آثار من الخراب الذي أحدثه الاحراق الحادث بها وقت الفتنة ، عند انتساخ دولة العبيديين ، وذلك سنة أربع وستين وخمسمائة ، وأكثرها الآن مستجد ، والبنيان بها متصل . وهي مدينة كبيرة ، والآثار القديمة حولها ، وعلى مقربة منها ظاهرة [1] تدل على عظم اختطاطها فيما سلف .

وعلى شط نيلها [2] — مما يلي غربيها ، والنيل معترض بينهما — قرية كبيرة الشأن [3] ، حفيلة البنيان ، تعرف بالجيزة ، لها كل يوم أحد سوق من الأسواق العظيمة يجتمع اليها ، ويعترض بينها وبين مصر جزيرة ، فيها مساكن حسان ، وعلالي مشرفة ، وهي مجتمع اللهو والنزهة [4] ، وبينها وبين مصر خليج من النيل يذهب بطولها نحو الميل ، ولا مخرج له .

وبهذه الجزيرة مسجد جامع يخطب فيه ، ويتصل بهذا الجامع المقياس الذي يعتبر فيه قدر زيادة النيل عند فيضه كل سنة ، واستشعار ابتدائه في شهر يونية [5] ، ومعظم انتهائه أغشت ، وآخره أول [6] شهر أكتوبر .

وهذا المقياس عمود رخام أبيض ، مثمن [7] في موضع ، ينحصر فيه الماء عند انسيابه [8] اليه ، وهو مفصل على اثنتين وعشرين ذراعا ، مقسمة [9] على * أربعة وعشرين قسما [1] تعرف بالأصابع ، فاذا انتهى الفيض عندهم الى أن يستوفي الماء تسع عشرة ذراعا منغمرة فيه ، فهي الغاية عندهم في طيب العام ، وربما كان الغامر فيه [2] كثيرا بعموم الفيض ، والمتوسط عندهم ما استوفى سبع عشرة ذراعا ، وهو أحسن [3] عندهم من الزيادة المذكورة .

والذي يستحق به السلطان خراجه في بلاد مصر ست عشرة ذراعا فصاعدا ، وعليها يعطي [4] البشارة الذي يراعي [5] الزيادة في كل يوم ، والزيادة في أقسام الذراع المذكور ، ويعلم بها مياومة حتى تستوفي الغاية التي

يقضى بها . وان قصر [6] عن ست عشرة ذراعا ، فلا مجبى للسلطان فى ذلك العام ، ولا خراج [7] .

وذكر لنا أن بالجيزة المذكورة قبر كعب الأحبار رضى الله عنه ، وفى صدر الجيزة المذكورة أحجار رخام ، قد صورت فيها التماسيح ، فيقال ان بسببها لا تظهر التماسيح ، فيما يلى البلد من النيل ، مقدار ثلاثة أميال علوا وسفلا ، والله أعلم بحقيقة ذلك .

ومن مفاخر هذا السلطان المزلفة من الله تعالى ، وآثاره التى أبقاها ذكرا جميلا للدين والدنيا ، ازالته رسم المكس المضروب وظيفة على الحجاج مدة دولة العبيديين . فكان الحجاج يلاقون من الضغط فى استيدائها [8] عنتا مجحفا ، ويسامون [9] فيها خطة خسف باهظة ، وربما ورد منهم من لا فضل لديه على نفقته ، أو لا نفقة عنده ، فيلزم أداء الضريبة المعلومة — وكانت سبعة دنانير ونصف دينار من الدنانير المصرية ، التى هى خمسة عشر دينارا مؤمنية — على كل رأس ، ويعجز [10] عن ذلك ، فيتناول بأليم العذاب بعيذاب ، فكانت كاسمها « مفتوحة العين [1] » ، وربما اخترع له من أنواع العذاب التعليق من الانثيين ، أو غير ذلك من الأمور الشنيعة ، نعوذ بالله من سوء قدره . وكان بجدة أمثال هذا التنكيل وأضعافه لمن لم يؤد مكسه بعيذاب ، ووصل اسمه غير معلم عليه علامة الأداء .

فمحى هذا السلطان هذا الرسم اللعين ، ودفع عوضا منه ما يقوم مقامه من أطعمة وسواها ، وعين مجبى موضع معين بأسره لذلك ، وتكفل بتوصيل جميع ذلك الى الحجاز لأن الرسم المذكور كان باسم ميرة مكة والمدينة ، عمرهما الله [2] ، فعوض من ذلك أجمل عوض ، وسهل السبيل للحجاج ، وكانت فى حيز الانقطاع وعدم الاستطلاع ، وكفى الله المؤمنين على يدى هذا السلطان العادل حادثا عظيما وخطبا أليما ، فترتب الشكر [3] له على كل من يعتقد من الناس أن حج البيت الحرام احدى [4] القواعد الخمس من الاسلام ، حتى يعم [5] جميع الآفاق ، ويوجب الدعاء له فى كل صقع من الأصقاع وبقعة من البقاع ، والله من وراء مجازاة المحسنين ، وهو — جلت قدرته — لا يضيع أجر من أحسن عملا .

الى مكوس كانت فى البلاد المصرية وسواها ، ضرائب على كل ما يباع ويشترى ، مما دق أو جل ، حتى كان يؤدى على شرب ماء النيل المكس ، فضلا عما سواه . فمحى هذا السلطان هذه البدع اللعينة كلها ، وبسط العدل ، ونشر الأمن .

ومن عدل هذا السلطان ، وتأمينه للسبل ، أن الناس فى بلاده لا [6] يخلعون لباس الليل ، تصرفا فيما يعنيهم ، ولا يستشعرون لسواده هيبة تثنيهم . على مثل ذلك شاهدنا أحوالهم بمصر والاسكندرية ، حسبما تقدم ذكره .

شهر المحرم سنة تسع وسبعين
عرفنا الله يمنها وبركتها

استهل هلاله ليلة الثلاثاء ، وهو اليوم السادس والعشرون من أبريل ، ونحن بمصر ، يسر الله علينا مرامنا .

وفى صبيحة يوم الأحد ، السادس من محرم المذكور ، كان انفصالنا من مصر ، وصعودنا فى النيل على الصعيد قاصدين الى « قوص » . عرفنا الله عادته الجميلة من التيسير وحسن المعونة بمنه .

ووافق يوم اقلاعنا المذكور أول يوم من مايه ، بحول الله عز وجل ، والقرى فى طريقنا متصلة فى شطى النيل ، والبلاد الكبار حسبما يأتى ذكره ان شاء الله .

فمنها قرية تعرف « بأسكر [1] » فى الضفة [2] الشرقية من النيل ، مباشرة للصاعد فيه [3] ، ويذكر أن فيها كان مولد النبى موسى الكليم ، صلى الله على نبينا وعليه ، ومنها ألقته أمه فى اليم ، وهو النيل حسبما ذكر .

وعاينا أيضا بغربى النيل ميامنا لنا — وذلك كله يوم اقلاعنا المذكور وفى الثانى منه — المدينة القديمة المنسوبة ليوسف الصديق ، صلى الله عليه وسلم ، وبها موضع السجن الذى كان فيه ، وهو الآن ينقض ، وينقل أحجاره الى القلعة المبتناة الآن على القاهرة ، وهو حصن حصين المنعة . وبهذه المدينة المذكورة أهراء [4] الطعام التى اختزنها يوسف صلى الله عليه وسلم ، وهى مجوفة على ما يذكر .

ومنها الموضع المذكور بمنية ابن الخصيب ، وهو بلد على شط النيل ، ميامنا للصاعد فيه ، كبير فيه الأسواق والحمامات وسائر مرافق المدن . اجتزنا عليه * ليلة الأحد الثالث عشر لمحرم المذكور — وهو الثامن من يوم اقلاعنا من مصر — لأن الريح سكنت عنا ، فتربصنا فى الطريق ، ولو ذهبنا الى رسم كل موضع يعترضنا فى شطى النيل يمينا وشمالا ، لضاق الكتاب [1] عنه ، لكن نقصد من ذلك الى الأكبر الأشهر .

وقابلنا على مقربة من هذا الموضع ، مياسرا لنا ، المسجد المبارك المنسوب لابراهيم خليل الرحمن ، صلوات الله عليه وعلى نبينا ، وهو مسجد مذكور مشهور ، معلوم بالبركة مقصود ، ويقال ان بفنائه أثر الدابة التى كان يركبها الخليل صلى الله عليه وسلم .

ومنها موضع يعرف « بأنصنا » مياسرا لنا ، وهى قرية فسيحة جميلة ، بها آثار قديمة ، وكانت فى السالف مدينة عتيقة ، وكان لها سور عتيق هدمه صلاح الدين ، وجعل على كل مركب منحدر فى النيل وظيفة من حمل صخرة الى القاهرة ، فنقل بأسره اليها .

وفى صبيحة يوم الاثنين الرابع عشر من محرم المذكور ، وهو التاسع من اقلاعنا من مصر ، اجتزنا بالجبل المعروف بجبل المقلة ، وهو بالشط الشرقى من النيل ، مياسرا للصاعد فيه ، وهو نصف الطريق الى « قوص » ، من مصر اليه ثلاثة عشر بريدا ، ومنه الى قوص مثلها .

ومما يجب ذكره على جهة التعجب أن من حيز مصر — فى شط النيل الشرقى ، مياسرا [٢] للصاعد فيه — حائطا متصلا قديم البنيان ، منه ما قد تهدم ، ومنه ما بقى أثره يتمادى على الشط المذكور الى أسوان آخر صعيد مصر ، وبين أسوان وبين قوص ثمانية برد ، والأقوال فى أمر هذا الحائط تتشعب وتختلف ، وبالجملة فشأنه عجيب ، ولا يعلم سره الا الله عز وجل ، وهو يعرف بحائط العجوز ، ولها خبر مذكور ، أظن هذه العجوز هى الساحرة المذكور [٣] خبرها فى المسالك والممالك ، التى كانت لها المملكة بها مدة .

ذكر ما استدرك خبره مما كان اغفل ٤

وذلك أنا لما حللنا الاسكندرية ... فى الشهر المؤرخ [١] أولا ، عاينا مجتمعا من الناس عظيما برزوا لمعاينة أسرى من الروم أدخلوا البلد راكبين على الجمال ، ووجوههم الى أذنابها ، وحولهم الطبول والأبواق . فسألنا عن قصتهم ، فأخبرنا بأمر تنفطر له الأكباد اشفاقا وجزعا .

وذلك أن جملة من نصارى الشام اجتمعوا وأنشأوا مراكب فى [٢] أقرب المواضع التى لهم من بحر القلزم ، ثم حملوا أنقاضها على جمال العرب المجاورين لهم بكراء اتفقوا [٣] معهم عليه ، فلما حصلوا بساحل البحر ، سمروا مراكبهم ، وأكملوا انشاءها وتأليفها ، ودفعوها فى البحر ، وركبوها قاطعين بالحجاج ، واتنهوا الى بحر النعم [٤] ، فأحرقوا فيه نحو ستة عشر مركبا .

وانتهوا الى عيذاب ، فأخذوا فيها مركبا كان يأتى بالحجاج من جدة ، وأخذوا أيضا فى البر قافلة كبيرة تأتى من قوص الى عيذاب ، وقتلوا الجميع ولم يحيوا أحدا ، وأخذوا مركبين كانا مقبلين بتجار من اليمن ، وأحرقوا أطعمة كثيرة على ذلك الساحل كانت معدة لميرة مكة والمدينة — أعزهما الله — وأحدثوا حوادث شنيعة لم يسمع مثلها فى الاسلام ، ولا انتهى رومى [٥] الى ذلك الموضع قط .

ومن أعظمها حادثة تسد المسامع شناعة وبشاعة ، وذلك أنهم كانوا عازمين على دخول مدينة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، واخراجه من الضريح المقدس ، أشاعوا ذلك وأجروا ذكره على ألسنتهم ، فأخذهم الله باجترائهم عليه ، وتعاطيهم ما يحول عناية القدر بينهم وبينه .

ولم يكن بينهم وبين المدينة أكثر من مسيرة يوم ، فدفع الله عاديتهم بمراكب عمرت من مصر والاسكندرية ، دخل فيها الحاجب — المعروف بلؤلؤ — مع أنجاد من المغاربة البحريين ، فلحقوا بالعدو وهو قد قارب النجاة بنفسه ، فأخذوا عن آخرهم ، وكانت آية من آيات العنايات الجبارية .

وأدركوهم عن مدة طويلة كانت بينهم من الزمان ، نيف على شهر ونصف أو حوله ، وقتلوا وأسروا ، وفرق من الأسارى على البلاد ليقتلوا بها ، ووجه منهم الى مكة

والمدينة ، وكفى الله — بجميل صنعه — الاسلام والمسلمين آمرا عظيما ، والحمد لله رب العالمين .

« رجع الذكر » : ومن المواضع التى اجتزنا عليها فى الصعيد — بعد جبل المقلة الذى ذكرنا أنه نصف الطريق من مصر الى قوص حسبما تقدم ذكره — موضع يعرف بمنفلوط [1] بمقربة من الشط الغربى ، ميامنا للصاعد فى النيل : فيه الأسواق وسائر ما يحتاج اليه من المرافق .... [2] فى نهاية من الطيب ، ليس فى الصعيد مثلها ، وقمحها يجلب الى مصر لطيبه ورزانة حبته ، قد اشتهر عندهم بذلك ، فالتجار يصعدون فى المراكب لاستجلابه .

ومنها مدينة « أسيوط » ، وهى من مدن الصعيد الشهيرة ، بينها وبين الشط الغربى من النيل مقدار ثلاثة أميال ، وهى جميلة المنظر حولها بساتين النخل ، وسورها سور عتيق .

ومنها موضع يعرف « بأبى تيج » [3] ، وهو بلد فيه الأسواق وسائر مرافق المدن ، وهو فى الشط الغربى من النيل .

ومنها مدينة « أخميم » ، وهى أيضا من مدن الصعيد الشهيرة المذكورة بشرقى النيل وعلى شطه [4] ، قديمة الاختطاط ، عتيقة الوضع ، فيها مسجد ذى النون المصرى ، ومسجد داود أحد الصالحين المشتهرين بالخير والزهادة ، وهما [5] مسجدان موسومان بالبركة ، دخلنا اليهما متبركين بالصلاة فيهما ، وذلك يوم السبت التاسع عشر المحرم المذكور ، وبهذه المدينة المذكورة آثار ومصانع من بنيان القبط ، وكنائس معمورة الى الآن بالمعاهدين من نصارى القبط .

ومن أعجب [6] الهياكل ، المتحدث بغرائبها فى الدنيا ، هيكل عظيم فى شرقى المدينة المذكورة وتحت سورها ، طوله مائتا ذراع وعشرون ذراعا ، وسعته مائة وستون [1] ذراعا ، يعرف عند أهل هذه الجهة بالبَرْبا ، وكذلك يعرف كل هيكل عندهم وكل مصنع قديم .

قد قام هذا الهيكل العظيم على أربعين سارية ، حاشى حيطانه ، دور كل سارية منها خمسون شبرا ، وبين كل سارية وسارية ثلاثون شبرا ، ورؤوسها فى نهاية من العظم والاتقان ، قد نحتت نحتا غريبا ، فجاءت مركنة بديعة الشكل كأن الخراطين تناولوها ، وهى كلها مرقشة بأنواع الأصبغة اللازوردية وسواها .

والسوارى كلها منقوشة من أسفلها الى أعلاها ، وقد انتصب على رأس كل سارية منها الى رأس صاحبتها التى تليها ، لوح عظيم من الحجر المنحوت ، من أعظمها ، ماكِلْنَا فيه ستة وخمسين شبرا طولا ، وعشرة أشبار عرضا ، وثمانية أشبار ارتفاعا .

وسقف هذا الهيكل كله من ألواح [2] الحجارة ، المنتظمة ببديع الالصاق ، فجاءت كأنها فرش واحد ، وقد انتظمت جميعه التصاوير البديعة والأصبغة الغريبة ، حتى يخيل للناظر فيها أنها سقف من الخشب المنقوش .

والتصاوير على أنواع فى كل بلاط من بلاطاته : فمنها ما قد جللته طيور بصور رائقة باسطة أجنحتها ، توهم الناظر اليها أنها تهم بالطيران ، ومنها ما قد جللته تصاوير آدمية ، رائقة المنظر رائعة الشكل ، قد أعدت لكل صورة منها هيئة ، هى عليها كامساك تمثال بيدها ، أو سلاح أو طائر أو كأس ، أو اشارة شخص الى آخر بيده ، أو غير ذلك مما يطول الوصف له ، ولا تتأتى العبارة لاستيفائه .

وداخل هذا الهيكل العظيم ، وخارجه وأعلاه وأسفله ، تصاوير كلها مختلفات الأشكال والصفة : منها تصاوير هائلة المنظر ، خارجة عن صور الآدميين ، يستشعر الناظر اليها رعبا ، ويتملأ منها عبرة وتعجبا ، ومافيه مغرز اشفا ولا ابرة الا وفيه صورة أو نقش أو خط بالمسند لا يفهم ، قد عم هذا الهيكل العظيم الشأن كله هذا النقش البديع ، ويتأتى فى صم الحجارة من ذلك ما لا يتأتى فى الرخو من الخشب ، فيحسب الناظر استعظاما له أن عمر الزمان لو شغل بترقيشه[1] وترصيعه وتزيينه لضاق عنه . فسبحان الموجد للعجائب ، لا اله سواه .

وعلى أعلى هذا الهيكل سطح مفروش بألواح الحجارة العظيمة على الصفة المذكورة ، وهو فى نهاية الارتفاع ، فيحار الوهم فيها ، ويضل العقل فى الفكرة فى تطليمها ووضعها . وداخل هذا الهيكل ، من المجالس والزوايا والمداخل والمخارج والمصاعد والمعارج والمسارب والموالج ، وما تضل فيه الجماعات من الناس ، ولا يهتدى بعضهم لبعض الا بالنداء العالى ، وعرض حائطه ثمانية عشر شبرا ، وهو كله من حجارة مرصوصة على الصفة التى ذكرناها .

وبالجملة فشأن هذا الهيكل عظيم ، ومرآه احدى عجائب الدنيا التى لا يبلغها الوصف ، ولا ينتهى اليها الحد ، وانما وقع الالماع بنبذة من وصفه دلالة عليه ، والله المحيط بالعلم فيه ، والخبير بالمعنى الذى وضع له ، فلا يظن المتصفح لهذا المكتوب أن فى الاخبار عنه بعض غلو ، فان كل مخبر عنه لو كان قسا بيانا أو سحبانا ، يقف موقف العجز والتقصير والله المحيط بكل شىء علما لا اله سواه .

وببلاد هذا الصعيد المعترضة فى الطريق ، للحجاج والمسافرين — كاخميم ، وقوص ، ومنيه ابن الخصيب — من التعرض لمراكب المسافرين ، وتكشفها والبحث عنها ، وادخال الأيدى الى أوساط التجار ، فحصا عما تأبطوه أو احتضنوه من دراهم أو دنانير ، ما يقبح سماعه ، وتستشنع الأحدوثة عنه . كل ذلك برسم الزكاة ، دون مراعاة لمحلها أو ما يدرك النصاب منها ، حسبما ذكرناه فى ذكر الاسكندرية من هذا المكتوب .

وربما ألزموهم الأيمان على ما بأيديهم ، وهل عندهم غير ذلك ، ويحضرون كتاب الله العزيز يقع اليمين عليه ، فيقف الحجاج بين أيدى هؤلاء المتناولين لها مواقف خزى ومهانة تذكرهم أيام المكوس .

وهذا أمر يقع القطع على أن صلاح الدين لا يعرفه ، ولو عرفه لأمر بقطعه ، كما أمر بقطع ما هو أعظم منه ، ولجاهد المتناول له ، فان جهادهم من الواجبات ، لما يصدر عنهم من التعسف ، وعسير الارهاق [1] ، وسوء المعاملة ، مع غرباء انقطعوا الى الله عز وجل ، وخرجوا مهاجرين الى حرمه الأمين .

ولو شاء الله لكانت [2] هذه الخطة مندوحة فى اقتضاء الزكاة ، على أجمل الوجوه ، من ذوى البضائع فى التجارات ، مع مراعاة رأس كل حول الذى هو محل الزكاة ، وبتجنب [3] اعتراض الغرباء المنقطعين ممن تجب الزكاة له لا عليه ، وكان يحافظ على جانب هذا السلطان العادل ، الذى قد شمل البلاد عدله ، وسار فى الآفاق ذكره ، ولا يسعى فيما يسىء الذكر بمن قد حسن الله ذكره ، ويقبح المقالة فى بجانب من أجمل الله المقالة عنه .

ومن أشنع ما شاهدناه من ذلك ، خروج شرذمة من مردة أعوان الزكاة ، فى أيديهم المسال الطوال ذوات الأنصبة ، فيصعدون الى المراكب استكشافا لما فيها ، فلا يتركون عكما ولا غرارة الا ويتخللونها بتلك المسال الملعونة ، مخافة أن يكون فى تلك الغرارة أو العكم ، اللذين لا يحتويان سوى الزاد ، شىء غيب عليه من بضاعة أو مال . وهذا أقبح ما يؤثر فى الأحاديث الملعنة ، وقد نهى الله عن التجسس [4] ، فكيف عن الكشف لما يرجى بستر الصون دونه ، من حال لا يريد صاحبها أن يطلع عليها ، اما استحقارا أو استنفاسا ، دون بخل بواجب يلزمه [5] . والله الآخذ على أيدى هؤلاء الظلمة ، بيد هذا السلطان العادل وتوفيقه ، ان شاء الله .

ومن المواضع التى اجتزنا عليها ، بعد اخميم المذكورة ، موضع يعرف بمنشاة [1] السودان على الشط الغربى من النيل ، هى قرية معمورة ، ويقال انها كانت فى القدم مدينة كبيرة ، وقد قام أمام هذه القرية ، بينها وبين النيل ، رصيف عال من الحجارة كأنه السور ، يضرب فيه النيل ، ولا يعلوه عند فيضه ومده ، فالقرية بسببه فى أمن من آتيه .

ومنها موضع يعرف بالبلينة ، وهى قرية حسنة كثيرة النخل ، بالشط الغربى من البيل ، بينها وبين قوص أربعة برد .

ومنها موضع يعرف « بدشنة » بالشط الشرقى من النيل ، وهى مدينة مصورة فيها جميع مرافق المدن ، وبينها وبين قوص بريدان .

ومنها موضع بغربى النيل ، وعلى مقربة من شطه ، يعرف بدندرة ، وهى مدينة من مدن الصعيد ، كثيرة النخل ، مستحسنة المنظر ، مشتهرة بطيب الرطب ، بينها وبين قوص بريد . وذكر لنا أن فيها هيكلا عظيما ، وهو المعروف عند أهل هذه الجهات بالبربا ، حسبما ذكرنا عند ذكر اخميم ، وهيكلها يقال ان هيكل دندرة أحفل منه وأعظم .

ومنها مدينة « قنا » ، وهى من مدن الصعيد ، بيضاء أنيقة المنظر ، ذات مبان حفيلة ، ومن مآثرها المأثورة صون نساء

أهلها ، والتزامهن البيوت ، فلا تظهر فى زقاق من أزقتها امرأة البتة ، صحت بذلك الأخبار عنهن ، وكذلك نساء « دشنة » المذكورة قبيل هذا . وهذه المدينة المذكورة فى الشط الشرقى من النيل ، وبينها وبين قوص نحو البريد .

ومنها « قِفط » ، وهى مدينة بشرقى النيل ، وعلى مقدار ثلاثة أميال من شطه ، وهى من المدن المذكورة فى الصعيد حسنا ونظافة بنيان واتقان وضع .

ثم كان الوصول الى « قوص » يوم الخميس الرابع والعشرين لمحرم المؤرخ ، وهو التاسع عشر من مايه ، فكان مقامنا فى النيل ثمانية عشر يوما ، ودخلنا قوص فى التاسع عشر .

وهذه المدينة حفيلة الأسواق ، متسعة المرافق ، كثيرة الحلق ، لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنديين وتجار أرض الحبشة ، لأنها مخطر للجميع ، ومحط للرحال [1] ، ومجتمع الرفاق ، وملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والاسكندريين ومن يتصل بهم . ومنها يفوّزون بصحراء عيذاب ، واليها انقلابهم فى صدرهم من الحج [2] . وكان نزولنا فيها بفندق ينسب لابن العجمى بالمنية ، وهى ربض كبير خارج المدينة على باب الفندق المذكور .

شهر صفر عرفنا الله يمنه وبركته

استهل هلاله ليلة الأربعاء ، وهو الخامس والعشرون [3] من شهر مايه ، ونحن بقوص لزوم السفر الى عيذاب ، يسر [4] الله علينا مرامنا بمنه وكرمه .

وفى يوم الاثنين الثالث عشر منه ، وهو السادس من يونيو ، أخرجنا جميع رحالنا من زاد وسواه الى المبرز ، وهو موضع بقبلى البلد وعلى مقربة منه ، فسيح الساحة ، محدق بالنخيل ، يجتمع فيه رحال الحاج والتجار وتشد فيه ، ومنه يستقلون ويرحلون ، وفيه يوزن ما يحتاج الى وزنه على الجمالين .

فلما كان اثر صلاة العشاء الآخرة ، رفعنا منه الى ماء يعرف بالحاجر ، فبتنا به ، وأصبحنا يوم الثلاثاء بعده مقيمين به ، بسبب تفقد بعض الجمالين من العرب لبيوتهم ، وكانت على مقربة منهم . وفى ليلة الأربعاء الخامس عشر منه — ونحن بالحاجر * المذكور — خسف القمر خسوفا كليا أول الليل ، وتمادى الى هدء منه .

ثم أصبحنا يوم الأربعاء المذكور ظاعنين ، وقلنا بموضع يعرف بقلاع الضياع ، ثم كان المبيت بموضع يعرف بمحط اللقيطة . كل ذلك فى صحراء لا عمارة فيها .

ثم غدونا يوم الخميس ، فنزلنا على ماء ينسب العبدين ، ويذكر أنهما ماتا عطشا قبل أن يرداه ، فسمى ذلك الموضع بهما ، وقبراهما به رحمهما الله . ثم تزودنا منه الماء

لثلاثة أيام ، وفوزنا سحر يوم الجمعة السابع عشر منه ، وسرنا في الصحراء نبيت منها حيث جن علينا الليل ، والقوافل العيذابية والقوصية صادرة وواردة ، والمفازة معمورة أمنا .

فلما كان يوم الاثنين ، الموفى عشرين منه ، نزلنا على ماء بموضع يعرف بدنقاش ، وهى بئر معينة ، يرد فيها من الأنعام والأنام ما لا يحصيهم الا الله عز وجل .

ولا يسافر في هذه الصحراء الا على الابل لصبرها على الظماء ، وأحسن ما يستعمل عليها ذوو الترفيه : الشقاديف ، وهى أشباه المحامل ، وأحسن أنواعها اليمانية ، لأنها كالأشباكين [1] السفرية مجلدة متسعة ، يوصل منها الاثنان بالحبال الوثيقة ، وتوضع على البعير ، ولها أذرع قد حنت بأركانها يكون عليها مظلة ، فيكون الراكب فيها مع عديله في كن من لفح الهاجرة ، ويقعد مستريحا في وطائه ومتكئا ، ويتناول مع عديله ما يحتاج اليه من زاد وسواه ، ويطالع متى شاء المطالعة في مصحف أو كتاب ، ومن شاء ممن يستجيز اللعب بالشطرنج أن يلاعب عديله ، تفكها واجماما للنفس ، لاعبه وبالجملة فانها مريحة من نصب السفر ، وأكثر المسافرين يركبون الابل على أحمالها ، فيكابدون من مشقة سموم الحر عنتا [2] ومشقة .

وفى هذا الماء وقعت بين بعض جمالى العرب اليمنيين ، أصحاب طريق عيذاب وضمانها [3] — وهم من بلى من أفخاذ قضاعة — وبين بعض الأغزاز [4] ، بسبب التزاحم على الماء [5] ، مهاوشة كادت تفضى الى الفتنة ، ثم عصم الله منها .

والقصد الى عيذاب من قوص على طريقين : احداهما [6] تعرف بطريق العبدين ، وهى هذه التى سلكناها ، وهى أقصد مسافة ، والأخرى [1] طريق دون قنا [2] ، وهى قرية على شاطىء النيل . ومجتمع هاتين الطريقين على مقربة من [3] ماء دنقاش المذكور ، ولهما مجتمع آخر على ماء يعرف بشاغب أمام ماء دنقاش بيوم .

فلما كان عشاء يوم الاثنين المذكور تزودنا الماء ليوم وليلة ، ورفعنا الى ماء بموضع يعرف بشاغب ، فوردناه ضحوة يوم الأربعاء الثانى والعشرين لصفر المذكور ، وهذا الماء ثماد يحفر عليه في الأرض ، فتسمح به قريبا غير بعيد الا أنه زعاق [4] . ثم رحلنا [5] منه سحر يوم الخميس بعده ، وتزودنا الماء لثلاثة أيام ، الى ماء بموضع يعرف بأمتان ، وتركنا طريق الماء بموضع يعرف با .... يسارا ، وليس بينه وبين شاغب غير مسافة يوم ، والطريق عليه وعر للابل .

فلما كان ضحوة يوم الأحد السادس والعشرين لصفر المذكور ، نزلنا بأمتان المذكور ، وفى هذا اليوم المذكور كان فراغنا من حفظ كتاب الله عز وجل ، له الحمد وله الشكر على ما يسر لنا من ذلك . وهذا الماء بأمتان المذكور هو في بئر معينة قد خصها الله بالبركة ، وهو أطيب مياه الطريق وأعذبها

فيلقى [٦] فيهـا من دلاء الوارد ما لا يحصى كثرة ، فتروى القـوافل النـازلة عليها على كثرتها ، وتروى من الابل البعيدة الاظماء ما لو وردت نهرا من الأنهار لأنضبته وأنزفته .

ورمنا فى هذه الطريق احصـاء القـوافل الواردة والصادرة ، فما تمكن لنا ، ولا سيما القوافل العيذابية المتحملة لسلع الهند الواصلة الى اليمن ، ثم من اليمن الى عيذاب . وأكثر ما شاهدنا من ذلك أحمال الفلفل ، فلقد خيل الينا لكثرته أنه يوازى التراب قيمة .

ومن عجيب ما شاهدناه بهذه الصحراء ، أنك تلتقى بقارعة الطريق أحمـال الفلفـل والقرفة وسائرها من السـلع مطروحة لا حارس لها ، تترك بهذه السبيل ، اما لاعيـاء الابل الحاملة لها أو غير ذلك من الأعذار ، وتبقى بموضعها الى أن ينقلها صاحبها مصونة من الآفات ، على كثرة المار عليها من أطـوار الناس .

ثم كان رفعنا من أمتـان المذكور صبيحة يوم الاثنين ، بعد الأحد المذكور ، ونزلنـا على ماء بموضع يعرف بمجاج ، بمقربة من الطريق ، ظهر يوم الاثنين المذكور ، ومنـه تزودنا الماء لأربعة أيام ، الى ماء بموضـع يعرف بالعشراء على مسافة يوم من عيذاب ، ومن هذه المرحلة [١] المجاجية يسلك الوضح ، وهى رملة ميثاء تتصل بساحل بحر جدة ، يمشى فيها الى عيذاب ان شاء الله ، وهى فى أفيح من الأرض مدّ البصر يمينا وشـمالا ، وفى ظهر يوم الثلاثاء الثـامن والعشرين من الشـهر المذكور ، كان رفعنـا من مجـاج المذكور ، سالكين على الوضح .

شهر ربيع الأول عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الجمعة الرابع والعشرين من شهر يونية ، ونحن بآخر الوضح ، على نحو ثلاث مراحل من عيـذاب . وفى وقت الغداة من يوم الجمعة المذكور ، كان نزولنا على الماء بموضـع يعرف بالعشراء ، عـلى مرحلتين من عيذاب ، وبهذا الموضـع كثير من شجر العشر ، وهو شبيه بشـجر الأترج لكن لا شوك له .

وماء هذا الموضع ليس بخالص العذوبة ، وهو فى بئر غير مطوية ، وألفينا الرمل قد انهـال عليهـا وغطى ماءها ، فرام الجمالون حفرها ، واستخراج مائها ، فلم يقدروا عـلى ذلك ، وبقيت القافلة لا ماء عندها . فأسرينا تلك الليلة — وهى ليلة السبت الثـانى من الشهر المذكور — فنزلنـا ضـحوة على ماء الخبيب ، وهـو بموضـع بمرأى العين من عيذاب ، يستقى منها القوافل وأهل البلد ، ويعم الجميع ، وهى بئر كبيرة كأنها الجب الكبير .

فلما كان عشى يوم السبت دخلنا عيذاب ، وهى مدينـة على سـاحل بحر جـدة غير مسورة ، أكثر بيوتها الأخصاص ، وفيها الآن بناء مسـتحدث بالجص ، وهى من أحفـل مراسى الدنيا ، بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منهـا ، زائدا الى مراكب الحجاج الصادرة والواردة .

وهى فى صحراء لا نبات فيها ، ولا يؤكل فيها شيء الا مجلوب ، لكن أهلها بسبب الحجاج تحت مرفق كثير ، ولا سيما مع الحاج ، لأن لهم على كل حمل طعام يجلبونه [1] ضريبة معلومة خفيفة المؤنة ، بالاضافة الى الوظائف المكوسية التى كانت قبل اليوم ، التى ذكرنا رفع صلاح الدين لها .

ولهم أيضا من المرافق من الحاج اكراء الجلاب منهم ، وهى المراكب ، فيجتمع لهم من ذلك [2] مال كثير فى حملهم الى جدة ، وردهم وقت انفضاضهم من أداء الفريضة . وما من أهلها ذوى اليسار الا من له الجلبة والجلبتان فهى تعود عليهم برزق واسع ، فسبحان قاسم الأرزاق على اختلاف أسبابها لا اله سواه .

وكان نزولنا فيها بدار تنسب لمونح [3] ، أحد قوادها الحبشيين الذين تأثلوا بها الديار والرباع والجلاب .

وفى بحر عيذاب مغاص على اللؤلؤ ، فى جزائر على مقربة منها ، وأوان الغوص عليه فى هذا التاريخ المقيدة فيه هذه الأحرف [4] ، وهو شهر يونية العجمى والشهر الذى يتلوه ، ويستخرج منه جوهر نفيس له قيمة سنية . يذهب الغائصون عليه الى تلك الجزائر فى الزواريق ، ويقيمون فيها الأيام ، فيعودون بما قسم الله لكل واحد منهم بحسب حظه من الرزق .

والمغاص منها قريب القعر ليس ببعيد ، ويستخرجونه فى أصداف لها أزواج [5] كأنها نوع من الحيتان أشبه شيء بالسلحفاة ، فاذا شقت ظهرت الشفتان من داخلها كأنهما [1] محارتا فضة ، ثم يشقون عليها فيجدون فيها الحبة من الجوهر قد غطى عليها لحم الصدف ، فيجتمع لهم من ذلك بحسب الحظوظ والأرزاق ، فسبحان مقدرها لا اله سواه ، لكنهم ببلدة لا رطب فيها ولا يابس ، قد ألفوا بها عيش البهائم ، فسبحان محبب الأوطان الى أهلها ، على أنهم أقرب الى الوحش منهم الى الانس .

والركوب من جدة اليها آفة للحجاج عظيمة الا الأقل منهم ، ممن يسلمه الله عز وجل ، وذلك أن الرياح تلفيهم على الأكثر فى مراس [2] بصحارى تبعد منها مما يلى الجنوب ، فينزل اليهم البجاة — وهم نوع من السودان ساكنون بالجبال — فيكرون منهم الجمال ، ويسلكون بهم غير طريق الماء ، فربما ذهب أكثرهم عطشا ، وحصلوا على ما يتخلفه [3] من نفقة أو سواها .

وربما كان من الحجاج من يتعسف تلك المجهلة على قدميه ، فيضل ويهلك عطشا ، والذى يسلم منهم [4] يصل الى عيذاب كأنه منشر من كفن . شاهدنا منهم ، مدة مقامنا ، أقواما قد وصلوا على هذه الصفة ، فى مناظرهم المستحيلة وهيئاتهم المتغيرة آية للمتوسمين . وأكثر هلاك الحجاج بهذه المراسى ، ومنهم من تساعده الريح الى أن يحط بمرسى عيذاب ، وهو الأقل .

والجلاب التى يصرفونها فى هذا البحر الفرعونى ملفقة الانشاء ، لا يستعمل فيها مسمار البتة ، انما هى مخيطة بأمراس من

القنبار — وهو قشر جوز النارجيل — يدرسونه الى أن يتخيط، ويفتلون منه أمراسا يخيطون بها المراكب، ويخللونها بدسر من عيدان النخل، فاذا فرغوا من انشاء الجلبة على هذه الصفة، سقوها بالسمن، أو بدهن الخروع، أو بدهن القرش، وهو أحسنها، وهذا القرش حوت عظيم فى البحر يبتلع الغرقى فيه. ومقصدهم فى دهان الجلبة ليلين *، عودها ويرطب، لكثرة الشعاب المعترضة فى هذا البحر، ولذلك لا يصرفون فيه المركب المسمارى.

وعود هذا الجلاب مجلوب من الهند واليمن، وكذلك القنبار المذكور. ومن أعجب أمر هذه الجلاب، أن شرعها منسوجة من خوص شجر المقل، فمجموعها متناسب فى اختلال البنية ووهنها، فسبحان مسخرها على تلك الحال والمسلم فيها، لا اله سواه.

ولأهل عيذاب فى الحجاج أحكام [1] الطواغيت، وذلك أنهم يشحنون بهم الجلاب [2] حتى يجلس بعضهم على بعض، وتعود بهم كأنها أقفاص الدجاج المملوءة. يحمل أهلها على ذلك الحرص والرغبة فى الكراء، حتى يستوفى صاحب الجلبة منهم ثمنها [3] فى طريق واحدة، ولا يبالى بما يصنع البحر بها بعد ذلك، ويقولون: «علينا بالألواح وعلى الحجاج بالأرواح»، هذا مثل متعارف بينهم.

فأحق بلاد الله بحسبة يكون السيف درتها هذه البلدة، والأولى بمن يمكنه ذلك ألا يراها، وأن يكون طريقه على الشام الى العراق، ويصل مع أمير الحج البغدادى، وان لم يمكنه ذلك أولا فيمكنه آخرا عند انفضاض الحجاج [4]. يتوجه مع أمير الحاج المذكور الى بغداد، ومنها الى عكة، فان شاء رحل * منها الى الاسكندرية، وان شاء الى صقلية أو سواهما، ويمكن أن يجد مركبا من الروم يقلع الى سبتة أو سواها من بلاد المسلمين، وان طال طريقه بهذا التحليق فيهون [6] لما يلقى بعيذاب ونحوها.

وأهلها الساكنون بها من قبيل السودان الذين [7] يعرفون بالبجاة، ولهم سلطان من أنفسهم يسكن معهم فى الجبال المتصلة بها، وربما وصل فى بعض الأحيان، واجتمع بالوالى الذى فيها من الغز اظهارا للطاعة، ومستنابه مع الوالى فى البلد، والفوائد كلها له الا البعض منها.

وهذه الفرقة من السودان المذكورين، فرقة أضل من الأنعام سبيلا، وأقل عقولا، لا دين لهم سوى كلمة التوحيد التى ينطقون بها اظهارا الاسلام، ووراء ذلك من مذاهبهم الفاسدة وسيرهم، ما لا يرضى ولا يحل، ورجالهم ونساؤهم يتصرفون عراة الا خرقا يستترون بها عوراتهم، وأكثرهم لا يستترون وبالجملة فهم أمة لا خلاق لهم ولا جناح على لاعنهم.

وفى يوم الاثنين الخامس والعشرين لربيع الأول المذكور، وهو الثامن عشر من يولية، ركبنا الجلبة للعبور الى جدة، فأقمنا يومنا ذلك بالمرسى لركود الريح ومغيب النواتية.

فلما كان صبيحة يوم الثلاثاء بعده ، أقلعنا على بركة الله عز وجل وحسن عونه المأمول ، فكانت مدة المقام بعيذاب — حاشى يوم الاثنين المذكور — ثلاثة وعشرين يوما ، محتسبة عند الله عز وجل ، لشظف العيش ، وسوء الحال ، واختلال الصحة لعدم الأغذية الموافقة .

وحسبك من بلد كل شيء فيه مجلوب حتى الماء ، والعطش أشهى الى النفس منه ، فأقمنا بين هواء يذيب الأجسام ، وماء يشغل المعدة عن اشتهاء الطعام ، فما ظلم من غنى عن هذه البلدة بقوله : « ماء زعاق وجو كله لهب » . فالحلول بها من أعظم المكاره التي حف بها السبيل الى البيت العتيق ، زاده الله تشريفا وتكريما ، وأعظم أجور الحجاج على ما يكابدون ، ولا سيما في تلك البلدة الملعونة .

ومما لهج الناس بذكره [1] قبائحها ، حتى يزعمون أن سليمان بن داود ، على نبينا وعليه السلام ، كان اتخذها سجنا للعفارتة [2] أراح الله الحجاج منها بعمارة السبيل القاصدة الى بيته الحرام ، وهي السبيل التي من مصر على عقبة * أيلة الى المدينة المقدسة ، وهي مسافة قريبة ، يكون البحر منها يمينا وجبل الطور المعظم يسارا ، لكن للافرنج بمقربة منها حصن مندوب يمنع الناس من سلوكه ، والله ينصر دينه ، ويعز كلمته بمنه .

فتمادى سيرنا [1] في البحر يوم الثلاثاء السادس والعشرين لربيع الأول المذكور ، ويوم الأربعاء بعده بريح فاترة [2] المهب ، فلما كان العشاء الآخرة من ليلة الخميس — ونحن قد استبشرنا برؤية الطير المحلقه من بر الحجاز — لمع برق من جهه البر المذكور ، وهي جهة الشرق ، ثم نشأ نوء أظلم له الأفق الى أن كسا الآفاق كلها ، وهبت ريح شديدة صرفت المركب عن طريقه راجعا وراءه ، وتمادى عصوف الرياح ، واشتدت حلكة الظلمة ، وعمت [3] الآفاق ، فلم ندر الجهة المقصودة منها ، الى أن ظهر بعض النجوم ، فاستدل بها بعض الاستدلال وحط القلع الى أسفل الدقل ، وهو الصاري .

وأقمنا ليلتنا تلك في هول يؤذن باليأس ، وأرانا بحر فرعون بعض أهواله الموصوفة ، الى أن أتى الله بالفرج مقترنا مع الصباح .... قياد الريح ، وأقشع الغيم وأصحت السماء ، ولاح لنا بر الحجاز على بعد لا نبصر منه الا بعض جباله ، وهي شرقا [4] من جدة ، زعم ربان المركب — وهو الرائس — أن بين تلك الجبال التي لاحت لنا وبر جدة يومين ، والله يسهل لنا كل صعب ، وييسر لنا كل عسير بعزته وكرمه .

فجرينا يومنا ذلك — وهو يوم الخميس المذكور — بريح رخاء طيبة ، ثم أرسينا عشية في جزيرة صغيرة في البحر ، على مقربة من البر المذكور ، بعد أن لقينا شعابا كثيرة يكسر فيها الماء ويضحك [5] علينا ، فتخللنا أثناءها [6] على حذر وتحفظ . وكان الربان بصيرا بصنعته ، حاذقا فيها ، فخلصنا الله منها حتى أرسينا بالجزيرة المذكورة ، ونزلنا اليها ، وبتنا بها ليلة الجمعة التاسع والعشرين لربيع

الأول المذكور ، وأصبح الهواء راكدا ، والريح غير متنفسة الا من الجهة التي لا توافقنا ، فأقمنا بها يوم الجمعة المذكور

فلما كان يوم السبت الموفى ثلاثين ، تنفست الريح بعض تنفس ، فأقلعنا بذلك النفس نسير سيرا رويدا ، وسكن البحر حتى خيل لناظره أنه صحن زجاج أزرق ، فأقمنا على تلك الحال نرجو لطف صنع الله عز وجل وهذه الجزيرة تعرف بجزيرة عائقة السفن ، فعصمنا الله عز وجل من فأل اسمها المذموم ، وله الحمد والشكر على ذلك .

شهر ربيع الآخر عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة السبت ونحن بالجزيرة المذكورة ، ولم يظهر تلك الليلة للأبصار بسبب النوء ، لكن ظهر في الليلة الثانية كبيرا مرتفعا ، فتحققنا اهلاله ليلة السبت المذكور ، وهو الثالث والعشرون [1] من شهر يولية . وفي عشي يوم الأحد ثانيه ، أرسينا بمرسى يعرف بأبحر [2] ، وهو على بعض يوم من جدة ، وهو من أعجب المراسي وضعا ، وذلك أن خليجا من البحر يدخل الى البر ، والبر مطيف به من كلتا حافتيه ، فترسى الجلاب [4] منه في قرارة مكنة هادية .

فلما كان سحر [5] يوم الاثنين بعده ، أقلعنا منه على بركة الله تعالى بريح فاترة ، والله الميسر لا رب سواه . فلما جن الليل أرسينا على مقربة من جدة ، وهي بمرأى العين منا ، وحالت الريح صبيحة يوم الثلاثاء بعده بيننا وبين دخول مرساها

ودخول هذه المراسي صعب المرام ، بسبب كثرة الشعاب والتفافها ، وأبصرنا من صنعة هؤلاء الرؤساء والنواتية ، في التصرف بالجلبة أثناءها ، أمرا ضخما [6] : يدخلونها على مضايق ، ويصرفونها خلالها تصريف الفارس للجواد الرطب العنان السلس القياد ، ويأتون في ذلك بعجب يضيق الوصف عنه .

وفي ظهر يوم الثلاثاء الرابع من شهر ربيع الآخر المذكور ، وهو السادس والعشرون [1] من شهر يولية [2] ، كان نزولنا بجدة ، حامدين لله عز وجل ، وشاكرين على السلامة والنجاة من هول ما عايناه في تلك الثمانية أيام طول مقامنا على البحر .

وكانت أهوالا شتى عصمنا الله منها بفضله وكرمه : فمنها ما كان يطرأ من البحر ، واختلاف رياحه ، وكثرة شعابه المعترضة فيه . ومنها ما كان يطرأ من ضعف عدة المركب واختلالها ، واقتصامها المرة بعد المرة ، عند رفع الشراع أو حطه أو جذب مرسى من مراسيه ، وربما سنحت [3] الجلبة بأسفلها على شعب من تلك الشعاب أثناء تحللها ، فنسمع لها هدا يؤذن باليأس ، فكنا فيها نموت مرارا ونحيى مرارا ، والحمد لله على ما من به من العصمة ، وتكفل به من الوقاية والكفاية ، حمدا يبلغ رضاه ، ويستهدي المزيد من نعماه بعزته وقدرته ، لا اله سواه .

وكان نزولنا فيها بدار القائد علي — وهو صاحب جدة من قبل أمير مكة المذكور [4] — في صرح من تلك الصروح الخصوصية التي

يبنونها فى أعالى ديارهم ، ويخرجون منها الى سطوح يبيتون * فيها .

وعند احتلالنا جدة المذكورة ، عاهدنا الله عز وجل — سرورا بما أنعم الله به من السلامة — ألا يكون انصرافنا على هذا البحر الملعون ، الا ان طرأت ضرورة تحول بيننا وبين سواه من الطرق ، والله ولى الخيرة فى جميع ما يقضيه ويسنيه بعزته .

وجدة هذه قرية على ساحل البحر المذكور أكثر بيوتها أخصاص ، وفيها [6] فنادق مبنية بالحجارة والطين ، وفى أعلاها بيوت من الأخصاص كالغرف ، ولها سطوح يستراح فيها بالليل من أذى الحر .

وبهذه القرية آثار . قديمة تدل على أنها كانت مدينة قديمة ، وأثر سورها المحدق بها باق الى اليوم [1] ، وبها موضع فيه قبة مشيدة عتيقة ، يذكر أنه كان منزل حواء أم البشر ، صلى الله عليها ، عند توجهها الى مكة ، فبنى ذلك المبنى عليه تشهيرا لبركته وفضله ، والله أعلم بذلك .

وفيها [2] مسجد مبارك منسوب الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ومسجد آخر له ساريتان من خشب الأبنوس ينسب أيضا اليه رضى الله عنه ، ومنهم من ينسبه الى هارون الرشيد رحمة الله عليه

وأكثر سكان هذه البلدة — مع ما يليها من الصحراء والجبال — أشراف علويون [3] وحسنيون وحسينيون وجعفريون ، رضى الله عن سلفهم الكريم ، وهم من شظف العيش بحال يتصدع له الجماد اشفاقا ، ويستخدمون أنفسهم فى كل مهنة من المهن : من اكراء جمال [4] ان كانت لهم ، أو مبيع لبن أو ماء ، الى غير ذلك من تمر يلتقطونه ، أو حطب يحتطبونه ، وربما تناول ذلك نساؤهم الشريفات بأنفسهن ، فسبحان المقدر لما يشاء . ولا شك أنهم أهل بيت ارتضى الله لهم الآخرة ، ولم يرتض لهم الدنيا ، جعلنا الله ممن يدين بحب أهل البيت الذين أذهب عنهم الرجس ، وطهرهم تطهيرا .

وبخارج هذه البلد مصانع قديمة تدل على قدم اختطاطها ، ويذكر أنها كانت من مدن الفرس ، وبها جباب منقورة فى الحجر الصلد ، يتصل بعضها ببعض ، تفوت الاحصاء كثرة ، هى داخل البلد وخارجه ، حتى انهم يزعمون أن التى خارج البلد ثلثمائة وستون [6] جبا ، ومثل ذلك داخل البلد ، وعاينا نحن جملة كثيرة لا يأخذها الاحصاء . وعجائب الموضوعات كثيرة ، فسبحان المحيط علما بها .

وأكثر أهل [7] هذه الجهات الحجازية وسواها فرق وشيع لا دين لهم ، قد تفرقوا على مذاهب شتى ، وهم يعتقدون فى الحاج ما لا يعتقد فى أهل الذمة ، قد صيروهم من أعظم غلاتهم التى يستغلونها ، ينتهبونهم انتهابا ، ويسببون لاستجلاب ما بأيديهم استجلابا . فالحاج معهم لا يزال فى غرامة ومؤنة الى أن ييسر الله رجوعه الى وطنه .

ولولا ما تلافى الله به المسلمين فى هذه الجهات بصلاح الدين ، لكانوا من الظلم فى أمر لا ينادى وليده ولا يليّن شديده ، فانه رفع ضرائب المكوس عن الحاج ، وجعل عوض ذلك مالا وطعاما يأمر بتوصيلهما [1] الى مكثر ، أمير مكة ، فمتى أبطأت عنهم تلك الوظيفة المترتبة لهم ، عاد هذا الأمير الى ترويع الحاج واظهار تثقيفهم بسبب المكوس .

واتفق لنا من ذلك أن وصلنا جدة ، فأمسكنا بها خلال ما خوطب مكثر ، الأمير المذكور ، فورد أمره بأن يضمن الحاج بعضهم بعضا ، ويدخلوا الى حرم الله ، فان ورد المال والطعام اللذان برسمه من قبل صلاح الدين ، والا فهو لا يترك ماله قبل الحاج ، هذا لفظه ، كأن حرم الله ميراث بيده ، محلل له اكتراؤه [2] من الحاج ، فسبحان مغير السنن ومبدلها .

والذى جعل له صلاح الدين ، بدلا من مكس الحاج ، ألفا دينار اثنان ، وألفا اردب من القمح — وهو نحو الثمانمائة قفيز بالكيل الاشبيلى عندنا — حاشى اقطاعات أقطعها بصعيد مصر وبجهة اليمن لهم بهذا الرسم المذكور . ولولا مغيب هذا السلطان العادل صلاح الدين بجهة الشام ، فى حروب له هناك مع الافرنج ، لما صدر عن هذا الأمير المذكور ما صدر فى جهة الحاج .

فأحق بلاد الله بأن يطهرها السيف ، ويغسل أرجاسها وأدناسها بالدماء المسفوكة فى سبيل الله ، هذه البلاد الحجازية ، لما هم عليه من حل عرى الاسلام ، واستحلال أموال الحاج ودمائهم . فمن يعتقد من فقهاء أهل الأندلس اسقاط هذه الفريضة عنهم ، فاعتقاده صحيح لهذا السبب ، وبما يصنع بالحاج مما لا يرتضيه الله عز وجل .

فراكب هذا السبيل راكب خطر ومعتسف غرَر ، والله قد أوجد الرخصة فيه على غير هذه الحال ، فكيف وبيت الله الآن بأيدى أقوام قد اتخذوه معيشة حرام ، وجعلوه سببا الى استلاب الأموال واستحقاقها من غير حل ، ومصادرة الحجاج عليها ، وضرب الذلة والمسكنة الدنية عليهم . تلافاها الله عن قريب بتطهير يرفع هذه البدع المجحفة عن المسلمين بسيوف الموحدين أنصار الدين ، وحزب الله أولى الحق والصدق ، والذابين عن حرم الله عز وجل ، والغائرين على محارمه ، والجادين فى اعلاء كلمته واظهار دعوته ونصر ملته . انه على ما يشاء قدير ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

وليتحقق المتحقق ، ويعتقد الصحيح الاعتقاد ، أنه لا اسلام الا ببلاد المغرب ، لأنهم على جادّة واضحة لا بنيات لها ، وما سوى ذلك — مما بهذه الجهات المشرقية — فأهواء وبدع ، وفرق ضالة وشيع ، الا من عصم الله عز وجل من أهلها . كما أنه لا عدل ولا حق ولا دين على وجهها [1] الا عند الموحدين — أعزهم الله — فهم آخر أيمة العدل فى الزمان .

وكل من سواهم من الملوك فى هذا الأوان ٢ فعلى غير الطريقة : يعشرون تجار المسلمين كأنهم أهل ذمة لديهم ، ويستجلبون أموالهم بكل حيلة وسبب ، ويركبون طرائق من الظلم لم يسمع بمثلها . اللهم الا هذا السلطان العادل صلاح الدين الذى قد ذكرنا سيرته ومناقبه ، لو كان له أعوان على الحق ... مما أريد ، والله عز وجل يتلافى المسلمين بجميل نظره ولطيف صنعه .

ومن عجيب ما شاهدناه فى أمر الدعوة المؤمنية الموحدية ، وانتشار كلمتها بهذه البلاد ، واستشعار أهلها لملكتها ، أن أكثر أهلها منهم ، بل الكل منهم ، يرمزون بذلك رمزا خفيا ، حتى يؤدى ذلك بهم الى التصريح ، وينسبون ذلك لآثار حدثانية وقعت بأيدى بعضهم ، أنذرت بأشياء من الكوائن ، فعاينوها صحيحة .

فمن بعض الآثار المؤذنة بذلك عندهم ، أن بين جامع ابن طولون والقاهرة برجين مقتربين عتيقى [١] البناء ، على أحدهما تمثال ناظر الى جهة المغرب ، وكان على الآخر تمثال ناظر الى المشرق ، فكانوا يرون أن أحدهما اذا سقط أنذر بغلبة أهل الجهة التى كان ناظرا اليها على ديار مصر وسواها .

وكان من الاتفاق العجيب أن وقع التمثال الناظر الى المشرق ، فتلا وقوعه استيلاء الغز على الدولة العبيدية ، وتملكهم ديار مصر وسائر البلاد . وهم الآن متوقعون سقوط التمثال الغربى ، وحدثان ما يؤملونه من ملكة أهله لهم ان شاء الله ، ولم يبق الا الكائنة السعيدة من تملك الموحدين لهذه البلاد ، فهم يستطلعون بها صبحا جليا ، ويقطعون بصحتها ، ويرتقبونها ارتقاب الساعة التى لا يمترون فى انجاز وعدها .

شاهدنا من ذلك بالاسكندرية ومصر وسواهما [٢] ، مشافهة وسماعا ، أمرا غريبا يدل على أن ذلك الأمر العزيز أمر الله الحق ودعوته الصدق . ونمى الينا أن بعض فقهاء هذه البلاد [٣] المذكورة وزعمائها ، قد حبر خطبا أعدها للقيام بها بين يدى سيدنا أمير المؤمنين — أعلى الله أمره — وهو يرتقب ذلك اليوم ارتقاب يوم السعادة ، وينتظره انتظار الفرج بالصبر الذى هو عبادة ، والله عز وجل يبسطها من كلمة ، ويعليها من دعوة ، انه على ما يشاء قدير .

وفى عشى يوم الثلاثاء الحادى عشر من الشهر المذكور ، وهو الثانى من شهر أغشت ، كان انفصالنا من جدة ، بعد أن ضمن الحجاج بعضهم بعضا ، وثبتت أسماؤهم فى زمام عند قائد جدة على بن موفق ، حسبما نفذ اليه أمر [٥] ذلك من سلطانه صاحب مكة مكثر بن عيسى المذكور . وهذا الرجل مكثر من ذرية الحسن بن على رضوان الله عليهما ، لكنه ممن يعمل غير صالح ، فليس من أهل سلفه الكريم رضى الله عنهم .

وأسرينا تلك الليلة الى أن وصلنا القرين مع طلوع الشمس ، وهذا الموضع هو منزل

الحاج ومحط رحالهم ، ومنه يحرمون ، وبه يرحمون اليوم الذى يصبحونه ، فاذا كان فى عشيه رفعوا وأسروا ليلتهم ، وصبحوا الحرم الشريف — زاده الله تشريفا وتعظيما — والصادرون من الحج ينزلون به أيضا ، ويسرون منه الى جدة وبهذا الموضع المذكور بئر معينة عذبة ، والحاج بسببها لا يحتاجون الى تزود الماء غير ليلة اسرائهم اليه

فاقمنا بياض يوم الأربعاء المذكور مريحين بالقرين ، فلما حان العشى رحنا منه محرمين بعمرة ، فأسرينا ليلتنا تلك ، فكان وصولنا مع الفجر الى قريب الحرم ، فنزلنا مرتقبين لانتشار الضوء ، ودخلنا مكة ، حرسها [2] الله ، فى الساعة الأولى من يوم الخميس الثالث عشر لربيع المذكور ، وهو الرابع من شهر أغشت ، على باب العمرة

وكان اسراؤنا تلك الليلة المذكورة ، والقمر قد ألقى على البسيطه شعاعه ، والليل قد كشف عنا قناعه ، الأصوات تصك [3] الآذان بالتلبية من كل مكان ، والالسنة تضج بالدعاء ، وتبتهل الى الله بالرغباء [4] ، فتارة تشتد بالتلبية وآونة تتضرع بالأدعية . فيالها ليلة كانت فى الحسن بيضة العقد ، فهى عروس ليالى العمر ، وبكر بنيات الدهر .

الى أن وصلنا فى الساعة المذكورة ، من اليوم المذكور ، حرم الله العظيم ، ومبوأ الخليل ابراهيم ، فألفينا الكعبة البيت الحرام عروسا مجلوة مزفوفة الى جنة الرضوان ، محفوفة بوفود الرحمن . فطفنا طواف القدوم ، ثم صلينا بالمقام الكريم ، وتعلقنا بأستار الكعبة عند الملتزم — وهو بين الحجر الأسود والباب ، وهو موضع استجابة الدعوة — ودخلنا قبة زمزم ، وشربنا من مائها ، وهو « لما شرب له » كما قال [1] صلى الله عليه وسلم ، ثم سعينا بين الصفا والمروة ، ثم حلقنا وأحللنا ، فالحمد لله الذى كرمنا بالوفادة عليه ، وجعلنا ممن انتهت الدعوة الابراهيمية اليه ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وكان نزولنا فيها بدار تعرف بالنسبة الى الحلال ، قريبا من الحرم ومن باب السدة ، أحد أبوابه ، فى حجرة كثيرة المرافق المسكنية ، مشرفة على الحرم وعلى الكعبة المقدسة

شهر جمادى الأولى ، عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الاثنين الثانى والعشرين لأغشت ، وقد كمل لنا بمكة — شرفها الله تعالى — ثمانية عشر يوما . فهلال هذا الشهر أسعد هلال اجتلته أبصارنا فيما سلف من أعمارنا ، طلع علينا وقد تبوأنا مقعد الجدار الكريم ، وحرم الله العظيم ، والقبة [2] التى فيها مقام ابراهيم مبعث الرسول ، ومهبط الروح الأمين جبريل بالوحى والتنزيل . فأوزعنا الله شكر هذه المنة ، وعرفنا قدر ما خصنا به من نعمة ، وختم لنا بالقبول ، وأجرانا على كريم عوائده من الصنع الجميل ، ولطيف التيسير والتسهيل ، بعزته وقدرته لا اله سواه .

ذكر المسجد الحرام والبيت العتيق كرمه الله وشرفه

البيت المكرم له أربعة أركان ، وهو قريب من التربيع ، وأخبرني زعيم الشيبيين الذين اليهم سدانة البيت — وهو محمد بن اسماعيل بن عبد الرحن ابن .... من ذرية عثمان بن طلحة بن شيبة بن طلحة بن عبد الدار ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصاحب حجابة البيت — أن ارتفاعه في الهواء من الصفح الذي يقابل باب الصفا ، وهو من الحجر الأسود الى الركن اليماني ، تسع وعشرون ذراعا ، وسائر الجوانب ثمان وعشرون ، بسبب انصباب السطح الى الميزاب .

فأول أركانه الركن الذي فيه الحجر الأسود ، ومنه ابتداء الطواف ، ويتقهقر الطائف عنه ليمر جميع بدنه به [1] والبيت المكرم عن يساره .

وأول ما يلقى بعده الركن العراقي وهو ناظر الى الجهة الشمال ، ثم الركن الشامي وهو ناظر الى جهة الغرب ، ثم الركن اليماني وهو ناظر الى جهة الجنوب ، ثم يعود الى الركن الأسود وهو ناظر الى جهة الشرق ، وعند ذلك يتم شوطا واحدا .

وباب البيت الكريم في الصفح الذي بين الركن العراقي وركن الحجر الأسود ، وهو قريب من الحجر بعشرة أشبار مخففة ، وذلك الموضع الذي بينهما من صفح البيت يسمى الملتزم ، وهو موضع استجابة الدعاء .

والباب الكريم مرتفع عن الأرض بأحد عشر شبرا ونصف ، وهو من فضة مذهبة ، بديع الصنعة رائق الصفة ، يستوقف الأبصار حسنا وخشوعا للمهابة التي كساها الله بيته ، وعضادتاه كذلك ، والعتبة العليا كذلك أيضا ، وعلى رأسها لوح ذهب خالص ابريز ، في سعته مقدار شبرين ، وللباب نقارتا [2] فضة كبيرتان يتعلق [3] عليهما قفل الباب ، وهو ناظر للشرق ، وسعته ثمانية أشبار ، وطوله ثلاثة عشر شبرا ، وغلظ الحائط الذي ينطوي عليه الباب خمسة أشبار .

وداخل البيت الكريم مفروش بالرخام المجزع ، وحيطانه كلها رخام [4] مجزع ، قد قام على ثلاثة أعمدة من الساج مفرطة [5] الطول ، وبين كل عمود وعمود أربع خطا ، وهي على طول البيت متوسطة فيه ، فأحد الأعمدة — وهو أولها — يقابل نصف الصفح الذي يحف به الركنان اليمانيان [1] ، وبينه وبين الصفح مقدار ثلاث خطا ، والعمود الثالث — وهو آخرها — يقابل الصفح الذي يحف به [2] الركنان العراقي والشامي .

ودائر البيت كله ، من نصفه الأعلى ، مطلي بالفضة المذهبة الثخينة [3] ، يخيل للناظر اليها أنها صفيحة [4] ذهب لغلظها ، وهي تحف [5] بالجوانب الأربعة [6] ، وتمسك مقدار نصف الجدار الأعلى ، وسقف البيت مجلل بكساء من الحرير الملون .

وظاهر الكعبة كلها ، من الأربعة جوانب ، مكسو بستور من الحرير الأخضر ، وسداها قطن ، وفي أعلاها رسم بالجزير الأحمر [6] ، فيه مكتوب « ان أول بيت وضع للنـاس للذي ببكة » الآية [7] ، واسم الامام الناصر لدين الله في سعته قدر ثلاث [8] أذرع يطيف بها كلها . قد شكل في هذه الستور من الصنعة الغريبة التي دمصره [9] أشكال محاريب رائقة ، ورسوم مقروءة مرسومة بذكر الله تعـالى ، وبالدعاء للناصر العباسي المذكور الآمر باقامتها ، وكل ذلك لا يخالف لونهـا . وعدد الستـور من الجوانب الأربعة أربعة وثلاثون سترا ، وفي الصفحين الكبيرين [10] منها ثمانية عشر ، وفي الصفحين الصغيرين [11] ستة عشر ، وله خمسة مضاو ، وعليهـا زجاج عراقي بديع النقش ، أحدها [12] في وسط السـقف ، ومع كل ركن مضوى [13] . والواحد منها لا يظهر لأنه تحت القبو المذكور بعد وبين الأعمدة أكواس من الفضة عددها ثلاث عشرة [1] ، واحداها من ذهب .

وأول ما يلقى [2] الداخل على الباب عن [3] يساره الركن الذي خارجه الحجر الأسود ، وفيه صندوقان فيهما مصاحف ، وقد عـلاهما في الركن بويبـان من فضـة كأنهما طاقان ملصقان بزاوية الركن ، وبينهما وبين الأرض أزيد من قامة . وفي الركن الذي يليه — وهو اليماني — كذلك ، لكنهمـا انقلعـا ، وبقي العود الذي كانا ملصقين عليه ، وفي الركن الشامي كذلك وهما باقيان ، وفي جهة الركن العراقي كذلك .

وعن يمينـه الركن العراقي ، وفيـه باب يسمى بباب الرحمة ، يصعد منـه الى سطح البيت المكرم ، وقد قام له قبو ، فهو متصل بأعلى سطح البيت ، داخـله الأدراج ، وفي أوله البيت المحتوى عـلى المقام الـكريم ، فتجد للبيت العتيق [4] بسبب هذا القبو خمسة أركان ، وفي سعة صفحيه قامتان ، وهو محتو على الركن العراقي بنصفين من كل صفح [5] ، وثلثا قناة هذا القبو مكسوان بسرق [6] الحرير الملون كأنه قد لف فيه ثم وضع .

وهذا المقام الكريم ، الذي داخل هـذا القبو ، هو مقام ابراهيم صلى الله على نبينا وعليه ، وهو حجر مغشى بالفضـة ، وارتفاعه مقدار ثلاثة أشبار ، وسعته مقـدار شبرين ، وأعلاه أوسع من أسفله ، فكأنه — وله التنزيه والمثل الأعلى — كانون فخار كبير ، أوسطه يضيق عن أسفله وعن أعلاه . عايناه وتبركنـا بلمسه وتقبيله ، وصب لنا في أثر القـدمين المباركتين [7] ماء زمزم فشربناه ، نفعنا الله به ، وأثرهما بين وأثر الأصابع المـكرمة المباركة ، فسبحان من ألانه لواطئه حتى أثرت [8] فيه ولا تأثير القدم في الرمل الوثير ، سبحان جاعله من الآيات البينات .

ولمعاينته ومعاينة البيت الكريم هول يشعر النفـوس من الذهـول ، ويطيش الأفئـدة والعقول ، فلا تبصر الا لحظات خاشـعة ، وعبرات هامعة ، ومدامع باكية ، وألسنة الى الله عز وجل ضارعة داعية .

وبين الباب الكريم والركن العراقى حوض طوله اثنا عشر شبرا ، وعرضه خمسة أشبار ونصف ، وارتفاعه نحو شبر متصل من قبالة عضادة الباب التى تلى الركن المذكور ، آخذا الى جهته ، وهو علامة موضع المقام مدة ابراهيم عليه السلام ، الى أن صرفه النبى صلى الله عليه وسلم الى الموضع الذى هو الآن مصلى ، وبقى الحوض المذكور مصبا لماء البيت اذا غسل ، وهو موضع مبارك ، يقال انه روضة من رياض الجنة ، والناس يزدحمون للصلاة فيه ، وأسفله مفروش برملة بيضاء وثيرة .

وموضع المقام الكريم هو الذى يصلى خلفه ، يقابل ما بين الباب الكريم والركن العراقى ، وهو الى الباب أميل بكثير ، وعليه قبة خشب فى مقدار القامة أو أزيد ، مركنة [1] محددة بديعة النقش ، سعتها من ركنها الواحد الى الثانى أربعة أشبار .

وقد نصبت على الموضع الذى كان فيه المقام وحوله تكفيف من حجارة ، نصبت على حرف [2] كالحوض المستطيل فى ارتفاعه نحو شبر ، وطوله خمس خطا ، وعرضه ثلاث خطا ، وأدخل [3] المقام الى الموضع الذى وصفناه فى البيت الكريم احتياطا عليه ، بينه وبين صفح البيت الذى يقابله سبع عشرة خطوة ، والخطوة كلها فيها ثلاثة أشبار ، ولموضع المقام أيضا قبة مصنوعة من حديد ، موضوعة الى جانب قبة زمزم . فاذا كان فى أشهر الحج ، وكثر الناس ، ووصل العراقيون والخراسانيون ، رفعت قبة الخشب ، ووضعت قبة الحديد لتكون أحمل [4] للازدحام .

ومن . الركن الذى فيه الحجر الأسود الى الركن العراقى أربعة وخمسون شبرا مخففة ، ومن الحجر الأسود الى الأرض ستة أشبار ، فالطويل يتطأمن اليه [1] ، والقصير يتطاول اليه . ومن الركن العراقى الى الركن الشامى ثمانية وأربعون شبرا مخففة ، وذلك داخل الحجر ، وأما من خارج فمنه اليه أربعون خطوة ، وهى مائة وعشرون شبرا مخففة ، ومن خارجه يكون الطواف . ومن الركن الشامى الى الركن اليمانى ما من الركن الأسود الى العراقى ، لأنه الصفح الذى يقابله . ومن اليمانى الى الأسود ما من العراقى الى الشامى داخل الحجر ، لأنه الصفح الذى يقابله .

وموضع الطواف مفروش بحجارة مبسوطة كأنها الرخام حسنا ، منها سود وسمر وبيض ، قد ألصق بعضها الى بعض ، واتسعت عن البيت بمقدار تسع خطا ، الا فى الجهة التى تقابل المقام ، فانها امتدت اليها حتى أحاطت به . وسائر الحرم مع البلاطات كلها مفروش برمل أبيض ، وطواف النساء فى آخر الحجارة المفروشة .

وبين الركن العراقى وبين أول جدار الحجر مدخل الى الحجر سعته أربع خطا ، وهى ست أذرع محققة كلناها باليد ، وهذا الموضع الذى لم يحجر عليه ، هو الذى تركت قريش من البيت ، وهو ست [2] أذرع حسبما وردت به الآثار الصحاح ، ويقابله عند الركن الشامى مدخل آخر على مثال تلك السعة .

وبين جدار البيت الذى تحت الميزاب ، والذى [٣] يقابله من جدار الحجر على خط استواء يشق وسط الصحن المذكور أربعون شبرا ، وسعته من المدخل الى المدخل ست عشرة خطوة ، وهى ثمانية وأربعون شبرا [٤] . وهو — يعنى دور الجدار — رخام كله مجزع بديع * الالصاق ...... قضبان صفر مذهبة ، وضع منها فى صفحه أشكال شطرنجية متداخلة بعضها على بعض ، وصفات محاريب ، فاذا ضربت الشمس فيها ، لاح لها بصيص ولألاء يخيل للناظر اليها أنها ذهب يرتمى بالأبصار شعاعه ، وفى ارتفاع جدار هذا الحجر الرخامى خمسة أشبار ونصف ، وسعته أربعة أشبار ونصف .

وداخل الحجر بلاط واسع ، ينعطف عليه الحجر كأنه ثلثا دائرة ، وهو مفروش بالرخام المجزع ، المقطع فى دور الكف [١] الى دور الدينار الى ما فوق ذلك [٢] ، ثم ألصق بانتظام بديع ، وتأليف معجز الصنعة ، غريب الاتقان ، رائق الترصيع والتجزيع ، رائع التركيب والرصف ، يبصر الناظر فيه من التعاريج والتقاطيع والخواتم والأشكال الشطرنجية ، وسواها على اختلاف أنواعها [٣] وصفاتها ، ما يقيد بصره حسنا ، فكأنه يجيله [٤] فى أزهار مفروشة مختلفات الألوان ، الى محاريب قد انعطف عليها الرخام انعطاف القسى ، وداخلها هذه الأشكال الموصوفة والصنائع المذكورة .

وبازائها رخامتان متصلتان بجدار الحجر المقابل للميزاب ، أحدث الصانع فيهما [٥] من التوريق الرقيق ، والتشجير والتقضيب [٦] ما لا يحدثه الصنع اليدين فى الكاغد قطعا بالجلمين ، فمرآهما عجيب ، أمر بصنعتهما [٧] على هذه الصفة امام المشرق أبو العباس أحمد الناصر بن المستضىء بالله أبى محمد الحسن ، ابن المستنجد بالله أبى المظفر يوسف العباسى ، رضى الله عنه .

ويقابل الميزاب فى وسط الحجر ، وفى نصف جداره الرخامى ، رخامة قد نقشت أبدع نقش ، وحفت بها [٨] طرة منقوشة نقشا مكحلا عجيبا ، فيه مكتوب ، مما أمر بعمله عبد الله وخليفته أبو العباس * أحمد ، الناصر لدين الله أمير المؤمنين ، وذلك فى سنة [٩] ست وسبعين وخمسمائة .

والميزاب فى أعلى الصفح الذى يلى [١] الحجر المذكور ، وهو من صفر مذهب قد خرج الى الحجر بمقدار أربع أذرع ، وسعته مقدار شبر ، وهذا الموضع تحت الميزاب هو [٢] أيضا مظنة استجابة الدعوة بفضل الله تعالى ، وكذلك الركن اليمانى ، ويسمى المستجار ما يليه ، وهذا الصفح المتصل به من جهة الركن الشامى .

وتحت الميزاب ، فى صحن الحجر بمقربة من جدار البيت الكريم ، قبر [٣] اسماعيل صلى الله عليه وسلم ، وعلامته رخامة خضراء مستطيلة قليلا شكل محراب ، تتصل بها رخامة خضراء مستديرة ، وكلتاهما [٤] غريبة المنظر ، فيهما نكت تنفتح عن لونها الى الصفرة قليلا كأنها تجزيع ، وهى أشبه الأشياء

بالنكت التى تبقى فى البيدق * من حل الذهب فيه . والى جانبه ، مما يلى الركن العراقى ، قبر أمه هاجر رضى الله عنهما ، وعلامته رخامة خضراء سعتها مقدار شبر ونصف . يتبرك الناس بالصلاة فى هذين الموضعين من الحجر ، وحق لهم ذلك ، لأنهما من البيت العتيق ، وقد انطبقا على جسدين مقدسين مكرمين ، نورهما الله ونفع ببركتهما كل من صلى عليهما ، وبين القبرين المقدسين سبعة أشبار .

وقبة بئر زمزم تقابل الركن الأسود ، ومنها اليه أربع وعشرون خطوة ، والمقام المذكور الذى يصلى خلفه عن يمين القبة ، ومن ركنها اليه [6] عشر خطا ، وداخلها مفروش بالرخام الأبيض الناصع البياض ، وتنور البئر المباركة فى وسطها مائل عن الوسط الى جهة الجدار الذى يقابل البيت المكرم ، وعمقها احدى عشرة قامة حسبما ذرعناه ، وعمق الماء سبع قامات على ما يذكر .

وباب القبة ناظر الى الشرق ، وبابا قبة العباس وقبة اليهودية ناظران الى الشمال ، والركن من الصفح — الناظر الى البيت العتيق من القبة المنسوبة الى اليهودية — يتصل بالركن الأيسر من الصفح الأخير الناظر الى الشرق من القبة العباسية ، فبينهما هذا القدر من الانحراف .

وتلى قبة بئر زمزم من ورائها قبة الشراب ، وهى المنسوبة للعباس رضى الله عنه ، وتلى هذه القبة العباسية على انحراف عنها قبة تنسب لليهودية ، وهاتان القبتان مخزنان لأوقاف البيت الكريم ، من مصاحف وكتب وأنوار شمع وغير ذلك . والقبة العباسية لم تخل من نسبتها الشرابية لأنها كانت سقاية الحاج ، وهى حتى الآن يبرد فيها ماء زمزم ، ويخرج مع الليل لسقى الحاج فى قلال يسمونها الدوارق ، كل دورق منها ذو مقبض واحد .

وتنور بئر زمزم من رخام قد ألصق بعضه ببعض الصاقا لا تحيله الأيام ، وأفرغ فى أثنائه الرصاص وكذلك داخل التنور ، وحفت به من أعمدة الرصاص الملصقة اليه — ابلاغا فى قوة لزه ورصه — اثنان وثلاثون عمودا قد خرجت لها رؤوس قابضة على حافة البئر دائرة بالتنور كله ، ودوره أربعون شبرا ، وارتفاعه أربعة أشبار ونصف ، وغلظه شبر ونصف .

وقد استدارت بداخل القبة سقاية سعتها شبر ، وعمقها نحو شبرين ، وارتفاعها عن الأرض خمسة أشبار ، تملأ ماء للوضوء ، وحولها مسطبة دائرة يرتفع الناس اليها ، ويتوضأون عليها .

والحجر الأسود المبارك ملصق فى الركن الناظر الى جهة المشرق ، ولا يدرى قدر ما دخل فى الركن ؛ وقيل انه داخل فى الجدار بمقدار ذراعين ، وسعته ثلثا شبر ، وطوله شبر وعقد ، وفيه أربع قطع ملصقة ، ويقال ان القرمطى — لعنه الله — كان الذى كسره ، وقد شدت جوانبه بصفيحة فضة يلوح بصيص بياضها على بصيص سواد الحجر

ورونقه الصقيل ، فيبصر الرائي من ذلك منظرا عجيبا هو قيد الأبصار ، وللحجر عند تقبيله لدونة ورطوبة يتنعم بها الفم ، حتى يود اللاثم ألا يقلع فمه عنه ، وذلك خاصة من خواص العناية الالهية ، وكفى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « وانه يمين الله في أرضه »[1] ، نفعنا الله باستلامه ومصافحته ، وأوفد عليه كل شيق اليه بمنه .

وفى القطعة الصحيحة من الحجر — مما يلى جانبه الذى يلى يمين المستلم له اذا وقفه مستقبله — نقطة بيضاء صغيرة مشرقة ، تلوح كأنها خال فى تلك الصفحة المباركة ، وفى هذه الشامة البيضاء أثر أن النظر اليها يجلو البصر ، فيجب على المقبل أن يقصد بتقبيله موضع الشامة المذكورة ما استطاع .

والمسجد الحرام يطيف به ثلاثة بلاطات ، على ثلاث سوار من الرخام ، منتظمة كأنها بلاط واحد ، ذرعها فى الطول أربعمائة ذراع ، وفى العرض ثلثمائة ذراع ، فيكون تكسيره محققا ثمانية وأربعين مرجعا ، وما بين البلاطات فضاء كبير ، وكان على عهد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — صغيرا ، وقبة زمزم خارجة عنه .

وفى مقابلة الركن الشامى رأس سارية ثابتة فى الأرض ، منها كان حد الحرم أولا ، وبين رأس السارية وبين الركن الشامى المذكور اثنتان وعشرون خطوة ، والكعبة فى وسطه على استواء من الجوانب الأربعة ما بين الشرق والجنوب والشمال والغرب ،

وعدد سواريه الرخامية — التى عددتها بنفسى — أربعمائة سارية واحدى وسبعون سارية ، حاشى الجصية[2] التى منها فى دار الندوة ، وهى التى زيدت فى الحرم ، وهى داخلة فى البلاط[3] الآخذ من الغرب الى الشمال ، ويقابلها المقام مع الركن العراقى ، وفضاؤها متسع يدخل من البلاط[3] اليه .

ويتصل بجدار هذا البلاط كله مصاطب ، تحت قسى حنايا ، يجلس فيها النساخون والمقرئون وبعض أهل صنعة الخياطة ، والحرم محدق بحلقات المدرسين وأهل العلم ، وفى جدار البلاط الذى يقابله أيضا مصاطب[4] تحت حنايا على تلك الصفة ، وهو البلاط الآخذ من الجنوب الى الشرق .

وسائر البلاطات تحت جداراتها مصاطب دون حنايا عليها ، والبنيان فيها الآن على أكمل ما يكون ، وعند باب ابراهيم مدخل آخر من البلاط الآخذ[1] من الغرب الى الجنوب ، فيه أيضا سوار جصية[2] ، ووجدت بخط أبى جعفر بن على[3] الفنكى القرطبى الفقيه المحدث أن عدد سواريه أربعمائة وثمانون ، لأنى لم أحسب التى خارج باب الصفا .

وللمهدى محمد بن أبى جعفر المنصور العباسى ، فى توسعة المسجد الحرام والتأنق فى بنائه ، آثار كريمة ، وجدت[4] فى الجهة التى من الغرب الى الشمال ، مكتوبا فى أعلى جدار البلاط « أمر عبد الله محمد المهدى أمير المؤمنين — أصلحه الله — بتوسعة

المسجد الحرام لحاج بيت الله وعماره فى سنة سبع وستين ومائة » .

وللحرم سبع صوامع : أربع فى الأربعة [٥] جوانب ، وواحدة فى دار الندوة ، وأخرى على باب الصفا — وهى أصغرها ، وهى علم لباب الصفا ، وليس يصعد اليها لضيقها — وعلى باب ابراهيم صومعة قد ذكرت عند باب ابراهيم فيما بعد .

وباب الصفا يقابل الركن الأسود ، فى البلاط الذى من الجنوب الى الشرق ، وفى وسط البلاط المقابل للباب ساريتان مقابلتان [٦] الركن المذكور ، فيهما [٧] منقوش « أمر عبد الله محمد المهدى أمير المؤمنين — أصلحه الله — باقامة هاتين الأسطوانتين ، علما لطريق رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الصفا ، ليتأسى به حاج بيت الله وعماره ، على يدى يقطين بن موسى وابراهيم بن صالح ، فى سنة سبع وستين ومائة » .

وفى باب الكعبة المقدسة نقش بالذهب ، رائق الخط ، طويل الحروف غليظها ، يرتمى الأبصار [٨] برونقه وحسنه ، مكتوب فيه « مما * أمر بعمله عبد الله وخليفته الامام أبو عبد الله محمد المقتفى لأمر الله أمير المؤمنين — صلى الله عليه وعلى الأيمة آبائه الطاهرين وخلد ميراث النبوة لديه ، وجعلها كلمة باقية فى عقبه الى يوم الدين — فى سنة خمسين وخمسمائة ، فى صفحتى البابين ، على هذا النص المذكور » .

ويكتنف البابين الكريمين عضادة غليظة من الفضة المذهبة ، البديعة النقش ، تصعد الى العتبة المباركة وتشف [١] عليها ، وتستدير بجانبى البابين ، ويعترض أيضا بين البابين — عند اغلاقهما — شبه العضادة الكبيرة من الفضة المذهبة ، هى بطول البابين ، متصلة بالواحد منهما الذى عن يسار الداخل الى البيت .

وكسوة الكعبة المقدسة من الحرير الأخضر حسبما ذكرناه ، وهى أربع وثلاثون شقة : فى الصفح الذى بين الركن اليمانى والشامى منها تسع ، وفى الصفح الذى يقابله بين الركن الأسود والعراقى تسع أيضا ، وفى الصفح بين العراقى والشامى ثمان ، وفى الصفح بين اليمانى والأسود ثمان أيضا . قد وصلت كلها فجاءت كأنها ستر واحد يعم الأربعة [٢] جوانب .

وقد أحاط بها من أسفلها تكفيف مبنى بالجص ، فى ارتفاعه أزيد من شبر ، وفى سعته شبران أو أزيد قليلا ، فى داخله خشب غير ظاهر ، وقد سمرت فيه أوتاد حديد فى رؤوسها حلقات حديد ظاهرة ، قد أدخل فيها مرس من القنب غليظ مفتول ، واستدار بالجوانب الأربعة [٢] ، بعد أن وضع فى أذيال الستور شبه حجز [٣] السراويلات ، وأدخل فيها ذلك المرس ، وخيط عليه بخيوط من القطن المفتولة الوثيقة ، ومجتمع الستور فى الأركان الأربعة مخيط الى أزيد من قامة ، ثم منها الى أعلاها تتصل بعرى من حديد تدخل [٤] بعضها فى بعض .

واستدار أيضا باعلاها ، على جوانب السطح ، تكفيف ثان ، وقعت فيه أعالى الستور فى حلقات حديد على تلك الصفة المذكورة ، فجاءت الكسوة المباركة مخيطة الأعلى والأسفل ، وثيقة الأزرار ، لا تخلع الا من عام الى عام عند تجديدها . فسبحان من خلد لها الشرف الى يوم القيامة لا اله سواه .

وباب الكعبة الكريم يفتح كل يوم اثنين ويوم جمعة ، الا فى رجب فانه يفتح فى كل يوم ، وفتحه أول بزوغ الشمس .

يقبل سدنة البيت الشيبيون ، فيبادر منهم من ينقل كرسيا كبيرا شبه المنبر الواسع ، له تسعة أدراج مستطيلة ، قد وضعت له قوائم من الخشب متطامنة مع الأرض ، لها أربع بكرات كبار مصفحة بالحديد لباشرتها الأرض ، يجرى الكرسى عليها حتى يصل الى البيت الكريم ، فيقع درجه الأعلى متصلا بالعتبة المباركة من الباب .

فيصعد زعيم الشيبيين اليه — وهو كهل جميل الهيئة والشارة — وبيده مفتاح القفل المبارك ، ومعه من السدنة من يمسك فى يده سترا أسود ، يفتح يديه [1] به أمام الباب خلال ما يفتحه الزعيم الشيبى المذكور ، فاذا فتح القفل قبل العتبة ، ثم دخل البيت وحده وسد [2] الباب خلفه ، وأقام قدر ما يركع ركعتين ، ثم يدخل الشيبيون ويسدون الباب أيضا ويركعون ، ثم يفتح الباب ويبادر الناس بالدخول .

وفى أثناء محاولة فتح الباب الكريم ، يقف الناس مستقبلين اياه بأبصار خاشعة ، وأيد مبسوطة الى الله ضارعة . واذا انفتح الباب كبر الناس ، وعلا ضجيجهم ، ونادوا بألسنة مستهلة : اللهم افتح لنا أبواب رحمتك ومغفرتك يا أرحم الراحمين . ثم دخلوا بسلام آمنين [3] .

وفى الصفح المقابل للداخل فيه ، الذى هو من الركن اليمانى الى الركن الشامى ، خمس رخامات منتصبات طولا كأنها أبواب ، تنتهى الى مقدار خمسة أشبار من الأرض ، وكل واحدة منها نحو القامة ، الثلاث منها حمر ، والاثنتان خضراوان ، فى كل واحدة منها تجزيع بياض لم ير أحسن منظرا منه ، كأنه فيها تنقيط ، فتتصل [1] بالركن اليمانى منها الحمراء ، ثم تليها بخمسة أشبار الخضراء . والموضع الذى يقابلها متقهقرا عنها بثلاثة أذرع ، هو مصلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فيزدحم الناس على الصلاة فيه تبركا به .

ووضعهن على هذا الترتيب ، وبين كل واحدة وأخرى القدر المذكور ، ويتصل بينهما رخام أبيض صافى اللون ناصع البياض ، قد أحدث الله عز وجل فى أصل خلقته [2] أشكالا غريبة مائلة الى الزرقة مشجرة مغصنة ، وفى التى تليها مثل ذلك بعينه من الأشكال ، كأنها مقسومة ، فلو انطبقتا لعاد كل شكل يصافح شكله ، فكل واحدة شقة الأخرى لا محالة ، عندما نشرت انشقت على تلك الأشكال ، فوضعت كل واحدة بازاء أختها ،

والفاصل منها بين كل خضراء وحمراء رخامتان ، سعتهما خمسة أشبار لأعداد [٣] الأشبار المذكورة [٤] ، والأشكال فيها تختلف ميناتها ، وكل أخت منها بإزاء أختها . وقد شدت جوانب هذه الرخامات بتكافيف [٥] ، غلظها قدر أصبعين ، من الرخام المجزع من الأخضر والأحمر المنقطين ، والأبيض ذي الخيلان ، كأنها أنابيب مخروطة يحار الوهم فيها .

فاعترضت في هذا الصفح المذكور من فرج الرخام الأبيض ست فرج ، وفي الصفح الذي عن يسار الداخل — وهو من الركن الأسود الى اليماني — أربع رخامات : اثنتان خضراوان ، واثنتان حمراوان ، وبينهما خمس فرج من الرخام الأبيض ، وكل ذلك على الصفة المذكورة .

وفي الصفح الذي عن يمين الداخل — وهو من الركن الأسود الى العراقي — ثلاث : اثنتان حمراوان ، وواحدة خضراء ، ويتصل بها ثلاث فرج من الرخام الأبيض . وهذا الصفح هو المتصل بالركن الذي فيه باب الرحمة ، وسعته ثلاثة أشبار ، وطوله سبعة [١] وعضادته التي عن يمينك اذا استقبلته رخامة خضراء في سعة ثلثي شبر . وفي الصفح الذي من الشامي الى العراقي ثلاث : اثنتان حمراوان ، وواحدة خضراء ، ويتصل بها ثلاث فرج من الرخام الأبيض على الصفة المذكورة .

ويكلل [٢] هذا الرخام المذكور طرتان ، واحدة على الأخرى ، سعة كل واحدة منهما قدر شبرين ذهب مرسوم في اللازورد ، قد خط فيه خط بديع ، وتتصل الطرتان بالذهب المنقوش على نصف الجدار الأعلى ، والجهة التي عن يمين الداخل لها طرة واحدة ، وفي هاتين الطرتين بعض مواضع دارسة .

وفي كل ركن من الأركان الأربعة — مما يلي الأرض — رخامتان خضراوان صغيرتان تكتنفان الركن [٣] ، وتكتنف أيضا كل بابين من الفضة اللذين في كل ركن ، كأنهما طاقان ، عضادتان من الرخام الأخضر صغيرتان على قدر نقبيهما .

وفي أول كل صفح من الصفحات المذكورة رخامة حمراء ، وفي آخره مثلها ، والخضراء بينهما على الترتيب المذكور . الا الصفح الذي عن يسار الداخل ، فأول رخامة تجدها متصلة بالركن الأسود رخامة خضراء ، ثم حمراء الى كمال الترتيب الموصوف .

وبإزاء المقام الكريم منبر الخطيب ، وهو أيضا على بكرات أربع شبه التي [٤] ذكرناها فاذا كان يوم الجمعة ، وقرب وقت الصلاة ، ضم الى صفح الكعبة الذي يقابل المقام ، وهو بين الركن الأسود والعراقي ، فيسند المنبر اليه .

ثم يقبل الخطيب داخلا على باب النبي صلى الله عليه وسلم — وهو يقابل المقام في البلاط الآخذ من الشرق الى الشمال — لابسا ثوب سواد مرسوما بذهب ، ومتعمما بعمامة سوداء مرسومة أيضا ، وعليه طيلسان شرب رفيق — كل ذلك من كساء الخليفة

التي يرسلها الى خطباء بلاده * — يرفل فيها ، وعليه السكينة والوقار ، يتهادى رويدا بين رايتين سوداوين يمسكهما رجلان من قومة المؤذنين وبين يديه ساعيا أحد القومة ، وفي يده عود مخروط أحمر قد ربط في رأسه مرس من الأديم المفتول ، رقيق طويل ، في طرفه عذبة صغيرة ، ينفضها بيده في الهواء نفضا ، فتأتي بصوت عال يسمع من داخل الحرم وخارجه ، كأنه ايذان بوصول الخطيب ، لا يزال في نفضها الى أن يقرب من المنبر ، ويسمونها الفرقعة .

فاذا قرب من المنبر عرج الى الحجر الأسود فقبله ودعا [1] عنده ، ثم سعى الى المنبر ، والمؤذن الزمزمي — رئيس المؤذنين بالحرم الشريف — ساعيا أمامه ، لابسا ثياب السواد أيضا ، وعلى عاتقه السيف يمسكه بيده دون تقلد له . فعند صعوده في أول درجة ، قلده المؤذن المذكور السيف ، ثم ضرب بنعلة سيفه فيها ضربة أسمع بها الحاضرين ، ثم في الثانية ، ثم في الثالثة ، فاذا انتهى الى الدرجة العليا ضرب ضربة رابعة ، ووقف داعيا مستقبل الكعبة بدعاء خفي ، ثم انفتل عن يمينه وشماله ، وقال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فيرد الناس عليه السلام .

ثم يقعد ويبادر المؤذنون بين يديه في المنبر بالأذان على لسان واحد ، فاذا فرغوا قام للخطبة ، فذكر ووعظ وخشع فأبلغ ، ثم جلس الجلسة الخطيبية ، وضرب بالسيف ضربة خامسة ، ثم قام للخطبة الثانية ، فأكثر بالصلاة على محمد ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله ، ورضي عن أصحابه ، واختص الأربعة الخلفاء بالتسمية رضي الله عن جميعهم ، ودعا لعمي النبي ، صلى الله عليه وسلم ، حمزة والعباس وللحسن والحسين ، ووالى الترضي [2] عن جميعهم ، ثم دعا لأمهات المؤمنين زوجات النبي صلى الله عليه وسلم ، ورضي عن فاطمة الزهراء وعن خديجة الكبرى بهذا اللفظ ، ثم دعا للخليفة العباسي أبي العباس أحمد الناصر ، ثم لأمير مكة مكثر * بن عيسى بن فليتة بن قاسم بن محمد بن جعفر بن أبي هاشم الحسني ، ثم لصلاح الدين أبي المظفر يوسف ابن أيوب ولولي عهده أخيه أبي بكر بن أيوب ، وعند ذكر صلاح الدين بالدعاء تخفق الألسنة بالتأمين عليه من كل مكان .

واذا أحب الله يوما عبده

ألقى عليه محبة للناس

وحق ذلك عليهم لما يبذله من جميل الاعتناء بهم ، وحسن النظر لهم ، ولما رفعه من وظائف المكوس عنهم .

وفي هذا التاريخ أعلمنا بأن كتابه وصل الى الأمير مكثر ، وأهم فصوله التوصية بالحاج ، والتأكيد في مبرتهم [1] ، وتأنيسهم ، ورفع أيدي الاعتداء عنهم ، والايعاز في ذلك الى الخدام والأتباع والأوزاع . وقال : انه انما نحن وأنت متقلبون في بركة الحاج . فتأمل هذا المنزع الشريف والمقصد الكريم ، واحسان الله يتضاعف الى من أحسن الى عباده ، واعتناؤه الكريم موصول لمن جعل همته [2] الاعتناء بهم ، والله عز وجل كفيل

بجـزاء المحسنين ، انه ولى ذلك لا رب سواه .

وفي أثناء الخطبة تركز الرايتان السوداوان في أول درجة من المنبر ، ويمسكهما [٢] رجلان من المؤذنين ، وفي جانبي باب المنبر حلقتـان تلقى الرايتان فيهما مركوزتين ، فاذا فرغ من الصلاة خرج والرايتان عن يمينه وشماله ، والفرقعة أمامه على الصفة التي دخل عليها ، كأن ذلك أيضا ايذان بانصراف الخطيب والفراغ من الصلاة ، ثم أعيد المنبر الى موضعه بازاء المقام .

وليلة أهل هلال الشهر المذكور — وهو جمادى الأولى — بكر أمير مكة المذكور ، في صبيحتها ، الى الحرم الكريم مع طلوع الشمس ، وقواده يحفون به ، والقراء يقرأون أمامه ، فدخل على باب النبي صلى الله عليه وسلم ، ورجاله السودان — الذين يعرفونهم بالحرّابة — يطوفون أمامه وبأيديهم الحراب ، وهو في هيئة اختصار ، عليه السكينة والوقار وسمت سلفه الكريم رضي الله عنهم ، لابسا ثوب بياض ، متقلدا سيفا مختصرا ، متعمما بكرزية صوف بيضاء رقيقة .

فلما انتهى بازاء المقام الكريم وقف ، وبسط له وطاء كتان فصلى ركعتين ، ثم تقدم الى الحجر الأسود فقبله ، وشرع في الطواف ، وقد علا في قبة زمزم صبي ، هو أخو المؤذن الزمزمي ، هو أول المؤذنين أذانا ، به يقتدون وله يتبعون ، وقد لبس أفخر ثيابه وتعمم .

فعندما يكمل الأمير شوطا واحدا ، ويقرب من الحجر ، يندفع الصبي في أعلى القبة ، رافعا صوته بالدعاء ، ويستفتحه بصبح الله مولانا الأمير بسعادة دائمة ونعمة شاملة ، ويصل ذلك بتهنئة الشهر بكلام مسجوع مطبوع حفيل الدعاء والثناء ، ثم يختم ذلك بثلاثة أبيات أو أربعة من الشعر في مدحه ومدح سلفه الكريم ، وذكر سابقة النبوة رضي الله عنها ، ثم [١] يسكت .

فاذا أظل من الركن اليماني يريد الحجر ، اندفع بدعاء آخر على ذلك الأسلوب ، ووصله بأبيات من الشعر غير الأبيات الأخر في ذلك المعنى بعينه ، كأنها منتزعة من قصائد مدح بها ، هكذا في السبعة الأشواط الى أن يفرغ منها ، والقراء في أثناء طوافه أمامه . فينتظم من هذه الحال والأبهة ، وحسن صوت ذلك الداعي على صغره — لأنه ابن احدى عشرة سنة أو نحوها — وحسن الكلام الذي يورده نثرا ونظما ، وأصوات القراء وعلوها بكتاب الله عز وجل ، مجموع يحرك النفوس ويشجيها ، ويستوكف العيون ويبكيها ، تذكرا لأهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس ، وطهرهم تطهيرا .

فاذا فرغ من الطواف ركع عند الملتزم ركعتين ، ثم جاء وركع خلف المقام أيضا ، ثم ولى منصرفا وحلقته [٢] تحف به ، ولا يظهر في الحرم الا لمستهل هلال آخر ، هكذا دائما .

والبيت العتيق مبنى بالحجارة الكبار الصم * السمر ، قد رص بعضها على بعض ، وألصقت بالعقد الوثيق الصاقا لا تحيله الأيام ، ولا تقصمه الأزمان . ومن العجيب أن قطعة انصدعت من الركن اليمانى ، فسمرت بمسامير فضة ، وأعيدت كأحسن ما كانت [1] عليه ، والمسامير فيها ظاهرة . ومن آيات البيت العتيق أنه قائم وسط الحرم كالبرج المشيد ، وله التنزيه الأعلى .

وحمام الحرم لا تحصى كثرة ، وهى من الأمن بحيث يضرب بها المثل ، ولا سبيل أن تنزل بسطحه الأعلى حمامة ، ولا تحل فيه بوجه ولا على حال ، فترى الحمام تتجلل [2] على الحرم كله ، فاذا قربت من البيت عرجت عنه يمينا أو شمالا ، والطيور سواها كذلك . وقرأت فى أخبار مكة أنه لا ينزل عليه [3] طائر الا عند مرض يصيبه ، فاما أن يموت لحينه أو يبرأ . فسبحان من أورثه التشريف والتكريم .

ومن آياته أن بابه الكريم يفتح فى الأيام المعلومة المذكورة ، والحرم قد غص بالخلق ، فيدخله الجميع ولا يضيق عنهم بقدرة الله عز وجل ، ولا يبقى فيه موضع الا ويصلى فيه كل أحد ، ويتلاقى الناس عند الخروج منه ، فيسأل بعضهم بعضا : هل دخل البيت ذلك اليوم ؟ فكل يقول : دخلت وصليت فى موضع كذا وموضع كذا حيث صلى الجميع . ولله الآيات البينات ، والبراهين المعجزات ، سبحانه وتعالى .

ومن عجائب اعتناء الله تبارك وتعالى به أنه لا يخلو من الطائفين ساعة من النهار ، ولا وقتا من الليل ، فلا تجد من يخبر أنه رآه دون طائف به . فسبحان من كرمه وعظمه ، وخلد له التشريف الى يوم القيامة .

وفى أعلى بلاطات الحرم سطح يطيف بها كلها من الجوانب الأربعة ، وهو مشرف كله بشرفات مبسوطة مركنة ، فى كل جانب من الشرفة ثلاثة أركان كأنها أيضا شرفات أخر صغار ، والركن الأسفل منها متصل بالركن الذى يليه من الشرفة الأخرى * ، وتحت كل صلة منها ثقب مستدير فى دور الشبر ، منفوذ يخترقه الهواء ، يضرب فيه شعاع الشمس أو القمر ، فيلوح كأنها أقمار مستديرة يتصل ذلك بالجوانب الأربعة [1] كلها ، كأن الشرفات المذكورة بنيت شقة واحدة ، ثم أحدثت فيها هذه التقاطيع والتراكين فجاءت عجيبة المنظر والشكل .

وفى النصف من كل جانب من الجوانب الأربعة المذكورة ، شقة من الجص معترضة بين الشرفات مخرمة فرجية [2] ، طولها نحو الثلاثين شبرا تقديرا ، يقابل كل شقة منها صفحا من صفحات الكعبة المقدسة ، قد علت على الشرفات كالتاج .

وللصوامع أيضا أشكال بديعة ، وذلك أنها ارتفعت بمقدار النصف مركنة من الأربعة [1] جوانب بحجارة رائقة النقش عجيبة الوضع ، قد أحاط بها شباك من الخشب الغريب الصنعة ، وارتفع عن الشباك عمود فى الهواء كأنه مخروط مختم كله بالآجر تختيما يتداخل

بعضه على بعض ، بصنعة تستميل الأبصار حسنا ، وفي أعلى ذلك العمود الفحل ، وقد استدار به أيضا ، شباك آخر من الخشب على تلك الصنعة بعينها ، وهي متميزة الأشكال كلها ، لا يشبه بعضها بعضا ، لكنها على هذا المثال المذكور من كون نصفها الأول مركنا ، ونصفها الأعلى عمودا لا ركن له .

وفي النصف الأعلى من قبة زمزم ، والقبة العباسية التي تسمى السقاية ، والقبة التي تليها [3] منحرفة عنها يسيرا المنسوبة لليهودية ، صنعة من قرنصة الخشب عجيبة ، قد تأنق الصانع فيها ، وأحدق بأعلاها شباك مشرجب من الخشب رائق الحلل والتفاريج ، وداخل شباك قبة زمزم سطح ، وقد قام في وسطه شبه فحل الصومعة ، وفي ذلك السطح يؤذن المؤذن الزمزمي ، وقد انخرط من ذلك الفحل عمود من الجص ، واستقر في رأسه صحفة [4] حديد تتخذ مشعلا في شهر رمضان المعظم .

وفي الصفح الناظر الى البيت العتيق من القبة سلاسل فيها قناديل من زجاج معلقة ، توقد كل ليلة ، وفي الصفح الذي عن يمينه كذلك — وهو الناظر الى الشمال — وفي كل جانب منها ثلاثة شراجيب مقومة كأنها أبواب ، قد قامت على سوار من الزجاج صغار لم ير أبدع منها صنعة ، منها ما هو مفتول فتل السوار ، ولا سيما الجانب الذي يقابل الحجر الأسود من قبة زمزم ، فان سواريه في نهاية من اتقان الصنعة ، قد أدير بكل سارية منها رءوس ثلاثة أو أربعة ، وتحت ما بين كل رأس ورأس ..... وأحدثت [1] ، فيه صنائع من النقش عجيبة المنظر ، وربما فتل بعضها على الصفة السوارية .

وهذا الجانب الذي يقابل الحجر الأسود من القبة المذكورة تتصل به [2] مصطبة من الرخام دائرة بالقبة ، يجلس الناس فيها معتبرين بشرف ذلك الموضع ، لأنه أشرف مواضع الدنيا المذكورة بشرف مواضع الآخرة لأن الحجر الأسود أمامك ، والباب الكريم مع البيت قبالتك ، والمقام عن يمينك ، وباب الصفا عن يسارك ، وبئر زمزم وراء ظهرك ، وناهيك بهذا .

وينطبق على كل شرجب من تلك الشراجيب أعمدة حديد قد تركب بعضها على بعض كأنها شراجيب أخر ، وأحد أركان شباك الخشب المحدق بالقبة العباسية تتصل بأحد أركانه شباك قبة [3] اليهودية حتى يتماسا ، فمن يكون في أعلى سطح هذه ينفتل الى سطح الأخرى من الركنين المذكورين ، وداخل هذه القباب صنعة من القرنصة الجصية رائقة الحسن .

وللحرم أربعة أئمة سنية ، وامام خامس لفرقة تسمى الزيدية ، وأشراف أهل هذه البلدة على مذهبهم ، وهم يزيدون في الأذان « حي على خير العمل » اثر قول المؤذن « حي على الفلاح » ، وهم روافض سبابون ، والله من وراء حسابهم وجزائهم ، ولا يجمعون

مع الناس انما يصلون ظهرا أربعا [1] ، ويصلون المغرب بعد فراغ الأئمة من صلاتها .

فأول الأئمة السنية الشافعي رحمه الله وانما قدمنا ذكره لأنه المقدم من الامام العباسي ، وهو أول من يصلي ، وصلاته خلف مقام ابراهيم صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا الكريم .

الا صلاة المغرب فان الأربعة الأئمة يصلونها في وقت واحد مجتمعين لضيق وقتها يبدأ مؤذن الشافعي بالاقامة ، ثم يقيم مؤذنو سائر الأئمة ، وربما دخل في هذه الصلاة على المصلين سهو وغفلة لاجتماع التكبير فيها من كل جهة ، فربما ركع المالكي بركوع الشافعي أو الحنفي ، أو سلم أحدهم بغير سلام امامه ، فترى كل أذن مصيخة لصوت امامها أو صوت مؤذنه مخافة السهو ، ومع هذا فيحدث السهو على كثير من الناس .

ثم المالكي رحمه الله ، وهو يصلي قبالة الركن اليماني ، وله محراب [2] حجر يشبه محاريب الطرق الموضوعة فيها .

ثم الحنفي رحمه الله ، وصلاته قبالة الميزاب تحت حطيم مصنوع له ، وهو أعظم الأئمة أبهة ، وأفخرهم آلة من الشمع وسواها ، بسبب أن الدولة الأعجمية كلها على مذهبه ، فالاحتفال له كثير ، وصلاته آخرا .

ثم الحنبلي رحمه الله ، وصلاته مع صلاة المالكي في حين واحد ، وموضع صلاته يقابل ما بين الحجر الأسود والركن اليماني ، ويصلي الظهر والعصر قريبا من الحنفي في البلاط الآخذ من الغرب الى الشمال ، والحنفي يصليهما [3] في البلاط الآخذ من الغرب الى الجنوب قبالة محرابه ، ولا حطيم له .

وللشافعي بازاء المقام حطيم حفيل . وصفة الحطيم خشبتان موصول بينهما بأذرع شبه السلم ، تقابلهما [4] خشبتان على تلك الصفة ، قد عقدت هذه الخشب على رجلين من الجص غير بائنة الارتفاع * ، واعترض في أعلى الخشب خشبة مسمرة فيها ، قد نزلت منها خطاطيف حديد فيها قناديل معلقة من الزجاج ، وربما وصل بالخشبة المعترضة العليا شباك مشرجب بطول الخشب .

وللحنفي بين الرجلين الجصيتين المنعقدتين على الخشب ، محراب يصلي فيه . وللحنبلي حطيم معطل ، هو قريب من حطيم الحنفي ، وهو منسوب لرامشت [1] أحد الأعاجم ذوي الثراء [2] ، وكانت له في الحرم آثار كريمة من النفقات رحمه الله ، ويقابل الحجر حطيم معطل أيضا ينسب للوزير المقدم بهذا اللفظ المجهول .

ويطيف بهذه المواضع كلها دائر البيت العتيق ، وعلى بعد منه يسيرا ، مشاعيل توقد في صحاف حديد فوق خشب مركوزة ، فيتقد الحرم الشريف كله نورا ، ويوضع الشمع بين أيدي الأئمة في محاريبهم ، والمالكي أقلهم شمعا وأضعفهم حالا ، لأن مذهبه في هذه البلاد غريب ، والجمهور على مذهب الشافعي ، وعليه علماء البلاد وفقهاؤها الا الاسكندرية وأكثر أهلها مالكيون ، وبها

الفقيه ابن عوف ، وهو شيخ كبير من أهل العلم بقية الأئمة المالكية .

وفي إثر كل صلاة مغرب يقف المؤذن الزمزمي في سطح قبة زمزم — ولها مطلع على أدراج من عود في الجهة التي تقابل باب الصفا — رافعا صوته بالدعاء للامام العباسي أحمد الناصر لدين الله ، ثم للأمير مكثر ، ثم لصلاح الدين أمير الشام وجهات مصر كلها واليمن ، ذي المآثر الشهيرة والمناقب الشريفة فاذا انتهى الى ذكره بالدعاء ، ارتفعت أصوات الطائفين بالتأمين بألسنة تمدها القلوب الخالصة والنيات الصادقة ، وتخفق الألسنة بذلك خفقا يذيب القلوب [٣] خشوعا لما وهب الله لهذا السلطان العادل من الثناء الجميل ، وألقى عليه من محبة الناس وعباد الله شهدائه في أرضه . ثم يصل ذلك بدعاء لأمراء اليمن من جهة صلاح الدين ، ثم لسائر المسلمين والحجاج والمسافرين وينزل ، هكذا دأبه دائما أبدا .

وفي القبة العباسية المذكورة خزانة تحتوي على تابوت مبسوط متسع ، وفيه مصحف أحد الخلفاء الأربعة ، أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبخط زيد بن ثابت رضي الله عنه ، منتسخ سنة ثماني عشرة من وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينقص منه ورقات كثيرة ، وهو بين دفتي عود مجلد [١] بمغاليق من صفر ، كبير الورقات واسعها ، عايناه وتبركنا بتقبيله ومسح الخدود فيه ، نفع الله بالنية في ذلك .

وأعلمنا صاحب القبة ، المتولي لعرضه علينا ، أن أهل مكة متى أصابهم قحط أو نالتهم شدة في أسعارهم ، أخرجوا المصحف المذكور ، وفتحوا باب البيت الكريم ، ووضعوه في العتبة المباركة مع المقام الكريم — مقام الخليل ابراهيم صلى الله على نبينا وعليه وسلم — واجتمع الناس كاشفين رءوسهم داعين متضرعين ، وبالمصحف الكريم والمقام العظيم [٢] الى الله متوسلين ، فلا ينفصلون عن مقامهم ذلك الا ورحمة الله عز وجل قد تداركتهم ، والله لطيف بعباده لا اله سواه .

وبازاء الحرم الشريف ديار كثيرة لها أبواب يخرج منها اليه — وناهيك بهذا الجوار الكريم — كدار زبيدة ، ودار القاضي ، ودار تعرف بالعجلة ، وسواها من الديار ، وحول الحرم أيضا ديار كثيرة تطيف به ، ذات مناظر وسطوح ، يخرج منها الى سطح الحرم ، فيبيت أهلها فيه ، ويبردون ماءهم في أعالي شرفاته ، فهم من النظر الى البيت العتيق دائما في عبادة متصلة ، الله يهنئهم ما خصهم به من مجاورة بيته الحرام بمنه وكرمه .

وألفيت بخط الفقيه الزاهد الورع ، أبي جعفر الفنكي القرطبي ، أن ذرع المسجد الحرام في الطول والعرض ما أثبته أولا ، وطول مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثمائة ذراع ، وعرضه مائتان ، وعدد سواريه ثلاثمائة ، ومباراته ثلاث ، فيكون تكسيره أربعة وعشرين [١] مرجعا من المراجع المغربية ، وهي خمسون ذراعا في مثلها .

وطول مسجد بيت المقدس — أعاده الله [٢] للاسلام — سبعمائة وثمانون ذراعا ، وعرضه أربعمائة وخمسون ذراعا ، وسواريه أربعمائة وأربع عشرة سارية ، وقناديله خمسمائة ، وأبوابه خمسون بابا ، فيكون تكسيره من المراجع المذكورة مائة مرجع وأربعين مرجعا وخمسي مرجع .

ذكر ابواب الحرم الشريف قدسه الله

للحرم تسعة عشر بابا أكثرها مفتح على أبواب كثيرة حسبما يأتي ذكره ان شاء الله .

باب الصفا : يفتح على خمسة أبواب ، وكان يسمى [٣] قديما بباب بني مخزوم .

باب الخلقيين : ويسمى بباب جياد الأصغر ، مفتح على بابين ، وهو محدث .

باب العباس رضي الله عنه : وهو يفتح على ثلاثة أبواب .

باب على رضي الله عنه : مفتح على ثلاثة أبواب .

باب النبي صلى الله عليه وسلم : يفتح على بابين .

باب صغير أيضا بازاء باب بني شيبة المذكور ، لا اسم له [٤] .

باب بني شيبة : وهو يفتح على ثلاثة أبواب ، وهو باب بني عبد شمس ، ومنه كان دخول الخلفاء .

باب دار الندوة : ثلاثة ، البابان من دار الندوة منتظمان ، والثالث في الركن الغربي من الدار ، فيكون عدد أبواب الحرم بهذا الباب المنفرد عشرين بابا .

باب صغير بازاء باب بني شيبة ، شبه خوخة الأبواب ، لا اسم له ، وقيل انه يسمى باب الرباط ، لأنه يدخل منه لرباط الصوفية .

باب صغير لدار العجلة محدث .

باب السدة واحد .

باب العمرة واحد .

باب حزورة على بابين .

باب ابراهيم صلى الله عليه وسلم واحد .

باب ينسب لحزورة أيضا على بابين .

باب جياد الأكبر على بابين .

باب جياد الأكبر أيضا على بابين [١] .

باب ينسب لجياد أيضا على بابين .

ومنهم من ينسب البابين من هذه الأبواب الأربعة الجيادية الى الدقاقين ، والروايات فيها تختلف ، لكننا اجتهدنا في اثبات الأقرب من أسمائها الى الصحة ، والله المستعان لا رب سواه .

وباب ابراهيم صلى الله عليه وسلم ، هو في زاوية كبيرة متسعة ، فيها دار المكناس الفقيه الذي كان امام المالكية في الحرم رحمه الله ، وفيها أيضا غرفة هي خزانة للكتب [٢] المحبسة على المالكية في الحرم ، والزاوية المذكورة متصلة بالبلاط الآخذ من الغرب الى الجنوب وخارجة عنه .

وبازاء الباب المذكور ، عن يمين الداخل عليه ، صومعة على غير أشكال الصوامع المذكورة ، فيها تخاريم في الجص ، مستطيلة الشكل كأنها محاريب ، قد حفت قرنصة غريبة الصنعة ، وعلى الباب قبة عظيمة بائنة العلو ، يقترب من الصومعة ارتفاعها ، قد ضمن داخلها غرائب من الصنعة الجصية والتخاريم القرنصية ، يعجز عنها الوصف ، وظاهرها أيضا تقاطيع في الجص كأنها أرجل مدورة ، قد تركبت دائرة على دائرة ، وفحل الصومعة المذكورة على أرجل من الجص ، مفتح ما بين (كل) رجل ورجل ، وخارج باب ابراهيم بئر تنسب اليه عليه السلام .

وانما بدىء بباب الصفا لأنه أكبر الأبواب ، وهو الذى يخرج عليه الى السعى ، وكل وافد الى مكة — شرفها الله — يدخلها بعمرة ، فيستحب له الدخول على باب بنى شيبة ، ثم يطوف سبعا ويخرج على باب الصفا ، ويجعل طريقه بين الأسطوانتين اللتين أمر المهدى — رحمه الله — باقامتهما علما لطريق رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الى الصفا ، حسبما تقدم ذكره ، وبين الركن اليمانى وبينهما ست وأربعون [3] خطوة ، ومنهما [4] الى باب الصفا ثلاثون خطوة ، ومن باب الصفا الى الصفا ست وسبعون خطوة .

وللصفا أربعة عشر درجا ، وهو على ثلاثة أقواس مشرقة ، والدرجة العليا متسعة كأنها مصطبة ، وقد أحدقت به الديار ، وفى سعته سبع عشرة خطوة ، وبين الصفا والميل الأخضر ما يأتى ذكره .

والميل سارية خضراء ، وهى خضرة صباغية ، وهى التى الى ركن الصومعة التى على الركن الشرقى من الحرم على قارعة المسيل [1] الى المروة وعن يسار الساعى اليها ، ومنها يرمل فى السعى الى الميلين الأخضرين ، وهما أيضا ساريتان خضراوان على الصفة المذكورة : الواحدة منهما بازاء باب علىّ فى جدار الحرم وعن يسار الخارج من الباب ، والميل الآخر [2] يقابله فى جدار دار تتصل بدار الأمير مكثر ، وعلى كل واحدة منهما لوح قد وضع على رأس السارية كالتاج ، ألفيت فيه منقوشا برسم مذهب « ان الصفا والمروة من شعائر الله » الآية [3] ، وبعدها « أمر بعمارة هذا الميل عبد الله وخليفته ، أبو محمد المستضىء بأمر الله أمير المؤمنين — أعز الله نصره — فى سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة » .

وبين الصفا والميل الأول ثلاث وتسعون خطوة ، ومن الميل الى الميلين خمس وسبعون خطوة — وهى مسافة الرمل جائيا وذاهبا من الميل الى الميلين ، ثم من الميلين الى الميل — ومن الميلين الى المروة ثلثمائة وخمس وعشرون خطوة ، فجميع خطا الساعى من الصفا الى المروة أربعمائة خطوة وثلاث وتسعون خطوة . وأدراج المروة خمسة ، وهى بقوس واحد كبير ، وسعتها سعة الصفا سبع عشرة (خطوة) .

وما بين الصفا والمروة مسيل هو اليوم سوق حفيلة بجميع الفواكه وغيرها من الحبوب وسائر المبيعات الطعامية ، والساعون لايكادون يخلصون من كثرة الزحام ، وحوانيت الباعة يمينا وشمالا ، وما للبلدة سوق منتظمة سواها الا البزازين والعطارين ، فهم عند باب

بنى شيبة تحت السوق المذكورة وبمقربة تكاد تتصل بها .

وعلى [4] الحرم الشريف جبل * أبى قبيس . وهو فى الجهة الشرقية يقابل ركن الحجر الأسود ، وفى أعلاه رباط مبارك فيه مسجد ، وعليه سطح مشرف على البلدة الطيبة، ومنه يظهر حسنها وحسن الحرم واتساعه وجمال الكعبة المقدسة القائمة وسطه .

وقرأت فى « أخبار مكة » لأبى الوليد الأزرقى [1] أنه أول جبل خلقه الله عز وجل ، وفيه استودع الحجر زمن [2] الطوفان ، وكانت قريش تسميه الأمين لأنه أدى الحجر الى ابراهيم صلى الله عليه وسلم ، وفيه قبر آدم صلوات الله عليه ، وهو أحد أخشبى مكة ، والأخشب الثانى الجبل [3] المتصل بقعيقعان فى الجهة الغربية .

صعدنا الى جبل أبى قبيس المذكور ، وصلينا فى المسجد المبارك ، وفيه موضع موقف النبى صلى الله عليه وسلم ، عند انشقاق القمر له بقدرة الله عز وجل . وناهيك بهذه الفضيلة والبركة ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، حتى الجمادات من مخلوقاته ، لا اله سواه .

وفى أعلاه آثار بناء جص مشيد كان اتخذه معقلا أمير البلد عيسى أبو مكثر المذكور ، فهدمه عليه أمير الحج العراقى لمخالفة صدرت عنه ، فغادره خرابا .

وألفيت منقوشا على سارية خارج باب الصفا — تقابل السارية الواحدة من اللتين أقيمتا علما لطريق النبى ، صلى الله عليه وسلم ، الى الصفا داخل الحرم المتقدمتى الذكر « أمر عبد الله محمد المهدى أمير المؤمنين ، أصلحه الله تعالى ، بتوسعه المسجد الحرام [4] مما يلى باب الصفا لتكون الكعبة فى وسط المسجد ، فى سنة سبع وستين ومائة » . فدل ذلك المكتوب على أن الكعبة المقدسة فى وسط المسجد ، وكان يظن بها الانحراف الى جهة باب الصفا ، فاختبرنا جوانبها المباركة بالكيل ، فوجدنا الأمر صحيحا حسبما تضمنه رسم السارية .

وتحت ذلك النقش ، فى أسفل السارية ، منقوش أيضا * : « أمر عبد الله (محمد) المهدى أمير المؤمنين ، أصلحه الله ، بتوسعة الباب الأوسط الذى بين هاتين الأسطوانتين ، وهو طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الى الصفا » ، وفى أعلى السارية التى تليها منقوش أيضا « أمر عبد الله محمد المهدى [1] أمير المؤمنين ، أصلحه الله ، بصرف الوادى الى مجراه على عهد أبيه [2] ابراهيم صلى الله عليه وسلم ، وتوسعته بالرحاب [3] التى حول المسجد الحرام لحاج بيت الله وعماره » ، وتحتها أيضا منقوش ما تحت الأول من ذكر توسعة الباب الأوسط .

والوادى المذكور هو الوادى المنسوب لابراهيم ، صلى الله عليه وسلم ، ومجراه على باب الصفا المذكور . وكان السيل قد خالف مجراه ، فكان يأتى على المسيل بين الصفا والمروة ويدخل الحرم ، فكان مدة مده بالأمطار يطاف حول الكعبة سبحا . فأمر المهدى ، رحمه الله ، برفع موضع فى أعلى

البلد يسمى رأس الردم ، فمتى جاء السيل عرج عن ذلك الردم الى مجراه ، واستمر على باب ابراهيم الى الموضع الذى يسمى المسفلة ، ويخرج عن البلد ، ولا يجرى الماء فيه الا عند نزول ديم المطر الكثير . وهو الوادى الذى عنى صلى الله عليه وسلم بقوله — حيث حكى الله تبارك وتعالى عنه — « ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع [4] » . فسبحان من أبقى له الآيات البينات .

ذكر مكة ، شرفها الله تعالى ، وآثارها الكريمة واخبارها الشريفة

هى بلدة قد وضعها الله عز وجل بين جبال محدقة بها ، وهى بطن واد مقدس كبير * مستطيلة ، تسع من الخلائق ما لا يحصيه الا الله عز وجل ، ولها ثلاثة أبواب :

أولها « باب المعلى » : ومنه يخرج الى الجبانة المباركة ، وهى بالموضع الذى يعرف بالحجون ، وعن يسار المار اليها جبل فى أعلاه ثنية عليها علم شبيه [1] البرج يخرج منها الى طريق ، العمرة ، وتلك الثنية تعرف بكداء ، وهى التى عنى حسان بقوله فى شعره [1] : « تثير النقع موعدها كداء » .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم يوم الفتح : « ادخلوا من حيث قال حسان » ، فدخلوا من تلك الثنية . وهذا الموضع الذى يعرف بالحجون هو الذى عناه الحارث بن مضاض الجرهمى [2] بقوله :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكة سامر

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا
صروف الليالى والجدود العواثر

وبالجبانة المذكورة مدفن جماعة من الصحابة والتابعين والأولياء والصالحين قد دثرت مشاهدهم المباركة ، وذهبت عن أهل البلد أسماؤهم ، وفيه الموضع (الذى) صلب فيه الحجاج بن يوسف — جازاه الله — جثة عبد الله ابن الزبير رضى الله عنهما .

وعلى الموضع بقية علم ظاهر الى اليوم وكان عليه مبنى [3] مرتفع ، فهدمه أهل الطائف غيرة منهم على ما كان يجدد من لعنة صاحبهم الحجاج المذكور .

وعن يمينك اذا استقبلت الجبانة المذكورة ، مسجد فى مسيل بين جبلين ، يقال انه المسجد الذى بايعت فيه الجن النبى [4] ، صلى الله عليه وسلم ، وشرف وكرم .

وعلى هذا الباب المذكور طريق الطائف ، وطريق العراق ، والصعود الى عرفات — جعلنا الله ممن يفوز بالموقف فيها — وهذا الباب المذكور بين الشرق والشمال ، وهو الى الشرق أميل .

ثم « باب المسفل » * ، وهو الى جهة الجنوب ، وعليه طريق اليمن ، ومنه كان دخول خالد بن الوليد ، رضى الله عنه ، يوم الفتح .

ثم « باب الزاهر » [6] : ويعرف أيضا بباب العمرة ، وهو غربى ، وعليه طريق مدينة

الرسـول صلى الله عليه وسـلم ، وطريق الشام وطريق جدة ، ومنه يتوجه الى التنعيم ، وهو أقـرب ميقات المعتمـرين ، يخـرج من الحرم اليه على باب العمرة ، ولذلك [1] أيضا يسمى هو بهذا الاسم .

والتنعيم من البلدة على فرسخ ، وهو طريق حسن فسيح ، فيه الآبار العذبة التى تسـمى بالشبيكة . وعندما تخرج من البلدة بنحـو ميل ، تلقى مسجدا بازائه حجر موضوع على الطريق كالمصطبة ، يعلوه حجر آخر مسند فيه نقش داثر الرسم ، يقال انه الموضع الذى قعد فيه النبى ، صلى الله عليه وسلم ، مستريحـا عند مجيئه من العمرة ، فيتبرك الناس بتقبيله ومسح الخـدود فيه — وحق ذلك لهم — ويستندون اليه لتنال أجسامهم بركة لمسه .

ثم بعد هذا الموضع ، بمقدار غلوة ، تلقى على قارعة الطريق ، من جهة اليسار للمتـوجه الى العمرة ، قبرين قد علتهما أكوام من الصخر عظام ، يقال انهما قبر أبى لهب وامرأته لعنهما الله ، فما زال الناس فى القديم الى هلم جرّا يتخذون سنة رجمهما بالحجارة ، حتى علاهما من ذلك جبلان عظيمان ، ثم تسير منها بمقدار ميل ، وتلقى الزاهر [2] ، وهو مبتنى على جانبى الطرق يحتوى على دار [3] وبسـاتين ، والجميع ملك أحد المكيين [4] .

وقد أحـدث فى المكان مطاهر وسـقاية للمعتمرين ، وعلى جانب الطريق دكان مستطيل تصـف عليـه كيزان الماء ، ومراكن مملوءة للوضوء وهى القصارى الصغار ، وفى الموضع بئر عذبة يملأ منها المطاهر المذكورة ، فيجـدها المعتمرون فيها مرفقا كبيرا للطهور والوضوء والشرب ، فصاحبها على سبيل معمورة بالأجر والثواب ، وكثير من الناس المتأجرين [1] من يعينه عـلى ما هو بسـبيله ، وقيل ان له من ذلك فائدا كبيرا [2] .

وعن جانبى الطريق فى هذا الموضع [3] جبال أربعة : جبلان من هنا ، وجبلان من هنا ، عليها أعلام من الحجارة ، وذكر لنا أنها الجبـال المباركة التى جعل ابراهيم ، عليـه السـلام ، عليها أجزاء الطير ثم دعاهن — حسبما حكى الله عز وجل سؤاله اياه ، جل وعلا ، أن يريه كيف يحيى المـوتى [4] — وحـول تلك الجبال الأربعة جبال غيرها ، وقيـل ان التى جعـل ابراهيم عليها الطير سبعة منها ، والله أعلم .

وعنـد اجازتك الزاهـر [5] المذكور ، تمر بالوادى ، المعروف بذى طوى ، الذى ذكر أن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، نزل فيه عنـد دخول مكة . وكان ابن عمر ، رضى الله عنهما ، يغتسل فيه وحينئذ يدخلها ، وحوله آبار تعرف بالشبيكة ، وفيه مسجد يقـال انه مسجـد ابراهيم عليه السلام . فتأمل بركة هذا الطريق ، ومجموع الآيات التى فيه ، والآبار المقدسـة التى اكتنفته .

وتجيز [6] الوادى الى مضيق تخرج منـه الى الأعلام التى وضعت حجزا بين الحل والحرم ، فما داخلها الى مكة حرم ، وما خارجها حل ، وهى كالأبراج مصـفوفة [7] كبار وصغار واحد بازاء آخر على مقربة منه ، تأخذ من أعـلى

الجبل الذى [8] يعتـرض عن يمين الطـريق فى التوجه الى العمرة ، وتشق الطريق الى أعلى الجبل عن يساره ، ومنه [9] ميقات المعتمرين ، وفيها مساجد مبنية بالحجارة يصلى المعتمرون فيها ويحرمون منها . ومسـجد عائشة ، رضى الله عنها ، خارج هذه الأعلام بمقدار غلوتين ، واليه يصل المالكيون ، ومنه يحرمون . وأما ★ الشافعيون فيحرمون من المساجد التى حول الأعلام المذكور وأمام [1] مسـجد عائشة ، رضى الله عنها ، مسـجد ينسب لعـلى بن أبى طالب رضى الله عنه .

ومن عجيب ما عرض علينا بباب بنى شـيبة المذكور عَتَبٌ" من الحجارة العظام ، طـوال كأنها مصاطب ، صـفت أمام الأبواب الثلاثة المنسوبة لبنى شيبة ، ذكر [2] لنـا أنها الأصنام التى كانت قـريش تعبـدها فى جاهليتهـا — وكبيرها هبل بينها — قد كُبِتّت علـى وجـوهها تطأها الأقـدام ، وتمتهنها بأنعلتها العوام ، ولم تغن عن أنفسها — فصـلا عن عابديها — شيئا ، فسبحان المنفرد بالوحدانية ، لا اله سواه . والصحيح فى أمر تلك الحجارة أن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، أمر يوم فتح مكة بكسر الأصـنام واحراقها ، وهذا الذى نقل الينا غير صحيح ، وانما تلك التى عـلى الباب حجارة منقولة ، وعنيت القوم بتشبيهها الى الأصنام لعظمها .

ومن جبال مكة المشهورة — بعد جبل أبى قبيس — « جبل حراء » ، وهو فى الشرق ، على مقدار فرسـخ أو نحـوه ، مشرف على منى ، وهو مرتفع فى الهواء عالى القنة [3] . وهو جبل مبارك ، كان النبى صلى الله عليه وسلم كثيرا ماينتابه ويتعبد فيه ، واهتز تحته فقال له النبى صلى الله عليه وسلم . « اسكن حراء فما عليك الا نبى وصديق وشهيد » [4] ، كان معـه أبو بكر وعمـر رضى الله عنهما ويروى « أثبت فما عليك الا نبى وصديق وشهيدان » وكان عثمان رضى الله عنـه معهم . وأول آية نزلت من القرآن على النبى ، صلى الله عليـه وسلم ، نزلت [5] فى الجبل المذكور ، وهو آخذ من الغرب الى الشمال ، ووراء طرفه الشمالى جبانة الحجون [6] التى تقدم ذكرها .

وسور مكة انما كان من جهة المعلى — وهو مدخل الى البلد ، ومن جهـة المسفل ، وهو مدخل أيضا اليه ، ومن جهة باب ★ العمرة ، وسائر الجوانب — جبالا لا تحتاج معها الى سور ، وسورها اليوم منهدم الا آثاره الباقية وأبوابه القائمة .

ذكر بعض مشاهدها المعظمة وآثارها المقدسة

مكة ، شرفها الله ، كلها مشهد كريم . كفاها شرفا ما خصها الله به من مثابة بيته العظيم ، وما سبق لها من دعوة الخليل ابراهيم ، وأنها حرم الله وأمنه ، وكفاها أنها منشأ النبى ، صلى الله عليـه وسـلم ، الذى آثره الله بالتشريف والتكريم ، وابتعثه بالآيات والذكر الحكيم . فهى مبدأ نزول الوحى والتنزيل ، وأول مهبط (الروح) الأمين جبـريل ، وكانت مثابة أنبياء الله ورسله الأكرمين ، وهى أيضا مسـقط

رءوس جماعة من الصحابة القرشيين ، المهاجرين الذين جعلهم الله مصابيح الدين ، ونجوما للمهتدين .

فمن مشاهدها التى عايناها قبة الوحى ، وهى فى دار خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها ، وبها كان ابتناء النبى صلى الله عليه وسلم بها ، وقبة [1] صغيرة أيضا فى الدار المذكورة ، فيها كان مولد فاطمة الزهراء رضى الله عنها ، وفيها [2] أيضا ولدت سيدى شباب أهل الجنة الحسن والحسين رضى الله عنهما . وهذه المواضع المقدسة المذكورة مغلقة مصونة ، قد بنيت بناء يليق بمثلها .

ومن مشاهدها الكريمة أيضا مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، والتربة الطاهرة التى هى أول تربة مست جسمه الطاهر ، بنى عليه مسجد لم ير أحفل بناء منه ، أكثره ذهب منزل به . والموضع المقدس الذى سقط فيه صلى الله عليه وسلم ساعة الولادة السعيدة المباركة ، التى جعلها الله رحمة للأمة أجمعين ، محفوف بالفضة . فيالها تربة شرفها الله بأن جعلها مسقط أطهر الأجسام ، ومولد خير الأنام صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الكرام وسلم تسليما .

يفتح هذا الموضع المبارك ، فيدخله [3] الناس كافة متبركين به ، فى شهر ربيع الأول ويوم الاثنين منه ، لأنه كان شهر مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى اليوم المذكور ولد صلى الله عليه وسلم ، وتفتح المواضع المقدسة المذكورة كلها ، وهو يوم مشهور [1] بمكة دائما .

ومن مشاهدها الكريمة أيضا دار الخيزران ، وهى الدار التى كان النبى صلى الله عليه وسلم يعبد الله فيها سرا ، مع الطائفة الكريمة المبادرة للاسلام من أصحابه رضى الله عنهم ، حتى نشر الله الاسلام منها على يدى الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكفى بهذه الفضيلة .

ومن مشاهدها أيضا : دار أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وهى اليوم دراسة الأثر ، ويقابلها جدار فيه حجر مبارك يتبرك الناس بلمسه ، يقال انه كان يسلم على النبى صلى الله عليه وسلم متى اجتاز عليه . وذكر أنه جاء يوما ، صلى الله عليه وسلم ، الى دار أبى بكر رضى الله عنه ، فنادى به — ولم يكن حاضرا — فأنطق الله عز وجل الحجر المذكور ، وقال : يارسول الله ليس بحاضر . وكانت من احدى آياته المعجزات صلى الله عليه وسلم .

ومن مشاهدها : قبة بين الصفا والمروة [2] ، تنسب لعمر بن الخطاب رضى الله عنه [3] ، وفى وسطها بئر يقال انه كان يجلس فيها للحكم رضى الله عنه ، والصحيح فى هذه القبة أنها قبة حفيده [4] عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، وبازاء داره المنسوبة اليه ، وفيها كان يجلس للحكم أيام توليه مكة ، كذلك حكى لنا أحد أشياخنا الموثوقين ويقال ان البئر كانت في القديم فيها ، ولا بئر فيها الآن لأنا دخلناها فألفيناها مسطحة ، وهى حفيلة الصنعة .

وكانت بمقربة من الدار التى نزلنا فيها دار جعفر بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، ذى الجناحين . وبجهة المسفل — وهو آخر البلد — مسجد منسوب لأبى بكر الصديق

رضى الله عنه ، يحف [6] به بستان حسن ، فيه النخيل والرمان وشجر العناب ، وعاينا فيه شجر الحناء ، وأمام المسجد بيت صغير فيه محراب ، يقال انه كان مختبأ له رضى الله عنه من المشركين الطالبين له .

وعلى مقربة من دار خديجة رضى الله عنها المذكورة ، وفى الزقاق الذى الدار المكرمة فيه ، مصطبة فيها متكأ يقصد الناس اليها ، ويصلون فيها ويتمسحون بأركانها ، لأن فى موضعها كان موضع قعود النبى صلى الله عليه وسلم .

ومن الجبال التى فيها أثر كريم ومشهد عظيم الجبل المعروف « بأبى ثور » [1] ، وهو فى الجهة اليمنية من مكة على مقدار فرسخ أو أزيد ، وفيه الغار الذى أوى اليه النبى صلى الله عليه وسلم مع صاحبه الصديق رضى الله عنه ، حسبما ذكر الله تعالى فى كتابه العزيز [2] . وقرأت فى كتاب « أخبار مكة » لأبى الوليد الأزرقى [3] أن الجبل نادى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : « الىّ يامحمد ، الى يامحمد ، فقد آويت قبلك نبيا » .

وخص الله عز وجل نبيه فيه بآيات بينات : فمنها أنه ، صلى الله عليه وسلم ، دخل مع صاحبه على شق فيه ثلثا شبر وطوله ذراع ، فلما اطمأنا فيه ، أمر الله العنكبوت فاتخذت عليه بيتا ، والحمام [4] فصنعت عليه عشا وفرخت ، فانتهى المشرفون اليه بدليل قصاص للأثر ، مستاف أخلاق الطريق ، فوقف لهم على الغار وقال : ههنا انقطع الأثر . فاما صعد بصاحبكم من ههنا الى السماء أو غيض به فى الأرض . ورأوا العنكبوت ناسجة على فم الغار ، والحمام مفرخة فيه ، فقالوا : ما دخل هنا أحد . فأخذوا فى الانصراف .

فقال الصديق رضى الله عنه : يارسول الله لو ولجوا علينا من فم الغار ما كنا نصنع ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ولو ولجوا علينا منه كنا نخرج من هناك » . وأشار بيده المباركة الى الجانب الآخر من الغار — ولم يكن فيه شق — فانفتح للحين فيه باب بقدرة الله عز وجل ، وهو سبحانه قدير على ما يشاء .

وأكثر الناس ينتابون هذا الغار المبارك ، ويتجنبون دخوله من الباب الذى أحدث الله عز وجل فيه ، ويرومون دخوله من الشق الذى دخل النبى — صلى الله عليه وسلم — تبركا به . فيمتد المحاول لذلك على الأرض ، ويبسط خده بازاء الشق ، ويولج يديه ورأسه أولا ، ثم يعالج ادخال سائر جسده : فمنهم من يتأتى له ذلك بحسب قضافة بدنه ، ومنهم من يتوسط بدنه فم الغار فيمضه ، فيروم الدخول أو الخروج فلا يقدر ، فينشب ويلاقى مشقة وصعوبة ، حتى يتناول بالجذب العنيف من ورائه .

فالعقلاء من الناس يجتنبونه لهذا السبب ، ولا سيما ويتصل به سبب آخر مخجل فاضح ، وذلك أن عوام الناس يزعمون أن الذى لا يسع عليه ، ويتمسك فيه ولا يلجه ، ليس لرشدة . جرى هذا الخبر على ألسنتهم

حتى عاد عندهم قطعا على صحته لا يشكون . فبحسب المتشبث فيه ، المتعذر ولوجه عليه ، ما يكسوه هذا الظن الفاضح المخجل ، زائدا الى ما يكابده بدنه من اللز فى ذلك المضيق ، واشرافه منه على المنية توجعا وانقطاع نفس وبرح ألم . فالبعض من الناس يقولون فى مَثَل : « ليس يصعد جبل أبى ثور الا ثور ».

وعلى مقربة من هذا الغار ، فى الجبل بعينه ، عمود منقطع من الجبل قد قام شبه الذراع المرتفعة بمقدار نصف القامة [1] ، وانبسط له فى أعلاه شبه الكف خارجا عن الذراع ، كأنه القبة المبسوطة ، بقدرة الله عز وجل ، يستظل تحتها [2] نحو العشرين رجلا ، وتسمى قبة جبريل صلى الله عليه وسلم .

ومما يجب أن يثبت ويؤثر ، لبركة معاينته وفضل مشاهدته ، أن فى يوم الجمعة التاسع عشر من جمادى الأولى — وهو التاسع من شتنبر — أنشأ الله بحرية ، فتشاءمت فانهلت عينا غديقة ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك اثر صلاة العصر .. ، ومع العشى من اليوم المذكور ، فجاءت بمطر جَوْد .

وتبادر الناس الى الحجر ، فوقفوا تحت الميزاب المبارك متجردين عن ثيابهم يتلقون الماء الذى يصبه الميزاب برؤوسهم أيديهم وأفواههم ، مزدحمين عليه ازدحاما عظيما أحدث ضوضاء عظيمة ، كل يحرص على أن ينال جسمه من رحمة الله نصيبا ، ودعاؤهم قد علا ، ودموع أهل الخشوع منهم تسيل ، فلا تسمع الا ضجيج دعاء أو نشيج بكاء .

والنساء قد وقفن خارج الحجر ينظرن بعيون دوامع وقلوب خواشع ، يتمنين ذلك الموقف لو ظفرن به ، وكان بعض الحجاج المتأجرين [1] المشفقين يبل ثوبه بذلك الماء المبارك ، ويخرج اليهن ويعصره فى أيدى البعض منهن ، فتلقينه شربا ومسحا على الوجوه والأبدان .

وتمادت تلك السحابة المباركة الى قريب المغرب ، وتمادى الناس — على تلك الحال من الازدحام — على تلقى ماء الميزاب بالأيدى والوجوه والأفواه ، وربما رفعوا الأوانى ليقع فيها ، فكانت عشية عظيمة استشعرت النفوس فيها الفوز بالرحمة ثقة بفضله وكرمه ، ولما اقترن بها من القرائن المباركة .

فمنها أنها كانت عشية الجمعة ، وفضل اليوم فضله ، والدعاء فيها يرجى من الله تعالى قبوله ، لما ورد فيها من الأثر الصحيح وأبواب السماء تفتح عند نزول المطر ، وقد وقف الناس تحت الميزاب ، وهو من المواضع التى يستجاب فيها الدعاء ، وطهرت أبدانهم رحمة الله النازلة من سمائه الى سطح بيته العتيق الذى هو حيال البيت المعمور ، وكفى بهذا المجتمع الكريم والمنتظم الشريف ، جعلنا الله ممن طهر فيه من أرجاس الذنوب ، واختص من رحمة الله تعالى بذَنوب ، ورحمته واسعة تسع عباده المذنبين ، انه غفور رحيم .

وذكروا أن الامام أبا حامد الغزالى دعا الله عز وجل بدعوات ، وهو فى حرمه الكريم ، فى رغبات رفعها الى الله جل وتعالى ، فأعطى

بعضا ومتّع بعضا ، وكان مما منع نزول المطر وقت مقامه بمكة ، وكان تمنى أن يغتسل به تحت الميزاب ، ويدعو الله عز وجل عند بيته الكريم في الساعة التي أبواب سمائه فيها مفتوحة ، فمنع ذلك وأجيب دعائه في سائر ما سأله ، فله الحمد وله الشكر على ما أنعم به علينا . ولعل عبدا من عباده الصالحين ، الوافدين على بيته الكريم ، خصه الله بهذه الكرامة ، فدخلنا جميع المذنبين في شفاعته . والله ينفعنا بدعاء المخلصين من عباده ، ولا يجعلنا ممن شقى بدعائه ، انه منعم كبير .

ذكر ما خص الله تعالى به مكة من الخيرات والبركات

هذه البلدة المباركة سبقت لها ولأهلها الدعوة الخليلية الابراهيمية ، وذلك أن الله عز وجل يقول حاكيا عن خليله صلى الله عليه وسلم : « فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون [٢] » ، وقال عز وجل : « أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شيء [٣] » .

فبرهان ذلك فيها ظاهر متصل الى يوم القيامة ، وذلك أن أفئدة الناس تهوى اليها من الأصقاع النائية والأقطار الشاحطة [٤] ، فالطريق اليها ملتقى الصادر والوارد ممن بلغته الدعوة المباركة ، والثمرات تجبى اليها من كل مكان ، فهى أكثر البلاد نعما وفواكه ومنافع ومرافق ومتاجر .

ولو لم يكن لها من المتاجر الا أوان الموسم ، ففيه مجتمع أهل المشرق والمغرب ، فيباع فيها في يوم واحد — فضلا عما يتبعه من الذخائر النفيسة كالجوهر والياقوت وسائر الأحجار ، ومن أنواع الطيب كالمسك والكافور والعنبر والعود والعقاقير الهندية ، الى غير ذلك من جلب الهند والحبشة ، الى الأمتعة العراقية واليمانية ، الى غير ذلك من السلع الخراسانية والبضائع المغربية الى ما لا ينحصر ولا ينضبط — ما لو فرق على البلاد كلها لأقام لها الأسواق * النافقة ، ولعم جميعها بالمنفعة التجارية [١] .

كل ذلك في ثمانية أيام بعد الموسم ، حاشا ما يطرأ بها — مع طول الأيام [٢] — من اليمن وسواها ، فما على الأرض سلعة من السلع ، ولا ذخيرة من الذخائر ، الا وهى موجودة فيها مدة الموسم ، فهذه بركة لا خفاء بها ، وآية من آياتها التي خصها الله بها .

وأما الأرزاق والفواكه وسائر الطيبات ، فكنا نظن أن الأندلس اختصت من ذلك بحظ له المزية على سائر حظوظ البلاد ، حتى حللنا بهذه البلاد المباركة ، فألفيناها تغص بالنعم والفواكه : كالتين والعنب والرمان والسفرجل والخوخ والأترج والجوز والمقل والبطيخ والقثاء والخيار ، الى جميع البقول كلها كالباذنجان واليقطين والسلجم والجزر والكرنب الى سائرها ، الى غير ذلك من الرياحين العبقة والمشمومات العطرة .

وأكثر هذه البقول — كالباذنجان والقثاء والبطيخ — لا يكاد ينقطع مع طول العام ، وذلك من عجيب ما شاهدناه مما يطول تعداده وذكره ، ولكل نوع من هذه الأنواع فضيلة

موجودة فى خاصة الذوق يفضل بها نوعها الموجود في سائر البلاد ، فالعجب من دلك يطول .

ومن أعجب ما اختبرناه من فواكهها البطيخ والسفرجل ، وكل فواكهها عجب ، لكن للبطيخ فيها خاصة من الفضل عجيبة ، وذلك لأن رائحته من أعطر الروائح وأطيبها ، يدخل به الداخل عليك ، فتجد رائحته العبقة قد سبقت اليك ، فيكاد يشغلك الاستمتاع بطيب رياه عن أكلك اياه ، حتى اذا ذقته خيل اليك أنه شيب بسكر مذاب ، أو بجنى النحل اللباب ، ولعل متصفح هذه الأحرف يظن أن في الوصف بعض غلو ، كلا — لعمر الله — انه لأكثر مما وصفت وفوق ما قلت .

وبها عسل أطيب من الماذي المضروب به المثل ، يعرف عندهم بالمسعودي ، وأنواع اللبن بها فى نهاية من الطيب ، وكل ما يصنع [٣] منها من السمن ، فانه لا تكاد تميزه من العسل طيبا ولذاذة . ويجلب اليها قوم من اليمن — يعرفون بالسرو [١] — نوعا من الزبيب الأسود والأحمر فى نهاية الطيب ، ويجلبون معه من اللوز كثيرا . وبها قصب السكر أيضا كثير ، يجلب من حيث تجلب البقول التي ذكرناها ، والسكر بها كثير مجلوب ، وسائر النعم والطيبات من الرزق والحمد لله

وأما الحلوى فيصنع منها أنواع غريبة من العسل والسكر العقود على صفات شتى ، انهم يصنعون [٢] بها حكايات جميع الفواكه الرطبة واليابسة ، وفى الأشهر الثلاثة رجب وشعبان ورمضان يتصل منها أسمطة بين الصفا والمروة ، ولم يشاهد أحد أكمل منظرا منها ، لا بمصر ولا بسواها ، قد صورت منها تصاوير انسانية وفاكهية ، وجليت فى منصات كأنها العرائس ، ونضدت بسائر أنواعها المنضدة الملونة ، فتلوح كأنها الأزاهر حسنا ، فتقيد الأبصار ، وتستنزل الدرهم والدينار .

وأما لحوم ضأنها فهناك العجب العجيب . قد وقع القطع من كل من نطوف على الآفاق ، وضرب نواحى الأقطار ، أنها أطيب لحم يؤكل فى الدنيا ، وما ذاك — والله أعلم — الا لبركة مراعيها ، هذا على افراط سمنه ، ولو كان سواه من لحوم البلاد ينتهى ذلك المنتهى فى السمن للفظته الأفواه ودكا [٣] ، ولعافته وتجنبته ، والأمر فى هذا بالضد ، كلما ازداد سمنا زادت النفوس فيه رغبة والنفس له قبولا ، فتجده هنيئا رخصا يذوب فى الفم قبل أن يلاك مضغا ، ويسرع لخفته عن المعدة انهضاما .

وما أرى ذلك الا من الخواص الغريبة ، وبركة البلد الأمين قد تكفلت بعيبه لا شك فيه ، والخبر عنه يضيق عن الخبر له . والله يجعل فيه رزقا لمن تشوق بلدته الحرام ، وتمنى [٢] هذه المشاهد العظام والمناسك الكرام ، بعزته وقدرته .

وهذه الفواكه تجلب اليها من الطائف — وهي على مسيرة ثلاثة أيام منها على الرفق والتؤدة — ومن قرى حولها . وأقرب هذه المواضع يعرف با .... [١] هو من مكة على

مســيرة يوم أو أزيد قليلا ، وهــو من بطن الطائف ، ويحتوى على قرى كثيرة ، ومن بطن مر ، وهو على مسيرة يوم أو أقل ، ومن نخلة وهى على مثل هذه المسافة ، ومن أودية بقرب من البلد ــ كعين سليمان وسواها ــ قــد جلب الله اليها من المغـاربة ذوى البصــارة بالفلاحــة والزراعة ، فأحــدثوا فيها بســاتين ومزارع ، فكانوا أحد الأسباب فى خصب هذه الجهات ، وذلك بفضــل الله عز وجل ، وكريم اعتنائه بحرمه الكريم وبلده الأمين .

ومن أغــرب ما ألفيناه فاســتمتعنا بأكله ، وأجرينا الحديث باستطابته ــ ولا سيما لكوننا لم نعهده ــ الرطب ، وهو عندهم بمنزلة التين الأخضر فى شــجره يجنى ويؤكل ، وهو فى نهاية من الطيب واللذاذة لا يسأم التفكه به ، وابانه عنــدهم عظيم ، يخــرج النــاس اليه كخروجهم الى الضيعة ، أو كخروج أهل المغرب لقراهم أيام نضج التين والعنب ، ثم بعد ذلك ، عند تناهى نضجه ، يبسط على الأرض قــدر ما يجف قليلا ، ثم يركم بعضــه على بعض فى السلال والظروف ويرفع .

ومن صنع الله الجميل لنا ، وفضله العميم علينا ، أنا وصلنا الى هذه البــلدة المكرمة ، فألفينا كل من بها من الحجاج المجاورين ، ممن قدم عهده فيها وطال مقامه بها ، يتحــدث على جهة العجب بأمنها من الحرّابة المتلصصين فيها على الحاج ، المختلســين ما بأيديهم ، والذين كانوا آفة الحرم الشريف ، لا يغفل أحــد عن متاعه طرفة عين ، الا اختلس من يديه أو من وسطه ، بحيل عجيبة ولطافة غريبة ، فما منهم الا أخذ يد [۲] القميص ، فكفى الله فى هذا العام شرهم الا القليل ، وأظهر أمير البلد التشديد عليهم ، فتوقف شرهم ، وبطيب هوائها فى هذا العام ، وفتور حمــارة قيظها المعهــود فيها ، وانكسار حدة سمومها . وكنا نبيت فى سطح الموضع الذى كنا نســكنه ، فربما يصيبنا من برد هواء الليل ما نحتاج معه الى دثار يقينا [۲] منه ، وذلك أمر مستغرب بمكة .

وكانوا أيضا يتحدثون بكثرة نعمها فى هذا العام ، ولين ســعرها ، وأنها خارقة للعــوائد الســالفة عنــدهم . كان ســوم الحنطة أربعة أصواع بدينار مؤمنى ــ وهى أوبتان من كيل مصر وجهاتها ، والأوبتان قدحان ونصف قدح من الكيل المغــربى ــ وهذا الســعر فى بلد لا ضيعة فيه ، ولا قوام معيشة لأهله الا بالميرة المجلوبة اليه ، سعر لاخفاء بيمنه [۳] وبركته ، على كثرة المجــاورين فيها فى هــذا العــام ، وانجلاب الناس اليها وترادفهم عليها . فحدثنا غير واحد من المجاورين ، الذين لهم بها سنون طائلة ، أنهم لم يروا هــذا الجمــع بها قط ، ولا سمع بمثله فيها ، والله يجعله جمعا مرحوما معصوما بمنه

وما زال النــاس فيها يسلسلون أوصــاف أحوالها فى هذه السنة ، وتمييزها عما سلف من الســنين ، حتى لقــد زعموا أن ماء زمزم المبارك زاد عــذوبة ولم يكن قبل يصادقها . وهذا الماء المبارك فى أمره عجب ، وذلك أنك تشربه عن خــروجه من قراراته ، فتجده فى حاسة الذوق كاللبن عنــد خروجه من الضرع

دفيئا ، وتلك فيه من الله تعالى آية وعناية ، وبركته أشهر من أن يحتاج لوصف واصف ، وهو لما شرب له ، كما قال صلى الله عليه وسلم ، أروى الله منه كل ظامىء اليه بعزته وكرمه .

ومن الأمور المجربة في هذا الماء المبارك ، أن الانسان * ربما وجد مس الاعياء وفتور الأعضاء ، اما من كثرة الطواف أو من عسرة يعتمرها على قدميه ، أو من غير ذلك من الأسباب المؤدية الى تعب البدن ، فيصب من ذلك الماء على بدنه ، فيجد الراحة والنشاط لحينه ، ويذهب عنه ما كان أصابه .

شهر جمادى الآخرة
عرفنا الله يمنه وبركته

استهل هلاله ليلة الأربعاء — وهو الحادي والعشرون من شهر شتنبر العجمي — ونحن بالحرم المقدس ، زاده الله تعظيما وتشريفا . وفي صبيحة الليلة المذكورة ، وافى الأمير مكثر بأتباعه وأشياعه على العادة السالفة المذكورة في الشهر الأول ، وعلى ذلك الرسم بعينه ، والزمزمي المغرد بثنائه [1] والدعاء له فوق قبة زمزم يرفع [2] عقيرته بالدعاء والثناء عند كل شوط يطوفه الأمير ، والقراء أمامه ، الى أن فرغ من طوافه ، وأخذ في طريق انصرافه .

ولأهل هذه الجهات المشرقية كلها سيرة حسنة ، عند مستهل كل شهر من شهور العام ، يتصافحون ويهنىء بعضهم بعضا ، ويتغافرون ، ويدعو بعضهم لبعض كفعلهم في الأعياد ، هكذا دائما . وتلك طريقة من الخير واقعة في النفوس ، تجدد الاخلاص ، وتستمد الرحمة من الله عز وجل بمصافحة المؤمنين بعضهم بعضا ، وبركة ما يتهادونه من الدعاء . والجماعة رحمة ، ودعاؤهم من الله بمكان .

ولهذه البلدة المباركة حمامان : أحدهما ينسب الفقيه الميانشي [3] أحد الأشياخ المحلقين بالحرم المكرم ، والثاني — وهو الأكبر — ينسب لجمال الدين [4] . وكان هذا الرجل ، كصفته جمال الدين * ، له رحمه الله بمكة والمدينة — شرفهما الله — من الآثار الكريمة ، والصنائع الحميدة ، والمصانع المبنية في ذات الله المشيدة ، ما لم يسبقه أحد اليه فيما سلف من الزمان ، ولا أكابر الخلفاء فضلا عن الوزراء .

وكان — رحمه الله — وزير صاحب الموصل ، تمادى على هذه المقاصد السنية ، المشتملة على المنافع العامة للمسلمين في حرم الله تعالى وحرم رسوله صلى الله عليه وسلم ، أكثر من خمس عشرة [1] سنة ، لم يزل فيها باذلا أموالا لا تحصى في بناء رباع بمكة ، مسبلة في طريق الخير والبر مؤبدة محبسة ، واختطاط صهاريج للماء ، ووضع جباب في الطرق يستقر فيها ماء المطر ، الى تجديد آثار من البناء في الحرمين الكريمين .

وكان من أشرف أفعاله أن جلب الماء الى عرفات ، وقاطع عليه العرب بني شعبة ، سكان تلك النواحي المجلوب منها الماء ، بوظيفة من المال كبيرة ، على أن لا يقطعوا الماء عن الحاج .

فلما توفى الرجل — رحمة الله عليه — عادوا الى عادتهم الذميمة من قطعه. ومن مفاخره ومناقبه أيضا ، أنه جعل مدينة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، تحت سورين عتيقين ، أنفق فيهما أموالا لا تحصى كثرة .

ومن أعجب ماوفقه الله تعالى اليه ، أنه جدد أبواب الحرم كلها ، وجدد باب الكعبة المقدسة وغشاه فضة مذهبة — وهو الذى فيها الآن حسبما تقدم وصفه — وجلل العتبة المباركة بلوح ذهب ابريز — وقد تقدم ذكره أيضا — فأخذ الباب القديم ، وأمر بأن يصنع له منه تابوت يدفن فيه . فلما حانت وفاته أوصى بأن يوضع فى ذلك التابوت المبارك ، ويحج به ميتا .

فسيق الى عرفات ، ووقف به على بعد ، وكشف عن التابوت ، فلما أفاض الناس أفيض به ، وقضيت له المناسك كلها ، وطيف به طواف الافاضة — وكان الرجل رحمه الله لم يحج فى حياته — ثم حمل الى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم — وله فيها من الآثار الكريمة ما قدمنا ذكره — وكاد أشرافها يحملونه رؤوسهم .

وبنيت له روضة بازاء روضة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وفتح فيها موضع يلاحظ الروضة المقدسة ، وأبيح له ذلك — على شدة الضنانة بمثله — لسابق أفعاله الكريمة ، ودفن فى تلك الروضة ، وأسعده الله بالجوار الكريم ، وخصه بالمواراة فى تربة التقديس والتعظيم ، والله لا يضيع أجر المحسنين .

وسنذكر تاريخ وفاته اذا وقفنا عليه من التاريخ الثابت فى روضته ، ان شاء الله عز وجل ، وهو ولى التيسير لا رب غيره .

ولهذا الرجل — رحمه الله — من الآثار السنية ، والمفاخر العلية ، التى لم يسبقه اليها أكابر الأجواد وسراة الأمجاد ، فيما سلف من الزمان ، ما يفوت الاحصاء ، ويستغرق الثناء ، ويستصحب طول الأيام من الألسنة بالدعاء . وحسبك أنه اتسع اعتناؤه باصلاح عامة طرق المسلمين بجهة المشرق ، من العراق الى الشام الى الحجاز حسبما نذكره ، واستنبط المياه ، وبنى الجباب ، واختط المنازل فى المفازات ، وأمر بعمارتها مأوى لأبناء السبيل وكافة المسافرين ، وابتنى بالمدن المتصلة من العراق الى الشام فنادق عينها لنزول الفقراء أبناء السبيل الذين يضعف أحدهم عن تأدية الأكرية ، وأجرى على قومة تلك الفنادق والمنازل ما يقوم بمعيشتهم ، وعين لهم ذلك فى وجوه تأبدت لهم ، فبقيت تلك الرسوم الكريمة ثابتة على حالها الى الآن ، فسارت بجميل ذكر هذا الرجل الرفاق ، وملئت ثناء عليه الآفاق .

وكان مدة حياته بالموصل ، على ما أخبرنا به غير واحد من ثقات الحجاج التجار ممن شاهد ذلك ، قد اتخذ دار كرامة واسعة الفناء فسيحة الأرجاء ، يدعو اليها كل يوم الجفلى من الغرباء ، فيعمهم شبعا وريا ، ويرد الصادر والوارد من أبناء السبيل فى ظله عيشا هنيئا ، لم يزل على ذلك مدة حياته رحمه الله . . فبقيت آثاره مخلدة ، وأخباره بألسنة

الذكر مجددة ، وقضى حميدا سعيدا . والذكر الجميل للسعداء حياة باقية ، ومدة من العمر ثانية ، والله الكفيل بجزاء المحسنين الى عباده ، فهو أكرم الكرماء ، وأكفل الكفلاء .

ومن الأمور المحظورة بهذا الحرم الشريف — زاده الله تعظيما وتكريما — أن النفقة فيه ممنوعة ، لا يجد المتأجر من ذوى اليسار اليها سبيلا ، فى تجديد بناء ، أو اقامة حطيم ، أو غير ذلك مما يختص بالحرم المبارك . ولو كان الأمر مباحا فى ذلك ، لجعل الراغبون فى نفقات البر ، من أهل الجدة ، حيطانه عسجدا وترابه عنبرا ، لكنهم لا يجدون السبيل الى ذلك .

فمتى ذهب أحد أرباب الدنيا الى تجديد أثر من آثاره ، أو اقامة رسم كريم من رسومه ، أخذ اذن الخليفة فى ذلك ، فان كان مما ينقش عليه أو يرسم فيه ، طرز باسم الخليفة ونفوذ أمره بعمله ، ولم يذكر اسم المتولى لذلك . ولا بد مع ذلك من بذل حظ وافر من النفقة لأمير البلد ، ربما يوازى قدر المنفوق فيه ، فتتضاعف المؤنة على صاحبه ، وحينئذ يصل الى غرضه من ذلك .

ومن أغرب ما اتفق لأحد دهاة الأعاجم ، دوى الملك والثراء ، أنه وصل الى الحرم الكريم ، مدة جد هذا الأمير مكثر ، فرأى تنور بئر زمزم وقبتها على صفة لم يرضها [1] ، فاجتمع بالأمير وقال : أريد أن أتأنق فى بناء تنور زمزم وطيه وتجديد قبته ، وأبلغ فى ذلك الغاية الممكنة ، وأنفق فيه من صميم مالى ، ولك على فى ذلك شرط أبلغ بالتزامه لك غرض المقصود ، وهو أن تجعل ثقة من قبلك يقيد مبلغ النفقة فى ذلك ، فاذا استوفى البناء التمام ، وانتهت النفقة منتهاها ، وتحصلت محصاة ، بذلت لك مثلها جزاء على اباحتك لى ذلك .

فاهتز الأمير طمعا ، وعلم أن النفقة فى ذلك تنتهى الى آلاف من الدنانير * على الصفة التى وصفها له ، فأباح له ذلك ، وألزمه مقيدا يحصى قليل الانفاق وكثيره . وشرع الرجل فى بنائه ، واحتفل ، واستفرغ الوسع ، وتأنق وبذل المجهود — فعل من يقصد بفعله ذات الله عز وجل ويقرضه قرضا حسنا [1] — والمقيد يسود طواميره بالتقييد ، والأمير يتطلع الى ما لديه ، ويؤمل لقبض تلك النفقات الواسعة بسط يديه ، الى أن فرغ البناء على الصفة التى تقدم ذكرها أولا عند ذكر بئر زمزم وقبته .

فلما لم يبق الا أن يصبح صاحب النفقة بالحساب ، ويستقضى منه العدد المجتمع [٢] فيها ، خلا منه المكان وأصبح فى خبر كان ، وركب الليل جملا ، وأصبح الأمير يقلب كفيه ، ويضرب أصدريه ولم يمكنه أن يحدث فى بناء وضع فى حرم الله تعالى حادثا يحيله ، أو نقضا يزيله . وفاز الرجل بثوابه ، وتكفل الله به فى انقلابه ، وتحسين مآبه « وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين [٣] » . وبقى خبر هذا الرجل مع الأمير يتهادى غرابة وعجبا ويدعو له كل شارب من ذلك الماء المبارك .

شهر رجب الفرد عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الخميس ، الموفى عشرين لشهر أكتوبر ، بشهادة خلق كثير من الحجاج

المجاورين والأشراف أهل مكة ، ذكروا أنهم رأوه بطريق العمرة ومن جبل تعيقعان وجبل أبي قبيس ، فثبتت شهادتهم بذلك عند الأمير والقاضي ، وأما من المسجد الحرام فلم يبصره أحد .

وهذا الشهر المبارك عند أهل مكة موسم من المواسم المعظمة ، وهو أكبر أعيادهم ، ولم يزالوا على ذلك قديما وحديثا ، يتوارثه خلف عن سلف متصلا * ميراث ذلك الى الجاهلية ، لأنهم كانوا يسمونه مُنصل الأسنة ، وهو أحد الأشهر الحرم ، وكانوا يحرمون القتال فيه ، وهو شهر الله الأصم كما جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والعمرة الرجبية عندهم أخت الوقفة العَرَفية ، لأنهم يحتفلون لها الاحتفال الذى لم يسمع بمثله ، ويبادر اليها أهل الجهات المتصلة بها ، فيجتمع لها خلق عظيم لا يحصيهم الا الله عز وجل ، فمن لم يشاهدها بمكة لم يشاهد مرأى يستهدى ذكره غرابة وعجبا ، شاهدنا من ذلك أمرا يعجز الوصف عنه . والمقصود منه الليلة التى يستهل فيها الهلال مع صبيحتها [1] ، ويقع الاستعداد لها من قبل ذلك بأيام ، فأبصرنا من ذلك ما نصف بعضه على جهة الاختصار .

وذلك لأنا عاينا شوارع مكة وأزقتها من عصر يوم الأربعاء — وهي العشية التى ارتقب فيها الهلال — قد امتلأت هوادج مشدودة على الابل ، مكسوة بأنواع كساء الحرير ، وغيرها من ثياب الكتان الرفيعة ، بحسب سعة أحوال أربابها ووفرهم [2] ، كل يتأنق ويحتفل بقدر استطاعته ، فأخذوا فى الخروج الى التنعيم ميقات المعتمرين ، فسالت تلك [3] الهوادج فى أباطح مكة وشعابها ، والابل قد زينت تحتها بأنواع التزيين ، وأشعرت بغير هدى بقلائد رائقة المنظر من الحرير وغيره .

وربما فاضت الأستار التى على الهوادج حتى تسحب أذيالها على الأرض . ومن أغرب ما شاهدنا من ذلك هودج الشريفة جمانة بنت فليتة عمة الأمير مكثر ، فان أذيال ستره كانت تسحب على الأرض انسحابا ، وغيره من هوادج حرم الأمير وحرم قواده ، الى غير ذلك من هوادج لم نستطع تقييد عدتها عجزا عن الاحصاء ، فكانت تلوح على ظهور الابل كالقباب المضروبة فيخيل للناظر اليها أنها محلة قد * ضربت أبنيتها من كل لون رائق .

ولم يبق ليلة الخميس المذكور بمكة الا من خرج للعمرة من أهلها ، ومن المجاورين . وكنا فى جملة من خرج — ابتغاء بركة الليلة العظيمة — فكدنا لا نتخلص الى مسجد عائشة من الزحام ، وانسداد ثنيات الطريق بالهوادج ، والنيران قد أشعلت بحافتى الطريق كله ، والشمع يتقد بين أيدى الابل التى عليها هوادج من يشار اليه [1] من عقائل نساء مكة .

فلما قضينا العمرة وطفنا ، وجئنا للسعى بين الصفا والمروة — وقد مضى هدء من الليل — أبصرناه كله سُرُجا ونيرانا ، وقد غص بالساعين والساعيات على هوادجهن ، فكنا لا نتخلص الا بين هوادجهن وبين قوائم الابل ،

لكثرة الزحام ، واصطكاك الهوادج بعضها على بعض

فعاينا ليلة هي أغرب ليالي الدنيا فمن لم يعاين ذلك لم يعاين عجبا يحدث به ولا عجبا يذكره مرأى الحشر يوم القيامة ، لكثرة الخلائق فيه محرمين ملبين ، داعين الى الله عز وجل ضارعين ، والجبال المكرمة التى بحافتى الطريق تجيبهم بصداها ، حتى سكت المسامع ، وسكبت من هول تلك المعاينة المدامع ، وذابت القلوب الخواشع . وفى تلك الليلة ملىء المسجد الحرام كله سرجا ، فتلألأ نورا ، وعند ثبوت رؤية الهلال عند الأمير ، أمر بضرب الطبول والدبادب والبوقات اشعارا بأنها ليلة الموسم .

فلما كانت صبيحة ليلة الخميس ، خرج الى العمرة فى احتفال لم يسمع بمثله ، انحشد له أهل مكة عن بكرة أبيهم ، فخرجوا على مراتبهم قبيلة قبيلة وحارة حارة ، شاكين فى الأسلحة فرسانا ورجالة ، فاجتمع منهم عدد لا يحصى كثرة ، يتعجب المعاين لهم لوفور عددهم ، فلو أنهم من بلاد جمة لكانوا عجبا ، فكيف وهم من بلد واحد . وهذا أدل الدلائل على بركة البلد .

فكانوا يخرجون على ترتيب عجيب : فالفرسان منهم يخرجون بخيلهم ويلعبون بالأسلحة عليها ، والرجالة يتواثبون ويتثاقفون بالأسلحة فى أيديهم حرابا وسيوفا وحجفا ، وهم يظهرون التطاعن بعضهم لبعض ، والتضارب بالسيوف ، والمدافعة بالحجف التى يستجنون بها ، وأظهروا من الحذق بالثقاف كل أمر مستغرب . وكانوا يرمون بالحراب الى الهواء ، ويبادرون اليها لقفا بأيديهم ، وهى قد تصوبت أسنتها على رؤوسهم ، وهم فى زحام لا يسكن فيه المجال ، وربما رمى بعضهم بالسيوف فى الهواء ، فيتلقونها قبضا على قوائمها كأنها لم تفارق أيديهم

الى أن خرج الأمير يزحف بين قواده ، وأبناؤه أمامه وقد قاربوا سن الشباب ، والرايات تخفق أمامه ، والطبول والدبادب بين يديه ، والسكينة تفيض عليه ، وقد امتلأت الجبال والطرق والثنيات بالنظارة من جميع المجاورين .

فلما انتهى الى الميقات وقضى غرضه ، أخذ فى الرجوع ، وقد ترتب العسكران [1] بين يديه على لعبهم ومرحهم ، والرجالة على الصفة المذكورة من التجاول ، وقد ركب جملة من أعراب البوادى نجبا صهبا لم ير أجمل منظرا منها ، وركابها يسابقون الخيل بها بين يدى الأمير ، رافعين أصواتهم بالدعاء له والثناء عليه ، الى أن وصل المسجد الحرام ، فطاف بالكعبة والقراء أمامه ، والمؤذن الزمزمى يغرد فى سطح قبة زمزم رافعا عقيرته تهنئته بالموسم والثناء عليه والدعاء له على العادة

فلما فرغ من الطواف صلى عند الملتزم ، ثم جاء الى المقام وصلى خلفه — وقد أخرج له من الكعبة ، ووضع فى قبته الخشبية التى يصلى خلفها — فلما فرغ من صلاته رفعت له القبة عن المقام ، فاستلمه وتمسح به ، ثم أعيدت القبة عليه ، وأخذ فى الخروج على باب الصفا

الى المسعى ، وانجتفل بين يديه ، فسعى راكبا والقواد مطيفون به ، والرجالة الحرابة أمامه . فلما فرغ من السعى استلت السيوف أمامه ، وأحدقت الأشياع به ، وتوجه الى منزله على هذه الحالة الهائلة مزحوفا به ، وبقى المسعى يومه ذلك يموج بالساعين والساعيات .

فلما كان اليوم الثانى — وهو يوم الجمعة — كان طريق العمرة فى العمارة قريبا من أمسه ، راكبين وماشين رجالا ونساء ، والنساء الماشيات المتآجرات كثير [1] يسابقن الرجال فى تلك السبيل المباركة ، تقبل الله من جميعهم بمنه . وفى أثناء ذلك يلاقى الرجال بعضهم بعضا ، فيتصافحون ويتهادون الدعاء والتغافر بينهم ، والنساء كذلك ، والكل منهم قد لبس أفخر ثيابه واحتفل احتفال اهل البلاد للأعياد .

وأما أهل البلد الأمين فهذا الموسم عيدهم ، له يعبون وله يحتفلون ، وفى المباهاة فيه يتنافسون ، وله يعظمون ، وفيه تنفق أسواقهم وصنائعهم ، يقدمون النظر فى ذلك والاستعداد له بأشهر .

ومن لطيف صنع الله عز وجل لهم فيه ، اعتناء كريم منه سبحانه بحرمه الأمين ، أن قبائل من اليمن تعرف بالسرو — وهم أهل جبال حصينة باليمن تعرف بالسراة ، كأنها مضافة لسراة الرجال على ما أخبرنى به فقيه من أهل اليمن يعرف بابن أبى الصيف ، فاشتق الناس لهم هذا الاسم المذكور من اسم بلادهم ، وهم قبائل شتى كبجيلة وسواها — يستعدون للوصول الى هذه البلدة المباركة قبل حلولها بعشرة أيام ، فيجمعون بين النية فى العمرة وميرة البلد بضروب من الأطعمة ، كالحنطة وسائر الحبوب الى اللوبياء الى ما دونها ، ويجلبون السمن والعسل والزبيب واللوز ، فتجمع ميرتهم بين الطعام والأدام والفاكهة ، ويصلون فى آلاف من العدد رجالا وجمالا موقرة بجميع ما ذكر ، فيرغدون معايش أهل البلد والمجاورين فيه : يتقوتون ويدخرون ، وترخص الأسعار وتعم المرافق ، فيعد منها الناس ما يكفيهم لعامهم الى ميرة أخرى ، ولولا هذه الميرة لكان أهل مكة فى شظف من العيش .

ومن العجب فى أمر هؤلاء المائرين ، أنهم لا يبيعون من جميع ما ذكرناه بدينار ولا بدرهم ، انما يبيعونه بالخرق والعباءات والشمل ، فأهل مكة يعدون لهم من ذلك ، مع الأقنعة والملاحف المتان [1] وما أشبه ذلك مما يلبسه الأعراب ، ويبايعونهم به ويشارونهم [2] .

ويذكر أنهم متى أقاموا عن هذه الميرة ببلادهم تجدب ، ويقع الموتان فى مواشيهم وأنعامهم ، وبوصولهم بها تخصب بلادهم ، وتقع البركة فى أموالهم ، فمتى قرب الوقت ووقعت منهم بعض غفلة فى التأهب للخروج ، اجتمع نساؤهم فأخرجنهم ، وكل هذا لطف من الله تعالى لحرمة البلد الأمين .

وبلادهم على ما ذكر لنا خصيبة متسعة ، كثيرة التين والعنب ، واسعة المحرث ، وافرة الغلات . وقد اعتقدوا اعتقادا صحيحا أن

البركة كلها فى هذه الميرة التى يجلبونها ، فهم من ذلك فى تجارة رابحة مع الله عز وجل .

والقوم عرب صرحاء فصحاء ، جفاة أصحاء ، لم تغذهم الرقة الحضرية ، ولا هذبتهم السير المدنية ، ولا سددت مقاصدهم السنن الشرعية . فلا تجد لديهم من أعمال العادات سوى صدق النية ، فهم اذا طافوا بالكعبة المقدسة يتطارحون عليها تطارح البنين على الأم المشفقة ، لائذين بجوارها ، متعلقين بأستارها ، فحيث ما علقت أيديهم منها تمزق لشدة اجتذابهم لها ، وانكبابهم عليها . وفى أثناء ذلك تصدع ألسنتهم بأدعية تتصدع لها القلوب ، وتتفجر لها الأعين الجوامد فتصوب ، فترى الناس حولهم باسطى أيديهم ، مؤمنين على أدعيتهم ، متلقنين لها من ألسنتهم .

على أنهم طول مقامهم لا يتمكن معهم طواف ، ولا يوجد سبل الى استلام الحجر ، واذا فتح الباب الكريم فهم الداخلون بسلام ، فتراهم فى محاولة دخولهم يتسلسلون ، كأنهم بعض ببعض مرتبطون ، يتصل منهم على هذه الصفة الثلاثون والأربعون الى أزيد من ذلك ، والسلاسل منهم بتسع بعضهم بعضا ، وربما انفصمت بواحد منهم يميل عن المطلع المبارك الى البيت الكريم ، فيقع الكل لوقوعه ، فيشاهد الناظر لذلك مرأى يؤدى الى الضحك .

وأما صلاتهم فلم يذكر فى مضحكات الأعراب أظرف منها ، وذلك أنهم يستقبلون البيت الكريم ، فيسجدون دون ركوع ، وينقرون بالسجود نقرا ، ومنهم من يسجد السجدة الواحدة ، ومنهم من يسجد الثنتين والثلاث والأربع ، ثم يرفعون رؤوسهم من الأرض قليلا ، وأيديهم مبسوطة عليها ، ويلتفتون يمينا وشمالا التفات المروع ، ثم يسلمون ، أو يقومون دون تسليم ولا جلوس للتشهد . وربما تكلموا فى أثناء ذلك ، وربما رفع أحدهم رأسه من سجوده الى صاحبه ، وصاح به ووصاه بما شاء ، ثم عاد الى سجوده ، الى غير ذلك من أحوالهم الغريبة ، ولا ملبس لهم سوى أزر وسخة ، أو جلود يستترون بها .

وهم مع ذلك أهل بأس ونجدة ، لهم القسى العربية الكبار كأنها قسى القطانين لا تفارقهم فى أسفارهم ، فمتى رحلوا الى الزيارة هاب أعراب الطريق ، المسكون للحاج ، مقدمهم ، وتجنبوا اعتراضهم ، وخلوا لهم عن الطريق ، ويصحبهم الحجاج الزائرون ، فيحمدون صحبتهم . وعلى ما وصفنا من أحوالهم فهم أهل اعتقاد للايمان صحيح .

وذكر أن النبى صلى الله عليه وسلم ذكرهم ، وأثنى عليهم خيرا ، وقال : « علموهم الصلاة يعلموكم[1] الدعاء » ، وكفى بأن دخلوا فى عموم قوله صلى الله عليه وسلم « الايمان يمان » الى غير ذلك من الأحاديث الواردة فى اليمن وأهله . وذكر أن عبد الله بن عمر ، رضى الله عنهما ، كان يحترم وقت طوافهم ، ويتحرى الدخول فى جملتهم تبركا بأدعيتهم ، فشأنهم عجيب كله .

وشاهدنا منهم صبيا فى الحجر ، قد جلس الى أحد الحجاج يعلمه فاتحة الكتاب وسورة * الاخلاص [1] ، فكان يقول له : قل هو الله أحد ، فيقول الصبى : الله أحد ، فيعيد عليه المعلم ، فيقول له : ألم تأمرنى بأن أقول هو الله أحد ؟ قد قلت ، فكابد فى تلقينه مشقة ، وبعد لأى ما علقت بلسانه .

وكان يقول له : بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين ، فيقول الصبي : بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله ، فيعيد عليه المعلم ، ويقول له : لا تقل والحمد لله انما قل الحمد لله ، فيقول الصبى : اذا قلت بسم الله الرحمن الرحيم أقول والحمد لله للاتصال ، واذا لم أقل بسم الله وبدأت قلت الحمد لله . فعجبنا من أمره ومن معرفته طبعا بصلة الكلام وفصله [2] دون تعلم ، وأما فصاحتهم فبديعة جدا ، ودعاؤهم كثير التخشيع للنفوس ، والله يصلح أحوالهم وأحوال جميع عباده بمنه .

والعمرة فى هذا الشهر كله متصلة ليلا ونهارا ، رجالا ونساء ، لكن المجتمع كله انما كان فى الليلة الأولى ، وهى ليلة الموسم عندهم . والبيت الكريم يفتح كل يوم من هذا الشهر المبارك ، فاذا كان اليوم التاسع والعشرون منه أفرد للنساء خاصة ، فيظهر للنساء بمكة فى ذلك اليوم احتفال عظيم ، فهو عندهم يوم زينتهم [3] المشهور المستعد له .

وفى يوم الخميس الخامس عشر من الشهر المذكور ، شاهدنا من الاحتفال للعمرة قريبا من المشهد الأول المذكور فى أوله ، فكان لايبقى أحد من الرجال والنساء الا خرج لها . وبالجملة فالشهر المبارك كله معمور بأنواع العبادات من العمرة وسواها ، ويختص [4] أوله ونصفه من ذلك بحظ متميز ، وكذلك السابع والعشرون [5] منه .

وفى عشىّ يوم الخميس المذكور كنا جلوسا بالحجر المكرم ، فما راعنا الا الأمير مكثر طالعا محرما ، قد وصل من ميقات العمرة تبركا بذلك اليوم ، وجريا فيه على * الرسم ، وأبناؤه وراءه محرمين ، وقد حف به بعض خاصته ، وبادر المؤذن الزمزمي للحين الى سطح قبة زمزم داعيا على عادته ، متناوبا [1] فى ذلك مع أخيه صغيره ، وحانت صلاة العشاء [2] مع فراغ الأمير من طوافه ، فصلى خلف الامام الشافعى ، وخرج الى المسعى المبارك .

وفى يوم الجمعة السادس عشر منه خرجت قافلة كبيرة من الحاج ، فى [3] نحو أربعمائة جمل مع الشريف الداودى ، الى زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم . وفى جمادى الثانية قبله كانت أيضا زيارة أخرى لبعض الحجاج فى قافلة أصغر من هذه المذكورة ، وبقيت الزيارة الشوالية ، والتى مع الحاج [4] العراقى ، اثر الوقفة ان شاء الله عز وجل . وفى التاسع عشر من شعبان كان انصراف هذه القافلة الكبيرة فى كنف السلامة ، والحمد لله .

وفى ليلة الثلاثاء السابع والعشرين منه — أعنى من رجب — ظهر لأهل مكة أيضا احتفال عظيم فى الخروج الى العمرة لم يقصر عن الاحتفال الأول ، فانجفل الجميع اليها تلك

الليلة رجالا ونساء على الصفات والهيئات المتقدمة الذكر ، تبركا بفضل هذه الليلة ، لأنها من الليالى الشهيرة الفضل ، فكانت مع صبيحتها عجبا فى الاحتفال وحسن المنظر ، جعل الله ذلك كله خالصا لوجهه الكريم . وهذه العمرة يسمونها عمرة الأكمة لأنهم يحرمون فيها من أكمة أمام مسجد عائشة رضى الله عنها ، بمقدار غلوة ، وهى على مقربة من المسجد المنسوب لعلى عليه السلام .

والأصل فى هذه العمرة الأكمية عندهم أن عبد الله بن الزبير ، رضى الله عنهما ، لما فرغ من بناء الكعبة المقدسة ، خرج ماشيا حافيا معتمرا وأهل مكة معه فانتهى الى تلك الأكمة فأحرم منها — وكان ذلك فى اليوم السابع والعشرين من رجب — وجعل طريقه على ثنية الحجون المفضية الى المعلى ، التى كان دخول المسلمين يوم فتح مكة منها حسبما تقدم ذكره ؛ فبقيت تلك العمرة سنة عند أهل مكة فى ذلك اليوم بعينه ، وعلى تلك الأكمة بعينها .

وكان يوم عبد الله ، رضى الله عنه ، مذكورا مشهورا ، لأنه أهدى فيه كذا وكذا بدنة عددا لم تتحصل صحته فكنت أثبته ، لكنه بالجملة كثير . ولم يبق من أشراف مكة وذوى الاستطاعة فيها الا من اهدى ، وأقام أهلها أياما يطعمون ويطعمون ويتنعمون وينعمون ، شكرا لله عز وجل على ما وهبهم من المعونة والتيسير فى بناء بيته الحرام ، على الصفة التى كان عليها مدة الخليل ابراهيم صلى الله عليه وسلم . فنقضها الحجاج — لعنه الله — وأعادها على ما كانت عليه مدة قريش ، لأنهم كانوا اقتصروا فى بنائه عن قواعد ابراهيم صلى الله عليه وسلم ، وأبقى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ذلك على حاله ، لحدثان عهدهم بالكفر ، حسب ما ثبت فى رواية [1] رضى الله عنها فى « موطأ » مالك بن أنس رضى الله عنه .

وفى اليوم التاسع والعشرين منه — وهو يوم الخميس — أفرد البيت للنساء خاصة ، فاجتمعن من كل أوب ، وقد تقدم احتفالهن لذلك بأيام كاحتفالهن للمشاهد الكريمة ، ولم تبق امرأة بمكة الا حضرت المسجد الحرام ذلك اليوم . فلما وصل الشيبيون لفتح (البيت) الكريم على العادة ، أسرعوا [2] فى الخروج منه ، وأفرجوا للنساء عنه ، وأفرج الناس لهن عن الطواف وعن الحجر ، ولم يبق حول البيت المبارك أحد من الرجال .

وتبادر النساء الى الصعود حتى كاد الشيبيون لا يخلصون بينهن عند هبوطهم [3] من البيت الكريم ، وتسلسل النساء بعضهن ببعض ، وتشابكن حتى تواقعن ، فمن صائحة ومعولة ومكبرة ومهللة ، وظهر من تزاحمهن ما ظهر من السرو اليمنيين [4] مدة مقامهم بمكة ، وصعودهم يوم فتح البيت المقدس ، وأشبهت الحال الحال ، وتمادين على ذلك صدرا من النهار ، وانفسحن فى الطواف والحجر ، وتشفين من تقبيل الحجر واستلام الأركان ، وكان ذلك اليوم عندهن الأكبر ، ويومهن الأزهر الأشهر ، نفعهن الله به ، وجعله خالصا لكريم وجهه .

وبالجملة فهن مع الرجال مسكينات مغبونات ، يرين البيت الكريم ولا يلجنه ، ويلحظن الحجر المبارك ، ولا يستلمنه [1] ، فحظهن من ذلك كله النظر والأسف المستطير المستشعر ، فليس لهن سوى الطواف على البعد . وهذا اليوم الذى هو من عام الى عام فهن يرتقبنه [2] ارتقاب أشرف الأعياد ، ويكثرن له من التأهب والاستعداد ، والله ينفعهن فى ذلك بحسن النية والاعتقاد بمنه وكرمه .

وفى اليوم الثانى منه بكر الشيبيون الى غسله بماء زمزم المبارك ، بسبب أن كثيرا من النساء أدخلن أبناءهن الصغار والرضع معهن ، فيتحرى غسله تكريما وتنزيها ، وازالة لما يحيك فى النفوس من هواجس الظنون ، فيمن ليست له ملكة عقلية تمنعه من أن تصدر عنه حادثة تجس فى ذلك الموطن الكريم ، والمحل المخصوص بالتقديس والتعظيم .

فعند انسياب الماء عنه كان كثير من الرجال والنساء يبادرون [3] اليه ، تبركا بغسل أوجههم وأيديهم فيه ، وربما جمعوا منه فى أوان [4] قد أعدوها لذلك ، ولم يراعوا العلة التى غسل لها ، وكان منهم من توقف عن ذلك ، وربما لحظ الحال لحظة من لا يستجيزها ، ولا يصوب العقل فى ذلك .

وما ظنك بماء زمزم المبارك قد صب داخل بيت الله الحرام ، وماج فى جنبات أركانه الكرام ، ثم * بازاء الملتزم والركن الأسود المستلم ، أليس جديرا بأن تتلقاه الأفواه فضلا عن الأيدى ، وتغمس فيه الوجوه فضلا عن الاقدام ؟ وحاشا لله أن تعرض فى ذلك علة تمنع منه ، أو شبهة من شبهات ، الظنون تدفع [1] عنه ، والنيات عند الله تعالى مقبولة ، والمثابرة على تعظيم حرماته برضاه موصوله ، وهو المجازى على الضمائر وخفيات السرائر ، لا اله سواه .

شهر شعبان المكرم عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة السبت التاسع عشر لشهر نونبر [2] . وفى صبيحته بكر الأمير مكثر الى الطواف ، على العادة فى ذلك رأس كل شهر ، مع أخيه وبنيه [3] ، ومن جرى الرسم باستصحابه من القواد والأشياع والأتباع ، وعلى الأسلوب المتقدم الذكر ، والزمزمى يصرخ فى مراقبته على عادته ، متناوبا مع أخيه صغيره

وفى سحر يوم الخميس الثالث عشر منه — وهو أول يوم من دجنبر [4] — بعد طلوع الفجر كسف القمر ، وبدأ الكسوف والناس فى صلاة الصبح فى الحرم الشريف ، رغاب مكسوفا ، وانتهى الكسوف الى ثلثيه * ، والله يعرفنا حقيقة الاعتبار بآياته .

وفى يوم الجمعة ، الثانى من ذلك اليوم ، أصبح بالحرم أمر عجيب ، وذلك أنه لم يبق بمكة صبى الا وصبحه ، واجتمعوا كلهم فى قبة زمزم ، وينادون بلسان واحد : هللوا وكبروا يا عباد الله ، فيهلل الناس ويكبرون ، وربما دخل معهم من عرض [6] العامة من ينادى معهم بندائهم ، والناس والنساء يزدحمون على قبة البئر المباركة ، لأنهم يزعمون — بل يقطعون (قطعا) جهليا لا قطعا عقليا — أن ماء زمزم يفيض ليلة النصف من شعبان ،

وكانوا على ظن من هلال الشهر لأنه قيل انه رؤى ليلة الجمعة فى جهة اليمن .

فبكر الناس الى القبة ، وكان فيها من الازدحام ما لم يعهد مثله ، ومقصد الناس فى ذلك التبرك بذلك الماء المبارك الذى قد ظهر فيضه ، والسقاة فوق التنور يستقون ويفيضون على رؤوس الناس الماء [1] بالدلاء قذفا : فمنهم من يصيبه فى وجهه ، ومنهم من يصيبه فى رأسه الى غير ذلك ، وربما تمادى لشدة نفوذه من أيديهم .

والناس مع ذلك يستزيدون ويستكون ، والنساء من جهة أخرى يساجلنهم بالبكاء ويطارحنهم بالدعاء ، والصبيان يصيحون بالتهليل والتكبير . فكان مرأى هائلا مسموعا رائعا ، لم يتخلص للطائفين [2] بسنة الطواف ، ولا للمصلين صلاة ، لعلو تلك الأصوات ، واشتغال الأسماع والأذهان بها .

ودخل الى القبة المذكورة أحدنا ذلك اليوم ، فكان من لزّ الزحام عنتا ومشقة ، فسمع الناس يقولون : زاد الماء سبع [3] أذرع ، فجعل يقصد الى من يتوسم فيه بعض عقل ونظر من ذوى [4] السبال البيض ، فيسأله عن ذلك فيقول وأدمعه تسيل : نعم زاد الماء سبع [3] أذرع لاشك فى ذلك ، فيقول : أعن خبرة وحقيقة ؟ فيقول نعم . ومن العجيب أن كان منهم من قال : انه بكر سحر يوم الجمعة المذكور [5] ، فألفى الماء قد قارب التنور بنحو القامة ، فيا عجبا لهذا الاختراع الكاذب ! نعوذ بالله من الفتنة .

وكان من الاتفاق أن اعتنينا بهذا الأمر لغلبة الاستفاضة التى سمعناها فى ذلك ، واستمرارها من سوالف الأزمنة عند عوام أهل مكة ، فتوجه منا ليلة الجمعة من أدلى دلوه فى البئر المباركة الى أن ضرب فى صفح الماء ، وانتهى الحبل الى حافة التنور ، عقد فيه عقدا [6] يصح عندنا القياس به فى ذلك .

فلما كان فى صبيحتها ، وتنادى الناس بالزيادة ، الزيادة الظاهرة ، خلص أحدنا فى ذلك الزحام على صعوبة ، ومعه من استصحب الدلو وآدلاه ، فوجد القياس على حاله لم ينقص ولم يزد ، بل كان من العجب أن عاد القياس ليلة السبت ، فألفاه قد نقص يسيراً لكثرة ما امتاح الناس منه ذلك اليوم ، فلو امتيح من البحر لظهر النقص فيه ، فسبحان من خص ذلك الماء بما خص به من البركة ، ووضع فيه من المنفعة .

وفى صبيحة يوم السبت ، الخامس عشر منه ، تتبعنا هذا القياس استبراء لصحة الحال ، فوجدناه على ما كان عليه . ولو أن لافظا يلفظ ذلك اليوم بأنه لم يزد لصب فى البئر صبا ، أو لداسته الأقدام حتى تذيبه . نعوذ بالله من غلبات العوام واعتدائها ، وركوبها جوامح أهوائها .

وهذه الليلة المباركة — أعنى ليلة النصف من شعبان عند أهل مكة — معظمة للأثر الكريم الوارد فيها ، فهم يبادرون فيها الى أعمال البر من العمرة والطواف والصلاة أفرادا وجماعة [1] ، فينقسمون فى ذلك أقساما مباركة .

فشاهدنا ليلة السبت — التى هى [٧] ليلة النصف حقيقة — احتفالا عظيما فى الحرم المقدس اثر صلاة العتمة ، جعل الناس يصلون فيها جماعات جماعات تراويح يقرءون فيها بفاتحة الكتاب وبقل هو الله أحد ، عشر مرات فى كل ركعة ، الى أن يكملوا خمسين تسليمة بمائة ركعة .

قد قدمت [٣] كل جماعة اماما ، وبسطت الحصر ، وأوقدت الشمع ، وأشعلت المشاعل ، وأسرجت المصابيح ، ومصباح السماء الأزهر الأقمر قد أفاض نوره على الأرض وبسط شعاعه ، فتلاقت الأنوار فى ذلك الحرم الشريف [٤] الذى هو نور بذاته ، فيا لك مرأى لا يتخيله المتخيل ، ولا يتوهمه المتوهم .

فأقام الناس تلك الليلة على أقسام : فطائفة التزمت تلك التراويح مع الجماعة — وكانت سبع جماعات أو ثمانيا — وطائفة التزمت الحجر المبارك للصلاة على انفراد ، وطائفة خرجت للاعتمار ، وطائفة آثرت الطواف على هذا كله ، أغلبها المالكية . فكانت من الليالى الشهيرة المأمولة أن تكون ، من غرر القربات ومحاسنها ، نفع الله بها ، ولا أخلى من بركتها وفضلها ، وأوصل الى هذه المثابة المقدسة كل شيق اليها بمنه .

وفى تلك الليلة المباركة شاهد أحمد بن حسان منا [١] امرا عجبا ، هو من غرائب الأحاديث المأثورات فى رقة النفوس ، وذلك أنه أصابه النوم عند الثلث الباقى من الليل ، فأوى الى المصطبة التى تحف بها قبة زمزم ، مما يقابل الحجر الأسود وباب البيت ، فاستلقى فيها لينام ، فاذا بانسان من العجم قد جلس على المصطبة بازائه مما يلى رأسه ، فجعل يقرأ بتشويق وترقيق ، ويتبع ذلك بزفير وشهيق ، أحسن قراءة وأوقعها فى النفوس [٢] ، وأشدها تحريكا للساكن ، فامتنع المذكور من المنام استمتاعا بحسن ذلك المسموع ، وما فيه من التشويق والتخشيع ، الى أن قطع القراءة وجعل يقول :

ان كان سوء الفعال أبعدنى
فحسن ظنى اليك قربنى

ويردد ذلك بلحن يتصدع له الجماد ، وينشق عليه الفؤاد ، ومضى فى ترديد ذلك البيت — ودموعه تكف ، وصوته ترق وتضعف — الى أن وقع فى نفس أحمد بن حسان المذكور أنه سيغشى عليه ، فما كان بين اعتراض هذا الخاطر فى نفسه [٢] ، وبين وقوع الرجل مغشيا عليه من المصطبة الى الأرض الا كلا ولا ، وبقى ملقى كأنه لقى [٤] لا حراك به .

فقام ابن حسان مذعورا لهول ما عاينه ، مترددا فى حياة الرجل أو موته ، لشدة تلك الوجبة [٥] والموضع من الأرض بائن الارتفاع ، وقام أحد من كان بازائه نائما ، وأقاما متحيرين ، ولم يقدما على تحريك الرجل ولا على الدنو منه . الى أن اجتازت امرأة أعجمية وقالت : هكذا تتركون هذا الرجل على مثل هذا الحال ! وبادرت الى شيء من ماء زمزم فنضحت به وجهه ، ودنا المذكوران منه وأقاماه ، فعندما أبصرهما زوى وجهه للحين

عنهما ، مخافة أن تثبت له صفة فى أعينهما ، وقام من فوره آخذا الى جهة باب بنى شيبة .

وبقيا متعجبين مما شاهداه ، وعض ابن حسان بنان الأسف على ما فاته من بركة دعائه ، اذ لم يمكنه الحال استدعاءه منه ، وعلى أنه لم تثبت له صورة فى نفسه ، فكان يتبرك به متى لقيه . ومقامات هؤلاء الأعاجم فى رقة الأنفس وتأثرها [1] ، وسرعة انفعالها ، وشدة مجاهداتها فى العبادات ، وطول مثابرتها على أفعال البر ، وظهور بركاتها ، مقامات عجيبة شريفة ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء .

وفى سحر يوم الخميس ، الثالث عشر من الشهر المذكور ، كسف القمر ، وانتهى الكسوف منه الى مقدار ثلثيه ، وغاب مكسوفا عند طلوع الشمس ، والله يلهمنا الاعتبار بآياته .

شهر رمضان المعظم عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الاثنين التاسع عشر لدجنبر — عرفنا الله فضله وحقه ، ورزقنا القبول فيه — وكان صيام أهل مكة له يوم الأحد بدعوى فى رؤية الهلال لم تصح ، لكن أمضى الأمير ذلك ، ووقع الايذان بالصوم بضرب دبادبه ليلة الأحد المذكور ، لموافقته مذهبه ومذهب شيعته العلويين ومن اليهم ، لأنهم يرون صيام يوم الشك فرضا حسبما يذكر ، والله أعلم بذلك .

ووقع الاحتفال فى المسجد الحرام لهذا الشهر المبارك ، وحق ذلك من تجديد الحصر . وتكثير الشمع والمشاعيل ، وغير ذلك من الآلات ، حتى تلألأ الحرم نورا ، وسطع ضياء ، وتفرقت الأيمة لاقامة التراويح فرقا : فالشافعية ، فوق كل فرقة منها ، قد نصبت اماما لها فى ناحية من نواحى المسجد ، والحنبلية كذلك ، والحنفية كذلك والزيدية .

وأما المالكية * فاجتمعت على ثلاثة قراء يتناوبون القراءة ، وهى فى هذا العام أحفل جمعا ، وأكثر شمعا ، لأن قوما من التجار المالكيين تنافسوا فى ذلك فجلبوا لامام الكعبة شمعا كثيرا ، من أكبره شمعتان نصبتا أمام المحراب فيهما قنطار ، وقد حفت بهما شمع دونهما صغار وكبار ، فجاءت جهة المالكية تروق حسنا ، وترتمى الأبصار [1] نورا .

وكاد لا يبقى فى المسجد زاوية ، ولا ناحية ، الا وفيها قارىء يصلى بجماعة خلفه ، فيرتج المسجد لأصوات القرأة من كل ناحية ، فتعاين الأبصار ، وتشاهد الأسماع من ذلك مرأى ومستمعا تنخلع له النفوس خشية ورقة .

ومن الغرباء من اقتصر على الطواف والصلاة فى الحجر ، ولم يحضر التراويح ، ورأى أن ذلك أفضل ما [2] يغتنم ، وأشرف عمل يلتزم ، وما بكل مكان يوجد الركن الكريم والملتزم .

والشافعى فى التراويح أكثر الأيمة اجتهادا ، وذلك أنه يكمل التراويح المعتادة التى هى عشر تسليمات ، ويدخل الطواف مع جماعة ، فاذا فرغ من الأسبوع وركع ، عاد لاقامة تراويح أخرى ، وضرب بالفرقعة الخطيبية المتقدمة الذكر ضربة يسمعها [3] المسجد لعلو صوتها ، كأنها ايذان بالعود الى الصلاة ، فاذا فرغوا من

تسليمتين ، عادوا لطواف أسبوع ، فاذا أكملوه ضربت الفرقعة ، وعادوا لصلاة تسليمتين ، ثم عادوا للطواف ، هكذا الى أن يفرغوا من عشر تسليمات ، فيكمل لهم عشرون ركعة ، ثم يصلون الشفع والوتر ، وينصرفون . وسائر الأيمة لا يزيدون على العادة شيئا .

والمتناوبون لهذه التراويح المقامية خمسة أيمة : أولهم امام الفريضة ، وأوسطهم صاحبنا الفقيه الزاهد الورع أبو جعفر بن (علي) الفنكي القرطبي ، وقراءته ترق الجمادات خشوعا .

وهذه الفرقعة المذكورة تستعمل في هذا الشهر المبارك ، وذلك أنه يضرب بها ثلاث ضربات عند الفراغ من أذان المغرب ، ومثلها عند الفراغ من أذان العشاء الآخرة ، وهي لا محالة من حملة البدع المحدثة في هذا المسجد المعظم ، قدسه الله .

والمؤذن الزمزمي يتولى التسحير في الصومعة التي في الركن الشرقي من المسجد ، بسبب قربها من دار الأ ، فيقوم في وقت السحور فيها داعيا ومذكرا ومحرضا على السحور ، ومعه أخوان صغيران يجاوبانه ويقاولانه ، وقد نصبت في أعلى الصومعة خشبة طويلة في رأسها عود كالذراع ، وفي طرفيه بكرتان صغيرتان ترفع عليهما قنديلان من الزجاج كبيران لا يزالان يقدان مدة التسحير ، فاذا قرب تبيين خيطي الفجر ، ووقع الايذان بالقطع مرة بعد مرة ، حط المؤذن المذكور القنديلين من أعلى الخشبة ، وبدأ بالأذان ، وثوب المؤذنون من كل ناحية بالأذان . وفي ديار مكة كلها سطوح مرتفعة ، فمن لم يسمع نداء التسحير ، ممن يبعد مسكنه من المسجد ، يبصر القنديلين يقدان في أعلى الصومعة ، فاذا لم يبصرهما علم أن الوقت قد انقطع .

وفي ليلة الثلاثاء الثاني من الشهر مع العشي طاف الأمير مكثر بالبيت مودعا ، وخرج للقاء الأمير سيف الاسلام طغتكين [2] بن أيوب أخي صلاح الدين ، وقد تقدم الخبر بوروده من مصر منذ مدة ، ثم تواتر الى أن صح وصوله الى الينبوع [3] ، وأنه عرج الى المدينة لزيارة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتقدمت أثقاله الى الصفراء ، والمتحدث به في وجهته قصد اليمن لاختلاف وقع فيها ، وفتنة حدثت من أمرائها ، لكن وقع في نفوس المكيين منه ابحاس [4] خيفة واستشعار خشية ، فخرج هذا الأمير المذكور متلقيا مسلما ، وفي الحقيقة مستسلما ، والله تعالى يعرف المسلمين خيرا .

وفي ضحوة يوم الأربعاء ، الثالث من الشهر المبارك المذكور ، كنا جلوسا بالحجر المكرم ، فسمعنا دبادب الأمير مكثر وأصوات نساء مكة تولولن [1] عليه . فبينا نحن كذلك دخل منصرفا من لقاء الأمير سيف الاسلام المذكور ، وطائفا بالبيت المكرم طواف التسليم ، والناس قد أظهروا الاستبشار لقدومه والسرور بسلامته ، وقد شاع الخبر بنزول سيف الاسلام الزاهر وضرب أبنيته [2] فيه ، ومقدمته من العسكر قد وصلت الى الحرم ، وزاحمت الأمير مكثرا في الطواف .

فبينا الناس ينظرون اليهم اذ سمعوا ضوضاء عظيمة ، وزعقات هائلة ، فما راعهم الا الأمير سيف الاسلام داخلا [3] من باب بنى شيبة ، ولمعان السيوف أمامه يكاد يحول بين الأبصار وبينه ، والقاضى عن يمينه ، وزعيم الشيبيين عن يساره ، والمسجد قد ارتج وغص بالنظارة والوافدين ، والأصوات بالدعاء له ولأخيه صلاح الدين قد علت من الناس حتى صكت الأسماع وأذهلت الأذهان ، والمؤذن الزمزمى [4] فى مرقبته رافعا عقيرته بالدعاء له والثناء عليه ، وأصوات الناس تعلو على صوته ، والهول قد عظم مرأى ومستمعا .

فلحين دنو الأمير من البيت المعظم أغمدت السيوف ، وتضاءلت النفوس ، وخلعت ملابس العزة وذلت الأعناق ، وخضعت الرقاب ، وطاشت الألباب [5] مهابة وتعظيما لبيت ملك الملوك العزيز الجبار الواحد القهار ، مؤتى الملك من يشاء ، ونازع الملك ممن يشاء ، سبحانه جلت قدرته وعز سلطانه .

ثم [6] تهافتت هذه العصابة الغزية على بيت الله العتيق تهافت الفراش على المصباح ، وقد نكس أذقانهم الخضوع ، وبلت سبالهم الدموع ، وطافه القاضى وزعيم الشيبيين بسيف الاسلام والأمير مكثر قد غمره ذلك الزحام ، فأسرع فى الفراغ من الطواف ، وبادر الى منزله .

وعندما أكمل سيف الاسلام طوافه صلى خلف * المقام ، ثم دخل قبة زمزم فشرب من مائها ، ثم خرج على باب الصفا الى السعى ، فابتدأه ماشيا على قدميه تواضعا وتذللا لمن يجب التواضع له ، والسيوف مصلوتة [1] أمامه ، وقد اصطف الناس من أول المسعى الى آخره سماطين مثل ماصنعوا أيضا فى الطواف ، فسعى على قدميه طريقين من الصفا الى المروة ، ومنها الى الصفا ، وهرول بين الميلين الأخضرين ، ثم قيده الاعياء فركب وأكمل السعى راكبا ، وقد حشر الناس ضحى ، يعنى وقتا [2] .

ثم عاد هذا الأمير الى المسجد الحرام على حالته من الارهاب والهيبة ، وهو يتهادى بين بروق خواطف السيوف المصلتة ، وقد بادر الشيبيون الى باب البيت المكرم ليفتحوه — ولم يكن يوم فتحه — وضم الكرسى الذى يصعد عليه ، فرقى الأمير فيه . وتناول زعيم الشيبيين فتح الباب فاذا المفتاح قد سقط [3] من كمه فى ذلك الزحام ، فوقف وقفة دهش مذعور ، ووقف الأمير على الأدراج ، فيسر الله للحين فى وجود المفتاح ، ففتح الباب الكريم ، ودخل الأمير وحده مع الشيبى وأغلق الباب ، وبقى وجوه الأغزاز وأعيانهم مزدحمين على ذلك الكرسى ، فبعد لأى ما فتح لأمرائهم المقربين فدخلوا [4] .

وتمادى مقام سيف الاسلام فى البيت الكريم مدة طويلة ، ثم خرج وانفتح الباب للكافة منهم ، فياله من ازدحام وتراكم وانتظام ، حتى صاروا كالعقد المستطيل ، وقد اتصلوا وتسلسلوا ، فكان يومهم أشبه شىء بأيام السرو [5] فى دخولهم البيت — حسبما تقدم وصفه — وركب الأمير سيف الاسلام ، وخرج الى مضرب أبنيته بالموضع المذكور . وكان هذا اليوم بمكة من الأيام الهائلة المنظر ،

العجيبة المشهد * ، الغريبة الشأن ، فسبحان من لا ينقضي ملكه ، ولا يبيد سلطانه ، لا اله سواه .

وصحب هذا الأمير جملة من حجاج مصر وسواها ، اغتناما لطريق البر والأمن ، فوصلوا فى عافية وسلامة والحمد لله .

وفى ضحوة يوم الخميس بعده كنا أيضا بالحجر المكرم ، فاذا بأصوات طبول ودبادب وبوقات قد قرعت الأذان ، وارتجت لها نواحى الحرم الشريف . فبينا نحن نتطلع لاستعلام خبرها ، طلع علينا الأمير مكثر وغاشيته الأقربون حوله ، وهو رافل فى حلة ذهب كأنها الجمر المتقد يسحب أذيالها ، وعلى رأسه عمامة شرب رقيق سحابى اللون قد علا كورها على رأسه ، كأنها سحابة مركومة ، وهى مصفحة بالذهب ، وتحت الحلة خلعتان من الديبقى المرسوم البديع الصنعة ، خلعها عليه الأمير سيف الاسلام ، فوصل بها فرحا جذلان ، والطبول والدبادب تشيعه عن أمر سيف الاسلام ، اشادة بتكرمته واعلاما بمأثره منزلته ، فطاف بالبيت المكرم شكرا لله على ما وهبه من كرامة هذا الأمير ، بعد أن كان أوجس فى نفسه خيفة منه ، والله يصلحه ويوفقه بمنه

وفى يوم الجمعة وصل الأمير سيف الاسلام للصلاة أول الوقت ، وفتح البيت المكرم فدخله مع الأمير مكثر ، وأقاما [1] به مدة طويلة ثم خرجا ، وتزاحم الغز للدخول تزاحما أبهت الناظرين حتى أزيل الكرسى الذى يصعد عليه فلم يغن عن ذلك شيئا ، وأقاموا على الازدحام فى الصعود باشالة بعضهم على بعض ، وداموا على هذه الحالة الى أن وصل الخطيب ، فخرجوا لاستماع الخطبة ، وأغلق الباب ، وصلى الأمير سيف الاسلام مع الأمير مكثر فى القبة العباسية ، فلما انقضت الصلاة خرج على باب الصفا ، وركب الى مضرب أبنيته .

وفى يوم الأربعاء العاشر منه ، خرج الأمير المذكور بجنوده الى اليمن ، والله يعرف أهلها من المسلمين فى مقدمه * خيرا بمنه

وهذا الشهر المبارك قد ذكرنا اجتهاد المجاورين للحرم الشريف فى قيامه وصلاة تراويحه ، وكثرة الأيمة فيه . وكل وتر من الليالى العشر الأواخر يختم فيها القرآن . فأولها ليلة احدى وعشرين ختم فيها أحد أبناء أهل مكة ، وحضر الختمة القاضي وجماعة من الأشياخ ، فلما فرغوا منها قام الصبى فيهم خطيبا ، ثم استدعاهم أبو الصبى المذكور الى منزله الى طعام وحلوا قد أعدهما واحتفل فيهما .

ثم بعد ذلك ليلة ثلاث وعشرين ، وكان المختتم فيها أحد أبناء المكيين ذوى اليسار ، غلاما لم يبلغ سنه الخمس عشرة سنة ، فاحتفل أبوه لهذه الليلة احتفالا بديعا . وذلك أنه أعد له ثريا مصنوعة من الشمع مغصنة ، قد انتظمت أنواع الفواكه الرطبة واليابسة ، وأعد اليها شمعا كثيرا ، ووضع فى وسط الحرم ، ممايلى باب بنى شيبة ، شبيه المحراب المربع من أعواد مشرجبة ، قد أقيم على قوائم أربع ، وربطت

فى أعلاه عيدان نزلت منها قناديل ، وأسرجت فى أعـلاها مصابيح ومشاعيل ، وسمر [1] دائر المحراب كله بمسامير حديدة الأطراف غرز فيها الشـمع ، فاستدار بالمحـراب كله ، وأوقدت الثريا المغصنة ذات الفواكه .

وأمعن الاحتفال فى هذا كله ، ووضع بمقربة من المحراب منبر مجلل بكسوة مجزعة مختلفة الألوان ، وحضر الامام الطفل فصلى التراويح وختم ، وقد انحشد أهل المسجد الحرام اليه رجالا ونساء ، وهو فى محرابه لا يكاد يبصر من كثرة شعاع الشمع المحدق به ، ثم برز من محـرابه رافلا فى أفخـر ثيابه بهيبة امامية ، وسكينة غلامية ، مكحل العينين ، مخضـوب الكفين الى الزندين ، فلم يستطع الخلوص الى منبره من كثرة الزحام ، فأخذه أحد سدنة تلك الناحية [2] فى ذراعه حتى ألقاه على ذروة منبره ، فاستوى مبتسما ، وأشار عـلى الحاضرين مسلما .

وقعد بين يديه قراء ، فابتدروا [1] القراءة على لسان واحد ، فلما أكملوا عشرا من القرآن قام الخطيب ، فصـدع بخطبة يحـرك لهـا أكثر النفوس من جهة الترجيع لا من جهة التـذكير والتخشـيع ، وبين يديه فى درجات المنبر نفر يمسـكون أتوار [2] الشمع فى أيديهم ، ويرفعون أصواتهم بيارب يارب عند كل فصل من فصول الخطبة ، يكررون ذلك ، والقراء يبتدرون [3] القراءة [4] فى أثناء ذلك ، فيسـكت الخطيب الى أن يفرغوا ثم يعود لخطبته .

وتمادى فيها متصرفا فى فنون من التذكير ، وفى أثنائها اعترضه ذكر البيت العتيق — كرمه الله — فحسر عن ذراعيه مشيرا اليه ، وأردفه بذكر زمزم والمقام ، فأشـار اليهما بـكلتا [5] أصـبعيه ، ثم ختمها [6] بتوديع الشـهر المبارك وترديد السلام عليه ، ثم دعا للخليفة ولكل من جرت العادة بالدعاء له من الأمراء ، ثم نزل وانفض ذلك الجمع العظيم .

وقد استظرف ذلك الخطيب واسـتنبل [7] ، وان لم تبلغ الموعظة من النفـوس ما أمل ، والتذكرة اذا خـرجت من اللسان لم تتعـد مسافة الآذان . ثم ذكـر أن المعينين من ذلك الجمع — كالقاضى وسواه — خصوا بطعام حفيل وحلوا ، عـلى عادتهم فى مثـل هـذا المجتمع ، وكانت لأبى الخطيب فى تلك الليلة نفقة واسعة فى جميع ما ذكر .

ثم كانت ليلة خمس وعشرين ، فكان المختتم فيها الامام الحنفى ، وقد أعد ابنا له لذلك سنه نحو من سن الخطيب الأول المذكور ، فـكان احتفال الامام الحنفى لابنـه فى هـذه الليلة عظيما ، أحضر فيها من ثريات [8] الشمع أربعا مختلفات الصنعة : منها مشجرة مغصنة [9] مثمرة بأنواع الفواكه الرطبة واليابسة ، ومنها غير مغصنة ، فصففت أمام حطيمه ، وتوج الحطيم بخشب وألواح وضعت أعلاه ، وجلل ذلك كله سُرُجا ومشاعيل وشبهها ، فاستنار الحطيم كله حتى لاح فى الهواء كالتاج العظيم من النور ، وأحضر الشـمع فى أتوار [1] الصفر ، ووضع المحراب العودى المشرجب ، فجلل دائره الأعلى

كله شمعا ، وأحدق الشمع فى الأنوار به ، فاكتنفته هالات من نور ، ونصب المنبر قبالته مجللا أيضا بالكسوة الملونة .

واحتفال [2] الناس لمشاهدة هذا المنظر النير أعظم من الاحتفال الأول ، فختم الصبى المذكور ، ثم برز من محرابه الى منبره يسحب أذيال الخفر فى أثواب رائقة المنظر ، فتسور منبره وأشار بالسلام على الحاضرين ، وابتدأ خطبته بسكينة ولين ولسان على حالة الحياء مبين ، فكأن الخال [3] على طفولتها كانت أوقر [4] من الأولى وأخشع ، والموعظة أبلغ والتذكرة أنفع .

وحضر القراء بين يديه على الرسم الأول . وفى أثناء فصول الخطبة يبتدرون القراءة ، فيسكت خلال اكمالهم الآية التى انتزعوها من القرآن ، ثم يعود الى خطبته . وبين يديه فى درجات المنبر طائفة من الخدمة بمسكون أنوار الشمع بأيديهم ، ومنهم من يمسك المجمرة يسطع بعرف العود الرطب الموضوع فيها مرة بعد أخرى . فعندما يصل الى فصل من تذكير أو تخشيع ، رفعوا أصواتهم بيارب يارب ، يكررونها ثلاثا أو أربعا ، وربما جاراهم فى النطق بعض الحاضرين الى أن فرغ من خطبته ونزل . وجرى الامام اثره على الرسم من الاطعام لمن حضر من أعيان المكان ، اما باستدعائهم الى منزله تلك الليلة ، أو بتوجيه ذلك الى منازلهم .

ثم كانت ليلة سبع وعشرين — وهى ليلة الجمعة بحساب يوم الأحد — فكانت الليلة الغراء ، والختمة الزهراء ، والهيبة الموفورة الكهلاء ، والحالة التى تمكن عند الله تعالى فى القبول والرجاء . وأى حالة تؤازى شهود ختم القرآن ليلة سبع وعشرين من رمضان خلف المقام الكريم وتجاه البيت العظيم ! وانها لنعمة تتضاءل لها النعم تضاؤل سائر البقاع للحرم .

ووقع النظر والاحتفال لهذه الليلة المباركة قبل ذلك بيومين أو ثلاثة ، وأقيمت ازاء حطيم امام الشافعية خشب عظام بائنة [1] الارتفاع ، موصول بين كل ثلاث منها بأذرع من الأعواد الوثيقة ، فاتصل منها صف كاد يمسك نصف الحرم عرضا ، ووصلت بالحطيم المذكور .

ثم عرضت بينها ألواح طوال مدت على الأذرع المذكورة ، وعلت طبقة منها طبقة أخرى حتى استكملت ثلاث طبقات ، فكانت الطبقة العليا منها خشبا مستطيلة مغروزة كلها مسامير محددة الأطراف ، لاصقا بعضها ببعض كظهر الشيهم ، نصب عليها الشمع ، والطبقتان تحتها ألواح مثقوبة ثقبا متصلا ، وضعت فيها زجاجات المصابيح ذوات الأنابيب المنبعثة من أسافلها .

وتدلت من جوانب هذه الألواح والخشب ، ومن جميع الأذرع المذكورة قناديل كبار وصغار ، وتخللها أشباه الأطباق المبسوطة من الصفر ، قد انتظم كل طبق منها ثلاث سلاسل تقلها فى الهواء ، وخرقت كلها ثقبا ، ووضعت فيها الزجاجات ذوات الأنابيب من أسفل تلك الأطباق [2] الصفرية ، لا يزيد منها أنبوب من أنبوب فى القد ، وأوقدت فيها المصابيح ،

فجاءت كأنها موائد ذوات أرجل كثيرة تشتعل نورا .

ووصلت بالحطيم الثانى ، الذى يقابل الركن الجنوبى من قبة زمزم ، خشب على الصفة المذكورة اتصلت الى الركن المذكور ، وأوقد المشعل الذى فى رأس فحل القبة المذكورة ، وصففت طرة شباكها شمعا مما يقابل البيت المكرم .

وحف المقام الكريم بمحراب من الأعواد المشرجبة المخرمة ، محفوفة الأعلى بمسامير حديدة الأطراف على الصفة المذكورة ، جللت كلها شمعا ، ونصب عن يمين المقام ويساره شمع كبير الجرم فى أتوار تناسبها كبرا ، وصفت تلك الأتوار على الكراسى التى يصرفها السدنة مطالع عند الايقاد ، وجلل جدار الحجر المكرم كله شمعا فى أتوار من الصفر ، فجاءت كأنها دائرة نور ساطع ، وأحدقت بالحرم المشاعيل ، وأوقد جميع ما ذكر .

وأحدق بشرفات الحرم كلها صبيان مكة ، وقد وضعت بيد كل (واحد) منهم كرة من الخرق المشبعة سليطا ، فوضعوها متقدة فى رؤوس الشرفات ، وأخذت كل طائفة منهم ناحية من نواحيها الأربع ، فجعلت كل طائفة تبارى صاحبتها فى سرعة ايقادها ، فيخيل للناظر أن النار تثب من شرفة الى شرفة لخفاء أشخاصهم وراء الضوء المرتمى الأبصار ، وفى أثناء محاولتهم لذلك يرفعون أصواتهم بيارب يارب على لسان واحد ، فيرتج الحرم لأصواتهم .

فلما كمل ايقاد الجميع بما ذكر كاد يغشى الأبصار شعاع [1] تلك الأنوار ، فلا تقع لمحة طرف الا على نور تشغل حاسة البصر عن استمالة النظر ، فيتوهم المتوهم — لهول ما يعانيه من ذلك — أن تلك الليلة المباركة نزهت لشرفها عن لباس الظلماء ، فزينت بمصابيح السماء . وتقدم القاضى فصلى فريضة العشاء الآخرة ، ثم قام وابتدأ بسورة القدر [2] ، وكان أيمة الحرم فى الليلة قبلها [3] قد انتهوا فى القراءة اليها ، وتعطل فى تلك الساعة سائر الأيمة من قراءة التراويح تعظيما لختمة المقام ، وحضروا متبركين بمشاهدتها .

وقد كان (المقام) المطهر أخرج من موضعه المستحدث فى البيت العتيق — حسبما تقدم الذكر أولا له فيما سلف من هذا التقييد — ووضع فى محله الكريم المتخذ مصلى مستورا بقبته التى يصلى الناس خلفها ، فختم القاضى بتسليمتين ، وقام خطيبا مستقبل المقام والبيت العتيق ، فلم يتمكن .. سماع الخطبة للازدحام وضوضاء العوام .

فلما فرغ من خطبته عاد الأيمة لاقامة تراويحهم ، وانفض الجمع ونفوسهم قد استطارت خشوعا ، وأعينهم [1] قد سالت دموعا ، والأنفس قد أشعرت من فضل تلك (الليلة) المباركة رجاء مبشرا بمن الله تعالى بالقبول ، ومشعرا أنها ولعلها ليلة [2] القدر المشرف ذكرها فى التنزيل ، والله عز وجل لا يخلى الجميع من بركة مشاهدتها وفضل معاينتها ، انه كريم منان لا اله سواه .

ثم ترتبت قراءة أيمة المقام الخمسة المذكورين ٣ أولا ، بعد هـذه الليـلة المذكـورة ، بآيات ينتزعونها من القرآن عـلى اختلاف السور ، تتضمن التذكير والتحذير والتبشير ، بحسب اختيار كل واحد منهم ، ورسم طوافهم اثر كل تسليمتين باق على حاله ، والله ولي القبول من الجميع .

ثم كانت ليلة تسع وعشرين منـه ، فكان المختتم فيها سائر أيمة التراويح ، ملتزمين رسم الخطبة اثر الختمة ، والمشار اليه منهم المالكي ، تقدم باعداد أعواد بازاء محرابه ، نصبها ستة على هيئة دائرة محـراب ، مرتفعة عن الأرض بدون القامة ، يعترض على كل اثنين منها عود مبسـوط ، فأدير بالشـمع أعلاها ، وأحدق أسفلها ببقايا شمع كثير قد تقـدم ذكره عند ذكر أول الشهر المبارك .

وأحدق أيضا داخل تلك الدائرة شمع آخر متوسط ، فكان منظرا مختصرا ، ومشهدا عن احتفال المبـاهاة منزها موقرا ٤ ، رغبـة في احتفال الأجر والثواب . ومناسبة لموضع هيئة المحراب ، نصبت للشمع فيه عرضا من الأتوار أثافي من الأحجار ، فجاءت الحـال غريبة في الاختصـار ، خارجـة عن محفـل التعـاظم والاسـتكبار ، داخـلة مدخـل التواضـع والاستصغار .

واحتفل جميـع المالـكية المختمة ، فتناوبها أيمة التراويح ، فقضوا صلاتهم سراعا عجالا ، كاد يلتقي طرفاها خفوفا واستعجالا ، ثم تقدم أحـدهم فعقد حبـوته بين تلك الأثافي ، وصـدع بخطبة منتزعة من خطبة الصبي ابن الامام الحنفي ، فأرسلها معادة الى الأسماع ، ثقيلا لحنها على الطباع . ثم انفض الجمع وقد جمد في شئونه الدمع ، واختطفه للحين من أثافيـه ذلك الشـمع ، أطلقت عليـه أيدي الانتهاب ولم يكن في الجماعة من يستحي منه أو يهاب ، وعند الله تعالى في ذلك الجزاء والثواب ، انه سبحانه الكريم الوهاب .

وانتهت ليالي الشهر ذاهبة عنا بسلام ، جعلنا الله ممن طهر فيها من الآثام ، ولا أخـلانا من فضل القبول ببركة صومه في جـوار الكعبة البيت الحرام ، وختم الله لنا ولجميع أهل الملة الحنيفية بالوفاة على الاسلام ، وأوزعنا حمدا يحق هذه النعمة وشـكرا ، وجعلها للمعاد لنا ذخرا ، ووقانا عليها ثوابا من لديه وأجرا يرجى بفضله وكرمه ، انه لا يضيع لديه أيام اتخـذ لصيامها ماء زمزم فطرا ، انه الحنان المنان لارب سواه .

شهر شوال عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الثلاثاء السادس عشر من ينأير ، يمن الله مطلعه ، ورزقنا بركته . وهذا الشـهر المبـارك هو فاتحـة أشـهر الحج المعلومات ، وبعده تتصل ثلاثة الأشهر الحرم المباركات .

وكانت ليلة اسـتهلال هـلاله من الليـالي الحفيـلة في المسـجد الحـرام — زاده الله تكريما — جـرى الرسم في ايقـاد مشاعله وثرياته وشمعه على الرسم المذكور ليلة سبع وعشرين من رمضان المعظم ، وأوقدت الصوامع من الأربع جهات من الحرم ، وأوقـد سطح

المسجد الذى فى أعلى جبل أبى قبيس ، وأقام المؤذن ليلته تلك [1] فى أعلى سطح قبة زمزم مهللا ومكبرا ومسبحا وحامدا ، وأكثر الأيمة تلك الليلة احياء ، وأكثر الناس على مثل تلك الحال بين طواف وصلاة وتهليل وتكبير . يقبل * الله من جميعهم ، انه سميع الدعاء ، كفيل بالرجاء ، سبحانه لا اله سواه .

فلما كان صبيحتها ، وقضى الناس صلاة الفجر ، لبس الناس أثواب عيدهم ، وبادروا لأخذ مصافهم لصلاة العيد بالمسجد الحرام ، لأن السنة جرت بالصلاة فيه دون مصلى يخرج الناس اليه ، رغبة فى شرفة البقعة وفضل بركتها ، وفضل صلاة الامام خلف المقام ومن يأتم به .

فأول من بكر الشيبيون ، وفتحوا باب الكعبة المقدسة ، وأقام زعيمهم جالسا فى العتبة المقدسة ، وسائر الشيبيين داخل الكعبة ، الى أن أحسوا بوصول الأمير مكثر ، فنزلوا اليه وتلقوه بمقربة من باب النبى صلى الله عليه وسلم ، فانتهى الى البيت المكرم ، وطاف حوله أسبوعا ، والناس قد احتفلوا لعيدهم ، والحرم قد غص بهم ، والمؤذن الزمزمى فوق سطح القبة على العادة رافعا صوته بالثناء عليه والدعاء له ، متناوبا فى ذلك مع أخيه .

فلما أكمل الأمير الأسبوع ، عمد الى مضطبة قبة زمزم — مما يقابل الركن الأسود — فقعد بها ، وبنوه عن يمينه ويساره ، ووزيره وحاشيته وقوف على رأسه ، وعاد الشيبيون لمكانهم من البيت المكرم ، يلحظهم الناس بأبصار خاشعة للبيت ، غابطة لمحلهم منه ومكانهم من حجابته وسدانته ، فسبحان من خصهم بالشرف فى خدمته . وحضر الأمير من خاصته شعراء أربعة ، فأنشدوه واحدا اثر واحد الى أن فرغوا من انشادهم .

وفى أثناء ذلك تمكن وقت الصلاة — وكان ضحى من النهار — فأقبل القاضى الخطيب يتهادى بين رايتيه السوداوين ، والفرقعة المتقدم ذكرها أمامه ، وقد صك [1] الحرم صوتها ، وهو لابس ثياب سواده ، فجاء الى المقام الكريم ، وقام الناس للصلاة ، فلما قضوها رقى المنبر — وقد ألصق الى موضعه المعين له كل جمعة من جدار الكعبة المكرمة ، حيث الباب الكريم شارعا — فخطب خطبة بليغة ، والمؤذنون قعود * دونه فى أدراج المنبر ، فعند افتتاحه فصول الخطبة بالتكبير يكبرون بتكبيره ، الى أن فرغ من خطبته .

وأقبل الناس بعضهم على بعض بالمصافحة والتسليم والتغافر والدعاء ، مسرورين جذلين فرحين بما آتاهم الله من فضله ، وبادروا [1] الى البيت الكريم ، فدخلوا بسلام آمنين ، مزدحمين عليه فوجا فوجا ، فكان مشهدا عظيما وجمعا بفضل الله تعالى مرحوما . جعله الله ذخيرة للمعاد ، كما جعل ذلك العيد الشريف فى العمر أفضل الأعياد بمنه وكرمه ، انه ولى ذلك ، والقادر عليه .

وأخذ الناس عند انتشارهم من مصلاهم ، وقضاء سنة السلام بعضهم على بعض ، فى زيارة الجبانة بالمعلى ، تبركا باحتساب الخطا

الصالحين من الصدر الأول وسواه ، رضى الله عن جميعهم ، وحشرنا فى زمرتهم ، ونفعنا بمحبتهم ، فالمرء — كما قال [٢] صلى الله عليه وسلم — مع من أحب

وفى يوم السبت التاسع عشر منه ، والثالث لفبراير ، صعدنا الى منى لمشاهدة المناسك المعظمة بها ، ولمعاينة منزل اكترى لنا فيها ، اعدادا للمقام بها أيام التشريق ان شاء الله ، فألفيناها تملأ النفوس بهجة وانشراحا : مدينة عظيمة الآثار ، واسعة الاختطاط ، عتيقة الوضع قد درست الا منازل يسيرة متخذة [٣] للنزول ، تحف بجانبى طريق كأنه ميدان [٤] انبساطا وانفساحا ممتد الطول .

فأول ما يلقى المتوجه اليها عن يساره ، وبمقربة منها ، مسجد البيعة المباركة ، التى كانت أول بيعة فى الاسلام عقدها العباس ، رضى الله عنه ، للنبى صلى الله عليه وسلم على الأنصار حسب المشهور من ذلك .

ثم يفضى منه الى جمرة العقبة ، وهى أول منى للمتوجه من مكة وعن يسار المار اليها ، وهى على قارعة الطريق مرتفعة للمتراكم فيها من حصى الجمرات ، ولولا آيات الله البينات فيها لكانت كالجبال الرواسى ، لما يجتمع فيها على تعاقب الدهور وتوالى الأزمنة ، لكن لله عز وجل فيها سر كريم من أسراره الخفيات ، لا اله سواه . وعليها مسجد مبارك ، وبها علم منصوب شبه أعلام الحرم التى ذكرناها ، فيجعلها [١] الرامى عن يمينه مستقبلا مكة — شرفها الله — ويرمى بها سبع حصيات ، وذلك يوم النحر اثر طلوع الشمس ، ثم ينحر أو يذبح ويحلق [٢] — والمحلق حولها ، والمنحر فى كل موضع من منى ، لأن منى كلها منحر كما قال صلى الله عليه وسلم — وقد حل له كل شيء الا النساء والطيب حتى يطوف طواف الافاضة .

وبعد هذه الجمرة العقبية موضع الجمرة الوسطى ، ولها أيضا علم منصوب وبينهما قدر الغلوة ، ثم [٣] بعدها يلقى الجمرة الأولى ، ومسافتها منها كمسافة الأخرى . (و) فى وقت الزوال من ثانى يوم النحر ترمى فى الأولى سبع حصيات ، وفى الوسطى كذلك ، وفى العقبة كذلك ، فتلك احدى وعشرون حصاة . وفى الثالث من يوم النحر ، فى الوقت بعينه ، كذلك على الترتيب المذكور ، فتلك اثنتان [٤] وأربعون حصاة فى اليومين ، وسبع رميت [٥] فى العقبة يوم النحر ، وقت طلوع الشمس ، كما ذكرناه — وهى المحللات للحاج ما حرم عليه سوى النساء والطيب — فتلك تكملة [٦] تسع وأربعين جمرة .

وفى اثر ذلك ينفصل [٧] الحاج الى مكة من ذلك اليوم ، واختصر فى هذا الزمان احدى وعشرون كانت ترمى فى اليوم الرابع على الترتيب المذكور ، وذلك لأستعجال الحاج خوفا من العرب الشعبيين [٨] ، الى غير ذلك من محذورات الفتن المغيرات لآثار السنن ، فمضى العمل اليوم على تسع وأربعين حصاة ، وكانت فى القديم سبعين ، والله يهب القبول لعباده .

والصادر من عرفات الى منى أول ما يلقى الجمـرة الأولى ، ثم الوسـطى ، ثم جمـرة العقبة . وفى يوم النحر تـكون جمرة العقبة أولى منفردة بسـبع حصيات ، حسبما تقدم ذكره ، ولا يشترك معها سواها فى ذلك اليوم ، ثم فى اليـومين بعده ترجـع الآخرة [1] على الترتيب حسبما وصفناه ، بحول الله عز وجل . وبعد الجمرة الأولى يعرج عن الطريق يسيرا ، ويلقى منحر [2] الذبيح صلى الله عليه وسلم ، حيث فـدى بالذبح العظيم ، وعـلى الموضع المبارك مسجد مبنى ، وهو بمقربة من سفح ثبير .

وفى موضع المنحر [3] المذكور ، حجـر قد ألصق بالجـدار المبنى ، فيه أثر قدم صغيرة يقال انه [4] أثر قدم الذبيح صلى الله عليه وسلم عند تحركه ، فـلان الحجر له بقدرة الله عز وجل اشفاقا وحنانا ، فيتبرك النـاس بلمسه وتقبيله ، ويفضىَ من ذلك الى مسجد الخيف المبارك ، وهو آخـر منى فى توجهك ، أعنى من المعمور منها بالبنيان . وأما الآثار القديمة فآخذة الى أبعد غاية أمام المسجد .

وهذا المسجد المبارك متسع الساحة ، كأكبر ما يكون من الجوامع ، والصومعة وسط رحبة المسجد ، وله فى القبلة أربعة [5] بلاطات يشملها سقف واحد ، وهو من المساجد الشهيرة بركة وشرف بقعة ، وكفى بما ورد فى الأثر الكريم من أن بقعته الطاهرة مـدفن كثير من الأنبياء صلوات الله عليهم .

وبمقربة منه ، عن يمين المار فى الطـريق ، حجر كبير مسند الى صفح الجبل ، مرتفع عن الأرض يظل ما تحته ، ذكر أن النبى صلى الله عليه وسلم قعد تحته مسـتظلا ، ومس رأسه المكرم فيه [6] ، فلان له حتى أثر فيه تأثيرا بقدر دور * الرأس ، فيبادر الناس لوضع رؤوسهم فى ذلك الموضع ، تبركا واستجارة لها بموضع مسه الرأس المكرم أن لا تمسها النار بقدرة الله عز وجل .

فلما قضينا معاينة هذه المشاهد الكريمة ، أخذنا فى الانصراف مستبشرين بما وهبنا الله من فضله فى مبـاشرتها ، ووصلنا الى مكة قريب الظهر ، والحمد لله على ما من به .

وفى يوم الأحد بعده ، وهو الموفى عشرين لشوال ، صعدنا الى الجبل المقـدس حراء ، وتبركنا بمشاهدة الغار فى أعـلاه الذى كان النبى صلى الله عليه وسلم يتعبـد فيه ، وهو أول موضع نزل فيه الوحى عليه صلى الله عليه وسلم ، ورزقنا شفاعته ، وحشرنا فى زمرته ، وأماتنا على سـنته ومحبته ، بمنه وكـرمه ، لا رب سواه .

وفى ضحوة يوم الثلاثاء الثـانى والعشرين منـه ، وهـو السادس من فبراير ، اجتمـع الناس كافة للاستسقاء تجاه الـكعبة المعظمة — بعد أن ندبهم القاضى الى ذلك ، وحرضهم على صيام ثلاثة أيام قبـله — فاجتمعوا فى هذا اليـوم الرابع المذكور ، وقـد أخلصوا النيات لله عز وجل ، وبكر الشيبيون ففتحوا الباب المكرم من البيت العتيق .

ثم أقبل القاضى بين رايتيه السـوداوين ، لابسا ثياب البيـاض ، وأخـرج مقام الخليل ابراهيم صـلى الله عليه وسلم وعـلى نبينا ،

ووضع على عتبة باب البيت المكرم ، وأخرج مصحف عثمان رضى الله عنه من خزانته ، ونشر بازاء المقام المطهر ، فكانت دفته الواحدة عليه ، والثانية على الباب الكريم .

ثم نودى فى الناس بالصلاة جامعة ، فصلى القاضى بهم خلف موضع المقام المتخذ مصلى [1] ركعتين : قرأ فى احداهما بسبح اسم ربك الأعلى [2] ، وفى الثانية بالغاشية [3] ، ثم صعد المنبر — وقد ألصق الى موضعه المعهود من جدار الكعبة المقدسة — فخطب خطبة بليغة ، والتى فيها الاستغفار ، ووعظ الناس وذكرهم وخشعهم ، وحضهم على التوبة والانابة لله عز وجل ، حتى نزفت دمعها العيون ، واستنفدت [1] ماءها الشئون ، وعلا الضجيج ، وارتفع الشهيق والنشيج ، وحول رداءه وحول الناس أرديتهم اتباعا للسنة ، ثم انفض الجمع راجين رحمة الله عز وجل ، غير قانطين منها ، والله يتلافى [2] عباده بلطفه وكرمه .

وتمادى استسقاؤه بالناس ثلاثة أيام متوالية على الصفة المذكورة ، وقد نال الجهد من أهل الحجاز ، وأضر بهم القحط ، وأهلك مواشيهم الجدب ، لم يمطروا فى الربيع ولا الخريف ولا الشتاء الا مطرا طلا غير كاف ولا شاف والله عز وجل لطيف بعباده ، غير مؤاخذهم بجرائمهم ، انه الحنان المنان لا رب سواه .

وفى يوم الخميس الرابع والعشرين من شوال ، صعدنا الى جبل ثور لمعاينة الغار المبارك ، الذى أوى اليه النبى صلى الله عليه وسلم مع صاحبه الصديق رضى الله عنه ، حسبما جاء فى محكم التنزيل العزيز — وقد تقدم ذكر هذا الغار وصفته أولا فى هذا التقييد — وولجناه من الموضع الذى يعسر الولوج منه على البعض من الناس ، تبركا بمس بشرة البدن بموضع مسه الجسم المبارك ، قدسه الله ، لأن مدخل النبى صلى الله عليه وسلم كان منه .

وكان لأحد الصاعدين اليه ذلك اليوم من المصريين موقف خجلة وفضيحة . وذلك أنه رام الولوج فيه على ذلك الموضع الضيق فلم يقدر بحيلة ، وعاود ذلك مرارا فلم يستطع ، حتى استوقف الناس ما عاينوه من ذلك ، وبكوا له اشفاقا ، ولجأوا الى الله عز وجل فى الدعاء فلم يغن ذلك شيئا ، وكان فيهم من هو أضخم منه ، فيسر الله عليه ، وطال تعجب الناس منه واعتبارهم . وأعلمنا بعد انفصالنا فى ذلك اليوم بأن هذا الموقف المخجل لثلاثة أناس فى ذلك اليوم بعينه ، عصمنا الله من مواقف الفضيحة فى الدنيا والآخرة .

وهذا الجبل صعب المرتقى جدا ، يقطع الأنفاس تقطيعا ، لا يكاد يبلغ منتهاه الا وقد ألقى بالأيدى اعياء وكلالا ، وهو من مكة على مقدار ثلاثة أميال ، وعلى ذلك القدر هو [1] جبل حراء منها ، والله تعالى لا يخلينا من بركة هذه المشاهد بمنه وكرمه . وطول الغار ثمانية عشر شبرا ، وسعته أحد عشر شبرا فى الوسط منه ، وفى حافتيه ثلثا شبر ، وعلى الوسط منه يكون الدخول ، وسعة

الباب الثاني المتسع مدخله خمسة أشبار أيضا ، لأن له بابين حسبما ذكرناه أولا .

وفي يوم الجمعة بعده وصل السرو اليمنيون في عدد كثير ، مؤملين زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وجلبوا ميرة الى مكة على عادتهم ، فاستبشر الناس بقدومهم استبشارا كثيرا ، حتى أنهم أقاموه عوض نزول المطر . ولطائف الله لسكان حرمه الشريف واسعة ، انه سبحانه لطيف بعباده لا اله سواه .

شهر ذي القعدة عرفنا الله يمنه وبركته

استهل هلاله ليلة الأربعاء ، بموافقة الرابع عشر من شهر فبرير ، بشهادة ثبتت عند القاضي في رؤيته ، وأما الأكثر الأغلب من أهل المسجد الحرام فلم يبصروا شيئا ، وطال ارتقابهم [٢] الى اثر صلاة المغرب ، وكان منهم من يتخيله فيشير اليه ، فاذا حققه تلاشى عنده نظره وكذب خبره ، والله أعلم بصحة ذلك .

وهذا الشهر المبارك ثاني الأشهر الحرم ، وثاني أشهر الحج ، أطلع الله هلاله على المسلمين بالأمن والايمان والمغفرة والرضوان بعزته ورحمته . وفي يوم الاثنين الثالث عشر منه ، دخلنا مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو مسجد حفيل البنيان ، وكان دارا لعبد الله بن عبد المطلب أبي النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد تقدم ذكره .

ومولده صلى الله عليه وسلم صفة صهريج صغير سعته ثلاثة أشبار ، وفي وسطه رخامة خضراء سعتها ثلثا شبر مطوقة بالفضة ، فتكون سعتها مع الفضة المتصلة بها شبرا [٣] . ومسحنا الخدود في ذلك الموضع المقدس ، الذي هو مسقط لأكرم مولود على الأرض ، وممس لأطهر سلالة وأشرفها صلى الله عليه وسلم ، ونفعنا ببركة مشاهدة مولده الكريم ، وبازائه محراب حفيل القرنصة ، مرسومة طرته بالذهب ، وقد تقدم الوصف لهذا كله .

وهذا الموضع المبارك هو شرقي الكعبة متصل بصفح الجبل ، ويشرف عليه بمقربة منه جبل أبي قبيس ، وعلى مقربة منه أيضا مسجد عليه مكتوب : هذا المسجد هو مولد علي بن أبي طالب رضوان الله عليه ، وفيه تربى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان دارا لأبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم وكافله .

ودخلت أيضا في اليوم المذكور دار خديجة الكبرى رضوان الله عليها ، وفيها قبة الوحي ، وفيها أيضا مولد فاطمة رضي الله عنها ، وهو بيت صغير مائل للطول ، والمولد شبه صهريج صغير ، وفي وسطه حجر أسود ، وفي البيت المذكور مولد الحسن والحسين ابنيها ، رضي الله عنهما ، لاصق بالجدار ، ومسقط شلو الحسن لاصق بمسقط شلو الحسين ، وعليهما حجران مائلان الى السواد كأنهما علامتان [١] للمولدين المباركين الكريمين ، ومسحنا الخدود في هذه المساقط المكرمة المخصوصة بمس بشرات المواليد الكرام رضوان الله عليهم .

وفي الدار المكرمة أيضا مختبأ النبي صلى الله عليه وسلم ، شبيه القبة ، وفيه مقعد في الأرض عميق شبيه الحفرة داخل [٢] في الجدار قليلا ، وقد خرج عليه من الجدار حجر مبسوط

كأنه يظلل المقعد المذكور ، قيل انه كان الحجر الذي كان غطى النبي صلى الله عليه وسلم عند اختبائه في الموضع المذكور ، صلوات الله عليه وعلى أهل بيته الطاهرين . وعلى كل واحد من هذه المـوالد [3] المذكـورة قبة خشب صغيرة تسون الموضع غير ثابتة فيه ، فاذا جاء المبصر لها نحاها ولمس الموضع الكريم وتبرك به ، ثم أعادها عليه .

وفي يوم الجمعة الرابع والعشرين من الشهر المذكور ، نفذ أمر الأمير مكثر بالقبض على زعيم الشيبيين محمد ابن اسماعيل ، وانتهاب منـزله ، وصرفه عن حجـابة البيت الحـرام — طهـره الله — وذلك لهنات نسبت اليه لا تليق بمن نيطت به سـدانة البيت العتيق « ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عـذاب أليم » [1] ، أعاذنا الله من سوء القضاء ونفوذ سهام الدعاء بمنه .

وفي هذه الأيام السالفة من الشهر المذكور ، توالى مجيء السرو [2] اليمنيين في رفاق كثيرة ، بالميرة من الطعـام وسـواه وضروب الأدام والفواكه اليابسة ، فأرغدوا البلد ... ولولاهم لكان من اتصال الجدب وغلاء السعر في جهد ومشقة ، فهم رحمـة لهذا البـلد الأمين ، ثم توجهوا الى الزيارة المباركة ، الى التربة المباركة طيبة مدفن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووصلوا في أسرع مدة . قطعوا الطـريق من مكة الى المدينة في يسير أيام ، ومن صحبهم من الحاج حمد صحبتهم . وفي أثناء مغيبهم وصلت طـوائف أخـر منهم للحج خاصة ، لضيق الوقت عن الزيارة ، فأقاموا بمـكة ، ووصل الزوار منهم ، فضاق بهم المتسع .

فلما كان يوم الاثنين السابع والعشرين من الشهر المذكور ، فتح البيت العتيق [3] ، وتولى فتحـه من الشـيبيين ابن عم الشيبي المعزول — هو [4] أمثل طريقة منه عـلى ما يذكر — فازدحم السرو للدخول عـلى العادة ، فجاءوا بأمر لم يعهد فيما سلف : يصـعدون أفواجا حتى يغص [5] الباب الكريم بهم ، فلا يستطيعون تقدما ولا تأخـرا الى أن يلجوا عـلى أعظم مشقة ، ثم يسرعون [6] الخروج فيضيق الباب الـكريم بهم ، فينحـدر الفوج [7] منهم على المصعد ، وفوج آخر صاعده ، فيلتقيه [8] وقد ارتبـط بعضـهم الى بعض ، فـربما حمـل المنحدرون في صـدور الصاعدين ، وربما وقف الصاعدون للمنحدرين ، وتضاغطوا الى أن يميلوا فيقع البعض عـلى البعض ، فيعاين النظارة منهم مرأى هائلا ، فمنهم سليم وغير سـليم ، وأكثرهم انما ينحدرون وثبا عـلى الرءوس والأعناق .

ومن أعجب ما شـاهدناه في يوم الاثنـين المذكور ، أن صعد بعض من الشيبيين ، أثناء ذلك الزحـام ، يرومون الدخـول الى البيت الكريم ، فلم يقدروا على التخلص ، فتعلقوا بأستار حافتي عضادتي الباب ، ثم ان أحدهم تمسك باحـدى الشرائط [1] القنبية الممسكة للأستار الى أن علا الرؤوس والأعناق ، فوطئها ودخل البيت ، فلم يجد موطئا [2] لقدمه سواها لشدة تراصـهم وتراكمهم ، وانضمام بعضهم

الى بعض . وهذا الجمع الذى وصل منهم فى هذا العام ، لم يعهد قط مثله فيما سلف من الأعوام ، ولله القدرة المعجزة [3] لا اله سواه .

وفى هذا اليوم المذكور ، الذى هو السابع والعشرون من ذى القعدة ، شمرت أستار الكعبة المقدسة الى نحو قامة ونصف من الحدر من الجوانب الأربعة ، ويسمون ذلك احراما لها ، فيقولون أحرمت الكعبة ، وبهذا جرت العادة دائما فى الوقت المذكور من الشهر ، ولا تفتح من حين احرامها الا بعد الوقفة ، فكأنه ذلك التشمير ايذان بالتشمير للسفر وايذان بقرب وقت وداعها المنتظر ، لا جعله الله آخر وداع ، وقضى لنا اليها بالعودة وتيسير سبيل الاستطاعة [4] بعزته وقدرته .

وفى (يوم) الجمعة الرابع والعشرين قبل هذا اليوم المذكور ، كان دخولنا الى البيت الكريم ، على حال اختلاس وانتهاز فرصة أوجدت بعض فرجة من الزحام ، فدخلناه دخول وداع ، اذ لا يتمكن دخوله بعد ذلك لترادف الناس عليه [5] ، ولا سيما الأعاجم الواصلون مع الأمير العراقى ، فانهم يظهرون من التهافت عليه ، والبدار اليه ، والازدحام فيه ، ما ينسى أحوال السرو اليمنيين لفظاظتهم وغلظتهم ، فلا يتمكن لأحد منهم النظر فضلا عن غير ذلك ، والله عز وجل لا يجعله آخر العهد ببيته [1] الكريم ، ويرزقنا العود اليه على خير وعافية ، بمنه ولطيف صنعه .

وفى يوم احرام الكعبة المذكور ، أقلعت عن موضع المقام المقدس القبة الخشبية التى كانت عليه ، ووضعت عوضها قبة الحديد اعدادا للأعاجم المذكورين ، لأنها لو لم تكن حديدا لأكلوها أكلا فضلا عن غير [2] ذلك ، لما هم عليه من صحة النفوس شوقا [3] الى هذه المشاهد المقدسة ، ونطارحهم بأجرامهم عليها ، والله ينفعهم بنياتهم بمنه وكرمه .

وفى يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من الشهر المذكور ، جاء زعيم الشيبيين المعزول يتهادى بين بنيه زهوا واعجابا ، ومفتاح الكعبة المقدسة بيده قد أعيد اليه ، ففتح الباب الكريم ، وصعد مع بنيه السطح المبارك الأعلى بأمراس من القنب غليظة يوثقونها فى أوتاد الحديد المضروبة فى السطح ، ويرسلونها الى الأرض [4] ، فيربط فيها شبيه محمل من العود ، ويجلس فيه أحد سدنة البيت من الشيبيين ، فيصعد به على بكرة معدة لذلك فى أعلى السطح المذكور ، فيتولى خياطة ما مزقته الريح من الأستار .

فسألنا عن كيفية صرف هذا الشيبى المعزول الى خطته ، على صحة الهنات المنسوبة اليه ، فأعلمنا أنه صودر عليها بخمسمائة دينار مكية استقرضها ودفعها . فطال التعجب من ذلك والاعتبار ، وتحققنا أن اظهار القبض عليه لم يكن غيرة ولا أنفة على حرمات الله المنتهكة على يديه ، مع كونها فى خطة دونها الخلافة رفعة ، والحال تشبه بعضها بعضا « وان الظالمين بعضهم أولياء بعض » [5] ، والى الله المشتكى من فساد ظهر حتى فى أشرف بقاع الأرض ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وفي يوم الأربعاء التاسع والعشرين من ذي القعدة المذكور ، دخلنا [1] دار الخيزران التي كان [2] منها منشأ الاسلام ، وهي بازاء الصفا ، ويلاصقها بيت صغير عن يمين الداخل اليها كان مسكن بلال رضي الله عنه ، ويدخل اليها على حلق كبير [3] شبيه الفندق قد أحدقت به بيوت للكراء من الحاج .

والدار المكرمة دار صغيرة ، يجدها الداخل الى الحلق المذكور عن يساره ، وهي مجددة البناء ، أنفق في بنائها جمال الدين — المذكور أثره الكريم في هذا المكتوب — نحو الألف دينار ، نفعه الله بما أسلفه من العمل الصالح .

وعن يمين الداخل الدار المباركة باب يدخل منه الى قبة كبيرة بديعة البناء ، فيها مقعد النبي صلى الله عليه وسلم والصخرة التي كان اليها مستنده ، وعن يمينه موضع أبي بكر الصديق ، وعن يمين أبي بكر موضع علي بن أبي طالب ، والصخرة التي كان اليها مستنده هي [4] داخلة في الجدار كشبه المحراب .

وفي هذه الدار كان اسلام عمر بن الخطاب ، ومنها ظهر الاسلام على يديه وأعزه الله . نفعنا الله ببركة هذه المشاهد المكرمة والآثار المعظمة ، وأماتنا على محبة الذين شرفت بهم ونسبت اليهم ، صلوات الله عليهم أجمعين .

شهر ذي الحجة عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الخميس ، بموافقة الخامس عشر من مارس * ، وكان للناس في ارتقابه أمر عجيب ، وشأن من البهتان غريب ، ونطق من الزور كاد يعارضه من الجماد — فضلا عن غيره — رد وتكذيب .

وذلك أنهم ارتقبوه ليلة الخميس الموفي ثلاثين ، والأفق قد تكاثف نوؤه وتراكم غيمه ، الى أن علته مع المغيب بعض حمرة من الشفق ، فطمع الناس في فرجة من الغيم لعل الأبصار تلتقطه فيها ، فبينما هم كذلك اذ كبر أحدهم ، فكبر الجم الغفير لتكبيره ، ومثلوا قياما ينتظرون مالا يبصرون ، ويشيرون الى ما [1] يتخيلون ، حرصا منهم على أن يكون الوقفة بعرفات يوم الجمعة ، كأن الحج لايرتبط الا بهذا اليوم بعينه .

فاختلقوا شهادات زورية ، ومشت منهم طائفة من المغاربة — أصلح الله أحوالهم — ومن أهل مصر وأربابها ، فشهدوا عند القاضي برؤيته . فردهم أقبح رد ، وجرح شهاداتهم أسوأ تجريح ، وفضحهم في تزييف أقوالهم أخزى فضيحة ، وقال : يالمعجب ! لو أن أحدهم يشهد برؤيته [2] الشمس ، تحت ذلك الغيم الكثيف النسج ، لما قبلته ، فكيف برؤية هلال هو ابن تسع وعشرين ليلة ! وكان أيضا مما حكى من قوله * تشوشت المغارب [3] ، تعرضت شعرة من الحاجب ، فأبصروا خيالا ظنوه هلالا .

وكان لهذا القاضي جمال الدين ، في أمر هذه الشهادة الزورية ، مقام من التوقف والتحري حمده له أهل التحصيل ، وشكره عليه ذوو العقول . وحق لهم ذلك ، فانها مناسك الحج للمسلمين عظيمة ، أتوا لها من

كل فج عميق ، فلو تسومح فيها بطل السعي ، وفال الرأى . والله يرفـع الالتباس والبأس بمنه .

فلما كانت ليلة الجمعـة المـذكورة ، ظهر الهلال أثناء فرج السحاب ، وقد اكتسى نورا من الثلاثين ليلة ، فزعقت العامة زعقات هائلة ، وتنادت [4] بوقفة الجمعة ، وقالت : الحمد لله الذى لم يخيب سعينا ولا ضيع قصدنا ، كأنهم قد صح عندهم أن الوقفة ، اذا لم تكن توافق يوم الجمعة ، ليست مقبولة ولا الرحمـة فيها من الله مرجوة مأمولة ، تعـالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

ثم انهم يوم الجمعة المـذكور اجتمعوا الى القاضى ، فأدوا شهادات بصـحة الرؤية تبكى الحق وتضحك الباطل ، فردها وقال : يا قوم ! حتى م هـذا التمادى فى الشـهوة ؟ والى م تستنون فى طـرق الهفوة ؟ وأعلمهم أنه قـد استأذن الأمير مكثرا [1] فى أن يكون الصعود الى عرفات صبيحة يوم الجمعة ، فيقفوا عشية بها ، ثم يقفوا صـبيحة يوم السبت بعـده ، ويبيتوا ليلة الأحد بمزدلفة . فان كانت الوقفة يوم الجمعة ، فما عليهم فى تأخير المبيت بمزدلفة بأس ، اذ هو جائز عند أيمة المسـلمين ، وان كانت (يوم) السبت فبها ونعمت ، وأما أن يقع القطـع بها يوم الجمعـة ، فتغرير بالمسـلمين وافساد لمناسـكهم ، لأن الوقفة يوم التروية عند الأيمة غير جائزة [2] كما أنها عندهم جائزة يوم النحر . فشـكر جميع من حضر للقاضى هذا المنزع من التحقيق ، ودعوا له ، وأظهر من حضر من العامة الرضى بذلك ، وانصرفوا عن سلام . والحمد لله على ذلك .

وهذا الشهر المبارك هو ثالث الأشهر الحرم وعشره الأولى مجتمـع الأمم ، وموسم الحج الأعظم : شهر العج والثج ، وملتقى وفود الله من كل أوب وفج ، مصاب الرحمة والبركات ، ومحل الموقف الأعظم بعرفات . جعلنا الله ممن فاز فيه بالحسـنات ، وتعرى به من مـلابس الأوزار والسيئات ، بمنه وكـرمه ، انه أهل التقوى وأهل المغفرة . والأمير العراقى منتظر لكشف هذا الالباس عن الناس فى أمر الهلال ، لعله قد اتضح له اليقين فيه ان شاء الله .

وفى سائر هـذه الأيام كلها الى هلم جرا ، تصل رفاق من السرو اليمنيين ، وسائر حجاج الآفاق ، لا يحصى عـددها الا محصى آجالها وأرزاقها لا اله سواه . فمن الآيات البينات أن يسع هذا الجمع العظيم هـذا البلد الأمين ، الذى هو بطن واد سعته غلوة أو دونها ، ولو أن المـدن العظيمة حمل عليها هـذا الجمـع لضاقت عنه .

وما هذه البلدة المكرمة فيما تختص به من الآيات البينـات ، فى اتساعها لهـذا البشر المعجز احصاؤه ، الا كما شبهتها العلماء حقيقة بأنها [1] تتسع لوفودها اتساع الرحم بمولودها ، وكذلك عرفات وسائر المشاهد المعظمة بهـذا البلد الحرام ، عظم الله حرمته ، ورزقنا الرحمة فيه بكرمه وفضله .

ومن أول هذا الشهر المبارك ضربت دبادب الأمير بكرة وعشية ، وفى أوقات الصلوات ، كأنها اشعار بالموسم ، ولا يزال كذلك الى يوم

الصعود الى عرفات ، عرفنا الله بها القبول والرحمة .

وفي يوم الاثنين الخامس او الرابع من هذا الشهر ، وصل الأمير عثمان بن على صاحب عدن ،وخرج منها فارا[1] أمام سيف الاسلام المتوجه الى اليمن ، وركب البحر فى جلاب كثيرة مشحونة بأحوال عظيمة وأموال لا تحصى كثرة ، لأنه طال مقامه فى تلك الولاية واتسع كسبه

وعند خروجه من البحر بموضع يعرف بالصر ... [2] ، لحقت جلبه حراريق الأمير سيف الاسلام ، فأخذت جميع ما فيها من الأثقال ، وكان قد استصحب الخف النفيس الخطير مع نفسه الى البر ، وهو فى جملة من رجاله وعبيده ، فسلم به ، ووصل مكة بعير موقرة متاعا ومالا ، دخلت على أعين الناس الى داره التى ابتناها بها ، بعد أن قدم نفيس ذخائره وناضرة ماله وحملة رقيقه وخدمه ليلا ، وبالجملة فحاله لا توصف كثرة واتساعا .

والذى انتهب له أكثر [3] ، لأنه كان فى ولايته يوصف بسوء السيرة مع التجار ، وكانت المنافع التجارية كلها راجعة اليه ، الذخائر الهندية المجلوبة كلها واصلة الى يديه ، فاكتسب سحتا عظيما ، وحصل على كنوز قارونية ، لكن حوادث الأيام قد ابتدأت بالخسف به ، ولا يدرى حال أمره مع صلاح الدين لما يكون . والدنيا مفنية محبيها ، وآكلة بنيها وثواب الله خير ذخيرة ، وطاعته أشرف غنيمة ، لا اله سواه .

وبقيت الشهادة مضطربة فى أمر هذا الهلال المبارك الميمون ، الى أن تواصلت الأخبار برؤيته ليلة الخميس ، الذى يوافق الخامس عشر من مارس ، شهد بذلك ثقات من أهل الزهد والورع ، يمنيون وسواهم ، من الواصلين من المدينة المكرمة ، لكن بقى القاضى على ثباته وتوقفه فى القبول ، وارجاء الأمر الى وصول المبشر المتعلم بوصول الأمير العراقى، ليتعرف من قبله ما عند أمير الحاج فى ذلك .

فلما كان يوم الأربعاء ، السابع من الشهر المذكور ، وصل المبشر ، وكانت نفوس أهل مكة قد أوجست خيفة لبطئه ، حذرا من حقد الخليفة على أميرهم مكثر ، لمذموم فعل صدر عنه . فكان وصول هذا البشير أمانا وتسكينا للنفوس الشاردة ، فوصل مبشرا ومؤنسا ، وأعلم برؤية الهلال ليلة الخميس المذكور ، وتواترت الأنباء بذلك .

فصح الأمر عند القاضى بذلك صحة أوجبت خطبته فى ذلك اليوم — على ماجرت به العادة فى اليوم السابع من ذى الحجة ، اثر صلاة الظهر — علم الناس فيها مناسكهم ، ثم أعلمهم أن عدهم هو يوم الصعود الى منى ، وهو يوم التروية ، أن وقفتهم يوم الجمعة ، وأن الأثر الكريم فيها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنها تعدل سبعين وقفة ، ففضل هذه الوقفة فى الأعوام كفضل يوم الجمعة على سائر الأيام .

فلما كان يوم الخميس بكر الناس بالصعود الى منى ، وتمادوا منها الى عرفات ، وكانت

السنة المبيت بها ، لكن ترك الناس ذلك اضطرارا ، بسبب خوف بنى شعبة المغيرين على الحجاج فى طريقهم الى عرفات . وصدر عن هذا الأمير عثمان ، المتقدم ذكره ، فى ذلك اجتهاد ، بل جهاد يرجى له به المغفرة لجميع خطاياه ان شاء الله .

وذلك أنه تقدم بجميع أصحابه ، شاكين فى الأسلحة ، الى المضيق الذى بين مزدلفة وعرفات ، وهو موضع ينحصر الطريق فيه بين جبلين ، فينحدر الشعبيون من أحدهما — وهو الذى عن يسار المار الى عرفات — فينتهبون الحاج انتهابا . فضرب هذا الأمير قبة فى ذلك المضيق بين الجبلين ، بعد أن قدم أحد أصحابه فصعد الى رأس الجبل بفرسه — وهو جبل كؤود * — فعجبنا من شأنه ، وأكثر التعجب من أمر الفرس ، وكيف تمكن له الصعود الى ذلك المرتقى الصعب الذى لا يرتقيه ......

فأمن جميع الحاج بمشاركة هذا الأمير لهم ، فحصل على أجرين : أجر جهاد وحج ، لأن تأمين وفد الله عز وجل فى مثل ذلك اليوم من أعظم الجهاد . واتصل صعود الناس ذلك اليوم كله والليلة كلها الى يوم الجمعة كله ، فاجتمع بعرفات من البشر جمع لا يحصى عدده الا الله عز وجل .

ومزدلفة بين منى وعرفات : من منى اليه ما من مكة الى منى ، وذلك نحو خمسة أميال ، ومنها الى عرفات مثل ذلك أو أشف [1] قليلا ، وتسمى المشعر الحرام ، وتسمى جمعا ، فلها ثلاثة أسماء . وقبلها بنحو الميل وادى محسر ، وجرت العادة بالهرولة فيه ، وهو حد بين مزدلفة ومنى لأنه معترض بينهما .

ومزدلفة بسيط من الأرض فسيح بين جبلين ، وحوله مصانع وصهاريج كانت للماء فى زمان زبيدة رحمها الله ، وفى وسط ذلك البسيط من الأرض حلق ، فى وسطه قبة ، فى أعلاها [2] مسجد يصعد اليه على أدراج من جهتين ، يزدحم الناس فى الصعود اليه والصلاة فيه عند مبيتهم بها .

وعرفات أيضا بسيط من الأرض مد البصر ، لو كان محشرا للخلائق لوسعهم ، يحدق بذلك البسيط الأفيح جبال كثيرة ، وفى آخر ذلك البسيط جبل الرحمة ، وفيه وحوله موقف الناس ، والعلمان قبله [3] بنحو الميلين ، فما أمام العلمين الى عرفات حل وما دونهما حرم .

وبمقربة منهما [4] ، مما يلى عرفات ، بطن عرنة الذى أمر النبى ، صلى الله عليه وسلم ، بالارتفاع عنه فى قوله ، صلى الله عليه وسلم : « عرفات كلها موقف ، وارتفعوا عن بطن عرنة »

فالواقف فيه لا يصح حجه ، فيجب التحفظ من ذلك ، لأن الجمالين عشية الوقفة ربما استحثوا كثيرا من الحاج ، وحذروهم الزحمة فى النفر ، واستدرجوهم بالعلمين * اللذين أمامهم الى أن يصلوا بهم بطن عرنة أو يجيزوه ، فيبطلوا على الناس حجهم . والمتحفظ لا ينفر [1] من الموقف حتى يتمكن سقوط القرصة من الشمس .

وجبل الرحمة المذكور منقطع عن الجبال ، قائم في وسط البسيط ، وهو كله حجارة منقطعة بعضها عن بعض ، وكان صعب المرتقى ، فأحدث فيه جمال الدين ، المذكورة [٢] مآثره في هذا التقييد ، أدراجا وطية من أربع جهاته ، يصعد فيها بالدواب الموقورة [٣] ، وأنفق فيها مالا عظيما .

وفي أعلى الجبل قبة تنسب الى أم سلمة رضي الله عنها [٤] ، ولا يعرف صحة ذلك . وفي وسط القبة مسجد يتزاحم الناس للصلاة فيه ، وحول ذلك المسجد المكرم سطح محدق به ، فسيح الساحة ، جميل المنظر ، يشرف منه على بسيط عرفات ، وفي جهة القبلة منه جدار ، وقد نصبت فيه محاريب يصلي الناسُ فيها .

وفي أسفل هذا الجبل المقدس — عن يسار المستقبل للقبلة فيه — دار عتيقة البنيان ، وفي أعلاها غرف [٥] لها طيقان ، تنسب الى آدم صلى الله عليه وسلم . وعن يسار هذه الدار — في استقبال القبلة — الصخرة التي كان عندها موقف النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي في جبل [٦] متطأمن ، وحول جبل الرحمة والدار المكرمة ، صهاريج للماء وجباب ، وعن يسار الدار أيضا — على مقربة منها — مسجد صغير .

وبمقربة من العلمين — عن يسار مستقبل القبلة — مسجد قديم فسيح البناء ، بقي منه الجدار القبلي ، ينسب الى ابراهيم صلى الله عليه وسلم ، فيه يخطب الخطيب يوم الوقفة ، ثم يجمع بين الظهر والعصر . وعن يسار العلمين أيضا — في استقبال القبلة — وادي الأراك ، وهو أراك أخضر يمتد في ذلك البسيط مع البصر امتدادا طويلا .

فتكامل جمع الناس بعرفات يوم الخميس وليلة الجمعة كلها . وفي نحو الثلث الباقي من ليلة * الجمعة المذكورة ، وصل أمير الحاج العراقي ، فضرب أبنيته في البسيط الأفيح ، مما يلي الجانب الأيمن من جبل الرحمة ، في استقبال القبلة . والقبلة في عرفات هي الى مغرب الشمس ، لأن الكعبة المقدسة في تلك الجهة منها .

فأصبح يوم الجمعة المذكور في عرفات جمع لا شبيه له الا الحشر ، لكنه — ان شاء الله تعالى — حشر للثواب ، مبشر بالرحمة والمغفرة يوم الحشر للحساب . زعم المحققون من الأشياخ المجاورين أنهم لم يعاينوا قط في عرفات جمعا أحفل منه ، ولا أرى كان من عهد الرشيد ، الذي هو آخر من حج من الخلفاء ، جمع في الاسلام مثله . جعله الله جمعا مرحوما معصوما بعزته

فلما جمع بين الظهر والعصر يوم الجمعة المذكور ، وقف الناس خاشعين باكين ، والى الله عز وجل في الرحمة متضرعين ، والتكبير قد علا ، وضجيج الناس بالدعاء قد ارتفع . فما رؤي يوم أكثر مدامع ، ولا قلوبا خواشع ، ولا أعناقا لهيبة الله خوانع خواضع ، من ذلك اليوم . فما زال الناس على تلك الحالة ، والشمس تلفح وجوههم ، الى أن سقط قرصها ، وتمكن وقت المغرب .

وقد وصل أمير الحاج مع جمله من جنــده الدارعين ، ووقفوا بمقــربة من الصخرات عند المســجد الصــغير المذكور . وأخــذ السرو اليمنيــون مواقفهم بمنــازلهم المعلومــة لهم فى جبال عرفات ، المتوارثة عن جــد فجد من عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، لا تتعــدى قبيلة على منزل أخرى ، وكان المجتمع منهم فى هذا العام عددا [1] لم يجتمع قط مثله .

وكذلك وصل الأمير العــراقى فى جمع لم يصل قط مثله ، ووصل معه من أمراء الأعاجم الخراسانيين ، ومن النساء العقائل ، المعروفات بالخواتين : واحدتهن خاتون [2] ومن السيدات بنات الأمراء كثير ، ومن سائر العجم عــدد لا يحصى . فوقف الجميع ، وقد جعلوا قدوتهم فى النفر الامام المالكى ، لأن * مذهب مالك رضي الله عنــه تقتضى أن لا ينفر حتى يتمكن سقوط القرصــة ويحين وقت المغــرب ، ومن السرو اليمنيين من نفر قبل ذلك .

فلما أن حان الوقت ، أشار الامام المالكى بيديه ، ونزل عن موقفه ، فدفع الناس بالنفر دفعا ارتجت له الأرض ، ورجفت [1] الجبال . فياله موقفا ما أهول مرآه ، وأرجى فى النفوس *عقباه ! جعلنــا الله ممن خصه فيــه برضاه ، وتغمده بنعماه [2] ، انه منعم كريم حنان منان .

وكانت محلة هــذا الأمير العــراقى جميلة المنظر ، بهية العدة ، رائقة المضارب والأبنية ، عجيبة القبــاب والأروقة ، عــلى هيآت لم ير أبدع منها منظــرا . فأعظمهــا مرآى مضرب الأمير ، وذلك أنه أحدق به سرادق كالســور من كتان [3] ، كأنه حديقة بستان ، أو زخــرفة بنيان ، وفى داخله القباب المضروبة ، وهى كلها سواد فى بياض ، مرقشة [4] ملونة كأنها أزاهير الرياض . وقــد جللت صفحات ذلك السرادق من جوانبه الأربعة كلها أشكال درقية من ذلك السواد المنزل فى البياض ، يســتشعر الناظر اليها مهابة ، يتخيلها درقا لمنطية قد جللتها مزخرفات الأغشية .

ولهــذا السرادق ، الذى هــو كالســور المضروب ، أبواب مرتفعــة كأنهــا أبواب [5] القصــور المشــيدة ، يدخل منها الى دهاليز وتعاريج ، ثم يفضى منها الى الفضاء الذي فيه القباب ؛ وكأن هذا الأمير ساكن فى مدينة قد أحــدق بها ســورها ، تنتقل بانتقاله وتنزل بنزوله ، وهى من الأبهات الملوكية المعهودة [6] التى لم يعهد مثلها عند ملوك المغرب . وداخل تلك الأبواب حجاب الأمير وخدمه وغاشيته ، وهى أبواب مرتفعة ، يجىء الفــارس برايته فيدخل عليها دون تنكيس ولا تطأطؤ ، قــد أحكمت اقامــة ذلك * كله أمراس وثيقة من الكتان ، تتصل بأوتاد مضروبة ، أدير ذلك كله بتدبير هندسى غريب .

ولسائر الأمراء الواصلين صحبة هذا الأمير مضارب دون ذلك ، لكنها على تلك الصفة ، وقباب بديعة المنظر عجيبة الشكل ، قــد قامت كأنها التيجان المنصوبة ؛ الى ما يطول وصفه ، ويتسع القــول فيه ، من عظيم احتفال هــذه المحلة فى الآلة والعدة ، وغير ذلك مما يدل على

سعة الأحوال ، وعظيم الانخراق فى المكاسب والأموال .

ولهم أيضا فى مراكبهم على الابل قباب تظلهم بديعة المنظر ، عجيبة الشكل ، قد نصبت على محامل من الأعواد يسمونها القشاوات [1] ، وهى كالتوابيت المجوفة ، هى لركابها من الرجال والنساء كالأمهدة للاطفال ، تملأ بالفرش الوثيرة ، ويقعد الراكب فيها مستريحا كأنه فى مهاد لين فسيح ، وبازائه معادله أو معادلته فى مثل ذلك من الشقة الأخرى ، والقبة مضروبة عليهما ، فيسار بهما وهما نائمان لا يشعران أو كيف ما أحبا .

فعندما يصلان الى المرحلة التي يحطان بها ضرب سرادقهما للحين ان كانا من أهل الترفه والتنعم [2] ، يدخل بهما الى السرادق وهما [3] راكبان ، وينصب لهما كرسي ينزلان عليه ، فينتقلان من ظل قبة المحمل الى قبة المنزل دون واسطة هواء يلحقهما ، ولا خطفة شمس تصيبهما . وناهيك من هذا الترفيه ، فهؤلاء لا يلقون لسفرهم وان بعدت شقته [4] نصبا ، ولا يجدون على طول الحل والترحال تعبا .

ودون هؤلاء فى الراحة راكبو المحارات ، وهى شبيهة الشقادف التى تقدم وصفها فى ذكر صحراء عيذاب ، لكن الشقادف أبسط وأوسع ، وهذه أضم وأضيق ، وعليها أيضا ظلائل تقى حر الشمس ، ومن قصرت حاله عنها فى هذه الأسفار ، فقد حصل على نصب السفر ، الذى هو قطعة من العذاب .

ثم يرجع القول الى استيفاء حال النفر عشية الوقفة المذكورة بعرفات ؛ وذلك أن الناس نفروا منها بعد غروب الشمس كما تقدم الذكر ، فوصلوا مزدلفة مع العشاء الآخرة ، فجمعوا بها بين العشاءين حسبما جرت به سنة النبى صلى الله عليه وسلم . واتقد المشعر الحرام تلك الليلة كلها مشاعيل من الشمع المسرج ، وأما مسجده المذكور فعاد كله نورا ، فيخيل للناظر اليه أن كواكب السماء كلها نزلت به .

وعلى هذه الصفة كان جبل الرحمة ومسجده ليلة الجمعة ؛ لأن هؤلاء الأعاجم الخراسانيين وسواهم من العراقيين ، أعظم الناس همة فى استجلاب هذا الشمع ، والاستكثار منه اضاءة لهذه المشاهد الكريمة . وعلى هذه الصفة عاد الحرم بهم مدة مقامهم فيه ، فيدخل منهم كل إنسان بشمعة فى يده ، وأكثر ما يقصدون بذلك حطيم الامام الحنفى ، لأنهم على مذهبه . وشاهدنا منه [1] شمعا عظيما أحضر ، تنوء الشمعة منه بالعصبة [2] كأنه السرو ، وضع أمام الحنفى .

فبات الناس بالمشعر الحرام هذه الليلة ، وهى ليلة السبت ، فلما صلوا الصبح غدوا منه الى منى بعد الوقوف والدعاء ، لأن مزدلفة كلها موقف الا وادى محسر ، ففيه تقع الهرولة فى التوجه الى منى حتى يخرج منه . ومن [3] مزدلفة يستصحب أكثر الناس حصيات [4] الجمار وهو المستحب ، ومنهم من يلتقطها حول مسجد الخَيف بمنى ، وكل ذلك واسع .

فلما انتهى الناس الى منى ، بادروا لرمى جمرة العقبة بسبع حصيات ، ثم نحروا أو ذبحوا ، وحلوا من كل شىء الا النساء والطيب

يطوفوا طواف الافاضة . ورُمِيَ هذه الجمرة عند طلوع الشمس من يوم النحر ، ثم توجه أكثر الناس لطواف الافاضة ، ومنهم من أقام الى اليوم الثانى ، ومنهم من أقام الى اليوم الثالث وهو يوم الانحدار الى مكة .

فلما كان اليوم الثانى من يوم النحر ، عند زوال الشمس ، رمى النـاس بالجمرة الأولى سبع حصيات ، وبالجمـرة الوسطى كذلك ، وبهاتين الجمرتين يقفون للدعاء ، وبجمرة العقبة كذلك ، ولا يقفون بها ، اقتـداء فى ذلك كله بفعل النبى صلى الله عليه وسلم ، فتعود جمرة العقبة فى هذين اليـومين أخيرة ، وهى يوم النحر أولى [1] منفردة لا يخلط معها سواها .

وفى اليوم الثانى من يوم النحر ، بعد رمى الجمرات ، خطب الخطيب بمسجد الخيف ، ثم جمع بين الظهر والعصر . وهذا الخطيب وصل مع الأمير العراقى ، مقدما من عند الخليفة للخطبة والقضاء [2] بمكة على ما يذكر ، ويعرف بتاج الدين ، وظاهر أمره البلادة والبله ، لأن خطبتـه أعـربت عن ذلك ، ولسـانه لا يقيم الاعراب .

فلما كان اليوم الثالث ، تعجل النـاس فى الانحدار الى مكة ، بعد أن كمل لهم رمى تسع وأربعين جمرة : سـبع منها يوم النحر بالعقبة وهى المحللة ، ثم احدى وعشرون فى اليـوم الثانى بعد زوال الشـمس : سبعا سبعا فى الجمرات الثلاث ، وفى اليوم الثالث كذلك . وتصـر الى مـكة : فمنهم من صـلى العصر بالابطح ، ومنهم من صلاها بالمسجد الحرام ، ومنهم من تعجل فصلى الظهر بالأبطح .

ومضت السنة قديما باقامة ثلاثة أيام ، بعد يوم النحر ، بمنى لاكمال رمى سبعين حصاة . فوقع التعجيل فى هذا الزمان فى اليومين ، كما قال الله تبارك وتعالى : « فمن تعجل فى يومين فلا اثم عليه ومن تأخر فلا اثم عليه [3] » ، وذلك مخافة بنى شعبة ، وما يطرأ من حرَّابة المكيين .

وقد كانت فى يوم الانحدار المذكور ، بين سودان أهل مكة وبين الأتراك العراقيين ، جولة وهوشـة ، وقعت فيها جـراحات ، وسلت السيوف ، وفوقت القسى ، ورميت السهام ، وانتهب بعض أمتعة التجار ، لأن منى فى تلك الأيام الثلاثة سوق من أعظم الأسواق : يباع فيها من الجوهر النفيس ، الى أدنى الخرز ، الى غير ذلك من الأمتعة وسائر سلع الدنيا ؛ لأنها مجتمع أهل الآفاق . فـوقى الله شر تلك الفتنة تسكينا لها [1] سريعا ، وكانت عين الكمال فى تلك الوقفة الهنيئة ، وكمل للناس حجهم ، والحمد لله رب العالمين .

وفى يوم السبت ، يوم النحـر المذكـور ، سيقت كسوة الكعبة المقدسة ، من محلة الأمير العراقى الى مكة ، على أربعة جمال . تقدمها القاضى الجـديد بكسوة الخليفة السوادية ، والرايات على رأسه ، والطبول تهر [2] وراءه ، وابن عم الشيبى محمد بن اسماعيل معها ، لأنه ذكر أن أمر الخليفة نفذ بعزله عن حجابة البيت لهنات اشتهرت عنه ، والله يطهر بيته المكرم بمن يرضى من خدامه بمنه . وهذا ابن العم المذكور

هو أشبه طريقة منه وأمثل حالا ، وقد تقدم ذكر ذلك في العزلة الأولى .

فوضعت الكسوة في السطح المكرم أعلى الكعبة . فلما كان يوم الثلاثاء ، الثالث عشر من الشهر المبارك المذكور ، اشتغل الشيبيون باسبالها خضراء يانعة تقيد الأبصار حسنا ، في أعلاها رسم أحمر واسع ، مكتوب فيه في الصفح الموجه الى المقام الكريم — حيث الباب المكرم — وهو وجهها المبارك ، بعد البسملة « ان أول بيت وضع للناس » ، الآية [٣] ، وفي سائر الصفحات اسم الخليفة والدعاء له ، وتحف بالرسم المذكور طرتان حمراوان بدوائر صغار بيض ، فيها رسم [٤] بخط رقيق يتضمن آيات من القرآن ، وذكر الخليفة أيضا .

فكملت كسوتها ، وشمرت أذيالها الكريمة ، صونا لها من أيدي الأعاجم وشدة اجتذابها ، وقوة تهافتها عليها وانكبابها ؛ فلاح للناظرين منها أجمل منظر ، كأنها عروس جليت في السندس الأخضر . أمتع الله بالنظر اليها كل مشتاق الى لقائها ، حريص * على المثول بفنائها ، بمنه .

وفي هذه الأيام يفتح البيت الكريم كل يوم للأعاجم العراقيين والخراسانيين ، وسواهم من الواصلين مع الأمير العراقي ، فظهر من تزاحمهم وتطارحهم على الباب الكريم ، ووصول بعضهم على بعض ، وسباحة بعضهم على رؤوس بعض كأنهم في غدير من الماء ، أمر لم ير أهول منه ، يؤدي الى تلف المهج وكسر الأعضاء .

وهم في خلال ذلك لا يبالون ولا يتوقفون ، بل يلقون بأنفسهم على ذلك البيت الكريم من فرط الطرب والارتياح ، القاء الفراش بنفسه على المصباح . فعادت أحوال السرو اليمنيين ، في دخولهم البيت المبارك على الصفة المتقدمة الذكر ، حال تؤدة ووقار بالاضافة الى هؤلاء الأعاجم الأغتام ، نفعهم الله بنياتهم ، وقد فقد منهم في ذلك المزدحم الشديد من دنا أجله ، والله يغفر للجميع . وربما زاحمهم في تلك الحال بعض نسائهم ، فيخرجن وقد نضجت جلودهن طبخا في مضيق ذلك المعترك الذي حمي بأنفاس الشوق وطيشه ، والله ينفع الجميع بمعتقده وحسن مقصده ، بعزته .

وفي ليلة الخميس الخامس عشر من الشهر المبارك ، اثر صلاة العتمة ، نصب منبر الوعظ أمام المقام . فصعده واعظ خراساني ، حسن البشارة ، مليح الاشارة ، يجمع بين اللسانين عربي وعجمي ، فأتى في الحالين بالسحر الحلال من البيان ، فصيح المنطق ، بارع الألفاظ ؛ ثم يقلب لسانه للأعاجم بلغتهم ، فيهزهم [١] اضطرابا ، ويذيبهم زفرات وانتحابا [٢] .

فلما كانت الليلة الأخرى بعدها ، وضع منبر آخر خلف حطيم الحنفي ، فصعد اثر صلاة العتمة أيضا شيخ أبيض السبال ، رائع الجلال ، بارع التمام في الفصل [٣] والكمال ؛ فصدع بخطبة انتظمت آية الكرسي [٤] كلمة كلمة ، ثم تصرف في أساليب من الوعظ وأفانين من العلم باللسانين أيضا ، حرك بها القلوب حتى * أطارها ، وأورثها احتداما [١] بالخشية بعد

استعارها . وفى أثناء ذلك ترشقه سهام من المسائل ، فيتلقاها [2] بمجن من الجواب السريع البليغ ، فتحار له الألباب ، وتملك كل نفس منه الاغراب والاعجاب ، فكأنما هو وحى يوحى .

وهذا الذى مشى به وعاظ هذه الجهات المشرقية ، من القاء المسائل اليهم ، وافاضة [3] شآبيب الامتحان عليهم ؛ من أعجب الأمور المصرية عن غريب شأنهم ؛ والناطقة بسحر بيانهم . وليست فى فن واحد . انما هى فى فنون شتى ، وربما قصد بها التعنيت والتنكيت [4] ، فيأتون بالجواب كخطفة البرق ، وارتداد الطرف . والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء .

وبين أيدى هؤلاء الوعاظ قراء ينغمون بالقراءة ، فيأتون بألحان [5] تكسب الجماد طربا وأريحية ، كأنها المزامير الداوودية ، فلا تدرى [6] من أى أحوال هذا المجتمع تعجب [7] ، والله يؤتى الحكمة من يشاء ، لا اله سواه .

وسمعت هذا الشيخ الواعظ يسند الحديث الى خمسة من أجداده ، جد عن جد ، نسقا مسلسلا من أبيه اليهم على اتصال ، كلهم له لقب يدل على منزلته من العلم ، ومكانته من التذكير والوعظ ؛ فهو معرق فى الصنعة الشريفة ، تليد المجد فيها .

وفى أيام الموسم كلها عاد المسجد الحرام — نزهه الله وشرفه — سوقا عظيمة : يباع فيه من الدقيق الى العقيق ، ومن البر الى الدر ، الى غير ذلك من السلع ، فكان مبيع الدقيق بدار الندوة الى جهة باب بنى شيبة . ومعظم السوق فى البلاط الآخذ من الغرب الى الشمال ، وفى البلاط الآخذ من الشمال الى الشرق ، وفى ذلك من النهى الشرعى ما هو معلوم . والله غالب على أمره لا اله سواه .

وفى عشى يوم الأحد الموفى عشرين من الشهر المذكور ، وهو أول أبريل [8] ، كان تبريزنا [9] الى محلة الأمير العراقي بالزاهر — وهو على نحو من الميلين من البلد — وقد كمل اكتراؤنا الى الموصل ، وهو أمام بغداد بعشرة أيام ، عرفنا الله الخير والخيرة بمنه ، فأقمنا بالزاهر ثلاثة أيام نجدد العهد كل يوم بالبيت العتيق ، ونعيد وداعه .

فلما كان ضحوة يوم الخميس ، الثانى والعشرين من ذى الحجة المذكور ، أقلعت المحلة على تؤدة ورفق بسبب البطء والتأخر ، ونزلت على نحو ثمانية أميال من الموضع الذى أقلعت منه ، بمقربة من بطن مرّ ، والله كفيل بالسلامة والعصمة بمنه .

فكانت مدة مقامنا بمكة — قدسها الله — من يوم وصولنا اليها ، وهو يوم الخميس الثالث عشر لربيع الآخر من سنة تسع وسبعين . الى يوم اقلاعنا من الزاهر ، وهو يوم الخميس الثانى والعشرين لذى الحجة من السنة المذكورة ، ثمانية أشهر وثلث شهر ، التى هى — بحسب الزائد والناقص من الأشهر — مائتا يوم اثنتان وخمسة وأربعون يوما سعيدات مباركات — جعلها الله لذاته ، وجعل القبول لها موافقا لمرضاته ، بمنه — غبنا عن رؤية البيت الكريم فيها ثلاثة أيام : يوم عرفة ،

وثانى يوم النحر ، ويوم الأربعاء الذى هو الحادى والعشرون لذى الحجة [٢] ، قبل يوم الخميس ، يوم اقلاعنا من الزاهر . والله لا يجعله آخر العهد بحرمه الكريم ، بمنه .

ثم أقلعنا من ذلك الموضع ، اثر صلاة الظهر من يوم الخميس ، الى بطن مر ، وهو واد خصيب كثير النخل ، ذو عين فوارة سيالة الماء ، تسقى منها أرض تلك الناحية . وعلى هذا الوادى قطر متسع ، وقرى كثيرة وعيون ، ومنه تجلب الفواكه الى مكة — حرسها الله — فأقمنا به يوم الجمعة لسبب عجيب .

وذلك أن الملكة خاتون بنت الأمير مسعود ، ملك الدروب والأرمن وما يلى بلاد الروم ، وهى أحدى الخواتين الثلاث اللاتى وصلن للحج مع أمير الحاج أبى المكارم طاشتكين ، مولى أمير المؤمنين الموجه كل عام من قبل الخليفة ، وله بتولى [١] هذه الخطة نحو الثمانية أعوام أو أزيد .

وخاتون هذه أعظم الخواتين قدرا بسبب سعة مملكة أبيها . والمقصود من ذكر أمرها أنها أسرت من بطن مر ليلة الجمعة الى مكة ، فى خاصة من خدمها وحشمها ، فتفقد موضعها يوم الجمعة المذكور ، فوجه الأمير ثقات من خاصة أصحابه يستطلعونها فى الانصراف ، وأقام بالناس منتظرا لها ، فوصلت عتمة يوم السبت .

وأجيلت [٢] فى سبب انصراف هذه الملكة المترفة قداح الظنون ، وسلت الخواطر على استخراج سرها المكنون : فمنهم من يقول انها انصرفت أنفة لبعض ما انتقدته على الأمير ، ومنهم من قال ان نوازع الشوق للمجاورة عطفت بها الى المثابة المكرمة ، ولا يعلم الغيب الا الله . وكيف ما كان الأمر ، فقد كفى الله العطلة بسببها ، وأطلق سبيل الحاج ، ولله الحمد على ذلك .

وأبو هذه المرأة المذكورة [٣] الأمير مسعود كما ذكرناه ، وهو فى بسطة من ملكه ، واتساع من امرته ؛ يركب له — على ما حقق عندنا — أكثر من مائة ألف فارس . وصهره عليها نور الدين صاحب آمد وما سواها ، ويركب له أيضا نحو اثنى عشر ألف فارس .

ولخاتون هذه أفعال من البر كثيرة فى طريق الحاج : منها سقى الماء للسبيل ، عينت لذلك نحو الثلاثين ناضحة ومثلها للزاد ، واستجلبت لما تختص به من [٤] الكسوة والأزودة وغير ذلك نحو المائة بعير . وأمرها يطول وصفها ، وسنها نحو خمسة عشرين عاما .

والخاتون الثانية : أم معز الدين صاحب الموصل ، زوج بابك أخى نور الدين ، الذى كان صاحب الشام رحمه الله . ولهذه أفعال كثيرة من البر .

وخاتون الثالثة : ابنة الدقوس ، صاحب أصبهان من بلاد خراسان ، وهى أيضا كبيرة القدر ، عظيمة الشأن ، منافسة فى أفعال البر .

وشأنهن جمع عجيب جدا فى ماهن بسبيله من الخير ، والاحتفال فى الأبهة الملوكية .

ثم أقلعنا ظهر يوم السبت الرابع والعشرين لذى الحجة المذكور ، ونزلنا بمقربة من عسفان ، ثم أسرينا اليها نصف الليل ، وصبحناها بكرة يوم الأحد . وهى فى بسيط من الأرض بين جبال ، وبها آبار معينة تنسب لعثمان رضى الله عنه ، وشجر المقل فيها كثير ، وبها حصن عتيق البنيان ذو أبراج مشيدة ، غير معمور ، قد أثر فيه القدم ، وأوهنته قلة العمارة ولزوم الخراب ؛ فاجتزناها بأميال ، ونزلنا مريحين قائلين .

فلما كان اثر صلاة الظهر أقلعنا الى خليص ، فوصلناها عشى النهار . وهى أيضا فى [1] بسيط من الأرض ، كثيرة حدائق النخل ، لها جبل فيه حصن مشيد فى قنته ، وفى البسيط حصن آخر قد أثر فيه الخراب ، وبها عين فوارة قد أحدثت لها أخاديد فى الأرض مسربة ، يستقى منها على أفواه كالآبار ، يجدد الناس بها الماء لقلته فى الطريق بسبب القحط المتصل ، والله يغيث بلاده وعباده ، وأصبح الناس بها مقيمين يوم الاثنين لارواء الابل واستصحاب الماء .

وهذه الجملة العراقية [2] ، ومن انضاف اليها من الخراسانية والمواصلة [3] وسائر جهات الآفاق — من الواصلين صحبة أمير الحاج المذكور — جمع لا يحصى عدده [4] الا الله تعالى : يغص بهم البسيط الأفيح ، ويضيق عنهم [5] المهمه الصحصح [6] ، فترى الأرض تميد بهم ميدا ، وتموج بجميعهم [7] موجا . فتبصر منهم [8] بحرا طامى العباب ، ماؤه السراب وسفنه [9] الركاب ، وشرعه الظلائل [10] المرفوعة والقباب . تسير سير السحب [1] المتراكمة ، يتداخل [2] بعضها على بعض ، ويضرب بعضها جوانب بعض ، فتعاين لها تزاحما فى البراح [3] المنفسح يهول ويروع ، واصطكاكا نبع المحارات [4] فيه بعضه ببعض مقروع . فمن لم يشاهد هذا السفر العراقى ، لم يشاهد من أعاجيب الزمان ما يحدث [5] به ، ويتحف السامع بغرابته [6] ، والقدرة والقوة لله وحده .

وحسبك أن النازل فى منزل [7] من منازل هذه المحلة متى خرج عنها لبعض حاجة [8] ، ولم تكن له دلالة يستدل بها على موضعه ، ضل وتلف ، وعاد منشودا فى جملة الضوال . وربما اضطر به [9] الحال الى الوصول الى مضرب الأمير ورفع مسألته اليه ، فيأمر أحد المنشدين بريحه والهاتفين بأوامره ، ممن قد أعد لذلك ، أن يردفه خلفه على جمل ، ويطوف به المحلة المعجاجة — وهو قد ذكر له اسمه واسم جماله ، واسم البلد الذى هو منه — فيرفع عقيرته بذلك ، معرفا بهذا الضال [10] ، ومناديا باسم الجمال [11] وبلده ، الى أن يقع عليه فيؤديه اليه [12] ؛ ولو لم يفعل ذلك لكان آخر عهده بصاحبه ، الا أن يلتقطه التقاطا أو يقع عليه اتفاقا . فهذا من بعض عجائب شئون هذه المحلة ، وعجائبها أكثر من أن يحيط بها الوصف ، ولأهلها من قوة الجدة واليسار ما يعينهم على ما هم بسبيله ، والملك بيد الله يؤتيه من يشاء .

ولهؤلاء النسوة [13] الخواتين فى كل عام ، اذا لم يحججن بأنفسهن ، نواضح مسبلة مع

الحاج ، يرسلنها مع ثقات يسقون أبناء السبيل فى المواضع المعروف [14] فيها الماء فى [15] الطريق كله ، وبعرفات وبالمسجد الحرام فى كل يوم وليلة ، فلهن فى ذلك أجر عظيم ، وما التوفيق الا بالله جل جلاله .

فتسمع المنادى على النواضح يرفع صـوته بالماء للسبيل ، فيهطع اليـه المرملون من الزاد والماء بقـربهم وأباريقهم فيملؤونها : ويقـول المنادى فى اشادته بصـوته : أبقى الله الملـكة خاتون ، ابنة الملك الذى من أمره كذا ، ومن شأنه كـذا . ويحليـه بحـلاه ، اعلانا باسمها واظهارا لفعلها ، واسـتجلابا للدعاء لهـا من الناس ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا . وقد تقدم تفسير هـذه اللفظة خاتون ، وأنها عندهم بمنزلة السيدة ، أو ما يليق بهذا اللفظ الملوكى النسائى .

ومن عجيب هذه المحلة أيضا — على عظمها وكبرها ، وكونها وجـود دنيا بأسرها — أنها اذا حطت رحالهـا ونزلت منزلهـا ، ثم ضرب الأمير طبـله للانذار بالرحيـل — ويسمونه الـكوس — لم يـكن بين استقلال الرواحل بأوقارها ورحـالها وركابها الا كلا ولا ، فلا يـكاد يفـرغ الناقـر من الضربة الثالثـة الا والركائب قد أخذت سبيلها ، كل ذلك من قوة الاستعداد ، وشدة الاستظهار على الأسفار . والحول والقوة لله وحده ، لا اله سواه .

واسراؤها بالليل بمشـاعيل موقدة يمسكها الرجالة بأيديهم ، فلا تبصر قشاوة من القشاوات الا وأمامها مشعل . فالناس يسيرون منها بين كواكب سيارة ، توضح غسق الظلماء ، وتباهى بها الأرض أنجم السماء . والمرافق الصناعية ، وغيرها من المصالح الدينية والمنافع الحيوانية ، كلها موجودة [1] بهـذه المحلة غير معـدومة ، ووصفها يطول ، والأخبار عنها لا تنحصر .

فلما كان ظهر يوم الاثنين اثر الصلاة ، أقلعنا من خليص مرتحلين ، وتمادى سيرنا الى العشاء الآخرة ، ثم نزلنا ونمنا نومة خفيفة ، ثم ضرب الكوس ، فأقلعنا وأسرينا الى ضحى من النهار ، ثم نزلنـا مـريحين الى أول الظهـر من يوم الثلاثاء .

ثم أقلعنا من منزلنا ذلك الى واد يعرف بوادى السمك — اسم يكاد يكون واقعا على غير مسمى — فنزلناه مـع العشاء الآخرة ، وأصبحنا به مقيمين يوم الأربعاء لتجديد حمل الماء ، وهو بهذا الوادى فى مسـتنقعات [1] ، وربما حفر عليه فى الرمل .

فأقلعنا منه أول ظهر يوم الأربعاء المذكور ، ثم أجزنا مع الليـل عقبة محجرة كؤودا ذهب فيها من الجمال كثير ، ونزلنـا فى بسيط من الأرض ، ونمنا الى نصف الليل ، ثم رحلنا فى مَهْمَه أفيح بسـيط ممتد مـد البصر ورملة منثالة ، فمشت الجمال فيهادون مقطرةلانفساح طريقها . ثم نزلنا مـريحين قائلين يوم الخميس التاسع والعشرين من ذى الحجة ، وبيننا وبين بدر مقدار مرحلتين .

فلما كان أول الظهر رحلنا الى مقـربة من بدر ، فنزلنا بائتين ، ثم قمنا قبل نصف الليل ، فوصلنا بدرا وقد ارتفـع النهار . وهى قرية

فيها حدائق نخل متصلة ، وبها حصن فى ربوة مرتفعة ، ويدخل اليها على بطن واد بين جبال ، وببدر عين فوارة ، وموضع القليب — الذى كان بازائه الوقعة الاسلامية التى أعزت الدين وأذلت المشركين — هو اليوم نخيل ، وموضع الشهداء خلفه .

وجبل الرحمة الذى نزلت فيه الملائكة عن يسار الداخل منها الى الصفراء ، وبازائه جبل الطبول ، وهو شبيه كثيب [2] رمل ممتد . وهذه التسمية لاشاعة لهج بها أكثر المسلمين ، وذلك أنهم يزعمون أن أصوات الطبول تسمع بها كل (يوم) جمعة ، كأنها آثار انذارات باقية بما سلف من النصر النبوى فى ذلك الموضع ، والله أعلم بغيبه .

وموضع عريش النبى صلى الله عليه وسلم يتصل بسفح جبل الطبول المذكور ، وموضع الوقيعة أمامه ، وعند نخيل القليب مسجد يقال انه مبرك ناقة النبى صلى الله عليه وسلم . وصح عندنا — على زعمة أحد الأعراب الساكنين ببدر — أنهم يسمعون أصوات الطبول بالجبل المذكور ، لكن عين لذلك كل يوم اثنين ويوم خميس فعجبنا من زعمه كل العجب ، ولا يعلم حقيقة ذلك الا الله تعالى .

وبين بدر والصفراء بريد ، والطريق اليها فى واد بين جبال تتصل بها حدائق النخيل ، والعيون فيه كثيرة ، وهو طريق حسن . وبالصفراء حصن مشيد ، ويتصل به حصون كثيرة : منها حصنان يعرفان بالتوأمين ، وحصن يعرف بالحسنية ، وآخر يعرف بالجديد [1] الى حصون كثيرة وقرى متصلة .

شهر محرم سنة ثمانين وخمسمائة عرفنا الله بركته وبركة سنته

استهل هلاله ليلة السبت ، بموافقة الرابع عشر لشهر أبريل ، ونحن مقلعون من بدر الى الصفراء . فبتنا باستهلاله بهذه البقعة الكريمة بدر ، حيث نصر الله المسلمين وقهر المشركين ، والحمد لله على ذلك .

وكان نزولنا بالصفراء اثر صلاة العشاء الآخرة ، فأصبحنا يوم السبت — مستهل الهلال المذكور — مقيمين مريحين بها ، ليتزود الناس منها الماء ، ويأخذوا نفس استراحة الى الظهر ، ومنها الى المدينة المكرمة ان شاء الله ثلاثة أيام .

فأقلعنا منها ظهر يوم السبت المذكور ، وتمادى السير بنا الى اثر صلاة العشاء الآخرة ، والطريق فى واد متصل بين جبال ، فنزلنا ليلة الأحد .

ثم أقلعنا نصف الليل ، وتمادى سيرنا الى ضحى من النهار ، فنزلنا مريحين قائلين ببئر ذات العلم [2] ، ويقال ان على بن أبى طالب رضى الله عنه قاتل الجن بها ، وتعرف أيضا بالروحاء . والبئر المذكورة متناهية بعد الرشاء ، لا يكاد يلحق قعرها ، وهى معينة .

ورحلنا منها اثر صلاة الظهر من يوم الأحد ، وتمادى بنا السير الى اثر صلاة العشاء الآخرة ، فنزلنا شعب على رضى الله عنه ، وأقلعنا منه نصف الليل الى تربان الى البيداء ، ومنها تبصر المدينة المكرمة ، فنزلنا

ضحى يوم الاثنين ، الثالث لمحرم المذكور ، بوادي العقيق ، وعلى شفيره مسجد ذى الحليفة ، من حيث أحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم . والمدينة من هذا الموضع على خمسة أميال ، ومن ذى الحليفة حرم المدينة الى مشهد حمزة الى قباء . وأول ما يظهر للعين منارة مسجدها بيضاء مرتفعة .

ثم رحلنا منها اثر صلاة الظهر من يوم الاثنين المذكور — وهو السادس عشر لابريل — فنزلنا بظاهر المدينة الزهراء ، والتربة البيضاء ، والبقعة المشرفة بمحمد سيد الأنبياء صلى الله عليه وسلم صلاة تتصل مع الأحيان والآناء .

وفى عشى ذلك اليوم ، دخلنا الحرم المقدس لزيارة الروضة المكرمة المطهرة ، فوقفنا بازائها مسلمين ، ولترب جنباتها المقدسة مستلمين ، وصلينا بالروضة التى بين القبر المقدس والمنبر ، واستلمنا أعواد المنبر القديمة ، التى كانت موطأ الرسول صلى الله عليه وسلم ، والقطعة الباقية من الجذع الذى حن اليه صلى الله وسلم عليه ، وهى ملصقة فى عمود قائم أمام الروضة الصغيرة التى بين القبر والمنبر ، وعن يمينك اذا استقبلت القبلة فيها ، ثم صلينا صلاة المغرب مع الجماعة

وكان من الاتفاق السعيد لنا أن وجدنا بعض فسحة فى تلك الحال ، لاشتغال الناس باقامة مضاربهم وترتيب رحالهم ، فتمكنا من الغرض المقصود ، وفزنا بالمشهد المحمود ، وأدينا حق السلام على الصاحبين الضجيعين : صديق الاسلام ، وفاروقه .

وانصرفنا الى رحالنا مسرورين ، ولنعمة الله علينا شاكرين ، ولم يبق لنا أمل من آمال وجهتنا المباركة ولا وطر الا وقد قضيناه ، ولا غرض من أغراضنا المأمولة الا وبلغناه ؛ وتفرغت الخواطر للاياب للوطن . نظم الله الشمل ، وتمم علينا الفضل ، والحمد لله على ما أولاه وأسداه ، وأعاده من جميل صنعه وأبداه ، فهو أهل الحمد والشكر ومستحقه ، لا اله سواه .

ذكر مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر روضته المقدسة المطهرة

المسجد المبارك مستطيل ، وتحفه [1] من جهاته الأربع بلاطات مستديرة به ، ووسطه كله صحن مفروش بالرمل والحصى : فالجهة القبلية منها لها خمسة [2] بلاطات مستطيلة من غرب الى شرق ، والجهة الجوفية [3] لها أيضا خمسة بلاطات على الصفة المذكورة ، والجهة الشرقية لها ثلاثة بلاطات ، والجهة الغربية لها أربعة بلاطات .

والروضة المقدسة مع آخر الجهة القبلية مما يلى الشرق ، وانتظمت من بلاطاته مما يلى الصحن فى السعة اثنين ونيفت [4] الى البلاط الثالث بمقدار أربعة أشبار ، ولها خمسة أركان بخمس صفحات ، وشكلها شكل عجيب لا يكاد يتأتى تصويره ولا تمثيله ، والصفحات الأربع محرفة من القبلة تحريفا بديعا ، لا يتأتى لأحد معه استقبالها فى صلاته لأنه ينحرف عن القبلة

وأخبرنا الشيخ الامام العالم الورع ، بقية العلماء وعمدة الفقهاء ، أبو ابراهيم اسحاق ابن ابراهيم التونسي رضى الله عنه : أن عمر ابن عبد العزيز ، رضى الله عنه ، اخترع ذلك فى تدبير بنائها ، مخافة أن يتخذها الناس مصلى .

وأخذت أيضا من الجهة الشرقية سعة بلاطين * ، فاتنظم داخلها من أعمدة الأبلطة ستة ، وسعة الصفحة القبلية منها أربعة وعشرون شبرا ، وسعة الصفحة الشرقية ثلاثون [٦] شبرا . وما بين الركن الشرقى الى الركن الجوفى [٧] صفحة سعتها خمسة وثلاثون شبرا ، ومن الركن الجوفى الى الغربى صفحة سعتها [٨] تسعة وثلاثون شبرا ، ومن * الركن الغربى [١] الى القبلى صفحة سعتها [٢] أربعة وعشرون شبرا .

وفى هذه الصفحة صندوق آبنوس مختم بالصندل ، مصفح بالفضة مكوكب بها [٣] ، هو قبالة رأس النبى صلى الله عليه وسلم ، وطوله خمسة أشبار ، وعرضه ثلاثة أشبار ، وارتفاعه أربعة أشبار . وفى الصفحة التى بين الركن الجوفى والركن الغربى ، موضع عليه ستر مسبل ، يقال انه كان مهبط جبريل عليه السلام [٤] .

فجميع سعة الروضة المكرمة ، من جميع جهاتها ، مائتا * شبر واثنان وسبعون شبرا . وهى مؤزرة بالرخام البديع النحت ، الرائع النعت ، وينتهى الازار منها الى نحو الثلث أو أقل يسيرا ، وعليه من الجدار المكرم ثلث آخر ، قد علاه تضميخ المسك والطيب ، مقدار نصف شبر ، مسودا مشققا متراكما [٦] مع طول الأزمنة والأيام ، والذى يعلوه من الجدار شبابيك عود متصلة بالسمك الأعلى ، لأن أعلى الروضة المباركة متصل بسمك المسجد . والى حيز ازار الرخام تنتهى الأستار ، وهى لازوردية اللون ، مختمة بخواتيم [٧] بيض مثمنة ومربعة ، وفى داخل الخواتيم دوائر مستديرة ونقط بيض تحف بها ، فمنظرها منظر رائق [٨] بديع الشكل ، وفى أعلاها رسم مائل الى البياض .

وفى الصفحة القبلية ، أمام وجه النبى صلى الله عليه وسلم ، مسمار فضة هو قبالة [٩] الوجه الكريم [١٠] ، فيقف الناس أمامه للسلام . والى قدميه — صلى الله عليه وسلم — رأس أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، ورأس عمر الفاروق مما يلى كتفى أبى بكر الصديق رضى الله عنهما ، فيقف المسلم مستدبر القبلة ومستقبل الوجه الكريم فيسلم ، ثم ينصرف يمينا الى وجه أبى بكر ، ثم الى وجه عمر رضى الله عنهما .

وأمام هذه الصفحة المكرمة نحو العشرين قنديلا معلقة من الفضة ، وفيها اثنان من ذهب . وفى جوفى الروضة المقدسة حوض صغير مرخم فى قبلته شكل محراب ، قيل انه كان بيت فاطمة رضى الله عنها ، ويقال هو قبرها ، والله أعلم بحقيقة ذلك .

وعن يمين الروضة المكرمة المنبر الكريم ، ومنه اليها اثنان وأربعون خطوة ، وهو فى

الحوض المبارك الذى طوله أربع عشر خطوة وعرضه ست خطا ، وهو مرخم كله ، وارتفاعه [2] شبر ونصف ، وبينه وبين الروضة الصغيرة التى بين القبر الكريم والمنبر — وفيها جاء [3] الأثر انها روضة من رياض الجنة — ثمانى [4] خطوات .

وفى هذه الروضة يتزاحم الناس للصلاة ، وحق لهم ذلك . وبازائها لجهة القبلة عمود يقال انه مطبق [5] على بقية الجذع الذى حن للنبى صلى الله عليه وسلم ، وقطعة منه فى وسط العمود ظاهرة يقبلها الناس ، ويبادرون للتبرك بلمسها ومسح خدودهم فيها ، وعلى حافتها فى القبلة منها الصندوق .

وارتفاع المنبر الكريم نحو القامة أو أزيد ، وسعته خمسة أشبار ، وطوله خمس خطوات ، وأدراجه ثمانية ، وله باب على هيئة الشباك مقفل [6] يفتح يوم الجمعة ، وطوله أربعة أشبار ونصف شبر . والمنبر مغشى بعود الأبنوس ، ومقعد الرسول صلى الله عليه وسلم من أعلاه ظاهر ، قد طبق عليه بلوح [7] من الأبنوس غير [8] متصل به يصونه من القعود عليه ، فيدخل الناس أيديهم اليه ، ويتمسحون به تبركا بلمس ذلك المقعد الكريم .

وعلى رأس رجل المنبر اليمنى [9] حيث يضع الخطيب يده اذا خطب ، حلقة فضة مجوفة مستطيلة [1] — تشبه حلقة الخياط التى يضعها فى أصبعه صفة لا صغرا [1] لأنها أكبر منها — لاعبة تستدير فى موضعها ، يزعم الناس أنها لعبة الحسن [3] والحسين رضى الله عنهما فى حال خطبة جدهما صلوات الله وسلامه عليه .

وطول المسجد الكريم مائة خطوة وست وتسعون خطوة ، وسعته مائة وست وعشرون خطوة ، وعدد سواريه مائتان وتسعون . وهى أعمدة متصلة بالسمك دون قسى تنعطف عليها ، فكأنها دعائم قوائم ، وهى من حجر منحوت قطعا قطعا ، ململمة مثقبة [4] توضع أنثى فى ذكر [5] ، ويفرغ بينهما الرصاص المذاب [6] الى أن تتصل [7] عمودا قائما ، وتكسى بغلالة جيار [8] ، ويبالغ فى صقلها ودلكها ، فتظهر كأنها رخام أبيض .

والبلاط المتصل بالقبلة ، من الخمسة [9] بلاطات المذكورة ، تحف به مقصورة تكتنفه طولا من غرب الى شرق ، والمحراب فيها ، ويصلى [10] الامام فى الروضة الصغير المذكورة الى جانب [11] الصندوق ، وبينهما وبين الروضة والقبر المقدس محمل كبير [12] مدهون ، عليه مصحف كبير فى غشاء مقفل عليه ، هو أحد المصاحف الأربعة التى وجه بها عثمان بن عفان رضى الله عنه الى البلاد .

وبازاء المقصورة ، الى جهة الشرق ، خزانتان كبيرتان ، محتويتان [13] على كتب ومصاحف موقوفة [14] على المسجد المبارك ، ويليهما [15] فى البلاط الثانى ، لجهة الشرق أيضا ، دفة مطبقة على وجه الأرض ، مقفلة هى على سرداب يهبط اليه على أدراج تحت الأرض ، يفضى [16] الى خارج المسجد الى دار أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وهو كان طريق

عائشة اليها ، وبازائها دار عمر بن الخطاب ، ودار ابنه عبد الله رضى الله عنهما . ولا شك أن ذلك الموضع هو موضع الخوخة المفضية لدار أبى بكر التى أمر النبى صلى الله عليه وسلم بابقائها [1] خاصة .

وأمام الروضة المقدسة أيضا صندوق كبير ، هو للشمع والأتوار التى توقد أمام الروضة كل ليلة . وفى الجهة الشرقية بيت مصنوع من عـود ، هـو موضـع مبيت بعض السـدنة الحارسين للمسجد المبارك . وسـدنته فتيان أحابيش وصـقالب ظـراف الهيئات ، نظاف الملابس والشارات ، والمؤذن الراتب فيه أحد أولاد بلال رضى الله عنه .

وفى جهة جوف الصحن قبة كبيرة محـدثة جديدة تعرف بقبة الزيت ، هى مخزن لجميع آلات المسجد المبـارك وما يحتاج اليه فيه ، وبازائها فى الصحن خمس عشرة نخلة ، وعلى رأس المحراب الذى فى جدار القبلة — داخل المقصورة — حجر مربع أصفر ، قدر شبر فى شبر ، ظاهر البريق والبصيص ، يقال انه كان مرآة كسرى ، والله أعلم بذلك . وفى أعلاه ، داخل المحراب ، مسمار مثبت فى جـدار ، فيه شبه حق صغير لا يعـرف من أى شىء هو ، ويزعم أيضا أنه كان كأس كسرى ، والله أعلم بحقيقة ذلك كله .

ونصف جدار القبلة الأسفل رخام موضوع ازارا على ازار ، مختلف الصـنعة واللون ، مجزع أبدع تجزيع . والنصف الأعـلى من الجدار منزل [2] كله بفصوص الذهب المعروفة [3] بالفسيفساء ، قد أنتج الصناع [4] فيه نتائج من الصـنعة غريبة ، تضمنت تصـاوير أشـجار مختلفـات [5] الصـفات ، مائلات [6] الأغصان بثمرها .

والمسـجد كله عـلى تلك الصفة [7] ، لكن الصنعة فى جـدار القبلة أحفل ، والجـدار الناظـر الى الصحن من جهة القبلة كذلك ، ومن جهة الجوف أيضـا ، والغربى والشرقى الناظران الى الصحن مجـردان أبيضان [1] ومقرنصان ، قد زينا برسم يتضمن أنواعا من الأصبغة ، الى ما يطول وصـفه وذكـره من الاحتفال فى هذا المسجد المبـارك ، المحتوى عـلى التربة الطاهرة المقدسـة ، وموضوعها أشرف ، ومحلها أرفع من كل ما تزين به .

وللمسجد المبارك تسعة عشر بابا ، لم يبق منها مفتحا [2] سـوى أربعة فى الغرب : منها اثنان يعرف الواحد ببـاب الرحمة ، والثانى بباب الخشية [3] ، وفى الشرق اثنان يعـرف الواحد بباب جبريل عليه السلام ، والثـانى ببـاب الرخاء [4] ، ويقابل باب جبريل عليـه السلام دار عثمان رضى الله عنه ، وهى التى استشهد بها ، ويقابل الروضة المكرمة من هذه الجهة الشرقية روضة جمال الدين الموصـلى رحمه الله ، المشهور خبره وأثره ، وقد تقـدم ذكر مآثره .

وأمام الروضة المكرمة شباك حديد مفتوح الى روضـته ، تتنسم [5] منها روحا وريحانا ، وفى القبلة باب واحـد صغير [6] مغلق ، وفى الجوف أربعة مغلقة ، وفى الغرب خمسة مغلقة

أيضـا ، وفى الشرق خمسـة أيضا مغلقة ؛ فكملت بالأربعة المفتوحة تسعة عشر بابا .

وللمسجد المبارك ثلاث صوامع : احداها فى الركن الشرقى المتصل بالقبلة ، والاثنتان [7] فى ركنى الجهة الجوفية [8] صغيرتان ، كأنهما علـى هيئـة [9] برجين ، والصـومعة الأولى المذكورة على هيئة الصوامع .

ذكر المشاهد المكرمة التى ببقيع الغرقد وصفح جبل احـد

فأول ما نذكر من ذلك مسجد حمزة رضى الله عنه — وهـو بقبلى الجبـل المـذكور ، والجبل جوفى المدينة ، وهو على مقدار ثلاثة أميال — وعـلى قبره رضى الله عنه مسـجد مبنى ، والقبـر برحبـة جـوفى المسـجد ★ والشهداء رضى الله عنهم بازائه ، والغار الذى أوى اليـه النبى صلى الله عليه وسـلم بازاء الشهداء أسفل الجبل ، وحول الشـهداء تربة حمـراء هى التربة التى تنسب الى حمـزة ، ويتبرك الناس بها .

وبقيع الغرقد شرقى المدينة ، تخـرج اليه على باب يعرف بباب البقيـع ، وأول ما تلقى عن يسـارك — عند خـروجك من البـاب المذكور — مشهد صفية عمة النبى صلى الله عليه وسـلم ، أم الزبير بن العوام رضى الله عنه . وأمام هـذه التربة قبر مالك بن أنس الامام المدنى رضى الله عنه ، وعليه قبة صغيرة مختصرة البناء ، وأمامه قبر السلالة الطاهرة ابراهيم بن النبى صلى الله عليه وسلم ، وعليه قبة بيضاء ، وعلى اليمين منها تربة ابن لعمـر ابن الخطاب رضى الله عنه ، اسمه عبد الرحمن الأوسط ، وهو المعروف بأبى شحمة ، وهو الذى جلده أبوه الحد ، فمرض ومات رضى الله عنهما .

وبازائه قبر [1] عقيل بن أبى طالب رضى الله عنه ، وعبـد الله ابن جعفر الطيـار رضى الله عنه ، وبازائهم روضة فيها أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، وبازائها روضة صغيرة فيها ثلاثة من أولاد النبى صلى الله عليه وسلم .

ويليها روضـة العباس بن عبـد المطلب ، والحسن بن على رضى الله عنهما ، وهى قبة مرتفعة فى الهواء ، على مقربة من باب البقيع المذكـور ، وعن يمين الخـارج منـه ، ورأس الحسن الى رجلى العباس رضى الله عنهما . وقبراهما مرتفعـان عن الأرض متسـعان ، مغشيان بألواح ملصقة أبدع الصاق ، مرصعة بصفائح الصفر ، ومكوكبة بمساميره [2] على أبدع صفة وأجمل منظر ، وعلى هذا الشكل قبر ابراهيم ابن النبى صلى الله عليه وسلم .

ويلى هذه القبة العباسية بيت ينسب لفاطمة بنت الرسـول صلى الله عليه وسلم ، ويعرف ببيت الحـزن ، يقال انه الذى أوت اليـه ، والتزمت فيه الحزن على موت أبيها المصطفى صلى الله عليه وسلم .

وفى آخر البقيع قبر عثمان الشهيد المظلوم ذى النورين رضى الله عنه ، وعليه قبة صغيرة مختصرة . وعلى مقربة منه مشهد فاطمة ابنة أسـد ، أم عـلى رضى الله عنها وعن بنيها ، ومشاهد هذا البقيع ، أكثر من أن تحصى ،

لأنه مدفن [1] الجمهور الأعظم من الصحابة المهاجرين والأنصار رضى الله عنهم أجمعين وعلى قبر فاطمة المذكورة مكتوب « ما ضم قبر أحد كفاطمة بنت أسد رضى الله عنها وعن بنيها » .

وقباء قبلى المدنة ، ومنها اليها نحو الميلين ، وكانت مدينة كبيرة متصلة بالمدينة المكرمة ، والطريق اليها بين حدائق النخل المتصلة ، والنخيل محدق بالمدينة من جهاتها ، وأعظمها [2] جهة القبلة والشرق ، وأقلها جهة الغرب .

والمسجد المؤسس على التقوى بقباء مجدد ، وهو مربع مستوى الطول والعرض ، وفيه مئذنة طويلة بيضاء تظهر على بعد ، وفى وسطه مبرك الناقة بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وعليه حلق قصير شبه روضة صغيرة يتبرك الناس بالصلاة [3] فيه ، وفى صحنه مما يلى القبلة شبه محراب على مصطبة ، هو أول موضع ركع فيه النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى قبلته محاريب ، وله باب واحد من جهة الغرب ، وهو سبعة [4] بلاطات فى الطول ومثلها فى العرض .

وفى قبلة المسجد دار لبنى النجار ، وهى دار أبى أيوب الأنصارى . وفى الغرب من المسجد رحبة فيها بئر ، وبازائها [5] على الشفير حجر متسع شبيه البيلة ، يتوضأ الناس فيه . ويلى دار بنى النجار دار عائشة رضى الله عنها ، وبازائها دار عمر ، ودار فاطمة ، ودار أبى بكر رضى الله عنهم ، وبازائهما [5] بئر أريس ، حيث تفل النبى صلى الله عليه وسلم ، فعاد ماؤها [6] عذبا بعد ما كان أجاجا ، وفيها [7] وقع خاتمه من يد عثمان رضى الله عنه ، والحديث مشهور .

وفى آخر القرية تل مشرف يعرف بعرفات [8] ، يدخل اليه [9] على دار الصفة — حيث كان عمار وسلمان وأصحابهما المعروفون بأهل الصفة — وسمى ذلك التل عرفات ، لأنه كان موقف النبى صلى الله عليه وسلم يوم عرفة » ، ومنه زويت له الأرض ، فأبصر الناس بعرفات . وآثار هذه القرية المكرمة ومشاهدها كثيرة لا تحصى

وللمدينة المكرمة أربعة أبواب ، وهى تحت سورين ، فى كل سور باب يقابله آخر ، الواحد منها كله حديد ، ويعرف باسمه باب الحديد ، ويليه باب الشريعة ، ثم باب القبلة وهو مغلق ، ثم باب البقيع وقد تقدم ذكره .

وقبل وصولك سور المدينة من جهة الغرب بمقدار غلوة ، تلقى الخندق الشهير ذكره ، الذى صنع [1] النبى صلى الله عليه وسلم عند تحزب الأحزاب ، وبينه وبين المدينة عن يمين الطريق العين المنسوبة للنبى صلى الله عليه وسلم ، وعليها [2] حلق عظيم مستطيل [3] .

ومنبع العين وسط ذلك الحلق كأنه الحوض المستطيل ، وتحته [4] سقايتان مستطيلتان باستطالة الحلق ، وقد ضرب بين كل سقاية وبين الحوض المذكور بجدار ، فحصل الحوض محدقا بجدارين ، وهو يمد السقايتين المذكورتين ، ويهبط اليهما على أدراج عددها نحو الخمسة والعشرين درجا .

وماء هذه [٥] العين المباركة يعم أهل الأرض ، فضلا عن أهل المدينة ، فهى لتطهر الناس واستقائهم وغسل أثوابهم . والحوض المذكور لا يتناول فيه غير الاستقاء خاصة ، صونا له ومحافظة عليه ، وبمقربة منه مما يلى المدينة قبة حجر الزيت ، يقال ان الزيت رشح للنبى صلى الله عليه وسلم من ذلك الحجر ، ولجهة الجوف منه بئر بضاعة ، وبازائها لجهة اليسار جبل الشيطان ، حيث صرخ — لعنه الله — يوم أحد ، حين قال : قتل نبيكم .

وعلى شفير الخندق المذكور حصن يعرف بحصن العزاب [٦] ، وهو خرب ، قيل ان عمر رضى الله عنه بناه لعزاب المدينة ، وأمامه لجهة الغرب على البعد [٧] بئر رومة ، التى اشترى نصفها عثمان رضى الله عنه بعشرين ألفا . وفى طريق أحد مسجد على رضى الله عنه ، ومسجد سلمان رضى الله عنه ومسجد الفتح الذى أنزلت فيه على النبى صلى الله عليه وسلم سورة الفتح .

وللمدينة المكرمة سقاية ثالثة داخل باب الحديد ، يهبط اليها على أدراج ، وماؤها معين ، وهى بمقربة من الحرم الكريم [١] . وبقبلى هذا الحرم المكرم دار امام دار الهجرة مالك ابن أنس [٢] رضى الله عنه ، ويطيف بالحرم كله شارع مبلط بالحجر المنحوت المفروش .

فهذا ذكر ما تمكن على الاستعجال من آثار المدينة المكرمة ومشاهدها ، على جهة الاقتضاب والاختصار ، والله ولى التوفيق .

ومن عجيب ما شاهدناه من الأمور البديعة ، الداخلة مدخل السمعة والشهرة ، أن احدى الخواتين المذكورات — وهى بنت الأمير مسعود المتقدم ذكرها وذكر أبيها — وصلت عشى يوم الخميس السادس لمحرم ، ورابع يوم وصولنا ، الى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم راكبة فى قبتها ، وحولها قباب كرائمها وخدمها ، والقراء أمامها ، والفتيان والصقالب بأيديهم مقامع الحديد يطوفون حولها ، ويدفعون الناس أمامها ، الى أن وصلت الى باب المسجد المكرم .

فنزلت تحت ملحفة مبسوطة عليها ، ومشت الى أن سلمت على النبى صلى الله عليه وسلم ، والخول أمامها والخدام يرفعون أصواتهم بالدعاء لها اشادة بذكرها . ثم وصلت الى الروضة الصغيرة التى بين القبر الكريم والمنبر ، فصلت فيها تحت الملحفة ، والناس يتزاحمون عليها ، والمقامع تدفعهم عنها ، ثم صلت فى الحوض بازاء المنبر .

ثم مشت الى الصفحة الغربية من الروضة المكرمة ، فقعدت فى الموضع الذى يقال انه كان مهبط جبريل عليه السلام ، وأرخى الستر عليها ، وأقام فتيانها وصقالبها وحجابها على رأسها خلف الستر تأمرهم بأمرها ، واستجلبت معها الى المسجد حملين من المتاع للصدقة ، فما زالت فى موضعها الى الليل .

وقد وقع الايذان بوصول صدر الدين ، رئيس الشافعية الأصبهانى ، الذى ورث النباهة والوجاهة فى العلم كابرا عن كابر ،

لعقد مجلس وعظ تلك الليلة — وكانت ليلة الجمعة السابع من المحرم — فتأخر وصوله الى هدء من الليل ، والحرم قد غص بالمنتظرين ، والخاتون جالسة موضعها . وكان سبب تأخره تأخر أمير الحجاج ، لأنه كان على عدة من وصوله الى أن وصل ، ووصل الأمير .

وقد أعد لرئيس العلماء المذكور — وهو يعرف بهذا الاسم ، توارثه عن أب فأب — كرسى بازاء الروضة المقدسة فصعده ، وحضر قراؤه أمامه ، فابتدروا القراءة [1] بنغمات عجيبة ، وتلاحين مطربة مشجية ، وهو يلحظ الروضة المقدسة ، فيعلن بالبكاء .

ثم أخذ فى خطبة من انشائه سحرية البيان ، ثم سلك فى أساليب من الوعظ باللسانين ، وأنشد أبياتا بديعة ، من قوله منها هذا البيت ، وكان يردده فى كل فصل من ذكره صلى الله عليه وسلم ، ويشير الى الروضة :

هاتيك روضته تفوح نسيما
صلوا عليه وسلموا تسليما

واعتذر من التقصير لهول ذلك المقام ، وقال عجبا للألكن الأعجم [3] كيف ينطق عند أفصح العرب !

وتمادى فى وعظه الى أن أطار النفوس خشية ورقة . وتهافتت عليه الأعاجم معلنين بالتوبة [4] ، وقد طاشت ألبابهم ، وذهلت [5] عقولهم ، فيلقون [6] نواصيهم بين يديه ، فيستدعى جلمين ويجزها [7] ناصية ناصية ، ويكسو عمامته المجزوز الناصية ، فيوضع عليه للحين عمامة أخرى من أحد قرائه أو جلسائه ، ممن قد عرف منزعه الكريم فى ذلك ، فيبادر بعمامته لاستجلاب العرض النفيس لمكارمه الشهيرة عندهم ، فلا يزال يخلع واحدة بعد أخرى الى أن خلع منها عدة ، وجز نواصى كثيرة .

ثم ختم مجلسه بان قال : معشر الحاضرين قد تكلمت لكم ليلة بحرم الله عز وجل ، وهذه الليلة بحرم رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولابد للواعظ من كدية ، وأنا أسألكم حاجة ان ضمنتموها لى أرقت لكم ماء وجهى فى ذكرها . فأعلن الناس كلهم بالاسعاف وشهيقهم قدعلا ، فقال : حاجتى أن تكشفوا رءوسكم ، وتبسطوا أيديكم ، ضارعين لهذا النبى الكريم فى أن يرضى عنى ، ويسترضى الله عز وجل لى .

ثم أخذ فى تعداد ذنوبه ، والاعتراف بها . فأطار الناس عمائمهم [1] ، وبسطوا أيديهم للنبى صلى الله عليه وسلم ، داعين له باكين متضرعين. فما رأيت ليلة أكثر دموعا ، ولا أعظم خشوعا من تلك الليلة . ثم انفض المجلس ، وانفض الأمير ، وانفضت الخاتون من موضعها . وعند وصول صدر الدين المذكور ، أزيل الستر عنها ، وبقيت بين خدمها وكرائمها متلفعة فى ردائها ، فعاينا من أمرها فى الشهرة الملوكية عجبا .

وأمر هذا الرجل صدر الدين عجيب ، فى تعدده وأبهته وملوكيته ، وفخامة آلته وبهاء حالته ، وظاهر مكنته ، ووفور عدته ، وكثرة عبيده وخدمته ، واحتفال حاشيته وغاشيته . فهو من ذلك على حال يقصر عنها الملوك ، وله

مضرب كالتاج العظيم فى الهواء ، مفتح على أبواب على هيئة غريبة الوضع ، بديعة الصنعة والشكل ، تطل على المحلة من بعد ، فتبصره ساميا فى الهواء .

وشأن هذا الرجل العظيم لا يستوعبه الوصف . شاهدنا مجلسه فرأينا رجلا يذوب طلاقة وبشرا ، ويخف للزائر كرامة وبرا ، على عظيم حرمته وفخامة بنيته ، وهو قد أعطى البسطتين علما وجسما . أستجزناه فأجازنا نثرا ونظما ، وهو أعظم من شاهدنا بهذه الجهات .

وفى يوم الجمعة المذكور ، وهو السابع من محرم ، شاهدنا من أمور البدعة أمرا ينادى له الاسلام يالله ياللمسلمين ! وذلك أن الخطيب وصل للخطبة ، فصعد منبر النبى صلى الله عليه وسلم . وهو — على ما يذكر — على مذهب غير مرضى ، ضد الشيخ الامام العجمى الملازم صلاة الفريضة فى المسجد * المكرم ، فذلك على طريقة من الخير والورع لائقة بامام مثل ذلك الموضع الكريم .

فلما أذن المؤذنون قام هذا الخطيب المذكور للخطبة ، وقد تقدمته الرايتان السوداوان ، وقد ركزتا بجانبى المنبر الكريم ، فقام بينهما . فلما فرغ من الخطبة الأولى جلس جلسة خالف فيها جلسة الخطباء المضروب بها المثل فى السرعة ، وابتدر الجمع مردة من الخدمة يخترقون الصفوف ، ويتخطون الرقاب ، كدية على الأعاجم والحاضرين لهذا الخطيب القليل التوفيق .

فمنهم من يطرح الثوب النفيس ، ومنهم من يخرج الشقة الغالية من الحرير فيعطيها — وقد أعدها لذلك — ومنهم من يخلع عمامته فينبذها ، ومنهم من يتجرد عن برده فيلقى به ، ومنهم من لا يتسع حاله لذلك فيسمح [1] بفضلة من الخام ، ومنهم من يدفع القراضة من الذهب ، ومنهم من يمدّ يده بالدينار والدينارين الى غير ذلك . ومن النساء من تطرح خلخالها ، وتخرج خاتمها فتلقيه ، الى ما يطول الوصف له من ذلك .

والخطيب فى أثناء هذه الحال كلها جالس على المنبر ، يلحظ هؤلاء المستجندين المستسمين على الناس بلحظات يكررها [2] الطمع ، ويعيدها الرغبة والاستزادة ، الى أن كاد الوقت ينقضى والصلاة تفوت . وقد ضج من له دين وصحة من الناس ، وأعلن بالصياح ، وهو قاعد ينتظر اشتفاف صبابة الكدية ، وقد أراق عن وجهه ماء الحياء . فاجتمع له من ذلك السحت المؤلف كوم عظيم أمامه ، فلما أرضاه قام وأكمل الخطبة ، وصلى بالناس ، وانصرف أهل التحصيل [3] باكين على الدين ، يائسين من فلاح الدنيا ، متحققين أشراط الآخرة ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

وفى عشى ذلك اليوم المبارك ، كان وداعنا للروضة المباركة والتربة المقدسة . فياله [4] وداعا عجبا ذهلت له النفوس ارتياعا حتى طارت شعاعا * ، واستشعرت به النفوس التياعا حتى ذابت انصداعا . وما ظنك بموقف يناجى [1] بالتوديع فيه سيد الأولين والآخرين ، وخاتم النبيين ، ورسول رب العالمين !

انه لموقف تنفطر له الأفئـدة ، وتطيش به الألباب الثابتة المتئدة . فوا أسفاه ! وا أسفاه ! كل يبوح لديه بأشـواقه ، ولا يجـد بدا من فراقه ، فما يستطيع الى الصبر سـبيلا ، ولا تسمع فى هول ذلك المقام الا رنة وعـويلا ، وكل بلسان الحال ينشد :

محبتى تقتضى مقامى
وحالتى تقتضى الرحيلا

بوأنا الله بزيارة هذا النبى الـكريم منزل الكرامة ، وجعله شفيعا لنا يوم القيامة ، وأحلنا من فضله [٧] فى جواره دار المقامة برحمته ، انه غفور رحيم ، جواد كريم .

وكان مقامنا بالمدينة المكرمة خمسة أيام : أولها يوم الاثنين ، وآخرها يوم الجمعة .

وفى ضـحوة يوم السبت الثـامن لمحرم المذكور ، والحادى والعشرين من شهر أبريل ، كان رحيلنا من المـدينة المـكرمة الى العراق — قرب الله لنا المرام ، وسهل علينا السبيل — واستصحبنا منها الماء لثلاثة أيام . فنزلنـا يوم الاثنين ، ثالث يوم رحيلنا المذكـور ، بوادى العروس ، فتزود الناس منها الماء يحفرون عليه فى الأرض بئرا ، فينبع منها [٣] ماء عذب معين ، يروى الأمة التى لا يحصى لها عدد من هـذه المحلة ، مع جمالها التى تنيف على عددها ، ولله القدرة سبحانه .

وصعدنا من وادى العروس الى أرض نجد ، وخلفنا [٤] تهامة وراءنا ، ومشينا فى بسيطة من الأرض ينحسر الطرف دون أدناها ، ولا يبلـغ مداها ، وتنسمنا نسيم نجد.وهواءها المضروب به المثل ، فانتشعت النفـوس والأجسام ببرد نسيمه وصحة هوائه . ونزلنـا يوم الثلاثاء ، رابع يوم رحيلنا ، على ماء يعرف بماء العسيلة . ثم نزلنا يوم الأربعاء ، خامس يوم رحيلنا ، بموضـع [١] يعـرف بالنقـرة [٢] ، وفيها آبار ومصانع كالصهاريج العظام ، وجـدنا أحدها مملوء بماء المطر ، فعم جميـع المحلة ، ولم ينضب على كثرة الاستماحة [٣] .

وصفة مراحل هذا الأمير بالحاج : أن يسرى من نصف الليالى الى ضحية ، ثم ينزل الى أول الظهر ، ثم يرحل وينزل مع العشاء الآخرة ، ثم يقوم نصف الليل ؛ هذا دأبه .

ونزلنا ليلة الخميس الثالث عشر لمحـرم ، وسـادس يوم رحيلنـا ، عـلى ماء يعـرف بالقارورة [٤] ، وهى مصانع مملوءة بماء المطر ، وهذا الموضع هو وسط أرض نجد . وما أرى أن فى المعمورة أرضا أفسح بسيطا ، ولا أوسع أنفا ، ولا أطيب نسـيما ، ولا أصح هواء ، ولا أمد استواء ، ولا أصفى جوا ، ولا أنقى تربة ، ولا أنعش للنفـوس والأبدان [٥] ، ولا أحسن اعتـدالا فى كـل الأزمان ؛ من أرض نجد ، ووصف محاسنها يطول ، والقول فيها يتسع [٦] .

وفى يوم الخميس المذكـور ، مع ضـحوة النهار ، نزلنا بالحاجر [٧] ، والماء فيه فى مصانع ، وربما حفروا عليه حفرا قريبة العمق يسمونها أحفارا : واحدها حفر . وكنا نتخوف فى هذا الطريق قلة الماء ، لا سيما مع عظم هذا الجمع الأنامى والأنعامى الذين [٨] لو وردوا البحـر لأنزفوه واستقوه ، فأنزل الله من سحب رحمته

ما أعاد الشيطان خذلانا ، وأجرى المسول سيولا ، وصير الوهاد مملوءة عهادا . فكنا نبصر مذانب الماء سائحة على وجه الأرض : فضلا من الله ونعمة ، ولطفا من الله بعباده ورحمة ، والحمد لله على ذلك .

وفى اليوم المذكور أجزنا بالحاجز واديين سيالين ، وأما البرك والقرارات فلا تحصى .

وفى يوم الجمعة بعده نزلنا ضحوة النهار سميرة [1] ، وهى موضع معمور ، وفى بسيطها شبه حصن يطيف به حلق كبير [2] مسكون ، والماء فيه فى آبار كثيرة الا أنها زعاق ومستنقعات وبرك . وتبايع العرب فيها مع الحاج فيما أخرجوه من لحم وسمن ولبن ، ووقع الناس على قرم وعيمة ، فبادروا الابتياع لذلك بشقق الخام التى يستصحبونها لمشاراة الأعراب ، لأنهم لا يبايعونهم الا بها .

وفى ضحوة يوم السبت بعده نزلنا بالجبل المخروق [3] ، وهو جبل فى بيداء من الأرض ، وفى صفحه الأعلى ثقب نافذ تخترقه الرياح . ثم رحلنا من ذلك الموضع ، وبتنا بوادى الكروش على غير ماء ، ثم أسرينا منه ، وأصبحنا على فيد يوم الأحد . وهى حصن كبير مبرج مشرف [4] فى بسيط من الأرض ، يمتد [5] حوله ربض يطيف [6] به سور عتيق البنيان ، وهو معمور بسكان من الأعراب ، ينتعشون مع الحاج [7] فى التجارات والمبايعات وغير ذلك من المرافق .

وهناك يترك الحاج بعض زادهم اعدادا للارمال [8] من الزاد عند انصرافهم ، ولهم بها معارف يتركون أزودتهم عندهم [9] . وهذا نصف الطريق من بغداد الى مكة على المدينة — شرفها الله — أو أقل يسيرا ، ومنها الى الكوفة اثنا عشر يوما فى طريق سهلة طيبة ، والمياه فيها بحمد الله موجودة فى مصانع كثيرة . ودخل أمير الحاج هذا الموضع المذكور على تعبئة وأهبة ، ارهابا للمجتمعين به [1] من الأعراب ، لئلا يداخلهم الطمع فى الحاج . فهم يلحظونهم مستشرفين [2] الى مكانهم ، لكنهم لا يجدون اليهم سبيلا ، والحمد لله .

والماء بهذا الموضع كثير ، فى آبار [3] تمدها عيون تحت الأرض . ووجد الحاج فيها مصنعا قد اجتمع فيه الماء من المطر ، فانتزف للحين ، وامتلأت أيدى الحاج القرمين [4] من أغنام العرب بالمبايعة المذكورة ، فلم يبق مضرب ولا خيمة ولا ظلالة ، الا والى جانبها كبش أو كبشان بحسب القدرة والوجد ، فعم [5] جميع المحلة غنم العرب ، وكان ذلك اليوم عيدا من الأعياد ، وكذلك عمتهم أيضا جمالهم لمن أراد [6] الابتياع منهم من الجمالين وسواهم ، للاستظهار على الطريق . وأما السمن والعسل واللبن ، فلم يبق الا من تحمل [7] أو استعمل منها بقدر حاجته

وأقام الناس يومهم ذلك مريحين بها الى ظهر يوم الاثنين بعده . ثم أسروا نصف الليل ترتيب سيرهم المذكور قبل ، ونزلوا ضحوة يوم الثلاثاء الثامن عشر لمحرم ، وهو أول يوم من مايه ، بموضع يعرف بالأجفر ، وهو مشتهر

عندهم بموضع جميل وبثينة العذريين . ثم أقلعنا ظهر يوم الثلاثاء المذكور على العادة، ونزلنا بالبيداء مع العشاء الآخرة .

ثم أسرينا منها ، ونزلنا ضحوة يوم الأربعاء بزرود : وهي وهدة في بسيط من الأرض فيها رمال منهالة ، وبها حلق كبير [8] داخله ذويرات صغار ، هو شبيه الحصن ، يعرف بهذه الجهات بالقصر ، والماء بهذا الموضع في آبار غير عذبة . فنزلنا ضحوة يوم الخميس ، الموفي عشرين لمحرم والثالث لمايه ، بموضع يعرف بالثعلبية [9] ، ولها مبني شبه الحصن خرب لم يبق منه الا الحلق [10] ، وبإزائه مصنع عظيم كبير الدور ، من أوسع ما يسكون من الصهاريج وأعلاها ، والمهبط اليه على أدراج كثيرة من ثلاث جهات ، وكان فيه من ماء المطر ما عم جميع المحلة .

ووصل الى هذا الموضع جمع كثير من العرب رجالا ونساء ، واتخذوا به سوقا عظيمة حفيلة للجمال والكباش والسمن واللبن وعلف الابل ، فكان يوم سوق نافقة [2] . وبقي من هذا الموضع الى الكوفة ، من المناهل التي تعم جميع المحلة ، ثلاثة . أحدها زبالة [3] ، والثاني واقصة [4] ، والثالث منهل من ماء الفرات على مقربة من الكوفة [5] وبين هذه المناهل مياه موجودة ، لكنها لا تعم ، وهذه الثلاثة المذكورة هي التي تعم الناس والابل ، وهي التي تردها رفها .

وفي هذا المنهل الذي للثعلبية ، شاهدنا من غلبة الناس على الماء أمرا هائلا لا يكاد يشاهد مثله في تغلب المدن والحصون بالقتال [6] . وحسبك أن مات في ذلك الموضع ، ضغطا بشدة الزحام وغطا [7] تحت الماء بالأقدام ، سبعة رجال : بادروا لمورد الماء ، فحصلوا على مورد الفناء ، رحمهم الله وغفر لهم .

وفي ضحوة يوم الجمعة بعده ، نزلنا بموضع يعرف ببركة المرجوم ، وهي مصنع ، وقد بني له فيما يعلوه من الأرض مصب يؤدي الماء اليه على بعد ، وأحكم ذلك احكاما يدل على قدرة الاتساع وقوة الإستطاعة [8] . ولهذا المرجوم المذكور مشهد على قارعة الطريق ، وقد علا كأنه هضبة شماء ، وكل مجتاز عليه لابد أن يلقي عليه حجرا [9] . ويقال ان أحد الملوك رجمه لأمر استوجب به ذلك ، والله أعلم .

وبهذا الموضع بيوت كثيرة للعرب ، وبادروا للحين بما لديهم من مرافق الأدم يبيعونها من الحاج ، وكان هذا المصنع مملوء من ماء المطر ، فغمر الناس وعمهم ، والحمد لله .

وهذه المصانع والبرك والآبار والمنازل التي من بغداد الى مكة ، هي آثار زبيدة ابنة جعفر ابن أبي جعفر المنصور ، زوج هارون الرشيد وابنة عمه . انتدبت لذلك مدة حياتها ، فأبقت في هذا الطريق مرافق ومنافع تعم وفد الله تعالى كل سنة من لدن وفاتها الى الآن ، ولولا آثارها الكريمة في ذلك لما سلكت هذا الطريق ، والله كفيل بمجازاتها والرضى عنها .

وفي ضحوة يوم السبت بعده نزلنا بموضع يعرف بالشقوق [1] ، وفيه مصنعان ألفيناهما مملوءين ماء عذبا صافيا ، فأراق الناس

مياههم ، وجددوا مياها طيبة ، واستبشروا بكثرة الماء ، وجددوا شكر الله على ذلك . وأحد هذين المصنعين صهريج عظيم الدائرة كبيرها ، لا يكاد يقطعه السابح الا عن جَهْد ومشقة ، وكان الماء قد علا فيه أزيد من قامتين ، فتنعم الناس من مائه سباحة واغتسالا وتنظيف أثواب ، وكان يومهم فيه من أيام راحة السفر .

ومن لطائف صنع الله تعالى بوفده ووزار حرمه ، أن كانت هذه المصانع كلها — عند صعود الحاج من بغداد الى مكة — دون ماء ، فأرسل الله من سُحب رحمته ما أترعها ماء معدا لصدر الحاج ، فضلا من الله ولطفا بوفده [٢] المنقطعين اليه .

ورحنا من ذلك الموضع المذكور ، وبتنا بموضع يعرف بالتنانير ، وكان فيه [٣] أيضا مصنع مملوء ماء . وأسرينا منه ليلة يوم الأحد الثالث والعشرين لمحرم ، واجتزنا سحرا بزبالة [٤] ، وهى قرية معمورة ، وفيها قصر مشيد من قصور الأعراب ، ومصنعان للماء وآبار ، وهى من مناهل الطريق الشهيرة .

ونزلنا ، عندما ارتفع النهار من اليوم المذكور ، بالهيثمين [٥] ، وفيها مصنعان للماء . ولا نكاد نمر [٦] ، بحول الله [٧] ، يوما بموضع الا والماء يوجد فيه ، والشكر لله على ذلك . وبتنا ليلة الاثنين ، الرابع والعشرين لمحرم المذكور ، على مصنع مملوء ماء ، فسقى الناس بالليل واستقوا . وهذا الموضع هو دون العقبة المعروفة بعقبة الشيطان .

ومع الصباح من يوم الاثنين المذكور صعدنا العقبة ، وليست بالطويلة الكؤود ، ولكن ليس بالطريق وعر غيرها [١] ، فهى شهيرة بهذا السبب . ونزلنا عند ارتفاع النهار على مصنع دون ماء ، وأجزنا مصانع كثيرة ، وما منها مصنع الا والى جانبه قصر مبنى من قصور الأعراب ، والطريق كلها مصانع ، ورضى الله عن التى اعتنت بسبيل وفد الله هذا الاعتناء .

ثم نزلنا ضحوة يوم الثلاثاء بعده بواقصة ، وهى وهدة من الأرض منفسحة ، فيها مصانع للماء مملوءة وقصر كبير ، وبازائه أثر بناء ، وهى معمورة بالأعراب ، وهى آخر مناهل الطريق ، وليس بعدها الى الكوفة منهل مشهور الا مشارع ماء الفرات ، ومنها الى الكوفة ثلاثة أيام ، وبها يتلقى الحاج كثير من أهل الكوفة ، وهم يستجلبون اليهم الدقيق والخبز والتمر والأدم والفواكه الحاضرة فى ذلك الوقت ، ويهنىء الناس بعضهم بعضا بالسلامة . والحمد لله عز وجل على ما منّ به من التيسير والتسهيل ، حمدا يستوجب المزيد ، ويستصحب من كريم صنعه المعهود .

وبتنا ليلة الأربعاء ، السادس والعشرين ، بموضع يعرف بلورة [٢] ، وفيها مصنع كبير وجده الناس مملوءا ، فجددوا الاستسقاء ، ورفهوا الابل . ثم أسرينا منها ، وأجزنا سحر يوم الأربعاء المذكور ، بموضع فيه آثار بناء يعرف بالقرعاء [٣] ، وفيه أيضا مصنع ماء ، وله ستة مخازن ، وهى صهاريج صغار تؤدى الماء الى المصانع ، استقى الناس فيها وسقوا ،

وكثرت المصانع حتى لا تكاد الكتب تحصرها ولا تضبطها ، والحمد لله على منته وسابغ نعمته .

وبتنا ليلة الخميس بعده على مصنع عظيم مملوء ماء . ثم نزلنا ، ضحوة اليوم المذكور ، بمنارة تعرف بمنارة القرون [1] ، وهى منارة فى بيداء من الأرض لا بناء حولها ، قد قامت فى الأرض كأنها عمود مخروط من الآجر ، قد تداخل فيها من الخواتيم الآجرية ، مثمنة ومربعة ، أشكال بديعة . ومن غريب أمرها أنها مجللة كلها قرون غزلان مثبتة فيها ، فتلوح كظهر الشيهم ، وللناس فيها خبر يمنع ضعف سنده من اثباته . وعلى مقربة من هذه المنارة قصر ذو بروج [2] مشيدة ، وبازائه مصنع عظيم وجد مملوءا ماء ، والحمد لله على ما منّ به .

واجتزنا [3] عشى يوم الخميس المذكور على العذيب ، وهو واد خصيب ، وعليه بناء ، وحوله فلاة خصيبة فيها مسرح للعيون وفرجة ، وأعلمنا أن بمقربة منه بارقا . ووصلنا منه الى الرحبة ، وهى بمقربة منه ، وفيها بناء وعمارة ، ويجرى الماء فيها من عين نابعة فى أعلى القرية المذكورة ، وبتنا أمامها بمقدار فرسخ .

ثم أسرينا ليلة الجمعة الثامن والعشرين لمحرم المذكور نصف الليل ، واجتزنا على القادسية ، وهى قرية كبيرة فيها حدائق من النخيل ، ومشارع من ماء الفرات . وأصبحنا بالنجف ، وهو بظهر الكوفة كأنه حد بينها وبين الصحراء ، وهو صلب من الأرض منفسح متسع للعين ، فيه مزاد [4] استحسان وانشراح .

ووصلنا الكوفة مع طلوع الشمس من يوم الجمعة المذكور ، والحمد لله على ما أنعم به من السلامة .

ذكر مدينة الكوفة ، حرسها الله تعالى

هى مدينة كبيرة عتيقة البناء ، قد استولى الخراب على أكثرها ، فالغامر [1] منها أكثر من العامر . ومن أسباب خرابها قبيلة خفاجة المجاورة لها ، فهى لا تزال تضرّ بها ، وكفاك بتعاقب الأيام والليالى محييا [2] ومفنيا . وبناء هذه المدينة بالآجر خاصة ، ولا سور لها .

والجامع العتيق آخرها مما يلى شرقى [3] البلد ، ولا عمارة تتصل به من جهة الشرق ، وهو جامع كبير : فى الجانب القبلى منه خمسة أبلطة ، وفى سائر الجوانب بلاطان [4] . وهذه البلاطات على أعمدة من السوارى الموضوعة [5] من صم [6] الحجارة ، المنحوتة قطعة على قطعة ، مفرغة بالرصاص ، ولا قسىّ عليها ، على الصفة التى [7] ذكرناها فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى فى نهاية الطول [8] ، متصلة بسقف المسجد ، فتحار العيون فى تفاوت ارتفاعها ، فما أرى فى الأرض مسجدا [9] أطول أعمدة منه ، ولا أعلى سقفا .

ولهذا [10] الجامع المكرم آثار كريمة : فمنها بيت بازاء المحراب عن يمين المستقبل [11] القبلة ، يقال انه كان مصلى ابراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم ، وعليه ستر أسود صونا له ، ومنه يخرج [12] الخطيب لابسا ثياب السواد للخطبة ، فالناس يزدحمون على هذا الموضع المبارك للصلاة فيه .

وعلى مقربة منه — مما يلي الجانب الأيمن من القبلة — محراب محلق [13] عليه بأعواد الساج ، مرتفع عن صحن البلاط كأنه مسجد صغير ، وهو محراب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وفي ذلك الموضع ، ضربه الشقي اللعين عبد الرحمن بن ملجم بالسيف ، فالناس يصلون فيه باكين داعين .

وفي الزاوية من آخر هذا البلاط القبلي ، المتصل بآخر البلاط الغربي ، شبيه [1] مسجد صغير ، محلق [2] عليه أيضا بأعواد الساج ، هو موضع مفار التنور الذي كان آية لنوح عليه السلام [3] . وفي ظهره خارج المسجد بيته الذي كان فيه ، وفي ظهره بيت آخر يقال انه كان متعبد ادريس صلى الله عليه وسلم ، ويتصل بهما فضاء متصل بالجدار القبلي من المسجد يقال انه كان منشأ السفينة ، ومع آخر هذا الفضاء دار علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، والبيت الذي غسل فيه ، (و)يتصل به بيت يقال انه كان بيت ابنة نوح صلى الله عليه وسلم . وهذه الآثار الكريمة تلقيناها من ألسنة أشياخ من أهل البلد ، فأثبتناه [4] حسبما نقلوه الينا ، والله أعلم بصحة ذلك كله .

(وفي) الجهة الشرقية من الجامع بيت صغير يصعد اليه ، فيه قبر مسلم بن عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه . وفي جوفي [5] الجامع ، على بعد منه يسير [6] ، سقاية كبيرة من ماء الفرات ، فيها ثلاثة أحواض كبار . (وفي)غربي المدينة ، على مقدار فرسخ منها ، المشهد الشهير الشان ، المنسوب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وحيث بركت ناقته وهو محمول عليها ، مسجى ميتا على مايذكر ، ويقال ان [7] قبره فيه ، والله أعلم بصحة ذلك . وفي هذا المشهد بناء حفيل على ما ذكر لنا ، لأنا لم نشاهده بسبب أن وقت المقام بالكوفة ضاق عن ذلك ، لأنا لم نبت فيها [8] سوى ليلة يوم السبت .

وفي غدائه رحلنا ، ونزلنا قريب الظهر على نهر منسرب [9] من الفرات . والفرات من الكوفة على مقدار نصف فرسخ مما يلي الجانب الشرقي ، والجانب الشرقي كله حدائق نخيل [1] ملتفة ، يتصل سوادها ويمتد امتداد البصر . ورحلنا من ذلك الموضع ، وبتنا ليلة الأحد منسلخ محرم بمقربة من الحلة ، ثم جئناها يوم الأحد المذكور

ذكر مدينة الحلة ، حرسها الله تعالى

هي مدينة كبيرة ، عتيقة الوضع مستطيلة ، لم يبق من سورها الا حلق [2] من جدار ترابي مستدير بها ، وهي على شط الفرات : يتصل بها من جانبها الشرقي ويمتد بطولها . (و) لهذه المدينة أسواق حفيلة جامعة للمرافق المدنية والصناعات الضرورية ، وهي قوية العمارة ، كثيرة الخلق ، متصلة حدائق النخيل داخلا وخارجا ، فديارها بين حدائق النخيل .

وألفينا بها جسرا عظيما معقودا على مراكب كبار ، متصلة من الشط الى الشط ، تحف بها من جانبها سلاسل من حديد ، كالأذرع المفتولة عظما وضخامة ، ترتبط الى خشب مثبتة في كلا [3] الشطين ، تدل على عظم

الاستطاعة[4] والقدرة . أمر الخليفة بعقده على الفرات ، اهتماما بالحاج واعتناء بسبيله ، وكانوا قبل ذلك يعبرون فى المراكب ، فوجدوا هذا الجسر قد عقده الخليفة فى مغيبهم ، ولم يكن عند شخوصهم الى مكة شرفها الله .

وعبرنا الجسر ظهر يوم الأحد المذكور ، ونزلنا بشط الفرات على مقدار فرسخ من البلد . وهذا النهر ، كاسمه فرات ، هو من أعذب المياه وأخفها ، وهو نهر كبير زخار تصعد فيه السفن وتنحدر .

والطريق من الحلة الى بغداد أحسن طريق وأجملها ، فى بسائط من الأرض وعمائر تتصل بها القرى يمينا وشمالا ، ويشق[5] هذه البسائط أغصان من ماء ★ الفرات تتسرب بها وتسقيها فمحرثها[1] لأحد لاتساعه وانفساحه ، فللعين فى هذه الطريق مسرح انشراح ، وللنفس مزاد[2] انبساط وانفساح ، والأمن فيها[3] متصل بحمد الله سبحانه .

شهر صفر سنة ثمانين
عرفنا الله يمنه وبركته

هلاله على الكمال من ليلة الاثنين ، بموافقة الرابع عشر من مايه ، استهل هلاله ونحن على شط الفرات بظاهر مدينة الحلة . وفى ضحوة يوم الاثنين المذكور رحلنا ، وأجزنا جسرا على نهر يسمى النيل ، وهو فرع متشعب من الفرات ، وكان عليه ازدحام غرق كثير من الناس والدواب فى الماء ، فتنحينا مريحين الى أن انفرج ذلك المزدحم ، وعبرنا على سلامه وعافية ، والحمد لله .

ومن مدينة الحلة يتسلسل الحاج أرسالا وأفواجا أفواجا : فمنهم المتقدم والمتوسط والمتأخر ، لا يعرج المستعجل على المتعذر ، ولا المتقدم على المتأخر ، فحيثما شاءوا من طريقهم نزلوا وأراحوا واستراحوا ، وسكنت نفوسهم من روعة نقر الكوس الذى كانت الأفئدة ترجف له ، بدارا للرحيل واستعجالا للقيام ، فربما كان النائم منهم يهذى بنقر الكوس ، فيقوم عجلا وجلا ، ثم يتحقق أنه[4] من أضغاث أحلامه فيعود الى منامه .

ومن جملة الدواعى لافتراقهم كثرة القناطير[5] المعترضة فى طريقهم الى بغداد ، فلا تكاد تمشى ميلا الا وتجد قنطرة على نهر متفرع من الفرات . فتلك الطريق أكثر الطرق سواقى وقناطير ، وعلى أكثرها خيام فيها[6] رجال محترسون للطريق — اعتناء من الخليفة بسبيل الحاج — دون اعتراض منهم لاستنفاع بكدية أو سواها . فلو زاحم ذلك ★ البشر تلك القناطير[1] دفعة لما فرغوا من عبورها ، ولتراكموا وقوعا بعض[2] على بعض .

والأمير طاشتكين[3] ، المتقدم الذكر ، يقيم بالحلة ثلاثة أيام الى أن يتقدم جميع الحاج ، ثم يتوجه الى حضرة خليفته ، وهذه الحلة المذكورة طاعة بيده للخليفة . وسيرة هذا الأمير فى الرفق بالحاج ، والاحتياط عليهم والاحتراس لمقدمتهم وساقتهم ، وضم نشر ميمنتهم وميسرتهم — سيرة محمودة ،

وطريقته [٤] في الحزم وحسن النظر طريقة سديدة . وهو من التواضع ولين الجانب وقرب المكان ، على وتيرة [٥] سعيدة ، نفعه الله ونفع المسلمين به .

وفي عصر يوم الاثنين المذكور نزلنا بقرية تعرف بالقنطرة ، كثيرة الخصب ، كبيرة الساحة ، متدفقة فيها [٦] جداول الماء ، وارفة الظلال بشجرات الفواكه ، من أحسن القرى وأجملها ، وبها قنطرة على فرع من فروع الفرات كبيرة محدودبة ، يصعد اليها وينحدر [٧] عنها ، فتعرف القرية بها ، وتعرف أيضا بحصن بشير . وألفينا حصاد الشعير بهذه الجهات في هذا الوقت ، الذي هو لصف مايه .

ورحلنا من القرية المذكورة سحر يوم الثلاثاء الثاني لصفر ، فنزلنا قائلين ضحوته بقرية تعرف بالفراش [٨] ، كثيرة العمارة يشقها الماء ، وحولها بسيط أخضر جميل المنظر . وقرى هذه الطريق ، من الحلة الى بغداد ، على هذه الصفة [٩] من الحسن والاتساع . وفي هذه القرية المذكورة خان كبير يحدق به جدار عال له شرفات صغار .

ثم رحلنا منها ، ونزلنا عشي النهار بقرية تعرف بزريران [١٠] . وهذه القرية من أحسن قرى الأرض ، وأجملها منظرا ، وأفسحها ساحة ، وأوسعها اختطاطا » ، وأكثرها بساتين ورياحين وحدائق نخيل [١] ، وكان بها سوق تقصر عنه أسواق المدن . وحسبك من شرف موضوعها أن دجلة تسقي شرقيها ، والفرات يسقي غربيها ، وهي كالعروس بينهما ، والبسائط والقرى والمزارع متصلة بين هذين النهرين الشريفين المباركين .

ومن شرف هذه القرية أيضا أن بازائها ، لجهة الشرق منها ، ايوان كسرى ، وأمامها بيسير مداينه . وهذا الايوان بناء عال في الهواء شديد البياض ، لم يبق من قصوره الا البعض ، فعايناها على مقدار الميل سامية مشرفة مشرقة [٢] . وأما المداين فخراب ، اجتزنا عليها سحر يوم الأربعاء الثالث لصفر ، فعاينا من طولها واتساعها مرأى عجيبا .

ومن فضائل هذه القرية أيضا أن بالشرق منها ، بمقدار نصف فرسخ ، مشهد سلمان الفارسي رضي الله عنه ، فما اختصت تربتها بهذا الدفين المبارك رضي الله عنه الا لفضل تربتها . والقرية على شط دجلة ، وهي تعترض بينها وبين المشهد الكريم المذكور .

وكنا سمعنا أن هواء بغداد ينبت السرور في القلب ، ويبعث النفس دائما على الانبساط والانس ، فلا تكاد تجد فيها الا جذلان طربا ، وان كان [٣] نازح الدار مغتربا . حتى حللنا بهذا الموضع المذكور — وهو على مرحلة منها — فلما نفحتنا نوافح هوائها ، ونقعنا الغلة ببرد مائها ، أحسسنا من نفوسنا — على حال وحشة الاغتراب — دواعي [٤] من الاطراب ، واستشعرنا بواعث فرح كأنه فرحة الغيّاب بالاياب ، وهبت بنا محركات من الاطراب ، أذكرتنا معاهد الأحباب في ريعان الشباب ، هذا للغريب النازح الوطن ، فكيف للوافد فيها على أهل وسكن ؟

سقى الله باب الطاق صوب غمامة
ورد الى الاوطان كـل غـريب

وفي سحر يوم الأربعاء المذكور ، رحلنا من القرية المذكورة ، واجتزنا على مداين كسرى حسبما ذكرناه ، وانتهينا الى صرصر ، وهي أخت زريران [١] المذكورة حسنا أو قريب منها ، ويمر بجانبهـا القبلي نهر كبير متفـرع من الفرات ، عليـه جسر معقود عـلى مراكب ، تحفه بها من الشط الى الشط سلاسل حديد عظام ، عـلى الصفة التي ذكـرناها في جسر الحلة ، فعبرناه [٢] وأجزنا القرية ، ونزلنا قائلين وبيننا وبين بغداد نحو ثلاثة فراسخ . وبهذه القرية سـوق حفيلة ، ومسـجد جامع كبير جـديد ، وهي من القرى التي تملأ النفوس بهجة وحسنا .

وهذان النهران الشريفان دجلة والفرات قد أغنت شهرتهما عن وصفهما ، وملتقاهما ما بين واسط والبصرة ، ومنها انصبابهما الى البحر ، ومجراهما من الشمال الى الجنوب ، وحسبهما ما خصهما الله به من البركة همـا وأخاهما [٣] النيل مما هو مذكور مشهور .

ورحلنا من ذلك الموضع قبيل الظهر من يوم الأربعاء المذكور ، وجئنا بغداد قبيل العصر ، والمدخـل اليها على بسـاتين وبسائط يقصر الوصف عنها .

ذكر مدينة السلام بغداد
حرسها الله تعالى

هـذه المدينة العتيقة ، وان لم تزل حضرة الخلافة العباسـية ، ومثابة الدعـوة الامامية القرشية الهاشمية ، قـد ذهب أكثر رسمها ، ولم يبق منها الا شهير اسمها . وهي بالاضافة الى ما كانت عليه قبل انحاء [٤] الحوادث عليها ، والتفات أعين النوائب اليها ، كالطلل الدارس والأثر الطامس ، أو تمثال الخيال الشاخص . فلا حسن فيها يستوقف البصر ، ويستدعي من المستوفز الغفلة والنظـر [٥] ، الا دجلتها التي هي بين شرقيها وغربيها منها كالمرآة المجلوة بين صفحتين ، أو العقد المنتظم بين لبتين ، فهي تردها ولا تظمأ ، وتتطلع منها في مرآة صقيلة لا تصدأ ، والحسن الحريمي بين هوائها ومائها ينشأ ، هي [١] من ذلك على شـهرة في البـلاد معروفة موصـوفة ، ففتن الهوى — الا أن يعصم الله منها [٢] — مخوفة .

وأما أهلها فلا تكاد تلقى منهم الا من يتصنع بالتواضع رياء ، ويذهب بنفسه عجبا وكبرياء . يزدرون الغرباء ، ويظهرون لمن دونهم الأنفة والاباء ، ويستصغرون عمن سواهم الأحاديث والأنباء . قـد تصور كل منهم في معتقـده وخلده أن الوجود كله يصغر بالاضافة لبلده ، فهم لا يستكرمون في معمور البسيطة مثوى غير مثواهم ، كأنهم لا يعتقـدون أن لله بلادا أو عبادا سـواهم . يسـحبون أذيالهم أشرا وبطرا ، ولا يغيرون [٣] في ذات الله منـكرا . يظنون أن أسنى الفخـار في سحب الازار ، ولا يعلمون أن فضله — بمقتضى الحـديث المأثور — في النار .

يتبايعون بينهم بالذهب قرضـا ، وما منهم من يحسن لله قرضا [٤] . فـلا نفقة فيها الا من دينـار تقرضه ، وعـلى يدي مخسر للميزان

تعرضه . لا تكاد تظفر من خواص أهلها بالورع العفيف ، ولا تقع من أهل موازينها ومكاييلها الا على من [6] ثبت له الويل فى سورة التطفيف [7] . لا يبالون فى ذلك بعيب ، كأنهم من بقايا مدين قوم النبى شعيب . فالغريب فيهم معدوم الارفاق ، متضاعف الانفاق ، لا يجد من أهلها الا من يعامله بنفاق ، أو يهش اليه هشاشة انتفاع واسترقاق ، كأنهم من التزام هذه الخلة القبيحة على شرط اصطلاح بينهم واتفاق . فسوء معاشرة أبنائها ، يغلب على طبع هوائها ومائها ويعلل حسن المسموع من أحاديثها وأنبائها .

أستغفر * الله ! الا فقهاءهم المحدثين ، وعاظهم المذكرين ، لا جرم أن لهم فى طريقة عظ والتذكير ، ومداومة التنبيه والتبصير ، والمثابرة [1] على الانذار المخوف والتحذير ، مقامات تستنزل لهم من رحمة الله تعالى ما يحط كثيرا من أوزارهم ، ويسحب ذيل العفو على سوء آثارهم ، ويمنع القارعة الصماء أن تحل بديارهم . لكنهم معهم يضربون فى حديد بارد ، ويرومون تفجير الجلامد ، فلا يكاد يخلو يوم من أيام جمعاتهم من واعظ يتكلم فيه ، فالموفق منهم [2] لا يزال فى مجلس ذكر أيامه كلها ، لهم فى ذلك طريقة مباركة ملتزمة .

فأول من شاهدنا مجلسه منهم الشيخ الامام رضى الدين القزوينى [3] ، رئيس الشافعية ، وفقيه المدرسة النظامية ، والمشار اليه بالتقديم فى العلوم الأصولية . حضرنا مجلسه بالمدرسة المذكورة ، اثر صلاة العصر من يوم الجمعة الخامس لصفر المذكور ، فصعد المنبر ، وأخذ القراء أمامه فى القراءة على كراسى موضوعة ، فتوقوا وشوقوا ، وأتوا بتلاحين معجبة ، ونغمات محرجة مطربة .

ثم اندفع الشيخ الامام المذكور ، فخطب خطبة سكون ووقار ، وتصرف فى أفانين من العلوم : من تفسير كتاب الله عز وجل ، وايراد حديث رسوله صلى الله عليه وسلم ، والتكلم على معانيه . ثم رشقته شآبيب المسائل من كل جانب ، فأجاب وما قصر ، وتقدم وما تأخر ، ودفعت اليه عدة رقاع فيها [4] ، فجمعها جملة فى يده ، وجعل يجاوب على كل واحدة منها ، وينبذ بها [5] الى أن فرغ منها ، وحان المساء فنزل ، وافترق الجمع .

فكان مجلسه مجلس علم ، ووعظ ، وقورا [6] هينا لينا ، ظهرت فيه البركة والسكينة ، ولم تقصر عن ارسال عبرتها فيه النفس المستكينة ، ولا سيما آخر مجلسه ، فانه سرت حميا وعظه * الى النفوس حتى أطارتها خشوعا ، وفجرتها دموعا ، وبادر التائبون اليه سقوطا على يده ووقوعا ، فكم ناصية جز ، وكم مفصل من مفاصل التائبين طبق بالموعظة وحز .

فبمثل [1] مقام هذا الشيخ المبارك ترحم العصاة ، وتتغمد الجناة ، وتستدام العصمة والنجاة . والله تعالى يجازى كل ذى مقام عن مقامه ، ويتغمد ببركة العلماء الأولياء عباده العاصين من سخطه وانتقامه ، برحمته وكرمه ،

اله المنعم الكريم لا رب سواه ، ولا معبود الا اياه .

وشهدنا له مجلسا ثانيا اثر صلاة العصر من يوم الجمعة الثانى عشر من الشهر المذكور ، وحضر ذلك اليوم مجلسه سيد العلماء الخراسانية ، ورئيس الأيمة الشافعية ، ودخل المدرسة النظامية بهز عظيم وتطريف آماق [٣] تشوقت له النفوس . فأخذ الامام المتقدم الذكر فى وعظه ، مسرورا بحضوره ومتجملا به ، فأتى بأفانين من العلوم على حسب مجلسه المتقدم الذكر . ورئيس العلماء المذكور هو صدر الدين الخجندى ، المتقدم الذكر فى هذا التقييد ، المشتهر المآثر والمكارم ، المقدم بين الأكابر والأعاظم .

ثم شاهدنا صبيحة يوم السبت بعده مجلس الشيخ الفقيه ، الامام الأوحد جمال الدين أبى الفضائل بن على الجوزى ، بازاء داره على الشط بالجانب الشرقى ، وفى آخره على اتصال من قصور الخليفة ، وبمقربة من باب البصلية آخر أبواب الجانب الشرقى — وهو يجلس به كل يوم سبت — فشاهدنا مجلس رجل ليس من عمرو ولا زيد ، وفى جوف الفرا كل الصيد [٣] : آية الزمان ، وقرة عين الايمان ، رئيس الحنبلية ، والمخصوص فى العلوم بالرتب العلية . امام الجماعة ، وفارس حلبة هذه الصناعة ، والمشهود له بالسبق الكريم فى البلاغة والبراعة . مالك أزمة الكلام فى النظم والنثر ، والغائص فى بحر فكره على « نفائس الدر . فأما نظمه فرضى [٩] الطباع ، مهيارى الانطباع . وأما نثره فيصدع بسحر البيان ، ويعطل المثل بقس وسحبان .

ومن أبهر آياته ، وأكبر معجزاته ، أنه يصعد المنبر ، ويبتدىء القراء بالقراءة — وعددهم نيف [٢] على العشرين قارئا — فينتزع الاثنان منهم أو الثلاثة آية من القرآن يتلونها ، على نسق بتطريب وتشويق ، فاذا فرغوا تلت طائفة أخرى على عددهم آية ثانية ، ولايزالون يتناوبون آيات من سور مختلفات الى أن يتكاملوا قراءة ، وقد أتوا بآيات مشتبهات ، لا يكاد المتقد الخاطر يحصلها عددا أو يسميها نسقا .

فاذا فرغوا أخذ هذا الامام الغريب الشأن فى ايراد خطبته عجلا مبتدرا ، وأفرغ فى أصداف الأسماع من ألفاظه دررا ، وانتظم أوائل الآيات المقروءات فى أثناء خطبته ، فِقَرا [٣] ، وأتى بها على نسق القراءة لها ، لا مقدما ولا مؤخرا ، ثم أكمل الخطبة على قافية آخر آية منها . فلو أن أبدع من فى مجلسه تكلف تسمية ما قرأ القراء به آية آية على الترتيب ، لعجز عن ذلك ، فكيف بمن ينتظمها مرتجلا ، ويورد الخطبة الغراء [٤] بها عجلا « أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ، ان هذا لهو الفضل المبين » [٥] . فحدث ولا حرج [٦] عن البحر ، وهيهات ليس الخبر عنه كالخبر .

ثم انه أتى بعد أن فرغ من خطبته برقائق من الوعظ ، وآيات بينات من الذكر ، طارت لها القلوب اشتياقا ، وذابت بها الأنفس احتراقا . الى أن علا الضجيج ، وتردد بشهقاته النشيج ، وأعلن التائبون بالصياح ،

وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح ، كل يلقى ناصيته بيده فيجزها ، ويمسح على رأسه داعيا له ، ومنهم من يغشى عليه ، فيرفع فى الأذرع اليه . فشاهدنا هولا يملأ النفوس انابة وندامة ، ويذكرها هول يوم القيامة .

فلو لم نركب ثبج البحر ، ونعتسف مفازات القفر ، الا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل ، لكانت الصفقة الرابحة ، والوجهة المفلحة الناجحة . والحمد لله على أن منّ بلقاء من يشهد الجمادات بفضله ، ويضيق الوجود عن مثله . وفى أثناء مجلسه ذلك يبتدرون المسائل ، وتطير اليه الرقاع ، فيجاوب أسرع من طرفة عين ، وربما كان أكثر مجلسه الرائق من نتائج تلك المسائل ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء لا اله سواه .

ثم شاهدنا مجلسا ثانيا له ، بكرة يوم الخميس الحادى عشر لصفر ، بباب بدر ، فى ساحة قصور الخليفة ، ومناظره مشرفة عليه . وهذا الموضع المذكور ، هو من حرم الخليفة ، وخص بالوصول اليه والتكلم فيه ، ليسمعه من تلك المناظر الخليفة ووالدته ، ومن حضر من الحرم . ويفتح الباب للعامة ، فيدخلون الى ذلك الموضع ، وقد بسط بالحصر . وجلوسه بهذا الموضع كل (يوم) خميس .

فبكرنا لمشاهدته بهذا المجلس المذكور ، وقعدنا الى أن وصل هذا الحبر المتكلم . فصعد المنبر ، وأرخى طيلسانه عن رأسه تواضعا لحرمة المكان ، وقد تسطر القراء أمامه على كراسى موضوعة ، فابتدروا [٢] القراءة على الترتيب ، وشوقوا ما شاءوا . وأطربوا ما أرادوا . وبادرت العيون بارسال الدموع .

فلما فرغوا من القراءة — وقد أحصينا لهم تسع آيات من سور مختلفات — صدع بخطبته الزهراء الغراء ، وأتى بأوائل الآيات فى أثنائها منتظمات ، ومشى الخطبة على فقرة آخر آية منها فى الترتيب ، الى أن أكملها ، وكانت الآية « الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ان الله لذو فضل على الناس » [١] . فتمادى على هذا السنن ، وحسن أى تحسين ، فكان يومه فى ذلك أعجب من أمسه .

ثم أخذ فى الثناء على الخليفة والدعاء له ولوالدته ، وكنى عنها بالستر الأشرف ، والجناب الأرأف ، ثم سلك سبيله فى الوعظ . كل ذلك بديهة لا روية ، ويصل كلامه فى ذلك بالآيات المقروءات على النسق مرة أخرى . فأرسلت وابلها العيون ، وأبدت النفوس سر شوقها المكنون ، وتطارح الناس عليه بذنوبهم معترفين وبالتوبة معلنين ، وطاشت الألباب والعقول ، وكثر الوله والذهول ، وصارت النفوس لا تملك تحصيلا ، ولا تميز معقولا ، ولا تجد للصبر سبيلا .

ثم فى أثناء مجلسه ينشد بأشعار من النسيب ، مبرحة التشويق ، بديعة الترقيق ، تشعل القلوب وجدا ، ويعود موضوعها

النسيبي زهدا . وكان آخر ما أنشده من ذلك — وقد أخذ المجلس مأخذه من الاحترام ، وأصابت المقاتل سهام — ذلك الكلام :

أين فؤادي أذابه الوجد
وأين قلبي فما صحا بعد
يا سعد زدني جوى بذكرهم
بالله قل لي فديت يا سعد

ولم يزل يرددها والانفعال قد أثر فيه ، والمدامع تكاد تمنع خروج الكلام من فيه . الى أن خاف الأفحام ، فابتدر القيام ، ونزل عن المنبر دهشا عجلا ، وقد أطار القلوب وجلا ، وترك الناس على أحر من الجمر ، يشيعونه بالمدامع الحمر : فمن معلن بالانتحاب ، ومن متعفر في التراب . فياله من مشهد ما أهول مرآه ، وما أسعد من رآه ! نفعنا الله ببركته ، وجعلنا ممن فاز به بنصيب من رحمته ، بمنه وفضله .

وفي أول مجلسه أنشد قصيدا نير القبس ، عراقي النفس ، في الخليفة ، أوله :

في شغل من الغرام شاغل
من هاجه البرق بسفح عاقل

يقول فيه عند ذكر الخليفة :

يا كلمات الله كوني عوذة
من العيون للامام الكامل

ففرغ من انشاده وقد هز المجلس طربا ، ثم أخذ في شانه ، وتمادى في ايراد سحر بيانه . وما كنا نحسب أن متكلما في الدنيا يعطى من ملكة النفوس والتلاعب بها ، ما أعطى هذا الرجل . فسبحان من يخص بالكمال من يشاء من عباده ، لا اله غيره .

وشاهدنا بعد ذلك مجالس لسواه من وعاظ بغداد ، ممن نستغرب شأنه بالاضافة لما عهدناه من متكلمي الغرب . وكنا قد شاهدنا بمكة والمدينة — شرفهما الله — مجالس من قد ذكرناه [2] في هذا التقييد ، فصغرت — بالاضافة لمجلس هذا الرجل الفذ — في نفوسنا قدرا ، ولم نستطب لها ذكرا . وأين تقمان مما أريد ، وشتان بين اليزيدين [3] ، وهيهات الفتيان كثير ، والمثل بمالك يسير [4] .

ونزلنا بعده بمجلس يطيب سماعه ، ويروق استطلاعه . وحضرنا له مجلسا ثالثا يوم السبت الثالث عشر لصفر ، بالوضع المذكور بازاء داره على الشط الشرقي ، فأخذت معجزاته البيانية مأخذها . فشاهدنا من أمره عجبا : صعد بوعظه أنفاس الحاضرين سحبا ، وأسال من أدمعهم وابلا سكبا ، ثم جعل يردد في آخر مجلسه أبياتا من النسيب ، شوقا زهديا وطربا ، الى أن غلبته الرقة فوثب من أعلى منبره والها مكتئبا ، وغادر الكل متندما على نفسه منتحبا ، لهفان ينادي : يا حسرتا واحربا ! والنادبون يدورون بنحيبهم دور الرحا ، وكل منهم * بعد من سكرته ما صحا . فسبحان من خلقه عبرة لأولي الألباب ، وجعله لتوبة عباده أقوى الأسباب ، لا اله سواه .

ثم نرجع الى ذكر بغداد . هي كما ذكرناه جانبان : شرقي ، وغربي ، ودجلة بينهما . فأما

الجانب الغربي فقد عمه الخراب ، واستولى عليه ، وكان المعمور اولا . وعمارة الجانب الشرقي محدثة ، لكنه مع استيلاء الخراب عليه يحتوي على سبع عشرة محلة ، كل محلة منها مدينة مستقلة ، وفي كل واحدة منها الحمامان والثلاثة والثماني ، منها بجوامع يصلي فيها الجمعة .

فأكبرها القُرَيَّة [2] وهي التي نزلنا فيها بربض منها يعرف بالمربعة ، على شط دجلة بمقربة من الجسر ، فحملته دجلة بمدها السيلي ، فعاد الناس يعبرون بالزوارق ، والزوارق فيها لا تحصى كثرة ، فالناس ليلا ونهارا — من تمادي [3] العبور فيها — في نزهه متصلة [4] رجالا ونساء ، والعادة أن يكون لها جسران : أحدهما مما يقرب من دور الخليفة ، والآخر فوقه لكثرة الناس ، والعبور في الزوارق لا ينقطع منها . ثم الكرخ وهي مدينة مسورة * . ثم محلة باب البصرة وهي أيضا مدينة ، وبها جامع المنصور رحمه الله ، وهو جامع كبير عتيق البنيان حفيله . ثم الشارع وهي أيضا مدينة ، فهذه الأربع أكبر المحلات .

وبين الشارع ومحلة باب البصرة سوق المارستان ، وهي مدينة صغيرة ، فيها المارستان الشهير ببغداد ، وهو [6] على دجلة ، وتتفقده الأطباء كل يوم اثنين وخميس ، ويطالعون أحوال المرضى به ، ويرتبون لهم أخذ ما يحتاجون اليه ، وبين أيديهم قومة يتناولون طبخ الأدوية والأغذية . وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت ، وجميع مرافق المساكن الملوكية * ، والماء يدخل اليه من دجلة .

وأسماء سائر المحلات يطول ذكرها : كالوسيطة [1] ، وهي بين دجلة ونهر يتفرع من الفرات وينصب في دجلة ، يجيء فيه جميع المرافق التي في الجهات التي يسقيها الفرات . ويشق على باب البصرة — الذي [2] ذكرنا محلته — نهر آخر منه ، وينصب أيضا في دجلة . ومن أسماء المحلات : العتابية ، وبها تصنع الثياب العتابية ، وهي حرير وقطن مختلفات الألوان . ومنها الحربية ، وهي أعلاها ، وليس وراءها الا القرى الخارجة عن بغداد ، الى أسماء يطول ذكرها وباحدى هذه المحلات قبر معروف الكوفي ، وهو رجل من الصالحين ، مشهور الذكر في الأولياء . وفي الطريق الى باب البصرة مشهد حفيل البنيان ، داخله قبر متسع السنام ، عليه مكتوب « هذا قبر عون ومعين من [3] أولاد أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضي الله عنه » . وفي الجانب الغربي أيضا قبر موسى ابن جعفر رضي الله عنهما ، الى مشاهد كثيرة ممن لم تحضرنا [4] تسميته ، من الأولياء والصالحين والسلف الكريم ، رضي الله عن جميعهم

وبأعلى الشرقية خارج البلد ، محلة كبيرة بازاء محلة الرصافة ، وبالرصافة كان باب الطاق المشهور على الشط . وفي تلك المحلة مشهد حفيل البنيان ، له قبة بيضاء سامية في الهواء ، فيه [5] قبر الامام أبي حنيفة رضي الله عنه ، وبه تعرف المحلة . وبالقرب من تلك المحلة قبر الامام أحمد بن حنبل رضي الله عنه ، وفي تلك الجهة أيضا قبر أبي بكر الشبلي رحمه الله ، وقبر الحسين ابن منصور [6]

الحلاج ، وببغداد من قبور الصالحين كثير رضى الله عنهم .

وبالغربية هى البساتين والحدائق ، ومنها تجلب الفواكه الى الشرقية . وأما الشرقية فهى اليوم دار الخلافة ، وكفاها بذلك شرفا واحتفالا . ودور الخليفة مع آخرها ، وهى تقع منها فى نحو الربع أو * أزيد ، لأن جميع العباسيين فى تلك الديار معتقلين اعتقالا جميلا ، لا يخرجون ولا يظهرون ، ولهم المرتبات القائمة بهم .

وللخليفة من تلك الديار جزء كبير ، قد اتخذ فيها المناظر المشرفة والقصور الرائقة والبساتين الأنيقة . وليس له اليوم وزير ، انما له خديم — يعرف بنائب الوزارة — يحضر الديوان المحتوى على أموال الخلافة ، وبين يديه الكتب ، فبنفذ الأمور . وله قيّم على جميع الديار العباسية ، وأمين على كافة الحرم الباقيات من عهد جده وأبيه ، وعلى جميع من تضمه الحرمة الخلافية ، يعرف بالصاحب مجد الدين أستاذ الدار ، هذا لقبه ، ويدعى له اثر الدعاء للخليفة ، وهو قل ما يظهر للعامة ، اشتغالا بما هو بسبيله من أمور تلك الديار وحراستها ، والتكفل بمغالقها وتفقدها ليلا ونهارا .

ورونق هذا الملك انما هو على الفتيان والأحابش المجابيب : منهم فتى اسمه « خالص » ، وهو قائد العسكرية كلها ، أبصرناه خارجا أحد الأيام ، وبين يديه وخلفه أمراء الأجناد من الأتراك والديلم وسواهم ، وحوله نحو خمسين سيفا مسلولة فى أيدى رجال قد احتفوا به ، فشاهدنا من أمره عجبا فى الدهر . وله القصور والمناظر على دجلة .

وقد يظهر الخليفة [1] فى بعض الأحيان بدجلة راكبا فى زورق ، وقد يصيد فى بعض الأوقات فى البرية ، وظهوره على حالة اختصار تعمية لأمره على العامة ، فلا يزداد أمره مع تلك التعمية الا اشتهارا . وهو مع ذلك يحب الظهور للعامة ، ويؤثر التحبب لهم ، وهو ميمون النقيبة عندهم ، قد استسعدوا بأيامه رخاء وعدلا وطيب عيش ، فالكبير والصغير منهم داع له .

أبصرنا هذا الخليفة المذكور — وهو أبو العباس أحمد الناصر لدين الله [2] بن المستضىء بنور الله أبى محمد الحسن بن المستنجد بالله أبى المظفر يوسف ، ويتصل نسبه الى أبى الفضل جعفر المقتدر بالله الى السلف فوقه من أجداده الخلفاء رضوان الله عليهم — بالجانب الغربى أمام منظرته به [1] ، وقد انحدر عنها صاعدا فى الزورق الى قصره بأعلى الجانب الشرقى على الشط .

وهو فى فتاء من سنه ، أشقر اللحية صغيرها ، كما اجتمع بها وجهه ، حسن الشكل ، جميل المنظر ، أبيض اللون ، معتدل القامة ، رائق الرواء ، سنه نحو الخمس وعشرين سنة ، لابسا ثوبا أبيض شبه القباء برسوم ذهب فيه ، وعلى رأسه قلنسوة مذهبة ، مطوقة بوبر أسود من الأوبار الغالية القيمة ، المتخذة للباس الملوك [2] ، مما هو

كالفنك وأشرف ، متعمدا بذلك زى الأتراك تعمية لشأنه ، لكن الشمس لا تخفى وان سترت ؛ وذلك عشية يوم السبت السادس [٣] لصفر سنة ثمانين [٤] .

وأبصرناه أيضا عشى يوم الأحد بعده ، متطلعا من منظرته المذكورة بالشط الغربى ، وكنا نسكن بمقربة منها .

والشرقية حفيلة الأسواق [٥] ، عظيمة الترتيب ، تشتمل من الخلق على بشر لا يحصيهم الا الله تعالى الذى أحصى كل شيء عددا ، وبها من الجوامع ثلاثة ، كل يجمّع فيها : جامع [٦] الخليفة متصل بداره ، وهو جامع كبير ، وفيه سقايات عظيمة ومرافق كثيرة كاملة : مرافق [٧] الوضوء والطهور . وجامع السلطان ، وهو خارج البلد ، ويتصل به قصور تنسب للسلطان أيضا المعروف بشاه شاه [٨] ، وكان مدبر أمر أجداد هذا الخليفة ، وكان يسكن هنالك ، فابتنى الجامع أمام مسكنه . وجامع الرُّصافة ، وهو على الجانب الشرقى المذكور ، وبينه وبين جامع هذا السلطان المذكور مسافة نحو الميل وبالرصافة [١] تربة الخلفاء العباسيين رحمهم الله .

فجميع جوامع البلد ببغداد ، المجمّع فيها ، أحد عشر .

وأما حماماتها فلا تحصى عدة . ذكر لنا أحد أشياخ البلد أنها [٢] بين الشرقية والغربية نحو الألفى حمام ، وأكثرها مطلية بالقار مسطحة به ، فيخيل للناظر أنه [٣] رخام أسود صقيل . وحمامات هذه الجهات أكثرها على هذه الصفة ، لكثرة القار عندهم ، لأن شأنه عجيب يجلب من عين [٤] بين البصرة والكوفة ، وقد أنبط الله ماء هذه [٥] العين ليتولد منه القار ، فهو يصير فى جوانبها كالصلصال ، فيجرف ويجلب وقد انعقد . فسبحان خالق ما يشاء ، لا اله سواه .

وأما المساجد بالشرقية والغربية فلا يأخذها التقدير ، فضلا عن الاحصاء . والمدارس بها نحو الثلاثين ، وهى كلها بالشرقية ، وما منها مدرسة الا وهى يقصر القصر البديع عنها ، وأعظمها وأشهرها النظامية ، وهى التى ابتناها نظام الملك ، وجددت سنة أربع وخمسمائة . ولهذه المدارس أوقاف عظيمة ، وعقارات محبسة تتصير الى الفقهاء المدرسين بها ، ويجرون بها على الطلبة ما يقوم بهم . ولهذه البلاد فى أمر هذه المدارس والمارستانات شرف عظيم ، وفخر مخلد ، فرحم الله واضعها الأول ، ورحم من تبع ذلك السنن الصالح .

وللشرقية أربعة أبواب : فأولها — وهو فى أعلى الشط — باب السلطان ، ثم باب الظفرية [٦] ، ثم يليه باب الحلبة ، ثم باب البصلية . هذه الأبواب التى هى فى السور المحيط بها من أعلى الشط الى أسفله ، هو ينعطف عليها كنصف دائرة مستطيلة ، وداخلها فى الأسواق أبواب كثيرة . وبالجملة فشأن هذه البلدة أعظم من * أن يوصف ، وأين هى مما كانت عليه ؟ هى اليوم داخلة تحت قول حبيب :

لا أنت ولا الديار ديار [1]

واتفق رحيلنا من بغداد الى الموصل اثر صلاة العصر من يوم الاثنين الخامس عشر لصفر ، وهو الثامن والعشرون لمايه ، فكان مقامنا بها ثلاثة عشر يوما . ونحن فى صحبة الخاتونين : خاتون بنت مسعود المتقدمة الذكر فى هذا التقييد ، وخاتون أم معز الدين صاحب الموصل ، وصحبتهما حاج الشام والموصل وأرض الأعاجم ، المتصلة بالدروب التى [2] الى طاعة الأمير مسعود ، والد احدى الخاتونين [3] المذكورتين . وتوجه حاج خراسان وما يليها صحبة الخاتون الثالثة ، ابنة الملك الدقوس ، وطريقهم على الجانب الشرقى من بغداد ، وطريقنا نحن الى الموصل على الجانب الغربى منها .

وهاتان الخاتونان هما أميرتا هذا العسكر الذى توجهنا فيه وقائدتاه ، والله لا يجعلنا تحت قول القائل :

ضاع الرعيل ومن يقوده

ولهما أجناد برسمهما ، وزادهما الخليفة جندا يشيعونهما [4] مخافة العرب الخفاجيين المضرين [5] بمدينة بغداد .

وفي تلك العشية التى رحلنا فيها ، فجئتنا خاتون المسعودية المترفة شبابا وملكا ، وهى قد استقلت فى هودج موضوع على خشبتين معترضتين بين مطيتين ، الواحدة أمام الأخرى ، وعليهما [6] الجلال المذهبة ، وهما تسيران بها سير النسيم سرعة ولينا ، وقد فتح لها أمام الهودج وخلفه بابان ، وهى ظاهرة فى وسطه متنقبة وعصابة ذهب على رأسها ، وأمامها رعيل من فتيانها وجندها ، وعن يمينها جنائب المطايا والهماليج العتاق .

ووراءها [1] ركب من جواريها قد ركبن المطايا والهماليج على السروج المذهبة ، وعصبن رؤوسهن بالعصائب الذهبيات ، والنسيم يتلاعب بعذباتهن ، وهن يسرن خلف سيدتهن سير السحاب ، ولها الرايات والطبول والبوقات تضرب عند ركوبها وعند نزولها وأبصرنا من نخوة الملك النسائى واحتفاله ، رتبة تهز الأرض هزا ، وتسحب أذيال الدنيا عزا .

ويحق أن يخدمها العز ، ويكون لها هذا هذا الهز ، فان مسافة مملكة أبيها نحو الأربعة أشهر ، وصاحب القسطنطينية يؤدى اليه الجزية ، وهو من العدل فى رعيته على سيرة عجيبة ، ومن موالاة الجهاد على سنة مرضية . وأعلمنا أحد الحجاج من أهل بلدنا أن فى هذا العام — الذى هو عام تسعة وسبعين الخالى عنا — استفتح من بلاد الروم نحو الخمسة وعشرين بلدا ، ولقبه عز الدين ، واسم أبيه مسعود ، وهذا الاسم غلب عليه ، وهو عريق فى المملكة عن جد فجد .

ومن شرف خاتون هذه — واسمها سلجوقة — أن صلاح الدين استفتح آمد بلد زوجها نور الدين ، وهى من أعظم بلاد الدنيا ، فترك البلد لها كرامة لأبيها ، وأعطاها المفاتيح ، فبقى ملك زوجها بسببها وناهيك من هذا الشأن ، والملك ملك الحى القيوم ، يؤتى الملك من يشاء لا اله سواه .

فكان مبيتنا تلك الليلة باحدى قرى بغداد ، نزلناها وقد مضى هدء من الليــل ، وبمقربة منها دجيل ، وهو نهر يتفرع من دجلة يسقى تلك القرى كلها . وغــدونا من ذلك الموضع ضحى يوم الثــلاثاء ، الســادس عشر لصفر المذكور ، والقرى متصلة فى طريقنا ، فاتصل سيرنا الى اثر صلاة الظهر ، ونزلنا ، وأقمنا باقى يومنا ليلحقنا من تأخــر من الحاج ومن تجار الشام والموصل .

ثم رحلنــا قبيــل نصف الليــل ، وتمادى سيرنا الى * أن ارتفع النهــار . فنزلنا قائلين ومريحين عــلى دجيل ، وأسرينا الليــل كله ، فنزلنــا مع الصــباح بمقربة من قــرية تعرف بالحربة [1] من أخصب القرى وأفسحها . ورحلنا من ذلك الموضع ، وأسرينا الليل كله ، ونزلنا مع الصباح من يوم الخميس ، الثامن عشر الصفر ، عــلى شط دجلة بمقــربة من حصن يعرف [2] بالمعشــوق ، ويقال انه (كان) متفرجا لزبيدة ابنة عم الرشيد وزوجه رحمه الله .

وعــلى قبالة هــذا الموضــع ، فى الشط الشرقى ، مدينة « سر من رأى » ، وهى اليوم عبــرة مــن رأى . أين معتصــمها وواثقهــا ومتوكلها ؟ مدينة كبيرة قد استولى الخراب عليها ، الا بعض جهات منها هى اليوم معمورة . وقد أطنب المسعودى رحمه الله فى وصفها ، ووصف طيب هــوائها ورائق حسنها ، وهى كمــا وصــف ، وان لم يبق الا الأثــر من محاســنها . والله وارث الأرض ومن عليهــا ، لا اله غيره .

فأقمنا بهذا الموضع طول يومنا مستريحين ، وبيننا وبين مــدينة تكريت مرحلة . (ثم) رحلنا منه [3] ، وأسرينا الليل كله ، فصبحنا تكريت مع الفجر من يوم الجمعة التاسع عشر من الشهر ، وهــو أول يوم من يونيــه ، فنزلنا ظاهرها مستريحين ذلك اليوم .

ذكر مدينة تكريت
حرسها الله تعالى

هى مدينة كبيرة ، واسعة الأرجاء ، فسيحة الساحة ، حفيلة الأسواق ، كثيرة المساجد ، غاصة بالخلق . أهلهــا أحسن أخلاقا وقسطا فى الموازين من أهل بغداد ، ودجلة منها فى جوفيها ، ولها قلعة حصينة عــلى الشط هى قصبتها المنيعة ، ويطيف بالبلد سور [4] قد أثر الوهن فيه ، وهى من المدن العتيقة المذكورة .

ورحلنا مع عشى اليوم المذكــور ، وأسرينا طول الليل ، وأصبحنا يوم السبت ، الموفى * عشرين منه ، بشط دجلة ، فنزلنا مريحين . ومن ذلك الموضــع يستصحب الماء ليــوم وليلة ، فاستصحبنا ، ورحلنا ذلك اليــوم ضحوة ، فأسرينا الى الليل ، ونزلنا لأخذ نفس راحة واختلاس سنة نوم ، فهوءنا هنيهة ، ورحلنا وأستأذنا الى الصباح .

وتمادى سيرنا الى أن ارتفع النهار من يوم الأحد بعده ، فنزلنــا قائلين بقربة عــلى شط دجلة تعرف بالجــديدة ، وبمقربة منها قرية كبيرة اجتزنا عليهــا تعــرف بالعقــر ، وعلى رأســها [1] ربوة مــرتفعة كانت حصــنا لها ،

وأسفلها خان جديد بأبراج وشرف ، حفيل البنيان وثيقه ، والقرى والعمائر من هذا الموضع الى الموصل متصلة . ومن هنا ينتثر انتظام الحاج فى المشى ، فينبسط كل فى طريقه ، متقدما ومتأخرا ، وبطيئا ومستعجلا ، آمنا مطمئنا .

فرحلنا منها قريب العصر ، وتمادى سيرنا الى المغرب ، ونزلنا آخذين غفوة سنة خلال ما تتعشى الابل ، ورحلنا قبل نصف الليل ، وأدلجنا الى الصباح . وفى ضحوة هذا اليوم — وهو يوم الاثنين الثانى والعشرين لصفر والرابع ليونيه — مررنا بموضع [٢] يعرف بالقيارة بمقربة من دجلة .

وبالجانب الشرقى منها ، وعن يمين الطريق الى الموصل فيه ، وهدة من الأرض سوداء كأنها سحابة ، قد أنبط الله فيها عيونا كبارا وصغارا تنبع بالقار ، وربما يقذف بعضها بحباب [٣] منه كأنها الغليان ، ويصنع له أحواض يجتمع فيها ، فتراه شبه الصلصال ، منبسطا على الأرض ، أسود أملس صقيلا رطبا عطر الرائحة شديد التعلك ، فيلصق بالأصابع لأول مباشرة من اللمس .

وحول تلك العيون بركة كبيرة سوداء ، يعلوها شبه الطحلب الرقيق أسود ، تقذفه الى جوانبها فيرسب قارا ؛ فشاهدنا عجبا كنا [٤] نسمع به فنستغرب سماعه .

وبمقربة من هذه العيون ، على شط دجلة ، عين * أخرى منه كبيرة ، أبصرنا على البعد منها [١] دخانا ، فقيل لنا ان النار تشعل فيه [٢] ، اذا أرادوا نقله ، فتنشف [٣] النار رطوبته المائية وتعقده [٤] فيقطعونه قطرات [٥] ويحملونه ، وهو يعم جميع البلاد الى الشام الى عكه الى جميع البلاد البحرية . والله يخلق ما يشاء ، سبحانه تعالى جده ، وجلت قدرته لا رب غيره .

ولا شك أن على هذه الصفة هى [٦] العين التى ذكر لنا أنها بين الكوفة والبصرة [٧] ، وقد ذكرنا أمرها فى هذا التقييد .

ومن هذا الموضع الى الموصل مرحلتان ، وأجزنا تلك العيون القارية ونزلنا قائلين ، ثم رحنا وسرنا الى العشى ، ونزلنا بقرية [٨] تعرف بالعقيبة ، ومنها تصبح [٩] الموصل ان شاء الله . فأسرينا منها بعد نصف الليل ، ووصلنا الموصل عند ارتفاع النهار يوم الثلاثاء الثالث والعشرين لصفر والخامس من يونيه ، ونزلنا بربضها فى أحد الخانات بمقربة من الشط .

ذكر مدينة الموصل
حرسها الله تعالى

هذه المدينة عتيقة ضخمة ، حصينة فخمة ، قد طالت صحبتها للزمن ، فأخذت أهبة استعدادها لحوادث الفتن ، قد كادت أبراجها تلتقى انتظاما لقرب مسافة بعضها (من بعض) . وباطن الداخل منها بيوت بعضها على بعض ، مستديرة بجداره المطيف بالبلد كله ، كان [١٠] قد تمكن فتحها فيه لغلظ بنيته وسعة وضعه . وللمقاتلة [١] فى هذه البيوت حرز وقاية ، وهى من المرافق [٢] الحربية .

وفى أعلى البلد قلعة عظيمة قد رص بناؤها رصا ، ينتظمها سور عتيق البنية مشيد

البروج ، وتتصل بهـا دور السـلطان ، وقد فصل بينهما وبين البلد شارع متسع يمتد من أعلى البلد الى أسفله ، ودجلة شرقى البلد ، وهى متصلة بالسور ، وأبراجه فى مائها .

وللبلدة ربض كبير فيه المساجد والحمامات والخانات والأسواق ، وأحدث فيه بعض أمراء البـلدة — وكان يعـرف بمجاهد الدين — جامعا على شط دجلة ، ما أرى وضع جامع [3] أحفل منـه بناء ، يقصر الوصف عنـه وعن تزيينه وترتيبه ، وكل ذلك نقش فى الآجـر ، وأما مقصورته فتذكر بمقاصير الجنة ، ويطيف به شبابيك حديد ، تتصل بها مصاطب تشرف على دجلة ، لا مقعد أشرف منها ولا أحسن . ووصفه يطـول ، وانمـا وقع الالماع بالبعض جريا الى الاختصار .

وأمامه مارسـتان حفيل من بناء مجاهـد الدين المذكور ، وبنى أيضا داخل البلد وفى سوقه قيسارية للتجار ، كأنها الخان العظيم ، تنغلق عليها أبواب حديد ، وتطيف بها دكاكين وبيوت بعضها على بعض ؛ قد جلى ذلك كله فى أعظم صـورة من البناء المزخـرف الذى لا مثيـل له ، فما أرى فى البـلاد قيسارية تعدلها .

وللمدينة جامعان : أحدهما جديد ، والآخر من عهد بنى أمية . وفى صحن هـذا الجامع قبة داخلها سـارية رخام قائمة ، قـد خلخل جيدها بخمسة خلاخل مفتولة فتل السوار من جرم رخامها ، وفى أعـلاها خصـة [4] رخام مثمنة ، يخرج عليها أنبـوب من الماء خروج انزعاج وشدة ، فيرتفـع فى الهواء أزيد من القامة ، كأنه قضيب من البلور معتدل ، ثم ينعكس الى أسـفل القبة . ويجمع فى هذين الجامعين القديم والحديث . ، ويجمـع أيضا فى جامع الربض .

وفى المدينة مدارس للعلم ، نحو الست [1] أو أزيد عـلى دجلة ، فتلوح كأنها القصـور المشرفة ، ولها مارستانات حاشى الذى ذكرنا فى الربض . وخص الله هـذه البـلدة بتربة مقدسة ، فيها مشهد جرجيس صلى الله عليه وسلم ، وقـد بنى فيها مسـجد ، وقبره فى زاوية من أحد بيوت المسجد عن يمين الداخل اليه ، وهـذا المسجد هو بين الجامع الجديد وباب الجسر ، يجده المار الى الجامع من باب الجسر عن يساره ؛ فتبركنا بزيارة هـذا القبر المقدس والوقوف عنده ، نفعنا الله بذلك .

ومما خص الله به هذه البلدة أن فى الشرق منها — اذا عبرت دجلة على نحو الميل — تل التوبة ، وهو التل الذى وقف به يونس عليه السلام بقومه ، ودعا ودعـوا حتى كشف الله عنهم العذاب . وبمقربة منه — على قدر الميل أيضا — العين المباركة المنسوبة اليه ، ويقال انه أمر قومه بالتطهر فيها واضمار التوبة ، ثم صعدوا على التل داعين .

وفى هذا التل بناء عظيم ، هو رباط يشتمل على بيوت كثيرة ، ومقاصر ومطاهر وسقايات ، يضم الجميع باب واحـد . وفى وسط ذلك البناء بيت ينسدل عليـه ستر ، وينغلق دونه باب كريم مرصع كله ، يقال انه كان الموضـع الذى وقف فيه يونس صلى الله عليه وسلم ،

ومحراب هذا البيت يقال انه كان بيته الذي كان يتعبد فيه ، ويطيفه بهذا البيت شمع كأنه جذوع النخل عظما ، فيخرج الناس الى هذا الرباط كل ليلة جمعة ويتعبدون فيه .

وحول هذا الرباط قرى كثيرة ، ويتصل بها خراب عظيم يقال انه كان مدينة نيوى ، وهى مدينة يونس عليه السلام ، وأثر السور المحيط بهذه المدينة ظاهر ، وفرج الأبواب فيه بينة ، وأكوام أبراجه مشرفة . بتنا بهذا الرباط المبارك ليلة الجمعة السادس والعشرين لصفر ، (ثم) صبحنا العين المباركة ، وشربنا من مائها وتطهرنا فيها ، وصلينا فى * المسجد المتصل بها ، والله ينفع بالنية فى ذلك بمنه وكرمه

وأهل هذه البلدة على طريقة حسنة ، يستعملون أعمال [1] البر ، فلا تلقى منهم الا ذا وجه طلق وكلمة لينة ، ولهم كرامة للغرباء واقبال عليهم ، وعندهم اعتدال فى جميع معاملاتهم . فكان مقامنا فى هذه البلدة أربعة أيام .

ومن أحفل المشاهد الدنياوية المريبة ، بروز شاهدناه يوم الأربعاء — ثانى يوم وصولنا الموصل — للخاتونين : أم معز الدين صاحب الموصل ، وبنت الأمير مسعود المتقدم ذكرها . فخرج الناس عن بكرة أبيهم ركبانا ومشاة ، وخرج النساء كذلك — وأكثرهن راكبات ، قد اجتمع منهن عسكر جرار — وخرج أمير البلد للقاء والدته مع زعماء دولته فدخل الحاج المواصلة صحبة خاتونهم على احتفال وأبهة ، قد جللوا أعناق ابلهم بالحرير الملون ، وقلدوها القلائد المزوقة .

ودخلت خاتون المسعودية تقود عسكر جواريها ، وأمامها عسكر رجالها يطوفون بها ، وقد جللت قبتها كلها سبائك ذهب مصوغة أهلة ودنانير سعة الأكف ، وسلاسل وتماثيل بديعة الصفات ، فلا تكاد تبين من القبة موضعا [2] ، ومطيتاها تزحفان بها زحفا ، وصخب [3] ذلك الحلى يسد المسامع ، ومطاياها مجللة الأعناق بالذهب ، ومراكب جواريها كذلك ، مجموع ذلك الذهب لايحصى تقديره . وكان مشهدا أبهت الأبصار ، وأحدث الاعتبار ، وكل ملك يفنى الا ملك الواحد القهار لا شريك له .

وأخبرنا غير واحد من الثقات ممن يعرف حال خاتون هذه ، أنها موصوفة بالعبادة والخير مؤثرة لأفعال البر . فمنها أنها أنفقت فى طريقها هذا الى الحجاز فى صدقات ونفقات فى السبيل مالا عظيما ، وهى تحب الصالحين والصالحات ، وتزورهم متنكرة رغبة فى دعائهم . وشأنها عجيب كله ، على شبابها وانغماسها فى نعيم الملك ، والله يهدى من [4] * يشاء من عباده .

وفى عشى اليوم الرابع من المقام بهذه البلدة ، وهو يوم الجمعة السادس والعشرين لصفر المذكور ، رحلنا منها على دواب اشتريناها بالموصل تفاديا من معاملة الجمالين ، على أن القدر المحمود لم يسبب لنا الا صحبة الأشبه منهم ، ومن شكرناه على طول الصحبة

وتساديها من مكة — شرفها الله — الى الموصل . فأسرينا ليلة السبت الى بعيد نصف الليل ، ثم نزلنا بقرية من قرى الموصل .

ورحلنا منها ضحوة يوم السبت المذكور ، وقلنا بقرية تعرف بعين الرصد ، وكان مقيلنا تحت جسر معقود على واد يتحدر فيه الماء ، وكان مقيلا مباركا . وفي تلك القرية خان كبير جديد ، وفي محلات الطريق كلها خانات ، واتفق مبيتنا تلك الليلة بالقرية المذكورة ، وأسرينا منها ، وأصبحنا يوم الأحد بقرية تعرف بالمويلحة وأسرينا منها ، وبتنا بقرية كبيرة تعرف بجدال ، لها حصن عتيق .

وفي يومنا هذا رأينا عن يمين الطريق جبل الجودي المذكور في كتاب الله تعالى [1] ، الذي استوت عليه سفينة نوح عليه السلام ، وهو جبل عال مستطيل . ثم رحلنا في السحر الأعلى من يوم الاثنين ، التاسع والعشرين لصفر ، فكان مبيتنا بقرية من قرى نصيبين ومنها اليها مرحلة ، ويعرف الموضع المذكور بالكلابي

شهر ربيع الأول من سنة ثمانين عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الثلاثاء ، بموافقة الثاني عشر من يونيو ، ونحن بالقرية المذكورة ، فرحلنا منها سحر يوم الثلاثاء المذكور ، ووصلنا نصيبين * قبل الظهر من اليوم المذكور .

ذكر مدينة نصيبين ، حرسها الله

شهيرة العتاقة والقدم ، ظاهرها شباب وباطنها هرم ، جميلة المنظر ، متوسطة بين الكبر والصغر ، يمتد أمامها وخلفها بسيط أخضر مد البصر ، قد أجرى [1] الله فيه مذانب من الماء تسقيه ، وتطرد في نواحيه ، وتحف بها عن يمين وشمال بساتين ملتفة الأشجار ، يانعة الثمار ، ينساب بين يديها نهر قد انعطف عليها [2] انعطاف السوار ، والحدائق تنتظم بحافتيه [3] ، وتفيء ظلالها الوارفة عليه . فرحم الله أبا نواس الحسن بن هانيء حيث يقول :

طابت نصيبين لي يوما فطبت[4] لها
يا ليت حظي من الدنيا نصيبين

فخارجها رياضي الشمائل ، أندلسي الخمائل ، يرف غضارة ونضارة ، ويتألق عليه رونق الحضارة ، وداخلها شعث البادية باد [5] عليه ، فلا مطمح للبصر اليه ، لا تجد العين فيه فسحة مجال ولا [6] مسحة جمال

وهذا النهر يتسرب [7] اليها من عين معينة ، منبعها بجبل قريب منها ، تنقسم منها مذانب تخترق بسائطها وعمائرها ، ويتخلل البلد منها جزء فيتفرق [8] على شوارعها [9] ، ويلج في بعض ديارها ، ويصل الى جامعها المكرم منه سرب [10] يخترق صحنه ، وينصب في صهريجين : أحدهما وسط الصحن ، والآخر عند الباب الشرقي منه ، ويفضي [11] الى سقايتين حول الجامع . وعلى النهر المذكور جسر معقود من صم الحجارة يتصل [12] * بباب المدينة القبلي ،

وفيها مدرستان ومارستان واحد ، وصاحبها معين الدين ، أخو معز الدين صاحب الموصل ، ابنا بابك .

ولمعين (الدين) أيضا مدينة سنجار ، وهي عن يمين الطريق الى الموصل . ويسكن في احدى الزوايا الجوفية من جامعها المكرم الشيخ أبو اليقظان الأسود الجسد ، الأبيض الكبد ، أحد الأولياء الذين نور الله [1] بصائرهم بالايمان ، وجعلهم من الباقيات الصالحات في الزمان ، الشهير المقامات ، الموصوف بالكرامات ، نضو التبتل والزهادة ، ومن أخلقت جدته العبادة ، قد اكتفى بنسج يده ، ولا يدخر من قوت يومه لغده . أسعدنا الله بلقائه ، وأصبحنا من بركة دعائه ، عشي يوم الثلاثاء مستهل ربيع الأول ، فحمدنا الله عز وجل على أن من علينا برؤيته ، وشرفنا بمصافحته ، والله ينفعنا بدعائه ، انه سميع مجيب لا اله سواه .

فكان نزولنا بها في خان خارجها ، وبتنا بها ليلة الأربعاء الثاني من ربيع الأول ، ورحلنا صبيحته في قافلة كبيرة من البغال والحمير ، حرانيين وحلبيين وسواهم من أهل البلاد ، بلاد بكر وما يليها ، وتركنا حاج هذه الجهات وراء ظهورنا على الجمال .

فتمادى سيرنا الى أول الظهر ، ونحن على أهبة وحذر من اغارة الأكراد ، الذين هم آفة هذه الجهات من الموصل الى نصيبين الى مدينة دنيصر ، يقطعون السبيل ، ويسعون فسادا في الأرض ، وسكناهم في جبال منيعة على قرب من هذه البلاد المذكورة ، ولم يعن الله سلاطينها على قمعهم وكف عاديتهم ، فهم ربما وصلوا في بعض الأحيان الى باب نصيبين ، ولا دافع لهم ولا مانع الا الله عز وجل .

فقلنا يوم الأربعاء المذكور ، ورأينا ذلك اليوم ، عن يمين طريقنا بقرب من صفح الجبل ، مدينة دارى العتيقة ، وهي بيضاء كبيرة لها قلعة مشرفة ، ويليها بمقدار نصف مرحلة مدينة * ماردين ، وهي في صفح [1] جبل في قنته قلعة لها كبيرة ، هي من قلاع الدنيا الشهيرة ، وكلتا المدينتين [2] معمورة .

ذكر مدينة دنيصر ، حرسها الله

هي في بسيط من الأرض فسيح ، وحولها بساتين الرياحين والخضر تسقى بالسواقي [3] ، وهي مائلة الطبع الى البادية ولا سور لها ، وهي مشحونة بشرا ، ولها الأسواق الحفيلة والأرزاق الواسعة ، وهي مخطر لأهل بلاد الشام وديار بكر وآمد وبلاد الروم التي تلي طاعة الأمير مسعود وما يليها ولها المحرث الواسع ، ولها مرافق كثيرة .

فكان نزولنا مع القافلة ببراح ظاهرها ، وأصبحنا يوم الخميس الثالث لربيع (الأول) بها مريحين . وخارجها مدرسة جديدة بقية البناء فيها ، ويتصل بها حمام ، والبساتين حولها ، فهي مدرسة ومأنسة . وصاحب هذه البلدة قطب الدين ، وهو أيضا صاحب مدينة دارى ومدينة ماردين ورأس العين ، وهو قريب لابني بابك .

وهــذه البــلدة لســلاطين شتى ، كملوك طوائف الأندلس ، كلهم قد تحلى بحلية تنسب الى الدين ، فلا تســمع الا ألقــابا هائــلة ، وصفات لذى التحصيل غير طائلة ، قد تساوى فيها السوقة والملوك ، واشــترك فيها الغنى والصــعلوك ، ليس فيهم من ارتسم بسمة به تليق ، أو اتصف بصــفة هــو بهــا خليق . الا صلاح الدين صاحب الشــام وديار مصر والحجاز واليمن ، المشتهر الفضل والعــدل ، فهذا اسم وافق مسماه ، ولفظ طابق معناه ، وما ســوى ذلك فى ســواه فزعازع ريح ، وشــهادات يردها التجريح ، ودعــوى نسبة للدين برحت به أى تبريح :

ألقاب مملكة فى غير موضعها
كالهر يحكى انتفاخا صولة الأسد*

ونرجع الى حديث المراحل — قربها الله — فكان مقامنا بدنيصر الى أن صلينا الجمعة ، وهو اليوم الرابع لربيع (الأول) ، تلوم أهل القــافلة بها لشــهود سوقها * لأن بهــا يوم الخميس ويوم الجمعــة ويوم الســبت ويوم الأحد بعدها [1] سوق حفيلة ، يجتمع لها أهل هذه الجهات المجاورة لها ، والقــرى المتصلة بها ، لأن الطــريق كلها يمينا وشــمالا قرى متصــلة وخانات مشــيدة ، ويســمون هذه الســوق — المجتمــع اليها من الجهات — البازار ، وأيام كل سوق معلومة .

ورحلنا اثر صلاة الجمعة ، فاجتزنا على قرية كبيرة لهــا حصن تعــرف بتل العقاب ، هى للنصــارى المعاهــدين الذميين ، ذكرتنا هذه القرية بقرى الأندلس حسنا ونضارة ، تحفها البساتين والكروم وأنواع الأشجار ، وينسرب بازائها نهر ترف الظلال عليه ، وخطها متسع ، والبســاتين قد انتظمته ، وشــاهدنا بها من الخنانيص أمثال الغنم كثرة وأنسا بأهلها .

ثم وصلنا عشى النهار الى قرية أخرى تعرف بالجسر ، هى الآن لناس من المعاهدين ، وهم فرقة من فرق الروم . فــكان مبيتنا بها ليلة السبت الخامس لربيــع المذكور ، ثم أسحرنا منها ، ووصلنا مــدينة رأس العين قبيل الظهر من يوم السبت المذكور .

ذكر مدينة رأس العين ، حرســها الله

هــذا الاسم لها من أصــدق الصــفات ، وموضوعها به أشرف الموضوعات . وذلك أن الله تعالى فجر أرضها عيــونا ، وأجراها ماء معينا ، فتقسمت مــذانب ، وانسابت جداول تنبسط فى مــروج خضر ، فــكأنها سبائك اللجين ممدودة فى بساط الزبرجد ، تحف بها أشــجار وبســاتين ، قد انتظمت حافتيها الى آخر انتهائها من عمارة بطحائها .

وأعظم هــذه العيون عينان ، احــداهما [2] فوق الأخرى : فالعليــا منهما [3] نابعة فــوق الأرض فى صم الحجارة ، كأنها فى جوف غار كبير متســع يبسط المــاء فيــه حتى يصير كالصهريج العظيم ، ثم يخــرج ويسيل نهرا كبيرا كأكبر ما يكون من الأنهار ، وينتهى الى العين الأخرى ويلتقى بمائها .

وهــذه العين الشــالية عجب من عجائب مخلوقات الله عز وجل . وذلك أنها نابعة تحت الأرض من الحجر الصلد بنحو أربع قامات أو أزيد ، ويتسع منبعها حتى يصير صهريجا فى ذلك العمق ، ويعلو بقوة نبعــه حتى يسيل عــلى وجه الأرض . فربمــا يروم السابح ، القوى السباحة الشديد ، الغوص فى أعماق المياه أن يصل بغوصه الى قعره ، فيمجه الماء بقوة انبعاثا من منبعه ، فلا يتناهى فى غوصه الى مقدار نصف مسافة العمق أو أقل شيئا ، شــاهدنا [1] ذلك عيانا .

وماؤهــا أصفى من الزلال ، وأعــذب من السلسبيل ، يشف [2] عمــا حــواه ، فلو طرح الدينار فيه فى الليلة الظلماء لما أخفاه ، ويصاد فيها ســمك جليل من أطيب ما يــكون من السمك .

وينقسم ماء هذه العين نهــرين : أحدهما آخذ يمينا ، والآخر ســارا . فالأيمن يشق خانقة مبنية للصوفية [3] والغرباء بازاء العين ، وهى تسمى الرباط أيضــا . والأيسر ينسرب على جانب الخانقة ، وتفضى منه جــداول الى مطاهرها ومرافقها المعدة للحاجة البشرية ، ثم يلتقيان أسفلها مع نهر العين الأخرى العليا . وقد بنيت على شــط نهرهما المجتمع بيوت أرحى ، تتصل على شط موضــوع وبسط [4] النهر كأنه سد ، ومن مجتمع ماء هاتين العينين منشأ نهر الخابور .

وبمقربة من هذه الخانقة ، بحيث تناظرها ، مدرســة بازائها حمام ، وكــلاهما قد وهى وأخلق وتعطل . وما أرى كان فى موضوعات الدنيا مثل موضوع هذه المدرسة ، لأنها فى جزيرة خضراء ، والنهر يستدير بها من ثلاثة [5] جوانب ، والمــدخل اليها من جــانب واحد ، وأمامها ووراءها بستان ، وبازائها دولاب يلقى الماء الى بساتين مرتفعة عن مصب النهر .

وشأن هذا الموضع كله عجيب جدا ، فغاية حسن القرى [6] بشرقى الأندلس أن يكون لها مثل هذا الموضع جمالا ، أو تتحلى [1] بمثل هذه العيون . ولله القدرة فى جميع مخلوقاته .

وأما المدينة فللبداوة بها اعتناء ، وللحضارة عنها استغناء ، لا سور يحصنها [2] ، ولا دون أنيقة البناء تحسنها . قد ضحيت فى صحرائها كأنها عوذة لبطحائها ، وهى مــع ذلك كاملة مرافق المدن ، ولها جامعان : حديث ، وقديم . فالقديم بموضع هذه العيون ، وتتفجر أمامه عين معينة هى بدون اللتين ذكرناهما ، وهو [3] من بنيان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، لكنه قد أثر القدم فيه حتى آذن بتداعيه . والجامع الآخر داخل البلد ، وفيه يجمع أهله . فكان مقامنا بها ذلك اليوم نزهة لم نختلس فى سفرنا كله مثلها

فلمــا كان عنــد المغيب من يوم السبت الخامس لربيع المذكور ، وهو السادس عشر ليونيه ، رحلنــا منها رغبــة فى الاسآد وبرد الليل ، وتفاديا من حر هجيرة التأويب ، لأن منها الى حران مسيرة يومين لا عِمارة فيها . فتمادى ســيرنا الى الصــباح ، ثم نزلنا فى الصحراء على ماء جب ، وأرحنا قليلا .

ثم رفعنا ضحوة النهار من يوم الأحد ، وسرنا ، ونزلنا قريب العصر على ماء بئر ، بموضع فيه برج مشيد وآثار قديمة ، يعرف ببرج حواء ، فبتنا به ، ثم رفعنا منه بعد تهويم ساعة ، وأسرينا الى الصباح ، فوصلنا مدينة حران [4] مع طلوع الشمس من يوم الاثنين السابع لربيع المذكور ، والثامن عشر ليونيه ، والحمد لله على تيسيره .

ذكر مدينة حران ، كلأها الله

بلد لا حسن لديه ، ولا ظل يتوسط برديه [5] ، قد اشتق من اسمه هواؤه ، فلا يألف البرد ماؤه [6] ، ولا تزال تتقد بلفح الهجير ساحاته * وأرجاؤه . لا تجد فيه مقيلا ، ولا تتنفس منه [1] الا نفسا ثقيلا . قد نبذ بالعراء ، ووضع في وسط الصحراء ، فعدم رونق الحضارة ، وتعرت أعطافه من ملابس النضارة .

استغفر الله ! كفى بهذا البلد شرفا وفضلا أنها البلدة [2] العتيقة المنسوبة لأبينا ابراهيم صلى الله عليه وسلم ، وله بقبليها — نحو ثلاثة فراسخ — مشهد مبارك ، فيه عين جارية ، كان مأوى له ولسارة ، صلوات الله عليهما ، ومتعبدا لهما . ببركة هذه النسبة قد جعل الله هذه البلدة مقرا للصالحين المتزهدين ، ومثابة للسائحين المتبتلين .

لقينا من أفرادهم الشيخ أبا البركات حيان ابن عبد العزيز [3] ، حذاء مسجده المنسوب اليه ، وهو يسكن منه في زاوية بناها في قبلته ، وتتصل بها في آخر الجانب زاوية لابنه عمر قد التزمها ، وأشبه طريقة أبيه فما ظلم ، وتعرفت منه شنشنة أعرفها من أخزم [4] . فوصلنا الى الشيخ — وهو قد نيف على الثمانين — فصافحنا ودعا لنا ، وأمرنا بلقاء ابنه عمر المذكور ، فملنا اليه ولقيناه ودعا لنا ، ثم ودعناهما وانصرفنا مسرورين بلقاء رجلين من رجال الآخرة .

ولقينا أيضا بمسجد عتيق ، الشيخ الزاهد سلمة ، فلقينا رجلا من الزهاد الأفراد ، فدعا لنا وسألنا ، وودعناه وانصرفنا . وبالبلد سلمة آخر ، يعرف بالمكشوف الرأس ، لا يغطي رأسه تواضعا لله عز وجل ، حتى عرف بذلك ، ووصلنا الى منزله ، فأعلمنا أنه خرج للبرية سائحا . وبهذه البلدة كثير من أهل الخير ، وأهلها هينون [5] معتدلون ، محبون للغرباء ، مؤثرون للفقراء .

وأهل هذه البلاد ، من الموصل لديار بكر وديار ربيعة الى الشام ، على هذه السبيل من حب الغرباء ، واكرام الفقراء ، وأهل قراها كذلك ، فما يحتاج الفقراء الصعاليك معهم زادا ، لهم في ذلك مقاصد في الكرم مأثورة * وشأن أهل هذه الجهات في هذا السبيل عجيب ، والله ينفعهم بما هم عليه . وأما عبادهم وزهادهم والسائحون في الجبال منهم ، فأكثر من أن يقيدهم الاحصاء ، والله ينفع المسلمين ببركاتهم ، وصوالح دعواتهم ، بمنه وكرمه .

ولهذه البلدة المذكورة أسواق جفيلة الانتظام ، عجيبة الترتيب ، مسقفة كلها

بالخشب ، فلا يزال أهلها فى ظل ممدود ، فتخترقها كأنك تخترق دارا كبيرة الشوارع ، قد بنى عند كل ملتقى أربع سكك أسواق منها ، قبة عظيمة مرفوعة ، مصنوعة من الجص ، هى كالمفرق لتلك السكك .

ويتصل بهذه الأسواق جامعها المكرم ، وهو عتيق مجدد [1] ، قد جاء على غاية الحسن ، وله صحن كبير فيه ثلاث قباب مرتفعة على سوارى رخام ، وتحت كل قبة بئر عذبة ، وفى الصحن أيضا قبة رابعة عظيمة ، قد قامت على عشر سوار من الرخام ، دور كل سارية تسعة أشبار ، وفى وسط القبة عمود من الرخام عظيم الجرم ، دوره خمسة عشر شبرا . وهذه القبة من بنيان الروم ، وأعلاها مجوف كأنه البرج المشيد ، يقال انه كان مخزنا لعدتهم الحربية ، والله أعلم .

والجامع المكرم سقفه بجوائز الخشب والحنايا[2] ، وخشبه عظام طوال لسعة البلاط ، وسعته خمس عشرة خطوة ، وهو [3] خمسة أبلطة ، وما رأينا جامعا أوسع حنايا منه . وجداره المتصل بالصحن ، الذى عليه المدخل اليه ، مفتح كله أبوابا عددها تسعة عشر بابا : تسعة يمينا [4] ، وتسعة شمالا ، والتاسع عشر منها باب عظيم وسط هذه الأبواب ، يمسك قوسه من أعلى الجدار الى أسفله ، بهى [5] المنظر ، جميل الوضع ، كأنه باب من أبواب المدن الكبار . ولهذه الأبواب كلها أغلاق من الخشب البديع الصنعة والنقش ، تنطبق عليها على شبه أبواب مجالس القصور . فشاهدنا من حسن بناء هذا الجامع ، وحسن ترتيب أسواقه المتصلة به ، مرأى عجيبا ، قل ما يوجد فى المدن مثل انتظامه

ولهذه البلدة مدرسة ومارستانا ، وهى بلدة كبيرة ، وسورها متين حصين مبنى بالحجارة المنحوتة ، المرصوص بعضها على بعض فى نهاية من[1] القوة ، وكذلك بنيان الجامع المكرم، ولها قلعة حصينة مما يلى الجهة الشرقية منها ، منقطعة عنها بفضاء واسع بينهما ، ومنقطعة أيضا عن سورها بحفير عظيم يستدير بها ، قد شيدت حافاته بالحجارة المركومة ، فجاء فى نهاية الوثاقة والقوة ، وسور القلعة وثيق الحصانة .

ولهذه البلدة نهير مجراه بالجهة الشرقية أيضا منها ، بين سورها وجباناتها ، ومصبه من عين هى [2] على بعد من البلد . والبلد كثير الخلق ، واسع الرزق ، ظاهر البركة ، كثير المساجد ، جم المرافق ، على أحفل ما يكون من المدن . وصاحبه مظفر الدين بن زين الدين ، وطاعته الى صلاح الدين [3] .

وهذه البلاد كلها : من الموصل ، الى نصيبين ، الى الفرات ، المعروفة بديار ربيعة — وحدها من نصيبين الى الفرات ، مع مايلى الجنوب من الطريق ، وديار بكر التى تليها فى الجانب الجوفى : كآمد وميافارقين و ... [4] وغيرها مما يطول ذكره — ليس فى ملوكها من يناهض صلاح الدين ، فهم الى طاعته وان كانوا مستبدين ، وفضله يبقى عليهم ، ولو شاء نزع الملك منهم لفعله بمشيئة الله .

فكان نزولنا ظاهر البلد بشرقيه على نهيره المذكور ، وأقمنا مريحين يوم الاثنين ويوم الثلاثاء بعده . واثر الظهر منه كان اجتماعنا بسلمة المكشوف الرأس الذى فاتنا لقاؤه يوم الاثنين ، فلقيناه بمسجده ، فرأينا رجلا عليه سيما الصالحين وسمت المحبين ، مع طلاقة وبشر وكرم لقاء وبر ، فآنسنا ودعا لنا ، وودعناه ، وانصرفنا حامدين لله عز وجل ، على ما من به علينا من لقاء أوليائه الصالحين وعباده المقربين .

وفى ليلة الأربعاء ، التاسع لربيع المذكور ، كان * رحيلنا بعد تهويم ساعة ، فأسرينا الى الصباح ، ونزلنا مريحين بموضع يعرف بتل عبدة ، وهو موضع عمارة ، وهذا التل مشرف متسع كأنه المائدة المنصوبة ، وفيه أثر بناء قديم ، وبهذا الموضع ماء جار .

وكان رحيلنا منه عند المغرب ، وأسرينا الليل كله ، واجتزنا على قرية تعرف بالبيضاء ، فيها خان كبير جديد ، وهو نصف الطريق من حران الى الفرات ، ويقابلها على اليمين من الطريق — فى استقبالك الفرات الى الشام — مدينة سروج ، التى شهر ذكرها الحريرى بنسبة أبى زيد اليها ، وفيها البساتين والمياه المطردة ، حسبما وصفها به فى مقاماته .

فكان وصولنا الى الفرات ضحوة النهار ، وعبرنا فى الزواريق ، المقلة المعدة للعبور ، الى قلعة جديدة على الشط تعرف بقلعة نجم ، وحولها ديار بادية ، وفيها سويقة يوجد فيها المهم من علف وخبز . فأقمنا بها يوم الخميس ، العاشر لربيع الأول المذكور ، مريحين خلال ما تكمل القافلة بالعبور . واذا عبرت الفرات حصلت فى حد الشام ، وسرت فى طاعة صلاح الدين الى دمشق .

والفرات حد بين ديار الشام وديار ربيعة وبكر ، وعن يسار الطريق — فى استقبالك الفرات الى الشام — مدينة الرقة ، وهى على الفرات ، وتليها رحبة مالك بن طوق — وتعرف برحبة الشام — وهى من المدن الشهيرة . ثم رحلنا منها عند مضى ثلث الليل الأول ، وأسرينا ، ووصلنا مدينة منبج مع الصباح من يوم الجمعة ، الحادى عشر لربيع المذكور ، والثانى والعشرين ليونيه .

ذكر مدينة منبج ، حرسها الله

بلدة فسيحة الأرجاء ، صحيحة الهواء ، يحف بها سور عتيق ممتد الغاية والانتهاء ، جوها صقيل ومجتلاها جميل ، ونسيمها أرج النشر عليل ، نهارها يندى ظله ، وليلها [1] كما قيل فيه سحر كله ، تحف بغربيها وبشرقيها بساتين ملتفة الأشجار ، مختلفة الثمار ، والماء يطرد فيها ، ويتخلل جميع نواحيها .

وخصص الله داخلها بآبار معينة ، شهدية العذوبة ، سلسبيلية المذاق ، تكون فى كل دار منها البئر والبئران . وأرضها أرض كريمة ، تستنبط [2] مياها كلها ، وأسواقها وسككها فسيحة متسعة ، ودكاكينها وحوانيتها كأنها الخانات والمخازن اتساعا وكبرا ، وأعالى

أسواقها مسقفة ؛ وعلى هـذا الترتيب أسواق أكثر مدن هذه الجهات .

لكن هذه البـلدة تعاقبت عليها الأحقاب ، حتى أخذ منها الخراب . كانت من مدن الروم العتيقة ، ولهم فيها من البنـاء آثار تدل على عظم اعتنـائهم بها ، ولهـا قلعة حصـينة فى جوفيها تنقطع عنها وتنحاز منها . ومدن هذه الجهات كلها لا تخلو من القلاع السلطانية .

وأهلهـا أهـل فضـل وخيـر ، سـنيون شافعيون ، وهى [٣] مطهرة بهم من أهل المذاهب المنحـرفة والعقائد الفاسـدة ، كما تجده فى الأكثر من هذه البلاد ، فمعامـلاتهم صحيحة ، وأحوالهم مسـتقيمة ، وجادتهم الواضحة فى دينهم من اعتراض بنيـات الطـريق سليمة . فكان نزولنا خارجها فى أحد بساتينها ، وأقمنا يوما مريحين ، ثم رحلنا نصف الليل ، ووصلنا بزاعة ضحوة يوم السبت الثـانى عشر لربيع المذكور .

ذكر بلدة بزاعة ، كلأها الله عز وجل

بقعة طيبة الثرى ، واسعة الذرى ، تصغر عن المدن ، وتكبر عن القرى . بها سوق تجمع بين المرافق السفرية والمتاجر الحضرية ، وفى أعلاها قلعة كبيرة حصينة ، رامها أحد ملوك الزمن فغاظته باستصعابها ، فأمـر بثلم بنائها حتى غادرها عورة منبوذة [٤] بعرائها . ولهذه البلدة عين معينة ، يخترق ماؤها بسيط بطحاء ترف بساتينها خضرة ونضارة ، وتريك برونقها الأنيق حسن الحضارة .

ويناظرها فى جانب البطحاء قـرية كبيرة ، تعرف بالبـاب ، هى باب بين بزاعة وحلب ، وكان يعمرها منـذ .. ثمانى سنين قـوم من الملاحدة الاسماعيلية لا يحصى عددهم الا الله ، فطار شرارهم ، وقطع هذه السـبيل فسادهم واضرارهم [١] . حتى داخلت أهل هذه البلاد العصبية ، وحركتهم الأنفة والحمية ، فتجمعوا من كل أوب عليهم ، ووضعوا السيوف فيهم فاستأصلوهم عن آخـرهم ، وعجلوا بقطـع دابرهم ، وكومت بهذه البطحاء جماجمهم [٢] ، وكفى الله المسلمين عاديتهم وشرهم ، وأحاق بهم مـكرهم ، والحمـد لله رب العـالمين . وسكانها اليوم قوم سنيون .

فأقمنـا بهـا يوم السبت ، ببطحاء هـذه البلدة مريحين ، ورحلنا منها فى الليل ،وأسرينا الى الصباح ، ووصلنا مدينة حلب ضحوة يوم الأحـد الثـالث عشر لربيـع الأول والرابع والعشرين ليونيه .

ذكر مدينة حلب ، حرسها الله تعالى

بلدة قدرها خطير [٣] ، وذكرها فى كل زمان يطير ، خطابها من الملوك كثير ، ومحلهـا من النفوس [٤] أثير . فكم هاجت [٥] من كفـاح ، وسلت [٦] عليها من بيض الصفاح . لهـا قلعة شهيرة الامتناع ، بائنة الارتفاع ، معـدومة الشبه والنظير فى القلاع ، تنزهت حصانة أن ترام أو تستطاع .

قاعدة كبيرة ، ومائدة من الأرض مستديرة ، منحوتة الأرجاء ، موضوعة على نسبة [٧] اعتدال واستواء . فسبحان من أحكم تقديرها وتدبيرها ، وأبدع كيف شاء تصويرها وتدويرها . عتيقة في الأزل ، حديثة وان لم تزل ، قد طاولت الأيام والأعوام ، وشيعت [٨] الخواص * والعوام .

هذه منازلها وديارها ، فأين سكانها قديما وعمارها ؟ وتلك دار [١] مملكتها وفناؤها [٢] ، فأين أمراؤها الحمدانيون وشعراؤها ؟ أجل فني جميعهم ، ولم يأن بعد فناؤها [٣] . فيا عجبا للبلاد تبقى وتذهب أملاكها ، ويهلكون ولا يقضى هلاكها . تخطب بعدهم فلا يتعذر ملاكها [٤] ، وترام فيتيسر بأهون شيء ادراكها .

هذه حلب ! كم أدخلت من ملوكها في خبر كان ، ونسخت ظرف * الزمان بالمكان . أنث اسمها فتحلت بزينة [٦] الغوان ، ودانت بالغدر فيمن خان [٧] ، وتجلت عروسا بعد سيف دولتها ابن حمدان . هيهات هيهات سيهرم [٨] شبابها ، ويعدم خطابها ، ويسرع فيها بعد حين خرابها ، وتتطرق جنبات الحوادث اليها ، حتى يرث [٩] الله الأرض ومن عليها ، لا اله سواه سبحانه جلت قدرته .

وقد خرج بنا الكلام عن مقصده ، فلنعد الى ما كنا بصدده ، فنقول ان من شرف هذه القلعة أنه يذكر أنها كانت قديما في الزمان الأول ربوة يأوي اليها ابراهيم الخليل ، عليه وعلى نبينا الصلاة والتسليم ، بغنيمات له [١٠] فيحلبها هناك ويتصدق بلبنها ، فلذلك سميت حلب ، والله أعلم ، وبها مشهد كريم له [١١] يقصده الناس ويتبركون بالصلاة فيه .

ومن كمال خلالها المشترطة في حصانة القلاع [١٢] أن الماء بها نابع ، وقد صنع * عليه جبان [١] ، فهما ينبعان ماء ، فلا تخاف الظماء أبد الدهر ، والطعام يصبر [٢] فيها الدهر كله ؛ وليس في شروط الحصانة أهم ولا آكد من هاتين الخلتين . ويطيف بهذين الجبين المذكورين سوران [٣] حصينان ، من الجانب الذي ينظر للبلد ، ويعترض دونهما خندق لا يكاد البصر يبلغ مدى عمقه ، والماء ينبع فيه [٤] .

وشأن هذه القلعة في الحصانة والحسن أعظم من أن تنتهي الى وصفه ، وسورها الأعلى كله * أبراج منتظمة فيها العلالي المنيفة [٦] ، والقصاب المشرفة [٧] ، قد تفتحت كلها طيقانا ، وكل برج منها مسكون ، وداخلها المساكن السلطانية ، والمنازل الرفيعة الملوكية .

وأما البلد فموضوعه ضخم جدا ، حفيل [٨] التركيب ، بديع الحسن ، واسع الأسواق كبيرها ، متصلة الانتظام مستطيلة ، تخرج من (سماط) صنعة الى سماط صنعة أخرى الى أن تفرغ من جميع الصناعات المدنية ، وكلها مسقف بالخشب ، فسكانها في ظلال وارفة ، فكل سوق منها تقيد الأبصار حسنا ، وتستوقف المستوفز تعجبا .

وأما قيساريتها فحديقة بستان نظافة وجمالا ، مطيفة بالجامع المكرم ، لا يتشوق الجالس فيها مرأى سواها ولو كان من المرائي

الرياضية . وأكثر حوانيتها خزائن من الخشب البديع الصنعة ؛ قد اتصل السماط [9] خزانة واحدة ، وتخللتها شرف خشبية [10] بديعة النقش ، وتفتحت كلها حوانيت ، فجاء منظرها أجمل منظر ، وكل سماط منها يتصل بباب من أبواب الجامع المكرم .

وهذا الجامع من أحسن الجوامع وأجملها ، قد أطاف بصحنه الواسع بلاط كبير متسع ، مفتح كله أبوابا قصرية الحسن الى الصحن ، عددها ينيف على الخمسين بابا ، فيستوقف الأبصار حسن منظرها ، وفى صحنه بئران معينتان [1] ، والبلاط القبلى لا مقصورة فيه ، فجاء ظاهر الاتساع رائق الانشراح .

وقد استفرغت الصنعة القرنصية جهدها فى منبره ، فما أرى فى بلد من البلاد منبرا على شكله وغرابة صنعته ، واتصلت الصنعة الخشبية منه الى المحراب ، فتجللت صفحاته كلها حسنا على تلك الصفة الغريبة ، وارتفع كالتاج العظيم على المحراب ، وعلا حتى اتصل بسمك السقف ، وقد قوس أعلاه ، وشرف بالشرف الخشبية القرنصية ، وهو مرصع كله بالعاج والآبنوس ، واتصال الترصيع من المنبر الى المحراب مع ما يليهما [2] من جدار القبلة دون أن يتبين بينهما انفصال ، فتجتلى العيون منه أبدع منظر يكون [3] فى الدنيا .

وحسن هذا الجامع المكرم أكثر من أن يوصف . ويتصل به من الجانب الغربى مدرسة للحنفية [4] تناسب الجامع حسنا واتقان صنعة ، فهما فى الحسن روضة تجاور أخرى . وهذه المدرسة من أحفل ما شاهدناه من المدارس بناء وغرابة صنعة ، ومن أظرف ما يلحظ فيها أن جدارها القبلى مفتح كله بيوتا وغرفا ، لها [5] طيقان يتصل بعضها ببعض ، وقد امتد بطول الجدار عريش كرم مثمر عنبا ، فحصل لكل طاق من تلك الطيقان قسطها من ذلك العنب متدليا أمامها ، فيمد الساكن فيها يده ، ويجتنيه متكئا دون كلفة ولا مشقة .

وللبلدة سوى هذه المدرسة نحو أربع مدارس أو خمس ، ولها مارستان ، وأمرها فى الاحتفال عظيم . فهى بلدة تليق بالخلافة ، وحسنها كله داخل ، لا خارج لها الا نهير يجرى من جوفيها الى قبليها ، ويشق ربضها المستدير بها ، فان [6] لها ربضا كبيرا فيه من الخانات ما لا يحصى عدده [1] . وبهذا النهر الأرحاء ، وهى متصلة بالبلد ، وقائمة وسط ربضه ، وبهذا الربض بعض بساتين تتصل بطوله .

وكيف ما كان الأمر فيه ، داخلا وخارجا ، فهو من بلاد الدنيا التى لا نظير لها ، والوصف فيه يطول . فكان نزولنا بربضه فى خان يعرف بخان أبى الشكر ، فأقمنا به أربعة أيام ، ورحلنا ضحوة يوم الخميس السابع عشر لربيع المذكور ، والثامن والعشرين ليونيه ، ووصلنا قنسرين ، قبيل العصر ، فأرحنا بها قليلا ، ثم انتقلنا الى قرية تعرف بتل تاجر ، فكان مبيتنا بها ليلة الجمعة الثامن عشر منه .

وقنسرين هذه هى البلدة الشهيرة فى الزمان ، لكنها خربت وعادت كأن لم تغن

بالأمس ، فلم يبق الا آثارها الدارسة ورسومها الطامسة ، ولكن قراها عامرة منتظمة لأنها على محرث عظيم مد البصر عرضا وطولا. وتشبهها من البلاد الأندلسية جيان ، ولذلك [٢] يذكر أن أهل قنسرين ، عند استفتاح الأندلس ، نزلوا جيان تأنسا بشبه [٣] الوطن وتعللا به ، مثل ما فعل فى أكثر بلادها حسب ما هو معروف .

ثم رحلنا من ذلك الموضع عند الثلث الماضى من الليل ، فأسرينا وسرنا الى ضحوة من النهار ، ثم نزلنا مريحين بموضع يعرف بباقدين ، فى خان كبير يعرف بخان التركمان وثيق الحصانة . وخانات هذا الطريق كأنها القلاع امتناعا وحصانة ، وأبوابها حديد ، وهى من الوثاقة فى غاية .

ثم رحلنا من هذا الموضع ، وبتنا بموضع يعرف بتمنى ، فى خان وثيق على الصفة المذكورة . ثم أسحرنا منه يوم السبت التاسع عشر لربيع الأول المذكور ، وهو آخر يوم من يوليه ، ورأينا عن يمين طريقنا بمقدار فرسخين ، يوم الجمعة المذكور ، بلاد المعرة . وهى سواد كلها بشجر الزيتون والتين والفستق وأنواع الفواكه ، ويتصل التفاف بساتينها وانتظام قراها مسيرة يومين ، وهى [٥] من أخصب بلاد الله وأكثرها أرزاقا .

ووراءها جبل لبنان ، وهو سامى الارتفاع ممتد الطول ، يتصل [١] من البحر الى البحر ، وفى صفحته [٢] حصون للملاحدة الاسماعيلية : فرقة مرقت من الاسلام ، وادعت الالهية فى أحد الأنام . قيض لهم شيطان من الأندلس ، يعرف بسنان ، خدعهم بأباطيل وخيالات ، موه عليهم باستعمالها وسحرهم بمحالها ، فاتخذوه [٣] الها يعبدونه ، ويبذلون الأنفس دونه ، وحصلوا من طاعته وامتثال أمره بحيث يأمر أحدهم بالتردى من شاهقة [٤] جبل فيتردى ، ويستعجل فى مرضاته الردى . والله يضل من يشاء ، ويهدى من يشاء بقدرته ، نعوذ به سبحانه من الفتنة فى الدين ، ونسأله العصمة من ضلال الملحدين ، لا رب غيره ولا معبود سواه .

وجبل لبنان المذكور هو حد بين بلاد المسلمين والافرنج ، لأن وراءه أنطاكية واللاذقية وسواهما [٥] من بلادهم ، أعادها للمسلمين . وفى صفح الجبل المذكور حصن يعرف بحصن الأكراد ، هو للافرنج ، ويغيرون [٦] منه على حماة وحمص ، وهو بمرأى العين منهما . فكان وصولنا الى مدينة حماة فى الضحى الأعلى من يوم السبت المذكور ، فنزلنا بربضها فى أحد خاناته .

ذكر مدينة حماة ، حماها الله تعالى

مدينة شهيرة فى البلدان ، قديمة الصحبة للزمان ، غير فسيحة الفناء ولا رائقة البناء ، أقطارها مضمومة ، وديارها مركومة ، لايهش البصر اليها عند الاطلال عليها ، كأنها تكن بهجتها وتخفيها ، فتجد حسنها كامنا فيها . حتى اذا جست خلالها ، ونقرت [٧] ظلالها ، أبصرت بشرقيها نهرا كبيرا : تتسع فى تدفقه أساليبه ، وتتناظر بشطيه دواليبه ، قد انتظمت طرتيه

بساتين تتهدل أغصانها عليه ، وتلوح خصرتها عذارا بصفحتيه ، ينسرب في ظلالها ، وينساب على سمت اعتدالها .

وبأحد شطيه ، المتصل بربضها ، مطاهر منتظمة بيوتا عدة يخترق الماء من أحد دواليبه [1] جمع نواحيها ، فلا يجد المغتسل أثر أذى فيها. وعلى شطه الثاني ، المتصل بالمدينة السفلى ، جامع صغير ، قد فتح جداره الشرقي عليه طيقانا ، تجتلى منها منظرا ترتاح النفس اليه ، وتتقيد الأبصار لديه . وبازاء ممر النهر ، بجوفي المدينة ، قلعة حلبية [2] الوضع ، وان كانت دونها في الحصانة والمنع ، سرب لها من هذا النهر ماء ينبع فيها ، فهي لا تخاف الصدى ، ولا تتهيب مرام العدا .

وموضوع هذه المدينة في وهدة من الأرض عريضة مستطيلة كأنها خندق عميق ، يرتفع لها جانبان أحدهما كالجبل المطل . والمدينا العليا متصلة بصفح ذلك الجانب الجبلي ، والقلعة في الجانب الآخر في ربوة منقطعة كبيرة مستديرة ، قد تولى نحتها [3] الزمان ، وحصل لها بحصانتها من كل عدو الأمان . والمدينة السفلى تحت القلعة ، متصلة بالجانب الذي يصب النهر عليه ، وكلتا المدينتين صغيرتان [4] . وسور المدينة العليا يمتد على رأس جانبها العلى الجبلي ، ويطيف بها . وللمدينة السفلى سور يحدق بها من ثلاثة [5] جوانب ، لأن جانبها المتصل بالنهر لا يحتاج الى سور .

وعلى النهر جسر كبير معقود بصم الحجارة ، يتصل من المدينة السفلى الى ربضها ، وربضها كبير فيه الخانات والديار ، وله حوانيت يستعجل فيها المسافر حاجته الى أن يفرغ لدخول المدينة . وأسواق المدينة العليا أحفل وأجمل من أسواق المدينة السفلى ، وهي الجامعة لجميع الصناعات والتجارات ، وموضوعها حسن التنظيم بديع الترتيب والتقسيم ، ولها جامع أكبر من الجامع الأسفل ، ولها ثلاث مدارس ومارستان على شط النهر بازاء الجامع الصغير .

وبخارج هذه البلدة بسيط فسيح عريض ، قد انتظم أكثره شجرات الأعناب ، وفيه [1] المزارع والمحارث ، وفي منظره انشراح للنفس وانفساح ، والبساتين متصلة على شطي النهر ، وهو يسمى العاصي ، لأن ظاهره انحداره من سفل الى علو ، ومجراه من الجنوب الى الشمال ، وهو يجتاز على قبلي حمص وبمقربة منها .

فكان مقامنا بحماة الى عشي يوم السبت المذكور ، ثم رحلنا منها ، وأسرينا الليل كله ، وأجزنا في نصفه هذا النهر العاصي المذكور ، على جسر كبير معقود من الحجارة ، وعليه مدينة رستن [2] التي خربها عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وآثارها عظيمة ، ويذكر الروم القسطنطينيون [3] أن بها أموالا [4] جمة مكنوزة ، والله أعلم بذلك . فوصلنا الى مدينة حمص مع شروق الشمس من يوم الأحد ، الموفى عشرين لربيع (الأول) ، وهو أول يوليه ، فنزلنا بظاهرها بخان السبيل .

ذكر مدينة حمص حرسها الله تعالى

هى فسيحة الساحة مستطيلة المساحة ، نزهة لعين مبصرها من النظافة والملاحة ، موضوعة فى بسيط من الأرض عريض[5] مداه ، لايخترقه[6] النسيم بمسراه ، يكاد البصر يقف دون منتهاه[7] أفيح أغبر لا ماء ولا شجر ، ولا ظل ولا ثمر . فهى تشتكى ظماءها ، وتستقى على البعد ماءها ، فيجلب لها من نهيرها العاصى ، وهو منها بنحو مسافة الميل ، وعليه طرة بساتين تجتلى العين خضرتها ، وتستغرب نضرتها ، ومنبعه فى مغارة بصفح[1] جبل فوقها[2] بمرحلة ، بموضع يقابل بعلبك — أعادها الله — وهى عن يمين الطريق الى دمشق .

وأهل هذه البلدة موصوفون بالنجدة والتمرس بالعدو لمجاورتهم اياه[3] ، وبعدهم فى ذلك أهل حلب . فأحمد خلال هذه البلدة هواؤها الرطب ، ونسيمها[3] الميمون تخفيفه وتجسيمه ، فكأن الهواء النجدى فى الصحة شقيقه وقسيمه . وبقبلى هذه المدينة قلعة حصينة منيعة ، عاصية غير مطيعة ، قد تميزت وانحازت بموضوعها عنها ، وبشرقيها جبانة فيها قبر خالد بن الوليد رضى الله عنه ، هو سيف الله المسلول ، ومعه قبر ابنه عبد الرحمن ، وقبر عبيد الله بن عمر رضى الله عنهم .

وأسوار هذه المدينة فى غاية[٥] العتاقة والوثاقة ، مرصوص بناؤها بالحجارة الصم السود ، وأبوابها أبواب حديد سامية الاشراف هائلة المنظر ، رائعة الاطلال والاناقة ، تكتنفها الأبراج المشيدة الحصينة . وأما داخلها فما شئت من بادية شمثاء ، خلقة الأرجاء ، ملفقة البناء ، لا اشراق لآفاقها ، ولا رونق لأسواقها ، كاسدة لا عهد لها بنفاقها .

وما ظنك ببلد حصن الأكراد منه على أميال يسيرة ، وهو معقل العدو ، فهو منه تتراءى ناره ، ويحرق اذا يطير شراره ، ويتعهد اذا شاء كل يوم مغاره . وسألنا أحد الأشياخ بهذه البلدة : هل فيها مارستان على رسم مدن هذه الجهات ؟ فقال — وقد أنكر ذلك — : حمص كلها مارستان ، وكفاك تبيينا[6] شهادة أهلها فيها ، وبها مدرسة واحدة .

وتجد فى هذه البلدة عند اطلالك[7] عليها من بعد ، فى بسيطها ومنظرها وهيئة موضوعها[8] ، بعض شبه بمدينة اشبيلية من بلاد الأندلس ، يقع للحين فى نفسك خياله[1] ، وبهذا الاسم سميت فى القديم ، وهى العلة التى أوجبت نزول الأعراب أهل حمص فيها حسبما يذكر . وهذا التشبيه[2] وان لم يكن بذاته فله لمحة من احدى جهاته

فأقمنا بها يوم الأحد المذكور ويوم الاثنين بعده ، وهو الثانى ليوليه[3] ، الى أول الظهر . ورحلنا منها ، وتمادى سيرنا[4] الى العشى ، ونزلنا بقرية خربة تعرف بالمشعر ، فعشبنا[5] بها الدواب . ثم رحلنا عند المغرب ، وأسرينا طول ليلتنا ، وتمادى سيرنا الى الضحى الأعلى من يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من الشهر المذكور ، ونزلنا بقرية كبيرة للنصارى المعاهدين تعرف بالقارة ، ليس فيها من المسلمين

أحد ، وبها خان كبير كأنه الحصن المشيد ، في وسطه صهريج كبير مملوء ماء يتسرب [6] له تحت الأرض من عين على البعد ؛ فهو لا يزال ملآن .

فأرحنا بالخان المذكور الى الظهر ، ثم رحلنا منه الى قرية تعرف بالنبك ، بها ماء جار ومحرث متسع ، فنزلنا بها للتعشية . ثم رحلنا منها — بعد اختلاس تهويمة خفيفة — وأسرينا الليل كله ، فوصلنا الى خان السلطان مع الصباح . وهو خان بناه صلاح الدين صاحب الشام ، وهو فى نهاية الوثاقة والحسن ، بباب حديد على سبيلهم فى بناء خانات هذه الطرق كلها ، واحتفالهم فى تشييدها . وفى [7] هذا الخان ماء جار ، يتسرب الى سقاية فى وسط الخان كأنها صهريج ، ولها مناقس ينصب منها الماء فى سقاية صغيرة مستديرة حول الصهريج ، ثم يغوص فى سرب فى الأرض .

والطريق من حمص الى دمشق قليل العمارة ، الا فى ثلاثة مواضع او أربعة ، منها هذه الخانات المذكورة . فأقمنا[8] يوم الأربعاء ، الثالث والعشرين لربيع المذكور ، بالخان المذكور مريحين ومستدركين النوم الى أول الظهر . ثم رحلنا وجزنا بثنية العقاب ، ومنها يشرف على بسيط دمشق وغوطتها ، وعند هذه الثنية مفرق طريقين : احداهما [1] التى جئنا منها ، والثانية آخذة شرقا فى البرية على السماوة الى العراق ، وهى [2] طريق قصد ، لكنها لا تدخل الا فى الشتاء .

فانحدرنا منها بين جبال فى بطن واد الى البسيط ، ونزلنا منه بموضع يعرف بالقصير ، فيه خان كبير ، والنهر جار أمامه . ثم رحلنا منه مع الصبح ، وسرنا فى بساتين متصلة لا يوصف حسنها ، ووصلنا دمشق فى الضحى الأعلى من يوم الخميس الرابع والعشرين لربيع الأول ، والخامس ليوليه ، والحمد لله رب العالمين .

شهر ربيع الآخر

استهل هلاله يوم الأربعاء ، بموافقة الحادى عشر ليوليه ، ونحن بدمشق ، نازلين فيها بدار الحديث غربى جامعها المكرم .

ذكر مدينة دمشق ، حرسها الله تعالى

جنة المشرق ، ومطلع حسنه المؤنق المشرق[4] ، وهى خاتمة بلاد الاسلام التى استقريناها ، وعروس المدن التى اجتليناها . قد تحلت [5] بأزاهير الرياحين ، وتجلت فى حلل سندسية من البساتين ، وحلت من موضوع الحسن بالمكان المكين [6] ، وتزينت فى منصتها أجمل تزيين ، وتشرفت بأن آوى الله تعالى المسيح وأمه ، صلى الله عليهما ، منها الى ربوة ذات قرار ومعين .

ظل ظليل ، وماء سلسبيل تنساب مذانبه [7] انسياب الأراقم بكل سبيل ، ورياض يحيى النفوس نسيمها [1] العليل ، تتبرج [2] لناظريها بمجتلى صقيل ، وتناديهم هلموا [3] الى معرس للحسن ومقيل ، قد سئمت أرضها كثرة الماء حتى اشتاقت الى الظماء ، فتكاد تناديك بها

لصم الصلاب « أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب [4] » .

قد أحدقت البساتين بها احداق الهالة بالقمر ، واكتنفتها اكتناف الكمامة [5] للزهر ، وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر ، فكل موضع لحظته [6] بجهاتها الأربع نضرته اليانعة قيد النظر وﷲ صدق القائلين [7] عنها : ان كانت الجنة فى الأرض فدمشق لا شك فيها ، وان كانت فى السماء فهى بحيث تسامتها [8] وتحاذيها .

ذكر جامعها المكرم ، عمره الله تعالى

هو من أشهر جوامع الاسلام حسنا ، واتقان بناء ، وغرابة صنعة ، واحتفال تنميق وتزيين ، وشهرته المتعارفة فى ذلك تغنى عن استغراق [9] الوصف فيه . ومن عجيب شأنه أنه لا تنسج به العنكبوت ، ولا تدخله ولا تلم به الطير المعروفة بالخطاف .

انتدب لبنائه الوليد بن عبد الملك رحمه الله ، ووجه الى ملك الروم بالقسطنطينية يأمره باشخاص اثنى عشر ألفا من الصناع من بلاده ، وتقدم اليه بالوعيد فى ذلك ان توقف عنه . فامتثل أمره مذعنا بعد مراسلة جرت بينهما فى ذلك ، مما هو مذكور فى كتب التواريخ .

فشرع فى بنائه ، وبلغت الغاية [10] فى التأنق فيه ، وأنزلت جدره كلها بفصوص من الذهب المعروف * بالفسيفساء ، وخلطت [1] بها أنواع من الأصبغة الغريبة ، قد مثلت أشجارا وفرعت أغصانا ، منظومة بالفصوص يبدائع من الصنعة الأنيقة المعجزة وصف كل واصف ، فجاء يغشى العيون وميضا وبصيصا .

وكان مبلغ النفقة فيه — حسبما ذكره ابن المعلى [2] الأسدى فى جزء وضعه فى ذكر بنائه — مائة صندوق ، فى كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار ومائتا [3] ألف دينار ، فكان مبلغ الجميع احد عشر ألف ألف دينار ومائتى ألف دينار [4] .

والوليد هذا (هو) الذى أخذ نصف الكنيسة الباقية منه فى أيدى النصارى ، وأدخلها فيه ، لأنه كان قسمين : قسما للمسلمين وهو الشرقى ، رقسما للنصارى وهو الغربى ، لأن أبا عبيدة بن الجراح رضى الله عنه دخل البلد من الجهة الغربية ، فانتهى الى نصف الكنيسة وقد وقع الصلح بينه وبين النصارى [5] ، ودخل خالد بن الوليد رضى الله عنه عنوة من الجانب الشرقى ، وانتهى الى النصف الثانى وهو الشرقى ، فاحتازه المسلمون ، وصيروه مسجدا .

وبقى النصف المصالح عليه — وهو الغربى — كنيسة بأيدى النصارى ، الى أن عوضهم منه [6] الوليد ، فأبوا ذلك ، فانتزعه منهم قهرا [7] ، وطلع لهدمه بنفسه . وكانوا يزعمون أن الذى يهدم كنيستهم يجن ، فبادر الوليد وقال : أنا أول من يجن فى الله ، وبدأ الهدم بيده ، فبادر المسلمون * وأكملوا هدمه .

واستعدوا عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أيام خلافته ، وأخرجوا العهد [1] الذى بأيديهم من الصحابة رضى الله عنهم فى ابقائه عليهم ، فهمّ بصرفه اليهم ، فأشفق المسلمون من ذلك ، ثم عوضهم منه بمال عظيم أرضاهم به ، فقبلوه . ويقال ان أول من وضع جداره القبلى ، هود النبى عليه السلام ، وكذلك ذكر ابن المعلى [2] فى تاريخه ، والله أعلم بذلك لا اله سواه .

وقرأنا فى فضائل [3] دمشق ، عن سفيان الثورى رضى الله عنه ، أنه قال : ان الصلاة فيه بثلاثين ألف صلاة . وفى الحديث ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه يعبد الله عز وجل فيه بعد خراب الدنيا أربعين سنة .

ذكر تذريعه ومساحته وعدد ابوابه وشمسياته

ذرعه فى الطول من الشرق الى الغرب مائتا خطوة ، وهما ثلاثمائة ذراع . وذرعه فى السعة ، من القبلة الى الجوف ، مائة خطوة وخمس وثلاثون خطوة ، وهى مائتا ذراع . فيكون تكسيره من المراجع الغربية أربعة وعشرين [4] مرجعا ، وهو تكسير مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، غير أن الطول فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم من القبلة الى الشمال

وبلاطاته المتصلة بالقبلة [5] ثلاثة مستطيلة من الشرق الى الغرب : سعة [6] كل بلاط [7] منها ثمانى عشرة خطوة ، والخطوة ذراع ونصف . وقد قامت [8] على ثمانية وستين عمودا ، منها أربع [9] وخمسون سارية ، وثمانى [10] أرجل جصية تتخللها [11] ، واثنتان مرخمة ملصقة معها [12] فى الجدار الذى يلى الصحن ، وأربع [13] أرجل مرخمة أبدع ترخيم ، مرصعة بفصوص من الرخام ملونة ، قد نظمت خواتيم ، وصورت محاريب وأشكالا غريبة ، قائمة فى البلاط * الأوسط تقل قبة [1] الرصاص مع القبة التى تلى المحراب ، سعة كل رجل منها ستة عشر شبرا ، وطولها عشرون شبرا ، وبين كل رجل ورجل فى الطول سبع عشرة خطوة ، وفى العرض ثلاث عشرة [2] خطوة ، فيكون كل دور رجل منها اثنين وسبعين شبرا .

ويستدير بالصحن بلاط [3] من ثلاث جهاته ، الشرقية والغربية والشمالية ، سعته عشر خطا ، وعدد قوائمه سبع [4] وأربعون : منها أربع عشرة رجلا [5] من الجص ، وسائرها سوار ، فيكون سعة الصحن — حاشى المسقف القبلى والشمالى — مائة ذراع ، وسقف الجامع كله من خارج ألواح رصاص .

وأعظم ما فى هذا الجامع المبارك قبة الرصاص المتصلة بالمحراب وسطه : سامية فى الهواء ، عظيمة الاستدارة قد استقل بها هيكل عظيم ، هو غارب [6] لها يتصل من المحراب الى الصحن ، وتحته ثلاث قباب : قبة تتصل بالجدار الذى الى الصحن ، وقبة تتصل بالمحراب ، وقبة تحت قبة الرصاص بينهما .

والقبة الرصاصية قد أغصت الهواء وسطه ، فاذا استقبلتها أبصرت منظرا رائعا

ومرأى هائلا ، يشبهه الناس بنسر طائر : كأن القبة رأسه ، والغارب جؤجؤه ، ونصف جدار البلاط عن يمين ، ونصف الثانى عن شمال جناحاه ، وسعة هذا الغارب من جهة الصحن ثلاثون خطوة ، فهم يعرفون الموضع من الجامع بالنسر لهذا التشبيه الواقع عليه . ومن أى جهة استقبلت البلد ترى القبة فى الهواء منيفة [7] على كل علو ، كأنها معلقة من الجو .

والجامع المكرم مائل الى الجهة الشمالية من البلد ، وعدد شمسياته [8] الزجاجية المذهبة الملونة أربع وسبعون : منها فى القبة التى تحت قبة الرصاص عشر ، وفى القبة المتصلة بالمحراب مع ما يليها من الجدار أربع عشرة شمسية ، وفى طول [1] الجدار عن يمين المحراب ويساره أربع وأربعون ، وفى القبة [2] المتصلة بجدار الصحن ست ، وفى ظهر الجدار الى الصحن سبع وأربعون شمسية .

وفى الجامع المكرم ثلاث مقصورات : مقصورة الصحابة رضى الله عنهم ، وهى أول مقصورة وضعت فى الاسلام ، وضعها معاوية ابن أبى سفيان رضى الله عنه . وبازاء محرابها — عن يمين مستقبل القبلة — باب حديد كان يدخل معاوية رضى الله عنه الى المقصورة منه الى المحراب ، وبازاء محرابها لجهة اليمين مصلى أبى الدرداء رضى الله عنه .

وخلفها كانت دار معاوية رضى عنه ، وهى اليوم سماط عظيم للصفارين يتصل بطول جدار الجامع القبلى ، ولا سماط أحسن منظرا منه ، ولا أكبر طولا وعرضا . وخلف هذا السماط ، على مقربة منه ، دار الخيل برسمه ، وهى اليوم مسكونة ، وفيها مواضع للكمادين . وطول المقصورة الصحابية المذكورة أربعة وأربعون شبرا ، وعرضها نصف الطول .

ويليها لجهة الغرب ، فى وسط الجامع ، المقصورة التى أحدثت عند اضافة النصف المتخذ كنيسة الى الجامع حسبما تقدم ذكره ، وفيها منبر الخطبة ، ومحراب الصلاة . وكانت مقصورة الصحابة أولا فى نصف الحظ الاسلامى من الكنيسة ، وكان الجدار حيث أعيد المحراب فى المقصورة المحدثة ، فلما أعيدت الكنيسة كلها مسجدا صارت مقصورة الصحابة طرفا فى الجانب الشرقى ، وأحدثت المقصورة الأخرى وسطا حيث كان جدار الجامع قبل الاتصال ، وهذه المقصورة المحدثة أكبر من الصحابية .

وبالجانب الغربى بازاء الجدار مقصورة أخرى ، هى برسم الحنفية [3] يجتمعون فيها للتدريس ، وبها يصلون ، وبازائها زاوية محدقة بالأعواد المشرجبة كأنها مقصورة صغيرة ، وبالجانب الشرقى زاوية أخرى على هذه الصفة هى كالمقصورة ، كان وضعها للصلاة فيها أحد أمراء الدولة التركية ، وهى لاصقة بالجدار الشرقى .

وبالجامع المكرم عدة زوايا على هذا الترتيب ، يتخذها الطلبة للنسخ والدرس

والانفراد عن ازدحام الناس ، وهي من جملة مرافق الطلبة . (وفي) الجدار المتصل بالصحن ، المحيط بالبلاطات القبلية ، عشرون بابا متصلة بطول الجدار ، قد علتها قسي جصية مخرمة كلها على هيئة الشمسيات ، فتبصر العين من اتصالها أجمل منظر وأحسنه .

والبلاط المتصل بالصحن ، المحيط بالبلاطات من ثلاث جهات ، على أعمدة ، وعلى تلك الأعمدة أبواب مقوسة ، تقلها أعمدة صغار تطيف بالصحن كله . ومنظر هذا الصحن من أجمل المناظر وأحسنها ، وفيه مجتمع أهل البلد ، وهو متفرجهم ومنتزههم ، كل عشية تراهم فيه ذاهبين وراجعين من شرق الى غرب من باب جيرون الى باب البريد .

فمنهم من يتحدث مع صاحبه ، ومنهم من يقرأ ، لا يزالون على هذه الحال ، من ذهاب ورجوع ، الى انقضاء صلاة العشاء الآخرة ، ثم ينصرفون ، ولبعضهم بالغداة مثل ذلك . وأكثر الاحتفال انما هو بالعشي ، فيخيل لمبصر ذلك أنها ليلة سبع وعشرين من رمضان المعظم ، لما يرى من احتفال الناس واجتماعهم ، لا يزالون على ذلك كل يوم ، وأهل البطالة من الناس يسمونهم الحراثين .

وللجامع ثلاث صوامع : واحدة في الجانب الغربي ، وهي كالبرج المشيد ، تحتوي على مساكن متسعة وزوايا فسيحة ، راجعة كلها الى أغلاق يسكنها أقوام من الغرباء أهل الخير ، والبيت الأعلى منها كان معتكف أبي حامد الغزالي رحمه الله ، ويسكنه اليوم الفقيه الزاهد أبو عبد الله بن سعيد ، من أهل قلعة يحصب المنسوبة لهم ، وهو قريب لبني سعيد المشتهرين بالدنيا وخدمتها ، وثانية بالجانب الغربي على هذه الصفة ، وثالثة بالجانب الشمالي على الباب المعروف بباب الناطفيين [١] .

وفي الصحن ثلاث قباب : احداها في الجانب الغربي منه وهي أكبرها ، وهي قائمة على ثمانية [١] أعمدة من الرخام مستطيلة كالبرج ، مزخرفة بالفصوص والأصبغة الملونة كانها الروضة حسنا ، وعليها قبة رصاص كأنها التنور العظيم الاستدارة ، يقال انها كانت مخزنا لمال الجامع ، وله مال عظيم من خراجات ومستغلات تنيف — على ما ذكر لنا — على الثمانية آلاف دينار صورية في السنة ، وهي خمسة عشر ألف [٢] دينار مؤمنية أو نحوها .

وقبة أخرى صغيرة في وسط الصحن ، مجوفة مثمنة ، من رخام قد ألصق أبدع الصاق ، قائمة على أربعة أعمدة صغار من الرخام ، وتحتها شباك حديد مستدير ، وفي وسطه أنبوب من الصفر يمج الماء الى علو ، فيرتفع وينثني كأنه قضيب لجين ، يشره الناس لوضع أفواههم فيه للشرب استظرافا له واستحسانا ، ويسمونه قفص الماء . والقبة الثالثة في الجانب الشرقي ، قائمة على ثمانية أعمدة ، على هيئة القبة الكبيرة لكن أصغر منها .

وفي الجانب الشمالي من الصحن باب كبير يفضي الى مسجد كبير ، في وسطه صحن قد استدار فيه صهريج من الرخام كبير ، يجري

الماء فيه دائما من صحفة [3] رخام أبيض مثمنة ، قد قامت وسط الصهريج ، على رأس عمود مثقوب يصعد الماء منه اليها ، ويعرف هذا الموضع بالكلاسة ، ويصلى فيه اليوم صاحبنا الفقيه الزاهد المحدث أبو جعفر الفنكي القرطبي ، ويتزاحم الناس على الصلاة فيه خلفه التماسا لبركته ، واستماعا لحسن صوته .

وفى الجانب الشرقى من الصحن باب يفضى الى مسجد ، من أحسن المساجد وأبدعها وضعا وأجملها بناء ، يذكر الشيعة أنه مشهد لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ، وهذا من أغرب مختلقاتهم [4] . ومن العجيب أنه يقابله فى الجهة الغربية ، فى زاوية البلاط الشمالى من الصحن ، موضع ، هو ملتقى آخر البلاط الشمالى مع أول البلاط الغربى مجلل بستر فى أعلاه ، وأمامه ستر أيضا منسدل ، يزعم أكثر الناس أنه موضع لعائشة رضى الله عنها ، وانها كانت تسمع الحديث فيه .

وعائشة رضى الله عنها فى دخول دمشق كعلى رضى الله عنه ، لكن لهم فى على رضى الله عنه مندوحة من القول ، وذلك أنهم يزعمون أنه رؤى فى المنام مصليا فى ذلك الموضع ، فبنت الشيعة فيه مسجدا . وأما الموضع المنسوب لعائشة رضى الله عنها ، فلا مندوحة فيه ، وانما ذكرناه لشهرته فى الجامع .

وكان هذا الجامع المبارك — ظاهرا وباطنا — منزلا كله بالفصوص المذهبة ، مزخرفا بأبدع زخاريف البناء المعجز الصنعة ، فأدركه الحريق مرتين ، فتهدم وجدد ، وذهب أكثر رخامه فاستحال رونقه ، فأسلم ما فيه اليوم قبلته مع [1] الثلاث قباب المتصلة بها ، ومحرابه من أعجب المحاريب الاسلامية حسنا وغرابة صنعة ، يتقد ذهبا كله ، وقد قامت فى وسطه محاريب صغار متصلة بجداره ، تحفها سويريات مفتولات فتل الأسورة كأنها مخروطة ، لم ير شىء أجمل منها ، وبعضها حمر كأنها مرجان .

فشأن قبلة هذا الجامع المبارك ، مع ما يتصل بها من قبابه الثلاث ، واشراق شمسياته المذهبة الملونة عليه ، واتصال شعاع الشمس بها ، وانعكاسه الى كل لون منها ، حتى ترتمى الأبصار منه أشعة [2] ملونة ، يتصل ذلك بجداره القبلى كله ؛ عظيم لا يلحق وصفه ، ولا [3] تبلغ العبارة بعض ما يتصوره الخاطر منه ، والله يعمره بشهادة الاسلام وكلمته بمنه .

وفى الركن الشرقى من المقصورة الحديثة فى المحراب خزانة كبيرة ، فيها مصحف من مصاحف عثمان رضى الله عنه ، وهو المصحف الذى وجه به الى الشام ، وتفتح الخزانة كل يوم اثر الصلاة ، فيتبرك الناس بلمسه وتقبيله ، ويكثر الازدحام عليه . وله أربعة أبواب :

باب قبلى : ويعرف بباب الزيادة ، وله دهليز كبير متسع له أعمدة عظام ، وفيه حوانيت للخرزيين [1] وسواهم ، وله مرأى

رائع ، ومنه يفضى الى دار الخيل ، وعن يسار الخارج منه سماط الصفارين ، وهى كانت دار معاوية رضى الله عنه ، وتعرف بالخضراء .

وباب شرقى ، وهو أعظم الأبواب ، ويعرف بباب جيرون .

وباب غربى ، ويعرف بباب البريد .

وباب شمالى ، ويعرف بباب الناطفيين . وللشرقى والغربى والشمالى أيضا من هذه الأبواب دهاليز متسعة ، يفضى كل دهليز منها الى باب عظيم ، كانت كلها مداخل للكنيسة [٢] فبقيت على حالها .

وأعظمها منظرا الدهليز المتصل بباب جيرون ، يخرج من هذا الباب الى بلاط طويل عريض ، قد قامت أمامه خمسة أبواب مقوسة ، لها ستة أعمدة طوال . وفى وجه اليسار منه مشهد كبير حفيل ، كان فيه رأس الحسين بن على رضى الله عنهما ، ثم نقل الى القاهرة ، وبازائه مسجد صغير ينسب لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، وبذلك المشهد ماء جار .

وقد انتظمت أمام البلاط أدراج ينحدر عليها الى الدهليز ، وهو كالخندق العظيم ، يتصل الى باب عظيم الارتفاع ينحسر الطرف دونه [٣] سموا ، قد حفته أعمدة كالجزوع طولا وكالأطواد ضخامة . وبجانبى هذا الدهليز أعمدة قد قامت عليها شوارع مستديرة ، فيها الحوانيت المنتظمة للعطارين وسواهم ، وعليها شوارع أخر مستطيلة ، فيها الحجر والبيوت للكراء مشرفة على الدهليز ، وفوقها [٤] سطح يبيت به سكان الحجر والبيوت .

وفى وسط الدهليز حوض كبير مستدير من الرخام ، عليه قبة تقلها أعمدة من الرخام ، ويستدير بأعلاها طرة من الرصاص ، واسعة مكشوفة للهواء ، لم ينعطف عليها تعتيب [٥] . وفى وسط الحوض الرخامى أنبوب صفر يزعج الماء بقوة ، فيرتفع الى الهواء أزيد من القامة لم ..... [٥] ، وحوله أنابيب صغار ترمى الماء الى علو ، فيخرج عنها كقضبان اللجين ، فكأنها أغصان تلك الدوحة المائية ، ومنظرها أعجب وأبدع من أن يلحقه الوصف .

وعن يمين الخارج [٣] من باب جيرون — فى جدار البلاط الذى أمامه — غرفة [٣] ، ولها هيئة طاق كبير مستدير ، فيه طيقان صفر ، قد فتحت أبوابا صغارا على عدد ساعات النهار ، ودبرت [٤] تدبيرا هندسيا . فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من صفر ، من فمى [٥] بازيين مصورين من صفر قائمين على طاستين من صفر [٦] ، تحت كل واحد منهما : أحدهما تحت أول باب من تلك الأبواب ، والثانى تحت آخرها .

والطاستان متقوبتان ، فعند وقوع البندقتين فيهما تعودان داخل الجدار الى الغرفة ، وتبصر البازيين يمدان أعناقهما بالبندقتين [٧] الى الطاستين ، ويقذفانهما بسرعة بتدبير عجيب تتخيله الأوهام سحرا . وعند وقوع البندقتين فى الطاستين ، يسمع

لها [8] دوی ، وينغلق الباب الذی هو لتلك الساعة للحين بلوح من الصفر ، لا [9] يزال كذلك عند كل انقضاء [10] ساعة من النهار ، حتى تنغلق الأبواب كلها وتنقضى الساعات ، ثم تعود الى حالها الأول .

ولها بالليل تدبير آخر . وذلك أن فى القوس ، المنعطف على تلك الطيقان المذكورة ، اثنتى عشرة دائرة من النحاس مخرمة ، وتعترض فى كل دائرة زجاجة من داخل الجدار فى الغرفة ، مدبر [11] ذلك كله منها خلف الطيقان المذكورة ، وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة ، فاذا انقضت * عم الزجاجة ضوء المصباح ، وفاض على الدائرة أمامها شعاعها ، فلاحت للأبصار دائرة محمرة ، ثم انتقل ذلك الى الأخرى حتى تنقضى ساعات الليل ، وتحمر الدوائر كلها . وقد وكل بها فى الغرفة متفقد لحالها ، درب بشأنها وانتقالها ، يعيد فتح الأبواب وصرف [1] الصنج الى موضعها ، وهى التى يسميها الناس المنجانة [2] .

ودهليز الباب الغربى فيه حوانيت البقالين والعطارين ، وفيه سماط لبيع الفواكه ، وفى أعلاه باب عظيم يصعد اليه على أدراج ، وله أعمدة سامية فى الهواء ، وتحت الأدراج سقايتان مستديرتان : سقاية يمينا ، وسقاية يسارا ، لكل سقاية خمسة أنابيب ترمى الماء فى حوض رخام مستطيل . ودهليز الباب الشمالى فيه زوايا على مصاطب ، محدقة بالأعواد المشرجبة ، هى محاضر لمعلمى الصبيان .

وعن يمين الخارج فى الدهليز خانقة مبنية للصوفية ، فى وسطها صهريج ، ويقال انها كانت دار عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، ولها خبر سيأتى ذكره بعد هذا ، والصهريج الذى فى وسطها يجرى الماء فيه ، ولها مطاهر يجرى الماء فى بيوتها . وعن يمين الخارج أيضا من باب البريد مدرسة للشافعية ، فى وسطها صهريج يجرى الماء فيه ، ولها مطاهر على الصفة المذكورة .

وفى الصحن بين القباب المذكورة عمودان متباعدان يسيرا ، لهما رأسان من الصفر مستطيلان مشرجبان ، قد خرما أحسن تخريم ، يسرجان ليلة النصف من شعبان فيلوحان كأنهما ثريتان مشتعلتان . واحتفال أهل هذه البلدة [3] لهذه الليلة المذكورة أكثر من احتفالهم ليلة سبع وعشرين من رمضان المعظم .

وفى هذا الجامع المبارك مجتمع عظيم ، كل يوم اثر صلاة الصبح ، لقراءه سبع من القرآن دائما ، ومثله اثر صلاة العصر لقراءة تسمى الكوثرية ، يقرأون فيها من سورة الكوثر [1] الى الخاتمة . ويحضر فى هذا المجتمع الكوثرى كل من لا يجيد حفظ القرآن ، وللمجتمعين على ذلك اجراء كل يوم يعيش [2] منه أزيد من خمسمائة انسان . وهذا من مفاخر هذا الجامع المكرم ، فلا تخلو القراءة منه صباحا ولا مساء .

وفيه حلقات التدريس للطلبة ، وللمدرسين فيها اجراء واسع . وللمالكية زاوية للتدريس فى الجانب الغربى ، يجتمع فيها طلبة المغاربة ، ولهم اجراء معلوم . ومرافق هذا الجامع المكرم للغرباء وأهل الطلب كثيرة واسعة . وأغرب ما يحدث به أن سارية من سواريه ، هى بين المقصورتين القديمة والحديثة ، لها وقف معلوم يأخذه المستند اليها للمذاكرة والتدريس ، أبصرنا بها فيها من أهل اشبيلية يعرف بالمرادى .

وعند فراغ المجتمع السبعى من القراءة ضباحا ، يستند كل انسان منهم الى سارية ، ويجلس أمامه صبى يلقنه القرآن ، وللصبيان أيضا على قراءتهم جراية معلومة ، فأهل الجدة من آبائهم ينزهون أبناءهم عن أخذها وسائرهم يأخذونها [٣] . وهذا من المفاخر الاسلامية . وللأيتام من الصبيان محضرة كبيرة بالبلد لها وقف كبير ، يأخذ منه [٤] المعلم لهم ما يقوم به ، وينفق منه على الصبيان ما يقوم بهم وبكسوتهم . وهذا أيضا من أغرب ما يحدث به من مفاخر هذه البلاد .

وتعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد المشرقية كلها انما هو تلقين ، ويعلمون الخط فى الأشعار وغيرها تنزيها لكتاب الله عز وجل عن ابتذال الصبيان له بالاثبات والمحو . وقد يكون فى أكثر البلاد الملقن على حدة والمكتب على حدة ، فينفصل من التلقين الى التكتيب ، لهم فى ذلك سيرة حسنة ، ولذلك ما يتأتى لهم حسن الخط لأن المعلم له لا يشتغل بغيره ، فهو يستفرغ جهده فى التعليم [٩] ، والصبى فى التعلم [١] كذلك ، ويسهل عليه لأنه بتصوير يحذو حذوه .

ويستدير بهذا الجامع المكرم أربع سقايات ، فى كل جانب سقاية ، كل واحدة منها كالدار الكبيرة محدقة بالبيوت الخلائية ، والماء يجرى فى كل بيت منها ، وبطول صحنها حوض من الحجر مستطيل ، تصب فيه عدة أنابيب منتظمة بطوله .

واحدى هذه السقايات فى دهليز باب جيرون ، وهى أكبرها ، وفيها من البيوت نيف على الثلاثين ، وفيها زائدا [٢] على السقاية المستطيلة مع جدارها حوضان كبيران مستديران ، يكادان يمسكان لسعتهما [٣] عرض الدار المحتوية على هذه السقاية [٤] ، والواحد بعيد من الآخر ، ودور كل واحد منهما نحو الأربعين شبرا ، والماء نابع فيهما . والثانية فى دهليز باب الناطفيين بازاء المعلمين . والثالثة عن يسار الخارج من باب البريد . والرابعة عن يمين الخارج من باب الزيادة .

وهذه أيضا من المرافق العظيمة للغرباء وسواهم . والبلد كله سقايات ، قل ما تخلو سكة من سككه ، أو سوق من أسواقه ، من سقاية . والمرافق به أكثر من أن توصف ، والله يبقيه دار اسلام ، بقدرته .

ذكر مشاهده المكرمة وآثاره المعظمة

فأولها مشهد رأس يحيى بن زكرياء عليهما (السلام) . وهو مدفون بالجامع المكرم ، فى البلاط القبلى ، قبالة الركن الأيمن من

المقصورة الصحابية رضى الله عنهم ، وعليه تابوت خشب معترض من الأسطوانة [5] ، وفوقه قنديل كأنه من بلور مجوف كأنه القدح الكبير ، لا يدرى أمن زجاج [6] عراقى ، أم صورى [7] هو ، أم من غير ذلك .

ومولد ابراهيم صلى الله عليه وسلم وعلى لبينا الكريم ، وهو بصفح جبل قاسيون عند قرية تعرف ببرزة ، وهى من أجمل القرى . وهذا الجبل مشهور بالبركة فى القديم ، لأنه مصعد الأنبياء صلوات الله عليهم ومطلعهم [1] ، وهو فى الجهة الشمالية من البلد ، وعلى مقدار فرسخ .

وهذا المولد المبارك غار مستطيل ضيق [2] ، وقد بنى عليه مسجد كبير مرتفع ، مقسم على مساجد كثيرة كالغرف المطلة ، وعليه صومعة عالية . ومن ذلك الغار رأى صلى الله عليه وسلم الكوكب ثم القمر ، ثم الشمس ، حسبما ذكره الله تعالى فى كتابه عز وجل [3] ، وفى ظهر الغار مقامه الذى كان يخرج اليه .

وهذا كله ذكره الحافظ محدث الشام ، أبو القاسم بن هبة الله بن عساكر الدمشقى ، فى تاريخه فى أخبار دمشق ، وهو نيف على مائة مجلد . وذكر أيضا أن بين باب الفراديس — وهو أحد أبواب البلد — وفى الجهة الشمالية من الجامع المبارك ، على مقربة منه الى جبل قاسيون ، مدفن سبعين ألف نبى ، وقيل سبعون ألف شهيد ، وأن الأنبياء المدفونين به سبعمائة نبى ، والله أعلم .

وبخارج هذا البلد [4] الجبانة العتيقة ، وهى مدفن الأنبياء والصالحين ، وبركتها شهيرة ، وفى طرفها مما يلى البساتين وهدة من الأرض متصلة بالجبانة ، ذكر أنها مدفن سبعين نبيا ، وعصمها الله ونزهها من أن يدفن فيها أحد ، والقبور محيطة بها ، وهى لا تخلو من الماء حتى عادت قرارة له ، كل ذلك تنزيه من الله تعالى لها .

وبجبل قاسيون أيضا — لجهة الغرب على مقدار ميل أو أزيد من المولد المبارك — مغارة تعرف بمغارة الدم ، لأن فوقها فى الجبل دم هابيل ، قتيل أخيه قابيل ، ابنى آدم صلى الله عليه وسلم ، يتصل من نحو نصف الجبل الى المغارة . وقد أبقى الله منه فى الجبل آثارا حمرا فى الحجارة تحك فتستحيل ، وهى كالطريق فى الجبل ، وتنقطع عند المغارة ، وليس يوجد فى النصف الأعلى من المغارة آثار تشبهها ، فكان يقال انها لون حجارة الجبل ، وانما هى من الموضع الذى جر منه [1] القاتل لأخيه حيث قتله حتى انتهى الى المغارة . وهى من آيات الله تعالى ، وآياته لا تحصى .

وقرأنا فى تاريخ ابن المعلى [2] الأسدى أن تلك المغارة صلى فيها ابراهيم وموسى وعيسى ولوط وأيوب ، عليهم وعلى لبينا الكريم أفضل الصلاة والسلام ، وعليها مسجد قد أتقن بناؤه ، ويصعد اليه على أدراج ، وهو كالغرفة المستديرة ، وحولها أعواد مشرجبة مطيفة بها ، وبه بيوت ومرافق للسكنى ، وهو

يفتح كل يوم خميس ، والسرج من الشمع والفتائل تقد في المغارة ، وهي متسعة .

وفي أعلى الجبل كهف منسوب لآدم صلى الله عليه وسلم ، وعليه بناء ، وهو موضع مبارك ، وتحته في حضيض الجبل مغارة تعرف بمغارة الجوع ، ذكر أن سبعين نبيا ماتوا [3] فيها جوعا ، وكان عندهم رغيف ، فلم يزل كل واحد منهم يؤثر به صاحبه ، ويدور عليهم من يد الى يد ، حتى لحقتهم المنية صلوات الله عليهم . وعلى هذه المغارة أيضا مسجد مبني ، وأبصرنا فيه سرجا تقد نهارا .

ولكل مشهد من هذه المشاهد أوقاف معينة ، من بساتين وأرض بيضاء ورباع ، حتى ان البلد تكاد الأوقاف تستغرق جميع ما فيها . وكل مسجد يستحدث بناؤه ، أو مدرسة أو خانقة ، يعين لها السلطان أوقافا تقوم بها وبساكنيها والملتزمين لها ، وهذه أيضا من المفاخر المخلدة . ومن النساء الخواتين ذوات الاقدار من تأمر ببناء مسجد أو رباط أو مدرسة ، وتنفق فيها الأموال الواسعة ، وتعين لها من مالها الأوقاف . ومن الأمراء من يفعل مثل ذلك ، لهم في هذه الطريقة المباركة مسارعة مشكورة عند الله عز وجل .

وبآخر هذا الجبل المذكور ، وفي رأس [4] البسيط البستاني الغربي من هذا البلد ، الربوة ، المباركة المذكورة في كتاب الله تعالى [1] ، مأوى المسيح وأمه صلوات الله عليهما ، وهي من أبدع مناظر الدنيا حسنا وجمالا واشراقا ، واتقان بناء واحتفال تشييد ، وشرف وضع : هي كالقصر المشيد ، ويصعد اليها على أدراج ، والمأوى المبارك منها مغارة صغيرة في وسطها ، وهي كالبيت الصغير ، وبازائها بيت يقال انه مصلى الخضر صلى الله عليه وسلم . فيبادر الناس للصلاة بهذين الموضعين المباركين ، ولا سيما المأوى المبارك ، وله باب حديد صغير ينغلق دونه .

والمسجد يطيف بها ، ولها شوارع دائرة ، وفيها سقاية لم ير أحسن منها ، قد سيق اليها الماء من علو ، وماؤها ينصب على شاذروان في الجدار ، متصل بحوض من رخام يقع الماء فيه ، لم ير أحسن من منظره ، وخلفه ذلك مطاهر يجري الماء في كل بيت منها ، ويستدير بالجانب المتصل بجدار الشادروان .

وهذه الربوة المباركة رأس بساتين البلد ومقسم مائه ، ينقسم فيها الماء على سبعة أنهار : يأخذ كل نهر طريقه . وأكبر هذه الأنهار نهر يعرف بثورا [2] ، وهو يشق تحت الربوة ، وقد نقر له في الحجر الصلد أسفلها حتى انفتح له متسرب واسع كالغار ، وربما انغمس الجسور من سباح الصبيان أو الرجال من أعلى الربوة في النهر ، واندفع تحت الماء حتى يشق متسربه تحت الربوة ويخرج أسفلها ، وهي مخاطرة كبيرة .

ويشرف من هذه الربوة على جميع البساتين الغربية من البلد ، ولا اشراف كاشرافها حسنا وجمالا واتساع مسرح

للأبصار ، وتحتها تلك الأنهار السبعة تتسرب وتسيح في طرق شتى ، فتحار الأبصار في حسن اجتماعها وافتراقها واندفاع انصبابها . وشرف موضوع هذه الربوة ، ومجموع حسنها ، أعظم من أن يحيط به وصف واصف في غلو مدحه ، وشأنها في موضوعات الدنيا الشريفة خطير كبير .

ويتصل بها — أسفل منها بمقربة من المسافة — قرية كبيرة تعرف بالنيرب ، قد غطتها البساتين ، فلا يظهر منها الا ما سما بناؤه ، وبها جامع لم ير أحسن منه ، مفروش سطحه كله بفصوص الرخام الملون ، فيخيل لناظره أنه ديباج مبسوط ، وفيه سقاية ماء رائقة الحسن ، ومطهرة لها عشرة أبواب يجرى الماء فيها ويطيف بها . وفوقها لجهة القبلة قرية كبيرة ، هي من أحسن القرى ، تعرف بالمِزة ، وبها جامع كبير ، وسقاية معينة ، وبقرية النيرب حمام ، وأكثر قرى هذه البلدة فيها الحمامات .

وفي الجهة الشرقية من البلد ، عن يمين الطريق الى مولد ابراهيم عليه السلام ، قرية تعرف ببيت لاهية [1] — يريدون الآلهة — وكانت فيها [2] كنيسة ، هي الآن مسجد مبارك . وكان آزر أبو ابراهيم ينحت فيها الآلهة ويصورها ، فيجيء الخليل ابراهيم ، صلوات الله عليه وعلى نبينا الكريم ، فيكسرها . وهي اليوم مسجد يجتمع فيه أهل القرية ، وسطحه كله مفروش بفصوص الرخام الملونة ، منتظم كله خواتيم وأشكالا بديعة ، يخيل لمبصرها أنها فرش متقنة [3] مزخرفة ، وهو من المشاهد الكريمة .

وللربوة المباركة أوقاف كثيرة من بساتين وأرض بيضاء ورباع [4] ، وهي معينة التقسيم لوظائفها : فمنها ما هو معين باسم النفقة في الأدم للبائتين فيها من الزوار ، ومنها ما هو معين للأكسية برسم التغطية بالليل ، ومنها ما هو معين للطعام ، الى تقاسيم تستوفي جميع مؤنها ومؤن الأمين الراتب فيها برسم الامامة ، والمؤذن الملتزم خدمتها ، ولهم على ذلك كله مرتب معلوم في كل شهر ، وهي خطة من أعظم الخطط .

والأمين فيها الآن من بقية المرابطين المسوفيين [5] ومن أعيانهم ، يعرف بأبي الربيع سليمان بن ابراهيم ابن مالك ، وله مكانة من السلطان ووجوه الدولة ، وله في الشهر خمسة دنانير — حاشى فائدة الربوة — وهو متسم بالخير ومرتسم به ، وهو متعلق بسبب من أسباب البر في ايواء أهل الغرب [1] من الغرباء ، المنقطعين بهذه الجهات ، يسبب لهم وجوه المعايش : من امامة في مسجد ، أو سكنى بمدرسة تجرى عليه فيها النفقة ، أو التزام زاوية من زوايا المسجد الجامع يجبى اليه فيها رزقه ، أو حضور في قراءة سُبع ، أو سدانة مشهد من المشاهد المباركة يكون فيه ، ويجرى عليه ما يقوم به من أوقافه ، الى غير ذلك من الوجوه المعاشية ، على هذه السبيل المباركة مما يطول شرحه .

فالغريب المحتاج هنا ، اذا كان على طريقة الخير ، مصون محفوظ غير مريق ماء الوجه . وسائر الغرباء ممن ليس على هـذه الحال ، ممن عهد الخدمة والمهنة ، يسبب [٢] له أيضا أسباب غريبة من الخدمة : اما بستان يكون ناطورا فيه ، أو حمام يكون عينا على خدمته وحافظا لأثواب داخليه ، أو طاحونة يكون أمينا عليها ، أو كفالة صبيان يؤديهم الى محاضرهم ويصرفهم الى منازلهم ، الى غير ذلك من الوجوه الواسعة .

وليس يؤتمن فيها كلها سوى المغاربة الغرباء ، لأنهم قد علا لهم بهذا البلد صيت فى الأمانة ، وطار لهم فيها ذكر ، وأهلها لا يأتمنون البلديين ، وهذا من ألطاف الله تعالى بالغرباء ، وله الحمد والشكر على ما يولى عباده . وان شاء أحد المتعلقين بأسباب المعارف التعرض هنالك للسلطان [٣] ، يقبله ويكرمه ويرتبه ، ويجرى عليه بحسب قدره ومنصبه ، قد طبعت هذه البلاد وملوكها على هذه الفضائل قديما وحديثا . وقد تسلسل بنا القول الى غير الباب الذى نحن فيه ، والحديث ذو شجون ، والله كفيل بحسن العون ، لا رب سواه .

وبغربى البلد جبانة كبيرة ، تعرف بقبور الشهداء ، فيها كثير من الصحابة والتابعين والأيمة الصالحين رضى الله عنهم . فالمشهور بها من قبور الصحابة ، رضى الله عنهم ، قبر أبى الدرداء ، وقبر زوجته أم الدرداء رضى الله عنهما . وموضع مبارك ، فيه تاريخ قديم مكتوب عليه « فى هذا الموضع قبر جماعة من الصحابة رضى الله عنهم : منهم فضالة بن عبيد ، وسهل بن الحنظلية من الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة ، وخال المؤمنين معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه » ، وقبره مسنم فى الموضع المذكور . وقرأت فى فضائل دمشق أن أم المؤمنين أم حبيبة [١] ، أخت معاوية رضى الله عنهما مدفونة بدمشق ، وقبر واثلة بن الأسقع من أهل الصفة .

وفى الجهة التى (تلى) هذا الموضع المبارك تاريخ فيه مكتوب « هذا قبر أوس بن أوس الثقفى » . وحول هذا الموضع المذكور ، على مقربة منه ، قبر بلال بن حمامة مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى رأس القبر المبارك تاريخ باسمه رضى الله عنه . والدعاء فى هذا الموضع المبارك مستجاب ، قد جرب ذلك كثير من الأولياء وأهل الخير المتبركين بزيارتهم [٢] ، الى قبور كثيرة من الصحابة وسواهم من الصالحين ، ممن قد ذهب اسمه وغبر ذكره ، ومشاهد كثيرة لأهل البيت رضى الله عنهم رجالا ونساء ، وقد احتفل الشيعة فى البناء عليهم ، ولها الأوقاف الواسعة .

ومن أحفل هذه المشاهد مشهد منسوب لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ، قد بنى عليه مسجد حفيل رائق البناء ، وبازائه بستان كله نارنج ، والماء يطرد فيه من سقاية معينة ، وللمسجد [٣] كله ستور معلقة فى جوانبه صغار وكبار ، وفى المحراب حجر

عظيم قد شق بنصفين ، والتحم [4] بينهما ، ولم يبن النصف عن [5] النصف بالكلية . يزعم الشيعة أنه انشق لعلى رضى الله عنه ، اما بضربة بسيفه أو بأمر من الأمور الالهية على يديه . ولم يذكر عن على رضى الله عنه أنه دخل قط هذا البلد ، اللهم الا ان زعموا أنه كان فى النوم ، فلعل جهة الرؤيا تصح لهم اذ لا تصح لهم جهة اليقظة . وهذا الحجر أوجب بنيان هذا المشهد .

وللشيعة فى هذه البلاد أمور عجيبة ، وهم أكثر من السنيين بها ، وقد عموا [1] البلاد بمذاهبهم . وهم فرق شتى : منهم الرافضة وهم السبابون ، ومنهم الامامية والزيدية وهم يقولون بالتفضيل خاصة ، ومنهم الاسماعيلية والنصيرية وهم كفرة ، فانهم يزعمون الالهية لعلى رضى الله عنه — تعالى الله عن قولهم — ومنهم الغرابية وهم يقولون ان عليا رضى الله عنه كان أشبه بالنبى صلى الله عليه وسلم من الغراب بالغراب ، وينسبون الى الروح الأمين عليه السلام قولا ، تعالى الله عنه علوا كبيرا ، الى فرق كثيرة يضيق عنهم الاحصاء : قد أضلهم الله ، وأضل بهم كثيرا من خلقه نسأل الله العصمة فى الدين ، ونعوذ به من زيغ الملحدين .

وسلط الله على هذه الرافضة طائفة تعرف بالنبوية [2] ، سنيون يدينون بالفتوة وبأمور الرجولة [3] كلها ، وكل من ألحقوه بهم — لخصلة يرونها فيه منها — يحرمونه [4] السراويل فيلحقونه بهم ، ولا يرون أن يستعدى أحد منهم فى نازلة تنزل به ؛ لهم فى ذلك مذاهب عجيبة ، واذا أقسم أحدهم بالفتوة بر قسمه ، وهم يقتلون هؤلاء الروافض أين ما وجدوهم ، وشأنهم عجيب فى الأنفة والائتلاف .

ومن المشاهد المكرمة مشهد سعد بن عبادة رئيس الخزرج ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو بقرية تعرف بالمنيحة شرقى البلد ، وعلى مقدار أربعة أميال منه ، وعلى قبره مسجد صغير حسن البناء ، والقبر فى وسطه ، وعند رأسه مكتوب « هذا قبر سعد بن عبادة رأس الخزرج صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

ومن مشاهد أهل البيت ، رضى الله عنهم ، مشهد أم كلثوم ابنة على بن أبى طالب رضى الله عنهما ، ويقال لها زينب الصغرى ، وأم كلثوم كنية أوقعها عليها النبى صلى الله عليه وسلم ، لشبهها بابنته أم كلثوم رضى الله عنها ، والله أعلم بذلك   ومشهدها الكريم بقرية قبلى البلد تعرف براوية [1] ، على مقدار فرسخ ، وعليه مسجد كبير ، وخارجه مساكن ، وله أوقاف ، وأهل هذه الجهات يعرفونه بقبر الست أم كلثوم . مشينا اليه ، وبتنا به ، وتبركنا برؤيته ، نفعنا الله بذلك .

وبالجبانة التى بغربى البلد ، من قبور أهل البيت ، كثير رضى الله عنهم : منها قبران عليهما مسجد ، يقال انهما من ولد الحسن والحسين رضى الله عنهما ، ومسجد آخر فيه

قبر يقال انه لسكينة بنت الحسين رضى الله عنهما ، أو لعلها سكينة أخرى من أهل البيت .

ومن المشاهد أيضا قبر بجامع النيرب ، فى بيت بالجهة الشرقية منه ، يقال انه لأم مريم رضى الله عنها . وبقرية دارية [2] قبر أبى مسلم الخولانى رضى الله عنه ، وعليه قبة هى علامة القبر ، وبها أيضا قبر أبى سليمان الدارانى رضى الله عنه . وبين هذه القرية وبين البلد مقدار أربعة أميال ، وهى لجهة الغرب منه .

ومن المشاهد الكريمة التى لم نعاينها ، ووصفت [3] لنا ، قبرا [4] شيث ونوح عليهما السلام ، وهما بالبقاع ، وهى على يومين من البلد . وحدثنا من ذرع قبر شيث ، فألفى فيه أربعين باعا ، وفى قبر نوح ثلاثين ، وبازاء قبر نوح قبر ابنة له ، وعلى هذه القبور بناء ، ولها أوقاف كثيرة ، ولها قيم يلتزمها .

ومن المشاهد المباركة أيضا بالجبانة الغربية ، وبمقربة من باب الجابية ، قبر أويس القرنى رضى الله عنه ، وقبور خلفاء بنى أمية رحمهم الله ، يقال انها بازاء باب الصغير بمقربة من الجبانة المذكورة ، وعليها اليوم بناء يسكن فيه . والمشاهد المباركة بهذه البلدة أكثر من أن تنضبط بالتقييد ، وانما رسم من ذلك ما هو مشهور ومعلوم .

ومن المشاهد الشهيرة أيضا مسجد الأقدام ، وهو على مقدار ميلين من البلد مما يلى القبلة ، على قارعة الطريق الأعظم الآخذ الى بلاد الحجاز والساحل ، وديار مصر ، وفى هذا المسجد بيت صغير فيه حجر مكتوب عليه « كان بعض الصالحين يرى النبى صلى الله عليه وسلم فى النوم فيقول له : ههنا قبر أخى موسى صلى الله عليه وسلم » . والكثيب [1] الأحمر على الطريق بمقربة من هذا الموضع ، وهو بين غالية وعتوليية كما ورد فى الأثر ، وهما موضعان .

وشأن هذا المسجد فى البركة عظيم ، ويقال ان النور ما خلا قط من هذا الموضع الذى يذكر أن القبر فيه حيث الحجر المكتوب ، وله أوقاف كثيرة . فأما الأقدام ففى حجارة فى الطريق اليه معلم عليها ، تجد أثر القدم فى كل حجر ، وعدد الأقدام تسع ، ويقال انها أثر قدم موسى عليه السلام . والله أعلم بحقيقة ذلك لا اله سواه .

شهر جمادى الاولى ، عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الجمعة بموافقة العاشر لشهر أغوشت العجمى .

ذكر جمل من احوال البلد
عمره الله بالاسلام

لهذه البلدة ثمانية أبواب : باب شرقى [2] ، وهو شرقى ، وفيه منارة بيضاء يقال ان عيسى عليه السلام ينزل فيها ، كما [3] جاء فى الأثر أنه ينزل بالمنارة البيضاء شرقى دمشق . ويلى هذا الباب باب توما ، وهو أيضا فى حيز الشرق . ثم باب السلامة . ثم باب الفراديس ، وهو شمالى . ثم باب الفرج . ثم باب النصر ، وهو غربى . ثم باب الجابية كذلك . ثم باب الصغير ، وهو بين الغرب والقبلة .

والمسجد الجامع مائل الى الجهة الشمالية من البلد ، والأرباض به مطيفة [٤] الا من جهة الشرق مع ما يتصل بها من القبلة يسيرا ، والأرباض [٥] كبار .

والبلد ليس بمفرط الكبر ، وهو [١] مائل للطول ، وسككه ضيقة مظلمة ، وبناؤه طين وقصب طبقات بعضها فوق بعض ، ولذلك ما يسرع الحريق اليه ، وهو كله ثلاث طبقات ، فيحتوى من الخلق على ما تحتوى ثلاث مدن لأنه أكثر بلاد الدنيا خلقا ، وحسنه كله خارج لا داخل .

وفى داخل البلد كنيسة لها عند الروم شأن عظيم ، تعرف بكنيسة مريم ، ليس بعد بيت المقدس عندهم أفضل منها ، وهى حفيلة البناء ، تتضمن من التصاوير أمرا عجيبا تبهت الأفكار وتستوقف الأبصار ، ومرآها عجيب ، وهى بأيدى الروم ، ولا اعتراض عليهم فيها .

وبهذه البلدة نحو عشرين مدرسة ، وبها مارستانان [٢] : قديم وحديث ، والحديث أحفلهما وأكبرهما [٣] ، وجرايته فى اليوم نحو الخمسة عشر دينارا ، وله قومة بأيديهم الأزمة المحتوية أسماء المرضى ، وعلى النفقات التى يحتاجون اليها فى الأدوية والأغذية وغير ذلك . والأطباء يبكرون اليه فى كل يوم ، ويتفقدون المرضى ، ويأمرون باعداد مايصلحهم من الأدوية والأغذية حسبما يليق بكل انسان منهم . والمارستان الآخر على هذا الرسم ، لكن الاحتفال فى الجديد أكثر ، وهذا القديم هو غربى الجامع المكرم .

وللمجانين المعتقلين [٤] أيضا ضرب من العلاج ، وهم فى سلاسل موثقون [٥] — نعوذ بالله من المحنة وسوء القدر — وتندر من بعضهم النوادر [٦] الظريفة حسب ما كنا نسمع به .

ومن أعجب ما حدثت به من ذلك أن رجلا كان يعلم القرآن ، وكان يقرأ عليه أحد أبناء وجوه البلد ممن أوتى مسحة جمال ، واسمه نصر الله ، وكان المعلم يهيم به ، فزاد كلفه حتى اختبل ، وأدى الى المارستان ، واشتهرت علته وفضيحته بالصبى . وربما كان يدخله أبوه اليه فقيل له : اخرج ، وعد لما كنت عليه من القرآن ، فقال متماجنا تماجن المجانين : وأى قراءة بقيت لى ؟ ما بقى فى حفظى من القرآن شىء سوى اذا جاء نصر الله [١] ؛ فضحك منه ومن قوله ، ونسأل [٢] الله العافية له ولكل مسلم ، فلم يزل كذلك حتى توفى ، سمح الله له .

وهذه المارستانات مفخر عظيم من مفاخر الاسلام ، والمدارس كذلك . ومن أحسن مدارس الدنيا منظرا مدرسة نور الدين رحمه الله ، وبها قبره نوره الله . وهى قصر من القصور الأنيقة ، ينصب فيها الماء فى شاذروان وسط نهر عظيم ، ثم يمتد الماء فى ساقية مستطيلة الى أن يقع فى صهريج كبير وسط الدار ، فتحار الأبصار فى حسن ذلك المنظر ،

فكل من يبصره يجدد الدعاء لنور الدين رحمه الله .

وأما الرباطات [٣] — التي يسمونها الخوانق — فكثيرة ، وهي برسم الصوفية ، وهي قصور مزخرفة ، يطرد في جميعها الماء على أحسن منظر يبصر .

وهذه الطائفة الصوفية هم الملوك بهذه البلاد ، لأنهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها ، وفرغ خواطرهم لعبادته من الفكرة في أسباب المعايش ، وأسكنهم في قصور تذكرهم قصور الجنان ، فالسعداء الموفقون منهم قد حصل لهم — بفضل الله تعالى — نعيم الدنيا والآخرة .

وهم على طريقة شريفة ، وسنة في المعاشرة عجيبة ، وسيرتهم في التزام رتب الخدمة غريبة ، وعوائدهم [٤] من الاجتماع للسماع المشوق جميلة ، وربما فارق منهم الدنيا في تلك الحالات ، المنفعل المثابر ، رقة وتشوقا . وبالجملة فأحوالهم كلها بديعة ، وهم يرجون عيشا طيبا هنيئا .

ومن أعظم ما شاهدناه لهم موضع يعرف بالقصر ، وهو صرح عظيم مستقل في الهواء ، في أعلاه مساكن لم ير أجمل اشرافا منها ، وهو من البلد بنصف الميل ، له بستان عظيم يتصل به ، وكان منتزها لأحد ملوك الأتراك . فيقال انه كان فيه احدى الليالي على راحة ، فاجتاز به قوم من الصوفية ، فهريق عليهم من النبيذ الذي كانوا يشربونه في ذلك القصر ، فرفعوا الأمر لنور الدين ، فلم يزل حتى استوهبه من صاحبه ، ووقفه برسم الصوفية مؤبدا لهم . فطال العجب من السماحة بمثله ، وبقي أثر الفضل فيه مخلدا لنور الدين رحمه الله .

ومناقب هذا الرجل الصالح كبيرة ، وكان من الملوك الزهاد ، وتوفي في شوال سنة تسع وستين وخمسمائة ، واستولى بعده على الأمر صلاح الدين ، وهو على طريقة من الفضل شهيرة ، وشأنه في الملوك كبير ، وله الأثر الباقي شرفه من ازالة المكوس بطريق الحجاز ، ودفعه عوضا عنها لصاحب الحجاز . وكانت الأيام قد استمرت قديما بهذه الضريبة اللعينة ، الى أن محا الله رسمها على يدي هذا الملك العادل ، أصلحه الله .

ومن مناقب نور الدين ، رحمه الله تعالى ، أنه كان عيّن للمغاربة الغرباء ، الملتزمين زاوية المالكية بالمسجد الجامع المبارك ، أوقافا كثيرة : منها طاحونتان ، وسبعة [١] بساتين ، وأرض بيضاء ، وحمام ، ودكانان بالعطارين . وأخبرني أحد المغاربة الذين كانوا ينظرون فيه — وهو أبو الحسن علي بن سردال الجياني ، المعروف بالأسود — أن هذا الوقف المغربي يغل ، اذا كان النظر فيه جيدا ، خمسمائة دينار في العام . وكان له ، رحمه الله ، بجانبهم فضل [٢] كبير — نفعه الله بما أسلف من الخير — وهيأ ديارا موقوفة لقراء كتاب الله عز وجل يسكنونها .

ومرافق الغرباء بهذه البلدة أكثر من أن يأخذها الاحصاء ، ولا سيما لحفاظ كتاب الله

عز وجل والمنتمين [3] للطلب ، فالشأن بهذه البلدة لهم عجيب جدا . وهذه البلاد المشرقية كلها على هذا الرسم ، لكن الاحتفال بهذه البلدة أكثر ، والاتساع أجود .

فمن شاء الفلاح من نشأة [4] مغربنا ، فليرحل الى هذه البلاد ، ويتغرب فى طلب العلم ، فيجد الأمور المعينات كثيرة : فأولها فراغ البال من أمر المعيشة — وهو أكبر الأعوان وأهمها — فاذا كانت الهمة ، فقد وجد السبيل الى الاجتهاد ، ولا عذر للمقصر الا من يدين بالعجز والتسويف ، فذلك من لا يتوجه هذا الخطاب عليه ، وانما المخاطب كل ذى همة يحول طلب المعيشة بينه وبين مقصده فى وطنه من الطلب العلمى .

فهذا المشرق بابه مفتوح لذلك ، فادخل أيها المجتهد بسلام ، وتغنم الفراغ والانفراد قبل علق الأهل والأولاد ، ويقرع سن الندم على زمن التضييع [1] ، والله يوفق ويرشد لا اله سواه . قد نصحت ان ألفيت [2] سامعا ، وناديت ان أسمعت مجيبا . ومن يهد [3] الله فهو المهتدى ، جلت قدرته وتعالى جده .

ولو لم يكن بهذه الجهات المشرقية كلها الا مبادرة أهلها لاكرام الغرباء ، وايثار الفقراء — ولا سيما أهل باديتها ، فانك تجد من بدلر الى بر الضيف عجبا — كفى [4] بذلك شرفا لها . وربما يعرض أحدهم كسرته على فقير ، فيتوقف عن قبولها ، فيبكى الرجل ويقول : لو علم الله [5] فى خيرا لأكل الفقير طعامى . لهم فى ذلك سر شريف .

ومن عجيب أمرهم تعظيمهم للحاج ، على قرب مسافة الحج منهم ، وتيسير ذلك لهم ، واستطاعتهم لسبيله ؛ فهم يتمسحون بهم عند صدورهم ، ويتهافتون عليهم تبركا بهم . ومن أغرب ما حدثناه من ذلك أن الحاج الدمشقى ، مع من انضاف اليهم من المغاربة ، عند صدورهم الى دمشق فى هذا العام الذى هو عام ثمانين ، خرج الناس لتلقيهم ، الجم الغفير نساء ورجالا ، يصافحونهم ويتمسحون بهم ، وأخرجوا الدراهم لفقرائهم يتلقونهم بها ، وأخرجوا اليهم الأطعمة .

فأخبرنى من أبصر كثيرا من النساء يتلقين الحاج ، ويناولنهم الخبز ، فاذا عض الحاج فيه اختطفته من أيديهم ، وتبادرن لأكله تبركا بأكل الحاج له ، ودفعن له عوضا منه دراهم ، الى غير ذلك من الأمور العجيبة ، ضد ما اعتدنا فى المغرب فى ذلك ، وصنع بناء فى بغداد — عند تلقى الحاج بها — مثل ذلك أو قريب منه .

ولو شئنا استقصاء هذه الأمور لخرجت بنا عن مقصد التقييد ، وانما وقع الالماع بلمحة دالة يكتفى بها عن التطويل . وكل من وفقه الله بهذه الجهات من الغرباء للانفراد ، يلتزم ان أحب ضيعة من الضياع ، فيكون فيها طيب العيش ، ناعم البال ، وينثال الخبز عليه من أهل الضيعة ، ويلتزم الامامة [1] أو التعليم أو ما شاء ، ومتى سئم المقام خرج الى ضيعة

اخرى ، أو يصعد الى جبل لبنان أو الى جبل الجودى ، فيلقى بها المريدين المنقطعين الى الله عز وجل ، فيقيم معهم ما شاء ، وينصرف الى حيث شاء .

ومن العجب أن النصارى المجاورين لجبل لبنان اذا رأوا به أحد المنقطعين من المسلمين ، جلبوا لهم القوت ، وأحسنوا اليهم ويقولون : هؤلاء ممن انقطع الى الله عز وجل فتجب مشاركتهم [٢] . وهذا الجبل من أخصب جبال الدنيا ، فيه أنواع الفواكه ، وفيه المياه المطردة والظلال الوارفة ، وقل ما يخلو من التبتل والزهادة . واذا كانت معاملة النصارى لضد ملتهم هذه المعاملة ، فما ظنك بالمسلمين بعضهم مع بعض !

ومن أعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين : مسلمين ، ونصارى ، وربما يلتقى الجمعان ، ويقع المصاف بينهم ، ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم .

شاهدنا فى هذا الوقت — الذى هو شهر جمادى الأولى — من ذلك خروج صلاح الدين بجميع عسكر المسلمين لمنازلة حصن الكرك ، وهو من أعظم حصون النصارى ، وهو المعترض فى طريق الحجاز ، والمانع لسبيل المسلمين على البر ، بينه وبين القدس مسيرة يوم أو أشفه قليلا ، وهو سرارة [٣] أرض فلسطين ، وله نظر عظيم الاتساع متصل العمارة يذكر أنه ينتهى الى أربعمائة قرية . فنازله هذا السلطان ، وضيق عليه ، وطال حصاره ، واختلاف القوافل من مصر الى دمشق على بلاد الافرنج غير منقطع ، واختلاف المسلمين من دمشق الى عكة كذلك ، وتجار النصارى أيضا لا يمنع أحد منهم ولا يعترض .

وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها فى بلادهم ، وهى من الأمنة على غاية [١] ، وتجار النصارى أيضا يؤدون فى بلاد المسلمين على سلعهم ، والاتفاق بينهم والاعتدال فى جميع الأحوال ، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم ، والناس فى عافية ، والدنيا لمن غلب .

هذه سيرة أهل هذه البلاد فى حربهم ، وفى الفتنة [٢] الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك ، ولا تعترض [٣] الرعايا ولا التجار ، فالأمن لا يفارقهم فى جميع الأحوال سلما أو حربا . وشأن هذه البلاد فى ذلك أعجب من أن يستوفى الحديث عنه ، والله يعلى كلمة الاسلام بمنه .

ولهذه البلدة قلعة يسكنها السلطان منحازة فى الجهة الغربية من البلد ، وهى بازاء باب الفرج من أبواب البلد ، وبها جامع السلطان يجمع فيه ، وعلى مقربة منها — خارج البلد فى جهة الغرب — ميدانان كأنهما مبسوطان خزا لشدة خضرتهما ، وعليهما حلق [٤] ، والنهر بينهما ، وغيضة عظيمة من الحور متصلة بهما ، وهما من أبدع المناظر : يخرج السلطان اليهما ، ويلعب فيهما بالصوالجة ، ويسابق بين الخيل فيهما ، ولا مجال للعين كمجالها فيهما ، وفى كل ليلة يخرج أبناء

السلطان اليهما للرماية والمسابقة واللعب بالصوالجة .

وبهذه البلدة أيضا قرب مائة حمام فيها وفى أرباضها ، وفيها نحو أربعين دارا للوضوء يجرى الماء فيها كلها ، وليس فى هذه البلاد كلها بلدة أحسن منها للغريب ، لأن المرافق بها كثيرة ، وفى الذى ذكرناه من ذلك كفاية ، والله يبقيها دار اسلام بمنه .

وأسواق هذه البلدة من أحفل أسواق البلاد ، وأحسنها انتظاما وأبدعها وضعا ، ولا سيما قيسارياتها ، وهى مرتفعات كأنها الفنادق ، مثقفة كلها بأبواب حديد كأنها أبواب * القصور ، وكل قيسارية منفردة بصيغتها ، وأغلاقها الجديدة . ولها أيضا سوق ، يعرف بالسوق الكبير ، يتصل من باب الجابية الى باب شرقى ، وفيه [1] بيت صغير جدا قد اتخذ مصلى ، وفى قبلته حجر يقال ان ابراهيم صلى الله عليه وسلم كان يكسر عليه الآلهة التى كان يسوقها أبوه للبيع .

وحديث الدار المنسوبة لعمر بن عبد العزيز التى هى اليوم خانقة للصوفية ، وهى فى الدهليز الذى فى الباب الشمالى ، المعروف بباب الناطفيين — وقد تقدم التنبيه عليه قبل هذا — حديث عجيب . وذلك أن الذى اشتراها وبناها ، وجعل لها الأوقاف الواسعة ، وأمر بأن يدفن فيها ، وأن يختم على قبره القرآن كل جمعة ، وعين من تلك الأوقاف لمن يحضر ذلك كل جمعة رطلا من

خبز الحوّارى ، وهو ثلاثة أرطال من أرطال المغرب ، رجل من العجم يعرف بالسميساطى — وسميساط [2] بلدة من بلاد العجم — وكان موصوفا بالورع والزهد .

وأصل يساره وتموله — فيما ذكر لنا — أنه ألفى يوما من الأيام بالدهليز المذكور ، ازاء الدار المذكورة ، رجلا أسود مريضا مطروحا بموضعه ، غير ملتف اليه ولا معتنى به ، فتأجر فيه ، والتزم تمريضه وخدمته والنظر له اغتناما للثواب من الله عز وجل .

فحانت وفاة الرجل ، فاستدعى ممرضه السميساطى [3] المذكور ، فقال له : أنت قد أحسنت الى وخدمتنى ، ولطفت فى تمريضى ، وأشفقت لحالى وغربتى ، فأنا أريد أن أكافئك على فعلك بى ، زائدا الى مكافأة الله عز وجل عنى فى الآجل ، ان شاء الله .

وذلك أنى كنت من أحد فتيان الخليفة المعتضد العباسى ، ومعروفا بزمام الدار ، وكانت لى حظوة ومكانة ، فعتب على فى بعض الأمر ، فخرجت طريدا ، فانتهيت الى هذه البلدة ، فأصابنى فيها من أمر الله ما أصابنى ، فسبك الله لى رحمة .

فأنا أقلدك أمانة ، وأعهد اليك فيها عهدا : اذا أنا مت وغسلتنى ، فانهض على بركة الله تعالى الى بغداد ، وتلطف فى السؤال عن دار صاحب الزمام فتى الخليفة ، فاذا أرشدت اليها [1] ، فصرف الحيلة فى اكترائها ، وأرجو أن الله يعينك على ذلك . واذا سكنتها ، فاعمد الى موضع — سماه له فيها ، وذكر

له أمارة عليه — فاحفر فيه مقدار كذا ، وانزع اللوح الذى تجده معترضا تحت الأرض ، وخذ الذى تجده مدفونا تحت الأرض ، وصرفه فى منافعك وما يوفقك الله اليه من وجوه البر والخير ، مباركا لك فى ذلك ان شاء الله .

ثم توفى الرجل الموصى رحمه الله ، وتوجه الموصى اليه بعهده الى بغداد ، فيسر الله له فى اكتراء الدار ، وانتهى الى الموضع المذكور ، فاستخرج منه ذخائر لا قيمة لها ، عظيمة الشأن كبيرة القدر ، فدسها فى أحمال متاع ابتاعها ، وخرج الى دمشق من بغداد ، فابتاع الدار المذكورة — المنسوبة لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه — وبناها خانقة للصوفية ، واحتفل فيها ، وابتاع لها الأوقاف ضياعا ورباعا ، وجعلها برسم الصوفية ، وأوصى بأن يدفن فيها ، وأن يختم القرآن على قبره كل جمعة ، وعين لكل من يحضر ذلك ما ذكرناه .

فوجد الغرباء والفقراء فى ذلك مرفقا كثيرا [٣] ، فتخص الخانقة بالقراءة كل جمعة ، فاذا ختموا القرآن دعوا له وانصرفوا واندفع لكل واحد منهم رطل من الخبز على الصفة المذكورة . وبقى للمتوفى جميل الأثر والخير ، رحمة الله ورضوانه عليه .

والكوثرية التى ذكرناها أيضا بالجامع المكرم — المقروءة كل يوم بعد العصر ، المعينة لمن لا يحفظ القرآن — كان أصلها أيضا أن أحد ذوى اليسار توفى وأوصى بأن يدس قبره فى الجامع المكرم ، وأوقف وقفا يغل مائة وخمسين دينارا فى السنة برسم من لا يحفظ القرآن ، ويقرأ من سورة الكوثر الى الخاتمة ، فينقسم له أربعون دينارا [١] فى كل ثلاثة أشهر من السنة .

ويذكر أن أحد الملوك السالفين توفى أيضا ، وأوصى بأن يجعل قبره فى قبلة الجامع المكرم بحيث لا يظهر ، وعين أوقافا عظيمة تغل نحو الألف دينار وأربعمائة دينار فى السنة ، وزائدا [٢] لقراء سبع القرآن كل يوم . وموضع الاجتماع لقراءة هذا السبع المبارك ، كل يوم اثر صلاة الصبح ، بالجهة الشرقية من مقصورة الصحابة رضى الله عنهم .

ويقال ان فى ذلك الموضع هو القبر المذكور ، وقراءة السبع لا تتعدى ذلك الموضع متصلا مع جدار القبلة الى الجدار الشرقى ، والله عز وجل لا يضيع أجر المحسنين .

وبقيت هذه الرسوم الشريفة مخلدة مع الأيام ، نفع الله بها راسميها ، وناهيك فيها من بلاد يهدى فيها لهذه الصنائع المزلفة لرضوان الله عز وجل .

وللفقراء الملتزمين الجلوس فى الجانب الشرقى من الجامع المكرم ، الذين ليس لهم مأوى يأوون اليه ، وقف وضعه بعض المتأجرين الموفقين [٣] برسمهم ، الى ما يطول ذكره من المآثر الأخراوية الصدقية ، التى كفل الله بها غرباء هذه الجهات .

ومن عادة أهل دمشق وسائر تلك البلاد [٤] المستحسنة ، المرجو لهم فيها من الله عز وجل

قبول ، أنهم فى كل سنة يتوخــون الوقوف يوم عرفة بجوامعهم اثر صلاة العصر : يقف بهم أيمتهم كاشفى رؤوسهم داعين الى ربهم ، التماسا لبركة الساعة التى يقف فيها وفد الله عز وجل وحجيج بيته الحرام بعــرفات ؛ فلا يزالون واقفين ، داعين متضرعين الى الله عز وجل ، وبحجاج بيته الحرام متوسلين ، الى أن يسقط قرص الشــمس ، ويقــدروا نفر الحاج ، فينفصلوا باكين على ما حرموه من ذلك .. الموقف العظيم بعرفات ، وداعين الى الله عز وجل فى أن يوصلهم اليها ، ولا يخليهم من بركة القبول فى فعلهم ذلك .

ومن أعظم ما شــاهدناه من منــاظر الدنيا الغريبة الشأن ، وهيــاكلها الهائــلة البنيان ، المعجزة الصــنعة والاتقان ، المعترف لوصفها بالتقصير لسان كل بيان ، الصعود الى أعــلى قبة الرصــاص المذكورة فى هــذا التقييد ، القائمة وسط الجامع المكرم ، والدخول فى جــوفها ، واجالة لحظ الاعتبــار فى بديــع وضعها [1] مع القبــة التى فى وســطها ، كأنها كرة مجــوفة داخــلة وســط كــرة أخرى أعظم منها .

صعدنا اليــه فى جملة من الأصــحاب المغاربة ، ضــحوة يوم الاثنين الثــامن عشر لجمــادى الأولى المذكــورة ، من مرقى فى الجانب الغربى من بلاط الصحن كان صومعة فى القديم ، وتمشــينا على ســطح الجامع المكرم — وكله ألواح رصاص منتظمة كما قد تقــدم الذكر لذلك ، وطــول كل لوح أربعة أشبار ، وعرضه ثلاثة أشبار ، وربما اعترض فى الألواح نقص أو زيادة — حتى انتهينــا الى القبة المذكورة ، فصعدنا اليها على سلم منصــوب ، وريح المــيد تــكاد تطير بنــا ، فحبونا [2] فى المشى المطيف بها — وهــو من رصاص وسعته ستة أشبار — فلم نســتطع القيام عليه لهول الموقف فيه .

فأسرعنا الولوج فى جوف القبة ، على أحد شراجيبها المفتحــة فى الرصــاص ، فأبصرنا مرأى تحار فيه العقــول ، وتقف دون ادراك هيبة وصــفه الأفهام ، وجلنــا فى فرش من الخشب العظام حول القبة الصغيرة ، الداخلة فى جــوف الرصــاصية على الصــفة التى ذكرناها ، ولها طيقان يبصر منها الجامع ومن فيه ، فكنا نبصر الرجال فيه كأنهم الصــبيان فى المحاضر .

وهذه القبة مستديرة كالــكرة ، وظاهرها من خشب قــد شــد بأضــلاع من الخشب الضخام ، موثقة بنطق من الحديد ، ينعطف كل ضلع عليها كالدائره ، وتجتمع الأضــلاع كلها فى مركز ، دائرة من الخشب أعلاها . وداخل هذه القبة — وهــو ما يلى الجــامع المكرم — خواتيم من الخشب منتظم بعضها ببعض ، قد اتصل اتصالا عجيبا ، وهى كلها مذهبة بأبدع صنعة من التــذهيب ، مزخرفة التلوين بديعة القرنصــة ، يرتمى الأبصار [1] شعاع ذهبها ، وتتحير الألباب فى كيفية عقدها ووضعها لافراط سموها .

أبصرنا من تلك الخواتيم [٢] الخشبية خاتما مطروحا جوف القبة ، لم يكن طوله أقل من ستة أشبار في عرض أربعة ؛ وهي تلوح في انتظامها للعين كأن دور كل واحد [٣] منها شبر أو شبران الغاية لعظم سموها .

والقبة الرصاص محتوية على هذه القبة المذكورة ، وقد شدت أيضا بأضلاع عظيمة من الخشب الضخام ، موثقة الأوساط بنطق الحديد ، وعددها ثمان [٤] وأربعون ضلعا ، بين كل ضلع وضلع أربعة أشبار ، قد انعطفت انعطافا عجيبا ، واجتمعت أطرافها في مركز دائرة من الخشب أعلاها . ودور هذه القبة الرصاصية ثمانون خطوة ، وهي مائتا شبر وستون شبرا ، والحال فيها أعظم من أن يبلغ [٥] وصفها ، وانما هذا الذي ذكرناه نبذة يستدل بها على ما وراءها .

وتحت الغارب المستطيل المسمى النسر ، الذي تحت هاتين القبتين ، مدخل عظيم هو سقف للمقصورة ، بينه وبينها سماء جص مزينة ، وقد استنم فيه من الخشب مالا يحصى عدده ، وانعقد بعضها ببعض ، وتقوس [٦] بعضها على بعض ، وتركبت تركيبا هائلا منظره ، وقد أدخلت في الجدار كله دعائم للقبتين المذكورتين .

وفي ذلك الجدار حجارة ، كل واحد منها يزن قناطير مقنطرة ، لا تنقلها الفيلة فضلا عن غيرها . فالعجب كل العجب من تطليعها الى ذلك الموضع المفرط السمو ، وكيف تمكنت القدرة البشرية لذلك ! فسبحان من ألهم عباده الى هذه الصنائع العجيبة ، ومعينهم على التأتي لما ليس موجودا في طباعهم البشرية ، ومظهر آياته على أيدي من يشاء من خلقه ، لا اله سواه .

والقبتان على قاعدة مستديرة من الحجارة العظيمة ، قد قامت فوقها أرجل قصار ضخام من الحجارة الصم الكبار ، وقد فتح بين كل رجل ورجل شمسية ، واستدارت الشمسيات باستدارتها . والقبتان في رأى العين واحدة ، وكنينا عنها باثنتين لكون الواحدة في جوف الأخرى ، والظاهر منها قبة الرصاص .

ومن جملة عجائب ما عايناه في هاتين القبتين أن لم نجد فيهما عنكبوتا ناسجا ، على بعد العهد من التفقد لهما [١] من أحد ، والتعاهد لتنظيف مساحتهما ، والعنكبوت في أمثالهما [٢] موجود كثير . وقد كان حقق عندنا أن الجامع المكرم لا تنسج فيه العنكبوت ، ولا يدخله الطير المعروف بالخطاف ، وقد تقدم ذكرنا لذلك في هذا التقييد .

فانصرفنا منحدرين ، وقد قضينا عجبا عجابا من هذا المنظر العظيم شأنه ، المعجز وضعه ، المترفع عن الادراك وصفه . ويقال انه ما على ظهر المعمور أعجب منظرا ، ولا أبعد سموا ، ولا أغرب بنيانا ، من هذه القبة . الا ما يحكى عن قبة بيت المقدس ، فانها يذكر [٣] أنها أبعد في الارتفاع والسمو من هذه .

وجمله الأمر أن منظرها ، والوقوف على هيئة وضعها ، وعظيم الاستقداد فيها عند معاينتها ، بالصعود اليها ، والولوج داخلها — من أغرب ما يحدث به من عجائب الدنيا . والقدرة لله الواحد القهار ، لا اله سواه .

ولأهل دمشق وغيرها من هذه البلاد في جنائزهم رتبة عجيبة . وذلك أنهم يمشون أمام الجنازة بقراء يقرءون القرآن بأصوات شجية ، وتلاحين مبكية تكاد تنخلع لها النفوس شجوا وحنانا [4] : يرفعون أصواتهم بها [5] فتتلقى الآذان بأدمع الأجفان[6] ، وجنائزهم يصلى عليها في الجامع قبالة المقصورة ، فلا بد لكل جنازة من الجامع . فاذا انتهوا الى بابه قطعوا القراءة ، ودخلوا الى موضع الصلاة عليها . الا أن يكون الميت من أيمة الجامع أو من سدنته ، فان الحالة المميزة له في ذلك أن يدخلوه بالقراءة الى موضع الصلاة عليه .

وربما اجتمعوا للعزاء بالبلاط الغربي من الصحن ، بازاء باب البريد ، فصلون أفرادا أفرادا ، ويجلسون وأمامهم ربعات من القرآن يقرءونها ، ونقباء الجنائز يرفعون أصواتهم بالنداء لكل واصل للعزاء من محتشمي البلدة وأعيانهم ، ويحلونهم بخططهم الهائلة التي قد وضعوها لكل واحد منهم بالاضافة الى الدين ، فتسمع ما شئت من صدر الدين أو شمسه أو بدره أو نجمه أو زينه أو بهائه أو جماله أو مجده أو فخره أو شرفه أو معينه أو محييه أو زكيه أو نجيبه ، الى ما لا غاية له من هذه الألفاظ الموضوعة وتتبعها [1] ، ولا سيما في الفقهاء بما شئت أيضا ، من سيد [2] العلماء ، وجمال الأيمة ، وحجة الاسلام ، وفخر الشريعة ، وشرف الملة ، ومفتي الفريقين ، الى ما لا نهاية له من هذه الألفاظ المحالية .

فيصعد كل واحد منهم الى الشريعة ساحبا أذياله من الكبر ، ثانيا عطفه وقذاله . فاذا استكملوا وفرغوا من القراءة ، وانتهى المجلس بهم منتهاه ، قام وعاظهم واحدا واحدا — بحسب رتبهم في المعرفة — فوعظ وذكر ، ونبه على خدع الدنيا وحذر ، وأنشد في المعنى ما حضر من الأشعار ، ثم ختم بتعزية صاحب المصاب والدعاء له وللمتوفى ، ثم قعد وتلاه آخر على مثل طريقته الى أن يفرغوا ويتفرقوا . فربما كان مجلسا نافعا لمن يحضره من الذكرى .

ومخاطبة أهل هذه الجهات قاطبة بعضهم لبعض بالتمويل والتسويد ، وبامتثال الخدمة ، وتعظيم الحضرة . واذا لقي أحد منهم آخر مسلما يقول : جاء المملوك أو الخادم برسم الخدمة ، كناية عن السلام ، فيتعاطون المحال تعاطيا ، والحد عندهم عنقاء مغرب ، وصفة سلامهم ايماء للركوع أو السجود فترى الأعناق تتلاعب بين رفع وخفض وبسط وقبض ، وربما طالت بهم الحالة في ذلك : فواحد ينحط ، وآخر يقوم ، وعمائمهم تهوى بينهم هويا

وهذه الحالة من الانعطاف الركوعي في السلام ، كنا عهدناه لقينات النساء ، وعند استعراض رقيق الاماء . فيا عجبا لهؤلاء لرجال ! كيف تحلوا بسمات ربات الحجال ؟ قد ابتذلوا أنفسهم فيما تأنف النفوس الأبية منه ، واستعملوا تكفير الذمي المنهي في لشرع عنه ، لهم في هذا الشأن طرائق عجيبة في الباطل . فيا للعجب منهم اذا تعاملوا بهذه المعاملة ، وانتهوا الى هذه الغاية في الألفاظ بينهم ! فبماذا [1] يخاطبون سلاطينهم ويعاملونهم ؟ لقد تساوت الأذناب عندهم والرؤوس ، ولم يميز لديهم الرئيس والمرؤوس . فسبحان خالق الخلق أطوارا ، لا شريك له ولا معبود سواه .

ومن عجيب حال الصغير عندهم والكبير ، بجميع هذه الجهات كلها ، أنهم يمشون وأيديهم الى خلف ، قابضين بالواحدة على الأخرى ، ويركعون للسلام على تلك الحالة المشبهة بأحوال العناة [2] مهانة واستكانة ، كأنهم قد سيمروا تمييزا و[illegible] تكتيفا . وهم يعتقدون تلك الهيئة [3] تمييزا لهم في ذوي الخصوصية وتشريفا ، ويزعمون أنهم يجدون بها نشاطا في الأعضاء وراحة من الاعياء . والمحتشم منهم من يسحب ذيله على الأرض شبرا ، أو يضع خلفه اليد الواحدة على الأخرى ، قد اتخذوا هذه المشية بينهم سننا ، وكل منهم قد زين له سوء عمله فرآه حسنا .

أستغفر الله منهم ، فان لهم من آداب المصافحة عوائد تجدد لهم الايمان ، وتستوهب لهم من الله الغفران ، لما بشر به الحديث المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في المصافحة ، فهم يستعملونها اثر الصلوات — ولا سيما اثر صلاة الصبح وصلاة العصر — واذا سلم الامام وفرغ من الدعاء ، أقبلوا عليه بالمصافحة ، وأقبل بعضهم على بعض يصافح المرء عن يمينه وعن يساره ، فيتفرقون عن مجلس مغفرة ، بفضل الله عز وجل .

وقد تقدم الذكر ، فيما سلف من هذا التقييد ، أنهم يستعملونها عند رؤية الأهلة ، ويدعو بعضهم لبعض ، بتعرف بركة ذلك الشهر ويمنه ، واستصحاب السعادة والخير فيه وفيما يعود عليه من أمثاله . وتلك أيضا طريقة حسنة ينفعهم الله بها ، لما فيها من تعاطي الدعوات ، وتجديد المودات ، ومصافحة المؤمنين بعضهم بعضا ، رحمة من الله تعالى ونعمة .

وقد تقدم الذكر أيضا في غير موضع من هذا الكتاب عن حسن سيرة السلطان بهذه الجهات ، صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب ، وما له من المآثر المأثورة في الدنيا والدين ، ومثابرته على جهاد أعداء الله : لأنه ليس أمام هذه البلدة بلدة للاسلام ، والشام أكثره بيد الافرنج ؛ فسبب الله هذا السلطان رحمة للمسلمين بهذه الجهات ، فهو لا يأوي لراحة ، ولا يخلد الى دعة ، ولا يزال سرجه مجلسه . انا بهذه البلدة نازلون [1] منذ شهرين اثنين ، وحللناها وقد خرج لمنازلة حصن الكرك — وقد تقدم

الذكر أيضا له — وهو عليه محاصر له حتى الآن . والله تعالى يعينه على فتحه .

وسمعنا أحد فقهاء هذه البلدة وزعمائها المسلمين ، بسدة [2] هذا السلطان والحاضرين مجلسه ، يذكر عنه — فى حضرة محفل علماء البلد وفقهائه — ثلاث مناقب ، فى ثلاث كلمات حكاها عنه ، رأينا اثباتها هنا :

احداها [3] أن الحلم من سجاياه ، فقال — وقد صفح عن جريرة أحد الجناة عليه — : « أما أنا فلأن أخطىء فى العفو أحب الى من أن أصيب فى العقوبة » ، وهذا فى الحلم منزع أحنفى .

وقال أيضا — وقد تنوشدت بحضرته الأشعار ، وجرى ذكر من سلف من أكارم الملوك وأجوادهم * — : « والله لو وهبت الدنيا للقاصد الآمل لما كنت أستكثرها له ، ولو استفرغت له جميع ما فى خزانتى لما كان عوضا مما أراقه من حر ماء وجهه فى استمناحه اياى » ، وهذا فى الكرم مذهب رشيدى أو جعفرى .

وحضره أحد مماليكه ، المتميزين لديه بالحظوة والأثرة ، مستعديا على جمال ذكر أنه باعه جملا معيبا ، أو صرف عليه جملا بعيب لم يكن فيه ، فقال السلطان له : « ماعسى أن أصنع لك ، وللمسلمين قاض يحكم بينهم ، والحق الشرعى مبسوط للخاصة والعامة ، وأوامره ونواهيه ممتثلة ، وانما أنا عبد الشرع وشحنته — والشحنة عندهم صاحب الشرطة — فالحق يقضى لك أو عليك » ، وهذا فى العقد مقصد عمرى .

وهذه كلمات كفى بها لهذا السلطان فخرا ، والله يمتع ببقائه الاسلام والمسلمين ، بمنه .

شهر جمادى الآخرة ، عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الأحد ، التاسع من شهر شتنبر العجمى ، ونحن بدمشق — حرسها الله — على قدم الرحلة الى عكة — فتحها الله — والتماس ركوب البحر مع تجار النصارى ، وفى مراكبهم المعدة لسفر الخريف ، المعروف عندهم بالصليبية ، عرفنا الله فى ذلك معهود خيرته وتكفلنا بكلاءته وعصمته ، بعزته وقدرته . انه سبحانه الحنان المنان ، ولى الطول والاحسان ، لا رب غيره .

وكان انفصالنا منها عشى يوم الخميس الخامس من الشهر المذكور — وهو الثالث عشر من شهر شتنبر المذكور — فى قافلة كبيرة من التجار المسافرين بالسلع الى عكة . ومن أعجب ما يحدث به فى الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج الى بلاد الافرنج ، وسبيهم يدخل الى بلاد المسلمين .

شاهدنا من ذلك عند خروجنا أمرا عجيبا . وذلك أن صلاح الدين عند منازلته حصن الكرك — المتقدم الذكر فى هذا التاريخ — قصد اليه الافرنج فى جميعهم ، وقد تألبوا من كل أوب ، وراموا أن يسبقوه الى

موضع الماء ، ويقطعوا عنه الميرة من بلاد المسلمين ، فصمد اليهم ، وأقلع عن الحصن بجملته ، وسبقهم الى موضع الماء ، فحادوا عن طريقه ، وسلكوا طريقا وعرا ذهب فيه أكثر دوابهم ، وتوجهوا الى حصن الكرك المذكور ، وقد سد عليهم بنيات الطرق القاصدة الى بلادهم ، ولم يبق لهم الا طريق عن الحصن يأخذ على الصحراء ، ويبعد مداه عليهم بتحليق يعترض فيه .

فاهتبل [1] صلاح الدين فى بلادهم الغرة [2] ، وانتهز الفرصة ، وقصد قصدها عن الطريق القاصدة ، فدهم مدينة نابلوس ، وهجمها بعسكره ، فاستولى عليها ، وسبى كل من فيها ، وأخذ اليها حصونا وضياعا ، وامتلأت أيدى المسلمين سبيا لا يحصى عدده من الافرنج ومن فرقة من اليهود تعرف بالسمرة ، منسوبة الى السامرى ، وانبسط فيهم القتل الذريع ، وحصل المسلمون منها على غنائم يضيق الحصر عنها ، الى ما اكتنفت [3] من الأمتعة والذخائر والأسباب والأثاث ، الى النعم والكراع الى غير ذلك .

وكان من فعل هذا السلطان الموفق أن أطلق أيدى المسلمين على جميع ما احتازته ، وسلم لهم ذلك ، فاحتازت كل يد (ما) حوت ، وامتلأت غنى ويسارا ، وعفى الجيش على رسوم تلك الجهات التى مر عليها من بلاد الفرنج ، وآبو غانمين فائزين بالسلامة والغنيمة والاياب ، وتخلصوا من أسرى المسلمين عددا كثيرا ، وكانت غزوة لم يسمع بمثلها [4] فى البلاد .

وخرجنا نحن من دمشق وأوائل المسلمين قد طرقوا بالغنائم ، كل [5] بما احتواه وحصلت يده عليه ، وكان مبلغ السبى آلافا لم تتحقق احصاءها . ولحق السلطان بدمشق يوم السبت بعدنا ، الأقرب ليوم انفصالنا ، وأعلمنا أنه يجم [6] عسكره قليلا ويعود الى الحصن المذكور . فالله يعينه ، ويفتح عليه ، بعزته وقدرته .

وخرجنا نحن الى بلاد الفرنج ، وسبيهم يدخل بلاد المسلمين . وناهيك من هذا الاعتدال فى السياسة ! فكان مبيتنا ليلة الجمعة بدارية ، وهى قرية من دمشق على مقدار فرسخ ونصف . ثم رحلنا منها سحر يوم الجمعة بعده الى قرية تعرف ببيت جَن هى بين جبال .

ثم رحلنا منها صبيحة يوم السبت الى مدينة بانياس ، واعترضنا فى نصف الطريق شجرة بلوط ، عظيمة الجرم متسعة التدويح ، أعلمنا أنها تعرف بشجرة الميزان . فسألنا عن ذلك ، فقيل لنا هى حد بين الأمن والخوف فى هذه الطريق لحرامية الافرنج — وهم الحواسة والقطاع — من أخذوه وراءها الى جهة بلاد المسلمين ولو بباع أو شبر أسر ، ومن أخذ دونها الى جهة بلاد الافرنج بقدر ذلك أطلق سبيله ؛ لهم فى ذلك عهد يوفون به وهو من أظرف الارتباطات الافرنجية وأغربها .

ذكر مدينة بانياس ، حماها الله تعالى

هذه المدينة ثغر بلاد المسلمين ، وهى صغيرة ، ولها قلعة يستدير بها تحت السور

نهر ، ويفضي الى أحد أبواب المدينة ، وله [1] مصب تحت أرحاء . وكانت بيد الافرنج ، فاسترجعها نور الدين رحمه الله .

ولها محرث واسع في بطحاء متصلة يشرف عليها حصن للافرنج يسمى هونين ، بينه وبين بانياس مقدار ثلاثة فراسخ ، وعمالة تلك البطحاء بين الافرنج وبين المسلمين ، لهم في ذلك حد يعرف بحد المقاسمة ، فهم يتشاطرون الغلة على استواء ، ومواشيهم مختلطة ، ولا حيف يجرى بينهم [2] فيها .

فرحلنا عنها عشى يوم السبت المذكور الى قرية تعرف بالمسية [3] بمقربة من حصن الافرنج المذكور ، فكان مبيتنا بها . ثم رحلنا منها يوم الأحد سحرا ، واجتزنا فى طريقنا بين هونين وتبنين [4] بواد ملتف الشجر — وأكثر شجره الرند — بعيد العمق ، كأنه الخندق السحيق المهوى ، تلتقى حافتاه ، ويتعلق بالسماء أعلاه ، يعرف بالأسطيل ، لو ولجته العساكر لغابت فيه ، لا منجى ولا مجال لسالكه عن يد الطالب فيه ، المهبط اليه والمطلع عنه عقبتان كؤودان .

فعجبنا من أمر ذلك المكان ، فأجزناه ومشينا عنه يسيرا ، وانتهينا الى حصن كبير من حصون الافرنج يعرف بتبنين [1] . وهو موضع تمكيس القوافل ، وصاحبته خنزيرة تعرف بالملكة ، هى أم الملك الخنزير صاحب عكة ، دمرها الله .

فكان مبيتنا أسفل ذلك الحصن ، ومكس الناس تمكيسا غير مستقصى ، والضريبة فيه دينار وقيراط من الدنانير الصورية على الرأس ، ولا اعتراض على التجار فيه ، لأنهم يقصدون موضع الملك الملعون ، وهو محل التعشير ، والضريبة فيه قيراط من الدينار ، والدينار أربعة وعشرون قيراطا .

وأكثر المعترضين فى هذا المكس المغاربة ، ولا اعتراض على غيرهم [2] من جميع بلاد المسلمين ، وذلك لمقدمة منهم أحفظت الافرنج عليهم ، سببها : أن طائفة من أنجادهم غزت مع نور الدين رحمه الله ، أحد الحصون ، فكان لهم فى أخذه غنى ظهر واشتهر ، فجازاهم الافرنج بهذه الضريبة المكسية ألزموها رؤوسهم ، فكل مغربى يزن على رأسه الدينار المذكور في اختلافه على بلادهم .

وقال الافرنج : ان هؤلاء المغاربة كانوا يختلفون على بلادنا ، ونسالمهم ولا نرزأهم شيئا . فلما تعرضوا لحربنا ، وتألبوا مع اخوانهم المسلمين علينا ، وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم . فللمغاربة فى أداء هذا المكس سبب من الذكر الجميل فى نكايتهم العدو يسهله عليهم ، ويخفف عنته [3] عنهم .

ورحلنا من تبنين [4] — دمرها الله — سحر يوم الاثنين ، وطريقنا كله على ضياع متصلة وعمائر منتظمة ، سكانها كلها مسلمون ، وهم مع الافرنج على حالة ترفيه — نعوذ بالله من الفتنة — وذلك أنهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمها ، وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط ، ولا يعترضونهم فى غير ذلك ، ولهم على ثمر

الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضا ، ومساكنهم بأيديهم ، وجميع أحوالهم متروكة [1] لهم .

وكل ما بأيدى الافرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل : رساتيقها [2] كلها للمسلمين ، وهى القرى والضياع ، وقد أشربت الفتنة قلوب أكثرهم ، لما يبصرون [3] عليه اخوانهم من أهل رساتيق المسلمين وعمالهم ، لأنهم على ضد أحوالهم من الترفيه والرفق . وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين أن يشتكى الصنف الاسلامى جور [4] صنفه المالك له ، ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك له من الافرنج ، ويأنس بعدله . فالى الله المشتكى من هذه الحال ، وحسبنا تعزية وتسلية ماجاء فى الكتاب العزيز « ان هى الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء » .

فنزلنا يوم الاثنين المذكور بضيعة من ضياع عكة على مقدار فرسخ ، ورئيسها الناظر فيها من المسلمين ، مقدم من جهة الافرنج على من فيها من عمارها من المسلمين . فأضاف جميع أهل القافلة ضيافة حفيلة ، وأحضرهم صغيرا وكبيرا فى غرفة متسعة بمنزله ، وأنالهم ألوانا من الطعام قدمها لهم ، فعمهم بتكرمته ، وكنا فيمن حضر هذه الدعوة ، وبتنا تلك الليلة .

وصبحنا يوم الثلاثاء العاشر من الشهر المذكور ، وهو الثامن عشر لشتنبر ، مدينة عكة — دمرها الله — وحملنا الى الديوان ، وهو خان معد لنزول القافلة ، وأمام بابه مصاطب مفروشة : فيها كتاب الديوان من النصارى بمحابر الأبنوس المذهبة الحلى ، وهم يكتبون بالعربية ويتكلمون بها ، ورئيسهم — صاحب الديوان والضامن له — يعرف بالصاحب : لقب وقع عليه لمكانه من الخطة ، وهم يعرفون به كل محتشم متعين عندهم من غير الجند ، وكل ما يجبى [6] عندهم راجع الى الضمان ، وضمان هذا الديوان بمال عظيم .

فأنزل التجار رحالهم به ، ونزلوا فى أعلاه ، وطلب رحل [1] من لا سلعة له لئلا يحتوى على سلعة مخبوءة فيه ، وأطلق سبيله فنزل حيث شاء ، وكل ذلك برفق وتؤدة دون تعنيف ولا حمل . فنزلنا بها فى بيت اكتريناه من نصرانية بازاء البحر ، وسألنا الله تعالى حسن الخلاص وتيسير السلامة .

ذكر مدينة عكة ، دمرها الله وأعادها

هى قاعدة مدن الافرنج بالشام ، ومحط الجوارى المنشآت فى البحر كالأعلام [2] ، مرفأ كل سفينة ، والمشبهة فى عظمها بالقسطنطينية ، مجتمع السفن والرفاق ، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق . سككها وشوارعها تغص بالزحام ، وتضيق فيها مواطىء [3] الأقدام ، تستعر كفرا وطغيانا ، وتفور خنازير وصلبانا ، زفرة قذرة ، مملوءة كلها رجسا وعذرة .

انتزعها الافرنج من أيدى المسلمين فى العشر الأول من المائة السادسة ، فبكى لها الاسلام ملء جفونه ، وكانت أحد [4]

شجونه ، فعادت مساجدها كنائس ، وصوامعها مضارب للنواقس . وطهر الله من مسجدها الجامع بقعة ، بقيت بأيدى المسلمين مسجدا صغيرا ، يجتمع الغرباء منهم فيه لاقامة فريضة الصلاة ، وعند محرابه قبر صالح النبى صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الأنبياء ، فحرس الله هذه البقعة من رجس الكفرة ببركة هذا القبر المقدس .

وفى شرقى البلدة العين المعروفة بعين البقر ، وهى التى أخرج الله منها البقر لآدم صلى الله عليه وسلم . والمهبط لهذه العين على أدراج وطية ، وعليها مسجد بقى محرابه على حاله ، ووضع الافرنج فى شرقيه محرابا لهم ، فالمسلم والكافر يجتمعان فيه : يستقبل هذا مصلاه ، وهذا مصلاه ، وهو بأيدى النصارى معظم محفوظ ، وأبقى الله فيه موضع الصلاة للمسلمين .

فكان مقامنا بها يومين . ثم توجهنا الى صور يوم الخميس الثانى عشر لجمادى المذكورة [1] ، والموفى عشرين لشتبر [2] المذكور ، على البر . واجتزنا فى طريقنا على حصن كبير يعرف بالزاب [3] وهى مظلة [4] على قرى وعمائر متصلة ، وعلى قرية مسورة تعرف باسكندرونة ، وذلك لمطالعة مركب بها أعلمنا أنه يتوجه * الى بجاية ، طمعا فى الركوب فيه ، فحللناها عشى يوم الخميس المذكور ، لأن المسافة بين المدينتين نحو الثلاثين ميلا ، فنزلنا بها فى خان معد لنزول المسلمين .

ذكر مدينة صور ، دمرها الله تعالى

مدينة يضرب بها المثل فى الحصانة ، لاتلقى لطالبها بيد [6] طاعة ولا استكانة ، قد أعدها الافرنج [7] مفزعا لحادثة زمانهم ، وجعلوها مثابة لأمانهم . هى أنظف من عكة سككا وشوارع ، وأهلها ألين فى الكفر طبائع ، وأجرى الى بر غرباء المسلمين شمائل ومنازع ، فخلائقهم أسجح ، ومنازلهم أوسع وأفسح ، وأحوال المسلمين بها أهون وأسكن ، وعكة أكبر وأطغى وأكفر .

وأما حصانتها ومنعتها [8] فأعجب ما يحدث به ، وذلك أنها راجعة الى بابين : أحدهما فى البر والآخر فى البحر ، وهو [9] يحيط بها الا من جهة واحدة . فالذى فى البر يفضى اليه بعد ولوج ثلاثة أبواب أو أربعة ، كلها فى ستائر مشيدة محيطة بالباب .

وأما الذى فى البحر فهو مدخل [1] بين برجين مشيدين الى ميناء [2] ليس فى البلاد البحرية أعجب وضعا منها ، يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب ، ويحدق بها من الجانب الآخر جدار معقود بالجص ، فالسفن تدخل تحت السور وترسى فيها . وتعترض بين البرجين المذكورين سلسلة عظيمة [3] ، تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج ، فلا مجال للمراكب الا عند ازالتها . وعلى ذلك الباب حراس وأمناء لا يدخل الداخل ، ولا يخرج الخارج الا على أعينهم .

فشأن هذه [٤] الميناء شأن عجيب فى حسن الوضع . ولعكة مثلها فى الوضع والصفة ، لكنها لا تحمل السفن الكبار حمل تلك ، وانما ترسى خارجها ، والمراكب الصغار تدخل اليها ، فالصورية أكمل وأجمل وأحفل .

فكان مقامنا بها أحد عشر يوما : دخلناها يوم الخميس ، وخرجنا منها يوم الأحد الثانى * والعشرين لجمادى المذكورة ، وهو آخر يوم من شتنبر ، وذلك أن المركب الذى كنا أملنا الركوب فيه استصغرناه فلم نر الركوب فيه .

ومن مشاهد زخارف الدنيا المحدث بها : زفاف عروس شاهدناه بصور فى أحد الأيام عند مينائها . وقد احتفل لذلك جميع النصارى رجالا ونساء ، واصطفوا سماطين عند باب العروس المهداة ، والبوقات تضرب والمزامير وجميع الآلات اللهوية ، حتى خرجت تتهادى بين رجلين يمسكانها من يمين وشمال كأنهما من ذوى أرحامها .

وهى فى أبهى زى وأفخر لباس ، تسحب أذيال الحرير المذهب سحبا على الهيئة المعهودة من لباسهم ، وعلى رأسها عصابة ذهب قد حفت بشبكة ذهب منسوجة ، وعلى لبتها مثل ذلك منتظم . وهى رافلة فى حليها وحللها : تمشى فترا فى فتر ، مشى الحمامة ، أو سير الغمامة — نعوذ بالله من فتنة المناظر — وأمامها جلة رجالها من النصارى فى أفخر ملابسهم البهية ، تسحب أذيالها خلفهم ، ووراءها أكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات : يتهادين فى أنفس الملابس ، ويرفلن فى أرفل الحلى ، والآلات اللهوية قد تقدمتهم .

والمسلمون وسائر النصارى من النظار قد عادوا فى طريقهم سماطين ، يتطلعون فيهم ، ولا ينكرون عليهم ذلك . فساروا [١] بها حتى أدخلوها دار بعلها ، وأقاموا يومهم ذلك فى وليمة . فأدانا الاتفاق الى رؤية هذا المنظر الزخرفى ، المستعاذ بالله من الفتنة فيه .

ثم عدنا الى عكة فى البحر ، وحللناها صبيحة يوم الاثنين الثالث [٢] والعشرين من جمادى المذكورة ، وأول يوم من شهر أكتوبر ، واكترينا فى مركب كبير نروم الاقلاع الى مسينة من بلاد جزيرة صقلية . والله تعالى كفيل بالتيسير والتسهيل ، بعزته وقدرته [٣]

وكانت راحتنا ، مدة مقامنا بصور ، بمسجد بقى بأيدى المسلمين — ولهم فيها مساجد أخر — فأعلمنا به أحد أشياخ أهل صور من المسلمين أنها أخذت منهم سنة ثمان عشرة وخمسمائة ، وأخذت عكة قبلها باثنتى عشرة سنة بعد محاصرة طويلة .

وبعد استيلاء المسغبة عليهم ، ذكر لنا أنهم انتهوا منها لحال نعوذ بالله منها ، وأنهم حملتهم الأنفة على أن هموا بركوب خطة عصمهم الله منها .

وذلك أنهم عزموا على أن يجمعوا أهاليهم وأبناءهم فى المسجد الجامع ، ويحملوا السيف عليهم غيرة من تملك النصارى لهم ، ثم يخرجوا الى عدوهم بعزمة نافذة ، ويصدموهم صدمة صادقة حتى يموتوا على دم واحد ، ويقضى الله قضاءه . فمنعهم من ذلك فقهاؤهم والمتورعون منهم ، وأجمعوا على دفع البلد ، والخروج منه بسلام ، فكان ذلك ، وتفرقوا فى بلاد المسلمين .

ومنهم من استهواه حب الوطن ، فدعاه الى الرجوع والسكنى بينهم ، بعد أمان كتب لهم فى ذلك بشروط اشترطوها . والله غالب على أمره ، سبحانه جلت قدرته ، ونفذت فى البرية مشيئته .

وليست له [1] عند الله معذرة فى حلول بلدة من بلاد الكفر الا [2] مجتازا ، وهو يجد مندوحة فى بلاد المسلمين ، لمشقات وأهوال [3] يعانيها فى بلادهم : منها الذلة والمسكنة الذمية ، ومنها سماع ما يفجع الأفئدة من ذكر [4] من قدس الله ذكره وأعلى خطره ، لا سيما من أراذلهم وأسافلهم ، ومنها عدم الطهارة ، والتصرف بين الخنازير وجميع المحرمات ، الى غير ذلك مما لا ينحصر ذكره ولا تعداده

فالحذر ، الحذر من دخول بلادهم . والله تعالى المسئول حسن الاقالة والمغفرة ، من هذه الخطيئة التى زلت فيها القدم ، ولم تتداركها الا بعد موافقة الندم ، فهو سبحانه ولى ذلك لا رب غيره .

ومن الفجائع التى يعاينها من حل بلادهم أسرى المسلمين ، يرسفون فى القيود ، ويصرفون فى الخدمة الشاقة تصريف العبيد ، والأسيرات المسلمات كذلك فى أسوقهن خلاخيل الحديد ، فتنفطر لهم الأفئدة ، ولا يغنى الاشفاق عنهم شيئا .

ومن جميل صنع الله تعالى لأسرى المغاربة ، بهذه البلاد الشامية الافرنجية ، أن كل من يخرج من ماله وصية من المسلمين ، بهذه الجهات الشامية وسواها ، انما يعينها فى افتكاك المغاربة خاصة لبعدهم عن بلادهم ، وأنهم لا مخلص لهم سوى ذلك بعد الله عز وجل ، فهم الغرباء المنقطعون عن بلادهم . فملوك أهل هذه الجهات من المسلمين ، والخواتين من النساء ، وأهل اليسار والثراء ، انما ينفقون أموالهم فى هذه السبيل .

وقد كان نور الدين رحمه الله نذر ، فى مرضة أصابته ، تفريق اثنى عشر الف دينار فى فداء أسرى من المغاربة . فلما استبل من مرضه أرسل فى فدائهم ، فسيق فيهم نفر ليسوا من المغاربة — وكانوا من حماة من جملة عمالته — فأمر بصرفهم واخراج عوض منهم من المغاربة ، وقال : هؤلاء يفتكهم أهلوهم وجيرانهم ، والمغاربة غرباء لا أهل لهم . فانظر الى لطيف صنع الله تعالى لهذا الصنف المغربى .

وقيض الله لهم بدمشق رجلين من مياسر التجار ، وكبرائهم وأغنيائهم المنغمسين فى الثراء : أحدهما يعرف بنصر بن قوام ،

والشاني بأبى الدر ياقوت مولى العطافى وتجارتهما كلها بهذا الساحل الأفرنجى ، ولا ذكر فيه لسواهما ، ولهما الأمناء من المقارضين ، فالقوافل صادرة وواردة ببضائعهما [1] ، وشأنها فى الغنى كبير ، وقدرهما عند أمراء المسلمين والافرنجيين خطير . وقد نصبهما الله عز وجل لافتكاك الأسرى المغربيين بأموالهما وأموال ذوى الوصايا ، لأنهما المقصودان بها ، لما قد اشتهر من أمانتهما وثقتهما وبذلهما أموالهما فى هذه السبيل ، فلا يكاد مغربى يخلص من الأسر الا على أيديهما ، فهما طول الدهر بهذه السبيل : ينفقان أموالهما ، ويبذلان اجتهادهما [2] فى تخليص عباد الله المسلمين من أيدى أعداء الله الكافرين . والله تعالى لا يضيع أجر المحسنين .

ومن سوء الاتفاقات ، المستعاذ بالله من شرها ، أنه صحبنا فى طريقنا الى عكة من دمشق رجل مغربى ، من بونة عمل بجاية ، كان أسيرا ، فتخلص على يدى أبى الدر المذكور ، وبقى فى جملة صبيانه ، فوصل فى قافلته الى عكة . وكان قد صحب النصارى ، وتخلق بكثير من أخلاقهم ، فما زال الشيطان يستهويه ويغريه ، الى أن نبذ دين الاسلام فكفر وتنصر مدة مقامنا بصور .

فانصرفنا الى عكة ، وأعلمنا بخبره ، وهو بها قد بطس ورجس ، وقد عقد الزنار ، واستعجل النار ، وحقت عليه كلمة العذاب ، وتأهب لسوء الحساب وسحيق المآب .

نسأل الله عز وجل أن يثبتنا بالقول الثابت فى الدنيا والآخرة ، ولا يعدل بنا عن الملة الحنيفية ، وأن يتوفانا مسلمين بفضله ورحمته .

وهذا الخنزير صاحب عكة — المسمى عندهم بالملك — محجوب لا يظهر : قد ابتلاه الله بالجذام ، فعجل له سوء الانتقام . قد شغلته بلواه فى صباه عن نعيم دنياه ، فهو فيها يشقى ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى [1] . وحاجبه وصاحب الحال عوضه : خاله القومس ، وهو صاحب المجبى ، واليه ترتفع الأموال .

والمشرف على الجميع بالمكانة والوجاهة وكبر الشأن ، فى الافرنجية اللعينة ، القومس اللعين صاحب طرابلس ، وطبرية ، وهو ذو قدر ومنزلة عند الافرنج ، وهو المؤهل للملك والمرشح له ، وهو موصوف بالدهاء والمكر . وكان أسيرا عند نور الدين نحو اثنتى عشرة سنة أو أزيد ، ثم تخلص بمال عظيم بذله [2] فى نفسه ، مدة [3] صلاح الدين وعند أول ولايته ، وهو معترف لصلاح الدين بالعبودية والعتق .

وعلى بادية طبرية اختلاف القوافل من دمشق لسهولة طريقها ، ويقصد بقوافل البغال على تبنين [4] لوعورتها وقصد طريقها . وبحيرة طبرية مشهورة ، وهى ماء عذب ، وسعتها نحو ثلاثة فراسخ أو أربعة ، وطولها نحو ستة فراسخ ، والأقوال فيها تختلف ، وهذا القول أقربها الى الصحة لأنا لم نعاينها ، وعرضها أيضا مختلف سعة وضيقا .

وفيها قبور كثيرة من قبور الأنبياء صلوات الله عليهم : كشعيب ، وسليمان ، ويهودا ، وروبيل ، وابنة شعيب زوج الكليم موسى ، وغيرهم صلوات الله وسلامه (عليهم) أجمعين ، وجبل الطور منها قريب .

وبين عكة وبيت المقدس . ثلاثة أيام ، وبين دمشق وبينه مقدار ثمانية أيام ، وهو بين المغرب والقبلة من عكة الى جهة الاسكندرية . والله يعيده الى أيدى المسلمين ، ويطهره من أيدى المشركين ، بعزته وقدرته .

وهاتان المدينتان : عكة وصور ، لا بساتين حولهما ، وانما هما [1] فى بسيط من الأرض أفيح متصل بسيف البحر ، والفواكه تجلب اليهما من بساتينهما التى بالقرب منهما ، ولهما عمالة متسعة . والجبال التى تقرب منهما [2] معمورة بالضياع ، ومنها تجبى [3] الثمرات اليهما ، وهما من غر البلاد .

ولعكة فى الشرق منها مع آخر البلد واد يسيل ماء ، ولها من شاطئه مما يتصل بالبحر بسيط رمل لم ير أجمل منه منظرا ، ولا ميدان للخيل يشبهه ؛ واليه ركوب صاحب البلد كل بكرة وعشية ؛ وبه يجتمع العسكر دمره [4] الله .

ولصور عند بابها البرى عين معينة ينحدر اليها على أدراج ، والآبار والجباب بها كثيرة لا تخلو دار منها [6] ، والله تعالى يعيد اليها والى أخواتها كلمة الاسلام ؛ بمنه وكرمه .

وفى يوم السبت الثامن [7] والعشرين لجمادى المذكورة ، والسادس لأكتوبر [8] ، صعدنا الى المركب — وهو سفينة من السفن الكبار — بمنة الله تعالى على المسلمين بالماء والزاد ، وحاز المسلمون مواضعهم بانفراد عن الافرنج . وصعده من النصارى المعروفين بالبلغريين [9] ، وهم حجاج بيت المقدس ، عالم لا يحصى ينتهى الى أزيد من ألفى انسان . أراح الله من صحبتهم بعاجل السلامة ، ومأمول التسهيل والصنع الجميل ، بمنه وكرمه ، لا معبود سواه . ونحن به منتظرون موافقة الريح وكمال الوسق بمشيئة الله عز وجل .

شهر رجب الفرد ، عرفنا الله بركته ويمنه

استهل هلاله ليلة الثلاثاء ، بموافقة التاسع لشهر اكتوبر ، ونحن على ظهر المركب بمرسى عكة ، منتظرون كمال وسقه ، والاقلاع بسم الله تعالى وبركته وجميل صنعه وكريم مشيئته . وتمادى مقامنا فيه مدة اثنى عشر يوما لعدم استقامة الريح .

وفى مهب الريح بهذه الجهات سر عجيب ، وذلك أن الريح الشرقية لا تهب [1] فيها الا فى فصلى الربيع والخريف ، والسفر لا يكون الا فيهما ، والتجار لا ينزلون الى عكة بالبضائع الا فى هذين [2] الفصلين . والسفر فى الفصل الربيعى من نصف أبريل ، وفيه تتحرك الريح الشرقية ، وتطول مدتها الى آخر شهر مايه وأكثر وأقل بحسب ما يقضى الله تعالى به .

والسفر فى الفصل الخريفى من نصف أكتوبر ، وفيه تتحرك الريح الشرقية [٣] ، ومدتها أقصر من المدة الربيعية ، وانما هى عندهم خلسة من الزمان ، قد تكون خمسة عشر يوما وأكثر وأقل ، وما سوى ذلك من الزمان فالرياح فيه تختلف ، والريح الغربية أكثرها دواما . فالمسافرون الى المغرب والى صقلية والى بلاد الروم ، ينتظرون هذه الريح الشرقية فى هذين الفصلين انتظار وعد صادق . فسبحان المبدع فى حكمته ، المعجز فى قدرته ، لا اله سواه .

وكنا طول هذه المدة التى أقمنا فيها على ظهر المركب نبيت فى البر ، وتتفقد المركب فى الأحيان . فلما كان سحر يوم الخميس العاشر لرجب المذكور ، والثامن عشر لأكتوبر ، أقلع المركب . وكنا على عادتنا فى البر بائتين ، ولم يحسن النهار للروم بأهبة السفر ، فضيعنا الحزم ، ونسينا المثل المضروب فى اعداد الماء [٤] والزاد ، وألا يفارق الانسان رحله ، فأصبحنا والمركب لا عين له ولا أثر .

فاكترينا للحين زورقا كبيرا له أربعة مجاذيف ، وأقلعنا نتبعه ، وكانت مخاطرة عصم الله منها ، فأدركنا المركب مع العشى ، فحمدنا الله عز وجل على ما من به . وكان أول [١] ذلك اليوم يوم شدتنا فى هذا السفر الطويل ، وآخره والحمد لله يوم فرجنا [٢] ، ولله الحمد والشكر على كل حال .

واتصل جرينا والريح الموافقة تأخذ وتدع نحو خمسة أيام ، ثم هبت علينا الريح الغربية من مكمنها دافعة فى وجه المركب ، فأخذ رئيسه ومدبره الرومى الجنوى — وكان بصيرا بصنعته ، حاذقا فى شغل الرياسة البحرية — يراوغها تارة يمينا وتارة شمالا ، طمعا ألا يرجع على عقبه ، والبحر فى أثناء ذلك رهو [٣] ساكن .

فلما كان نصف الليل أو قريب منه ليلة السبت التاسع عشر لرجب المذكور ، والسابع والعشرين لأكتوبر ، تردت [٤] علينا الريح الغربية ، فقصفت قرية الصارى المعروف بالأردمون ، وألقت نصفها فى البحر مع ما اتصل بها من الشراع ، وعصم الله من وقوعها فى المركب ، لأنها كانت تشبه الصوارى عظما وضخامة .

فتبادر [٥] البحريون اليها ، وحط شراع الصارى الكبير ، وعطل المركب من جريه ، وصيح بالبحريين الملازمين للعشارى المرتبط بالمركب ، فقصدوا الى نصف الخشبة الواقعة فى البحر ، وأخرجوها مع الشراع المرتبط بها ، وحصلنا فى أمر لا يعلمه الا الله تعالى ، وشرعوا فى رفع الشراع الكبير ، وأقاموا فى الأردمون شراعا يعرف بالدلون .

وبتنا بليلة شهباء الى أن وضح الصباح ، وقد من الله عز وجل بالسلامة ، وشرع البحريون فى اصلاح قرية أخرى من خشبة كانت معدة عندهم ، والريح الغربية على أول لجاجها ، ونحن بين اليأس والرجاء نتردد ، مغلبين حسن الثقة بجميل صنع الله تعالى

وحفي [6] لطفه ومعهود فضله ، سبحانه هو أهل ذلك جلت قدرته وتناهت عظمته ، لا اله سواه .

وفي يوم الأربعاء الثالث والعشرين منه ، تحركت الريح الشرقية نسيما فاترا عليلا ، فاستبشرت النفوس بها رجاء في نمائها وقوتها ، فكانت نفسا خافتا ، ثم بعد ذلك غشى البحر ضباب رقيق سكنت له أمواجه ، فعاد كأنه صرح ممرد من قوارير [1] ، ولم يبق للجهات الأربع نفس يتنسم ، فبقينا لاعبين على صحفة ماء [2] تخاله العين سبيكة لجين ، كأنا نجول بين سماءين ، وهذا الهواء الذى يسميه البحريون الغلينى [3] ..

وفي ليلة الخميس الرابع والعشرين لرجب المذكور — وهو أول يوم من نونتبر العجمي — كان للنصارى عيد مذكور عندهم ، احتفلوا له في اسراج الشمع ، وكاد لا يخلو أحد منهم — صغيرا أو كبيرا ذكرا أو أنثى — من شمعة في يده ، وتقدم قسيسوهم [4] للصلاة في المركب بهم ، ثم قاموا واحدا واحدا لوعظهم وتذكيرهم بشرائع دينهم ، والمركب يزهر كله أعلاه وأسفله سرجا متقدة .

وتمادينا على تلك الحالة أكثر تلك الليلة ، ثم أصبحنا بمثل ذلك الهواء الساكن ، واتصل بنا ذلك الى ليلة الأحد السابع [6] والعشرين منه ، فتحركت ريح شمالية ، فعاد المركب بها لجريته [7] واستبشرت النفوس والحمد لله .

شهر شعبان المكرم ، عرفنا الله خيره وبركته

غم هلاله علينا ، فأكملنا عدة أيام رجب ، فهو على الكمال من ليلة الخميس بموافقة الثامن من نونتبر ، وقد تم لنا على ظهر البحر من يوم اقلاعنا من عكة اثنان وعشرون يوما ، حتى عدمنا الانس ، واستشعرنا القنط واليأس . وصنع الله عز وجل مأمول ، ولطفه الخفي [8] بنا كفيل . . بمنه وكرمه .

وقل الزاد بأيدي الناس ، لكن هم من هذا المركب — بمنة الله — في مدينة جامعة للمرافق ، فكل ما يحتاج شراؤه يوجد ، من خبز وماء ، ومن جميع الفواكه والأدم ؛ كالرمان ، والسفرجل ، والبطيخ السندي ، والكمثرى ، والشاه بلوط ، والجوز ، والحمص ، والبلاقلا نيأ ومطبوخا ، والبصل والثوم ، والتين ، والجبن ، والحوت ، وغير ذلك مما يطول ذكره ، عاينا جميع ذلك يباع . وفي خلال هذه الأيام كلها لم يظهر لنا بر ، والله يأتي بالفرج القريب .

ومات فيه رجلان من المسلمين ، رحمهما الله ، فقذفا في البحر ، ومن البلغريين اثنان أيضا ، ومات منهم بعد ذلك خلق ، وسقط منهم واحد في البحر حيا فاحتسلته الموج أسرع من خطفة البارق . وورث هؤلاء الأموات ، من المسلمين والنصارى البلغريين ، رئيس المركب لأنها سنة عندهم في كل من يموت في البحر ، ولا سبيل لوارث الميت الى ميراثه ، فطال عجبنا من ذلك .

وفى سحر يوم الثلاثاء السادس من الشهر المؤرخ ، والثالث عشر من نونتبر ، ظهرت لنا جبال فى البحر . وقد اشتدت الريح الغربية وتوالى اعصارها ، وكانت تتقلب بالقبول والدبور ، فألجأتنا الى أحد تلك الجبال ، فأرسينا عنده ، وسألنا عن الموضع ، فأعلمنا أنه من جزائر الرمانية . وهذه الجزائر تنيف على الثلاثمائة وخمسين جزيرة ، وهى الى عمل صاحب القسطنطينية ، والروم يحذرون أهلها كحذر المسلمين لأنهم لا صلح بينهم .

فأقمنا بذلك المرسى يوم الثلاثاء المذكور وصدر يوم الأربعاء بعده ، ونزل من تلك الجزيرة قوم بايعوا أهل المركب بعض ساعة من النهار فى الخبز واللحم ، بعد أمان أخذوه ، ثم أقلعنا يوم الأربعاء المذكور ، وقد تم لنا على ظهر المركب ثمانية وعشرون يوما .

وظهر لنا يوم الخميس بعده بر جزيرة قريطش — وهذه الجزيرة أيضا لعمل صاحب القسطنطينية ، وطولها تنيف على الثلثمائة ميل . وقد تقدم ذكرها فى سفرنا البحرى الى الاسكندرية — فبقينا نجرى بطولها ، وهى منا على اليمين ، والبحر فى . أثناء ذلك كله هائل ، والريح لا توافق ، ونحن ننتظر الفرج من الله عز وجل بصبر جميل ، ونرتقب منه جل جلاله معهود التيسير والتسهيل بمنه ولطفه .

وفى يوم السبت العاشر لشعبان المذكور والسابع عشر لنونتبر ، انقطع عنا بر الجزيرة المذكورة ، ونحن نجرى بريح شمالية موافقة ، فزئرت [1] وعصفت ، فطار لها المركب بجناحى شراعه ، والبحر بها قد جن واستشرى لجاجه ، وقذفت بالزبد أمواجه ، فتخال غواربه المتموجة جبالا مثلجة ، ومع تلك استشعرت النفوس الأنس ، وغلب رجاؤها اليأس .

وقد كنا مدة الستة وعشرين يوما المذكورة ، التى لم يظهر لنا فيها بر ، نرجم الظنون ونتغازل المنون ، حذرا من نفاد الزاد والماء ، والحصول بين المهلكين الجوع والظمأ : فمن قائل يقول انا قد ملنا فى جرينا الى بر الغرب[2] وهو بر افريقية ، وآخر يزعم أنا قد ملنا الى بر الارض الكبيرة بر القسطنطينية وما يليها ، ومنهم من يقول الى اللاذقية جهة الشام ، ومنهم من يقول الى دمياط بر الاسكندرية .

وكنا نحذر أن تلجئنا الريح الى أحد جزائر الرمانية الخالية فنشتو فيها ، أو تضطرنا الحال الى المعبور منها . وليس فى هذه الوجوه المتوقعة كلها وجه فيه حظ لمختار[3] ، حتى أتى الله بالفرج ، وأذهب البأس واليأس ، ومكن فى النفوس الايناس بعد مكابدة الأمرين ومقاساة البرحين . فلله در القائل :

البحر مرّ المذاق صعب [4]
لا جعلت حاجتى اليه
أليس ماء ونحن طين
فما عسى صبرنا عليه ؟

ونحن الآن — بفضل الله تعالى — تتطلع البشرى بظهور بر صقلية ان شاء الله .

وفى النصف من ليلة الأحد ، الحادى عشر منه ، انقلبت الريح غربية ، وكشف النوء من المغرب ، وجاءت الريح عاصفة ، فأخذت بنا جهة الشمال . وأصبحنا يوم الأحد المذكور والهول يزيد ، والبحر قد هاج هائجه وماج مائجه ، فرمى بموج كالجبال ، يصطدم المركب صدمات يتقلب لها على عظمه تقلب الغصن الرطيب ، وكان كالسور علوا ، فيرتفع له الموج ارتفاعا يرمى فى وسطه بشآبيب كالوابل المنسكب .

فلما جن الليل اشتد تلاطمه ، وصكت الآذان غماغمه ، واستشرى عصوف الريح ، فحطت الشرع ، واقتصر على الدلالين الصغار دون أنصاف الصوارى ، ووقع اليأس من الدنيا ، وودعنا الحياة بسلام ، وجاءنا الموج من كل مكان ، وظننا أنا قد أحيط بنا . فيا لها ليلة يشيب لها سود الذوائب ، مذكورة فى ليالى الشوائب ، مقدمة فى تعداد الحوادث والنوائب .

ونحن منها فى مثل ليل صول طولا ، فأصبحنا ولم نكد ، فكان من الاتفاقات الموحشة أن أبصرنا بر اقريطش عن يسارنا ، وجباله قد قامت أمامنا ، وكنا قد خلفناه عن يميننا ، فأسقطتنا الريح عن مجرانا ونحن نظن أنا قد جزناه ، فسقط فى أيدينا ، وخالفنا المجرى المعهود الميمون : وهو أن يكون البر المذكور منا يمينا فى استقبال صقلية ، فاستسلمنا للقدر ، وتجرعنا غصص هذا الكدر ، وقلنا :

سيكون الذى قضى   سخط العبد أو رضى

وفى أثناء ذلك انبسطت الشمس ، ولان البحر قليلا ، وصممنا [1] نروم أخذ مرسى فى البر المذكور الى أن يقضى الله قضاءه [2] ، وينفذ حكمه . ولكل سفر أوان ، وسفر البحر انما هو فى ابانه ، والمعهود من زمانه ، لا أن يعتسف فى فصول [3] أشهر الشتاء اعتسافنا له ، والأمر لله من قبل ومن بعد . فالحذر الحذر من ركوب مثل هذا الخطر ، وان كان المحذور لا يغنى عن المقدور شيئا ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

ثم ان الريح ساعدت عند استقبالنا البر بعض مساعدة ، فانصرفنا عنه وتركناه يمينا ، وعدنا الى قريب من المجرى المقصود . وجرينا بعض ليلة الثلاثاء الثالث عشر منه — وقد تم لنا على ظهر المركب أربعة وثلاثون يوما — والشرع مصلبة ، وهو [1] عندهم أعدل جرى ، لأنه لا يكون الا بالريح التى تتلقى مؤخر المركب فى مجراه .

فأصبحنا يوم الثلاثاء المذكور على مثل تلك الحال ، وساعدت الريح ، ففرحنا وسررنا ، وطلعت علينا مراكب قاصدة مقصدنا ، فاستبشرنا بها ، وعلمنا أنا على مجرى مقصود ، ولله الحمد والشكر على كل حال من الأحوال .

ثم انقلبت الريح غربية ، وهبت عاصفا ، فألجأتنا اضطرارا — بعد [3] أن جرت بنا بعض ليلة الأربعاء ويوم الأربعاء — الى مرسى من مراسى جزائر الرمانية ، وهو رأس الجزيرة ، ومنه الى الأرض الكبيرة مجاز فيه الاثنا [3]

عشر ميلا . فأصبحنا يوم الخميس الخامس عشر لشعبان المكرم والثانى والعشرين لنوننبر ، فحمدنا الله عز وجل على ما من به من السلامة . وتوافت بعدنا الى ذلك المرسى خمسة مراكب : منها اثنان كانا قد أقلعا من بر الاسكندرية عن عهد نحو خمسين يوما ، فأسقطتهما [4] الريح .

فأقمنا بذلك المرسى أربعة أيام ، وجدد الناس به الماء والزاد ، لأن العمارة كانت منا قريبا . فنزل أهل الجزيرة ، وبايعوا أهل المركب فى الخبز واللحم والزيت ، وما كان عندهم من الأدم . ولم يكن خبزهم برا خالصا ، انما كان خليطا بالشعير ، وكان يضرب للسواد ، فتهافت الناس عليه على غلائه ، ولم يكن بالرخيص فى سومه ، وشكروا لله على ما من به عليهم .

وفى هذا المرسى كمل لنا على ظهر البحر أربعون يوما ، والحمد لله على كل حال ، ومدة مقامنا بالمرسى لم يفتر عصوف الريح الغربية ، وعادت أشد ما يكون هبوبا . فحمدنا الله تعالى على أن لم تأخذنا ونحن على ظهر البحر جارين ، والحمد لله على جميل صنعه .

وأقلعنا من المرسى المذكور يوم الاثنين التاسع عشر لشعبان المذكور ، والسادس والعشرين لنوننبر ، بريح طيبة موافقة . فاستبشرنا بها ، واستطلعنا جميل صنع الله عز وجل ولطف قضائه ، لا رب سواه . وتمادى سيرنا الى يوم الخميس الثانى والعشرين لشعبان، والتاسع والعشرين لنوننبر .

ثم انقلبت الريح غربية ، وأنشأت سحابه فيها رعد قاصف ، وزجتها ريح عاصف ، وتقدمها برق خاطف ، فأرسلت حاصبا من البرد صبته علينا فى المركب شآبيب متداركة ، فارتاعت له النفوس ، ثم أسرع انقشاعها ، وانجلى عن الأنفس ارتياعها . وبتنا ليلة الجمعة مبيت وحشة ، وطالعنا اليأس من مكمنه ؛ فلما أسفر الصبح وطلع النهار أبصرنا بر صقلية لائحا أمامنا ، فيالها بشرى ومسرة لو لم يعد حسرة فى كرة !

فأمسينا ليلة السبت ، وهو أول يوم من دجمبر ، ونحن على ادراكه فى أقل من ثلثها أو منتصفها -- ولكل أجل كتاب وميقات ، وكم أمل تعترض دونه الآفات — فما كان الا كلا ولا ، حتى ضربت فى وجوهنا ريح أنكصتنا على الأعقاب ، وحالت بين الابصار والارتقاب ، وما زالت تعصف حتى كادت تنسف وتقصف [41] ، فحطت الشرع عن صواريها ، واستسلمت النفوس لباريها ، وتركنا بين السفينة ومجريها .

وتتابعت علينا عوارض ديم حصلنا منها ، ومن الليل والبحر ، فى ثلاث ظلم ، وعباب الموج تتوالى صدماته ، وتطفر الألباب رجفاته . فنبذت نفوسنا كل أمنية ، وتأهبت للقاء المنية . وقطعنا هذه الليلة البهماء فى مصادمة أهوال ، ومكابدة أوجال ، ومقاساة أحوال ، يالها من أحوال !

ثم أصبحنا يوم السبت ليوم عصيب ، أخذ من هول ليلته بأوفر نصيب ، والأمواج

والرياح تترامى بنا حيث شاءت ، وقد استسلمنا للقضاء وتمسكنا بأسباب الرجاء .

ثم تداركنا صنع الله تعالى مع المساء : ففترت الريح ، ولان متن البحر ، وأسفر وجه الجو . وأصبحنا يوم الأحد ثانى دجمبر ، والخامس والعشرين لشعبان ، وقد بدل لنا من الخوف الأمان ، وتطلعت الوجوه كأنها انتشرت من الأكفان ، وساعدت [1] الريح بعض مساعدة ، فعدنا نطلب من البر أثرا بعد عين ، ونرجم الظنون بين متى وأين . والله عز وجل لطيف بعباده ، وكفيل بمعهود [2] صنعه الجميل ومعتاده ، لا رب سواه .

شهر رمضان المعظم
عرفنا الله البركة والقبول فيه
بمنه وكرمه لارب غيره

استهل هلاله ليلة الجمعة ، السابع لشهر دجمبر ، ونحن بازاء الأرض الكبيرة على متن البحر مترددين . وقد من الله علينا بريح شرقية فاترة المهب ، سرنا بها سيرا رويدا حتى وصلنا هذا الموضع من ازاء الأرض الكبيرة المذكورة ، وأبصرنا فيها ضياعا وعمارة كثيرة أعلمنا أنها من قلوْرية ، وهى من بلاد صاحب صقلية ، لأن بلاده فى الأرض الكبيرة تتصل نحو شهرين .

وبهذا الموضع نزل كثير من البلغريين فائزين بأنفسهم لمسغبة مست أهل المركب لعدم الزاد ونفاده . وحسبك أنا كنا نقتصر على مقدار رطل من الخبز اليابس : تتقسمه بين أربعة منا ، ونبله بيسير من الماء ، فنتبلغ به . وكل من نزل من البلغريين باع فضلة زاده ، فترفق المسلمون بابتياع ما أمكن منه على غلائه ، وانتهى الى مقدار خبزة بدرهم من الخالص .

فما ظنك بمدة شهرين على ظهر البحر ، فى مسافة ظن الناس أنهم يقطعونها فى عشرة أيام أو خمسة عشر يوما الغاية ، فالحازم من أدخل زاد ثلاثين يوما ، وسائر الناس لعشرين يوما ، ولخمسة عشر يوما .

ومن العجب فى الاتفاقات فى الأسفار البحرية ، أنا استطلعنا على ظهر البحر أهلة ثلاثة أشهر : هلال رجب ، وهلال شعبان ، وهلال رمضان هذا . وفى يوم مستهله مع الصباح أبصرنا أمامنا جبل النار — وهو جبل البركان المشهور بصقلية — فاستبشرنا بذلك . والله تعالى يعظم أجورنا على ما كابدناه ، ويختم لنا بأجمل الصنع وأسناه ، ويوزعنا فى كل حال شكر ما أولاه ، بمنه وكرمه .

ثم حركتنا من ذلك الموضع ريح موافقة . فلما كان عشى يوم السبت ، ثانى الشهر المذكور ، اشتد هبوبها فزجت المركب تزجية سريعة ، فلم يكن الا كلا ولا حتى أدتنا الى أول المضيق والليل قد جن . وهذا المضيق ينحصر فيه البحر الى مقدار ستة أميال ، وأضيق موضع فيه ثلاثة أميال يعترض من بر الأرض الكبيرة الى بر جزيرة صقلية ، والبحر بهذا المضيق ينصب انصباب السيل العرم ، ويغلى غليان المرجل لشدة انحصاره وانضغاطه ، وشقه صعب على المركب . فاستمر مركبنا فى سيره ، والريح الجنوبية تسوقه

سوقا عنيفا ، وبين الأرض الكبيرة عن يميننا ، وبر صقلية عن يسارنا .

فلما كان مع نصف ليلة الأحد الثالث [1] للشهر المبارك ، وقد شارفنا مدينة مسينة من الجزيرة المذكورة ، دهمتنا زعقات البحريين بأن المركب قد أمالته الريح بقوتها الى أحد البرين ، وهو ضارب فيه . فأمر رئيسهم بحط الشرع للحين ، فلم ينحط شراع الصارى المعروف بالأردمون ، وعالجوه فلم يقدروا عليه لشدة ذهاب الريح به ، فلما أعياهم مزقه الرائس بالسكين قطعا قطعا طمعا فى توقيفه .

وفى أثناء هذه المحاولة سنح المركب بكلكله على البر ، والتقاه بسكانيه ، — وهما رجلاه اللتان يصرف بهما — وقامت الصيحة الهائلة فى المركب ، فجاءت الطامة الكبرى ، والصدعة التى لم نطق لها جبرا ، والقارعة الصماء التى لم تدع لنا صبرا ، والتدم النصارى التداما ، واستسلم المسلمون لقضاء ربهم استسلاما ، ولم يجدوا سوى حبل الرجاء استمساكا واعتصاما . وتعاورت [1] الريح والأمواج صفع المركب حتى تكسرت رجله الواحدة ، فألقى الرائس مرسى [2] من مراسيه طمعا فى تمسكه به فلم يغن شيئا ، فقطع حبله وتركه فى البحر .

فلما تحققنا أنها هى قمنا فشددنا للموت حيازيمنا ، وأمضينا على الصبر الجميل عزائمنا ، وأقمنا نرتقب الصباح أو الحين المتاح . وقد علا الصياح ، وارتفع الصراخ من أطفال الروم ونسائهم ، وألقى الجميع عن يد الاذعان ، وقد حيل بين العير والنزوان [3] .

ونحن قيام نبصر البر قريبا ، ونتردد بين أن نلقى بأنفسنا اليه سبحا ، أو ننتظر لعل الفرج من الله يطلع صبحا ، فأحضرنا نية الثبات . والبحريون قد ضموا العشارى لاخراج المهم من رجالهم ونسائهم وأسبابهم ، فساروا به الى البر دفعة واحدة ، ثم لم يطيقوا رده ، وقذفته الموج مكسرا على ظهر البر ، فتمكن حينئذ اليأس من النفوس .

وفى أثناء مكابدة هذه الأهوال أسفر الصبح ، فجاء نصر الله والفتح ، وحققنا النظر ، فاذا بمدينة مسينة أمامنا على أقل من نصف الميل ، وقد حيل بيننا وبينها ، فعجبنا من قدرة الله عز وجل فى تصريف أقداره ، وقلنا رب مجلوب اليه حتفه فى عتبة داره .

ثم تمكن الشروق ، فجاءتنا الزوارق مغيثة . ووقعت الصيحة فى المدينة ، فخرج ملك صقلية غليام بنفسه فى جملة من رجاله ، متطلعا لتلك الحال ، وبادرنا الى النزول فى الزوارق ، والأمواج لشدتها لا يمكنها الوصول الى المركب . فكان نزولنا فيها خاتمة الهول العظيم ، ونجونا الى البر منجى أبى نصر [1] عن قدر ، وتلف للناس بعض أسبابهم ، فتسلوا عن الغنيمة باياب [2]

ومن العجب — على ما أخبرنا به — أن هذا الملك الرومى المذكور أبصر فقراء ، من المسلمين يتطلعون من المركب ، وليس لهم شىء يؤدونه فى نزولهم ، لأن أصحاب الزوارق

أغلوا على الناس فى تخليصهم . فسأل عنهم فأعلم بقصتهم ، فأمر لهم بمائة رباعى من سكته ينزلون بها . وخلص جميع المسلمين [٣] عن سلام ، وقيل الحمد لله رب العالمين . وفرغ النصارى جميع ما كان لهم فيه ، فأصبح فى اليوم الثانى وقد جعلته الأمواج جذاذا ، ورمت به الى البر أفلاذا ، فعاد عبرة للناظرين ، وآية للمتوسمين .

ووقع العجب من سلامتنا منه ، وجددنا شكر الله عز وجل على ما من به من لطيف صنعه وجميل قضائه ، وتخليصه لنا من أن يكون هذا القدر ينفذ علينا فى الأرض الكبيرة أو احدى جزائر الروم المعمورة ، فكنا لو سلمنا نستعبد للأبد . والله عز وجل يعيننا على أداء شكر هذه المنة والنعمة ، وما تداركنا به من لحظات الرأفة والرحمة . انه على ذلك قدير ، وبعوائد الفضل والخير جدير ، لا اله سواه .

ومن جملة صنع الله عز وجل لنا ، ولطفه بنا فى هذه الحادثة ، كون هذا الملك الرومى حاضرا فيها . ولولا ذلك لانتهب جميع ما فى المركب انتهابا ، وربما كان يستعبد جميع من فيه من المسلمين ، لأن العادة جرت لهم بذلك . وكان وصول هذا الملك لهذه البلاد ، بسبب أسطوله الذى ينشئه ، رحمة لنا . والحمد لله على ما من به علينا من حسن نظره الكفيل بنا ، لا اله سواه .

ذكر مدينة مسينة من جزيرة صقلية اعادها الله تعالى

هذه المدينة موسم تجار الكفار ، ومقصد جوارى البحر من جميع الأقطار ، كثيرة الارفاق برخاء الاسعار ، مظلمة الآفاق بالكفر ، لا يقر فيها لمسلم قرار ، مشحونة بعبدة الصلبان ، تغص بقاطنيها ، وتكاد تضيق ذرعا بساكنيها ، مملوءة نتنا [١] ورجسا ، موحشة لا توجد الغريب انسا .

أسواقها نافقة حفيلة ، وأرزاقها واسعة بارغاد العيش كفيلة ، لا تزال بها ليلك ونهارك فى أمان ، وان كنت غريب الوجه واليد واللسان ، مستندة الى جبال قد انتظمت حضيضها وخنادقها ، والبحر يعترض أمامها فى الجهة الجنوبية منها .

ومرساها أعجب مراسى البلاد البحرية ، لأن المراكب الكبار تدنو فيه من البر حتى تكاد تمسه [٢] ، وتنصب منها الى البر خشبة يتصرف [٣] عليها . فالحمال [٤] يصعد بحمله اليها ، ولا يحتاج لزواريق [٥] فى وسقها ، ولا فى تفريغها ، الا ما كان مرسيا على البعد منها يسيرا ، فتراها مصطفة مع البر كاصطفاف الجياد فى مرابطها واصطبلاتها ، وذلك لافراط عمق البحر فيها . وهو زقاق معترض بينها وبين الأرض الكبيرة بمقدار ثلاثة أميال ، ويقابلها منه بلدة تعرف برية وهى عمالة كبيرة .

وهذه المدينة مسينة رأس جزيرة صقلية ، وهى كثيرة المدن والعمائر والضياع ، وتسميتها تطول . وطول هذه الجزيرة صقلية

سبعة أيام ، وعرضها مسيرة خمسة أيام . وبها جبل البركان المذكور ، وهو يأتزر بالسحب لافراط سموه ، ويعتم بالثلج شتاء وصيفا دائما .

وخصب هذه الجزيرة أكثر من أن يوصف ، وكفى بانها ابنة الأندلس فى سعة العمارة ، وكثرة الخصب * والرفاهة : مشحونة بالأرزاق على اختلافها ، مملوءة بأنواع الفواكه وأصنافها ، لكنها معمورة بعبدة الصلبان : يمشون فى مناكبها ، ويرتعون فى أكنافها . والمسلمون معهم على أملاكهم وضياعهم ، قد حسنوا السيرة فى استعمالهم واصطناعهم ، وضربوا عليهم اتاوة فى فصلين من العام يؤدونها ، وحالوا بينهم وبين سعة فى الأرض كانوا يجدونها . والله عز وجل يصلح أحوالهم ، ويجعل العقبى الجميلة مآلهم بمنه . وجبالها كلها بساتين مثمرة بالتفاح والشاه بلوط والبندق والاجاص ، وغيرها من الفواكه .

وليس فى مسينة هذه من المسلمين الا نفر يسير من ذوى المهن ، ولذلك ما يستوحش بها المسلم الغريب .

وأحسن مدنها قاعدة ملكها ، والمسلمون يعرفونها بالمدينة ، والنصارى يعرفونها ببلارمة ، وفيها سكنى الحضريين من المسلمين ، ولهم فيها المساجد ، والأسواق المختصة بهم فى الأرباض [1] كثير ، وسائر المسلمين بضياعها وجميع قراها وسائر مدنها كسرقوسة [2] وغيرها . لكن المدينة الكبيرة ، التى هى مسكن ملكها غليام ، أكبرها وأحفلها ، وبعدها مسينة . وبالمدينة — ان شاء الله — يكون مقامنا ، ومنها نؤمل سفرنا الى حيث يقضي الله عز وجل من بلاد المغرب ان شاء الله .

وشأن ملكهم هذا عجيب فى حسن السيرة ، واستعمال المسلمين ، واتخاذ الفتيان المجابيب — وكلهم أو أكثرهم كاتم ايمانه ، متمسك بشريعة الاسلام — وهو كثير الثقة بالمسلمين ، وساكن اليهم فى أحواله والمهم من أشغاله ، حتى ان الناظر فى مطبخته رجل من المسلمين ، وله جملة من العبيد السود المسلمين ، وعليهم قائد منهم . ووزراؤه وحجابه الفتيان ، وله منهم جملة كبيرة هم أهل دولته ، والمرتسمون بخاصته ، وعليهم يلوح رونق مملكته ، لأنهم متسعون فى الملابس الفاخرة والمراكب الفارهة ، وما منهم الا من له الحاشية والخول والاتباع .

ولهذا الملك القصور المشيدة والبساتين الأنيقة — ولا سيما بحضرة ملكه المدينة المذكورة — وله بمسينة قصر أبيض كالحمامة مطل على ساحل البحر . وهو كثير الاتخاذ للفتيان والجوارى ، وليس فى ملوك النصارى أترف فى الملك ، ولا أنعم ولا أرفه ، منه . وهو يتشبه فى الانغماس فى نعيم الملك وترتيب قوانينه ووضع أساليبه ، وتقسيم مراتب رجاله وتفخيم أبهة الملك واظهار زينته ، بملوك المسلمين .

وملكه عظيم جدا ، وله الأطباء والمنجمون ، وهو كثير الاعتناء بهم شديد الحرص عليهم . حتى انه متى ذكر له أن طبيبا أو منجما اجتاز ببلده أمر بامساكه ، وأدر له أرزاق معيشته حتى يسليه عن وطنه ، والله يعيذ المسلمين من الفتنة به بمنه ، وسنه نحو الثلاثين سنة ، كفى الله المسلمين عاديته وبسطته .

ومن عجيب شأن المتحدث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية ، وعلامته — على ما أعلمنا به أحد خدمته المختصين به — « الحمد لله حق حمده » ، وكانت علامة أبيه « الحمد لله شكرا لأنعمه » . وأما جواريه وحظاياه فى قصره فمسلمات كلهن .

ومن أعجب ما حدثنا به خديمه المذكور — وهو يحيى بن [1] فتيان الطراز ، وهو يطرز بالذهب فى طراز الملك — أن الافرنجية من النصرانيات تقع فى قصره فتعود مسلمة ، تعيدها الجوارى المذكورات مسلمة وهن على تكتم من ملكهن فى ذلك كله ، ولهن فى فعل الخير أمور عجيبة .

وأعلمنا أنه كان فى هذه الجزيرة زلازل مرجفة ذعر لها هذا المشرك ، فكان يتطلع فى قصره ، فلا يسمع الا ذاكرا لله ولرسوله من نسائه وفتيانه ، وربما لحقتهم دهشة عند رؤيته ، فكان يقول لهم : ليذكر كل أحد منكم معبوده ومن يدين به ، تسكينا لهم

وأما فتيانه الذين هم عيون دولته وأهل عمالته فى ملكه فهم مسلمون ، ما منهم الا من يصوم الاشهر تطوعا وتأجرا ، ويتصدق تقربا الى الله وتزلفا ، ويفتك الأسرى ، ويربى الأصاغر منهم ويزوجهم ويحسن اليهم ، ويفعل الخير ما استطاع وهذا كله صنع من الله عز وجل لمسلمى هذه الجزيرة ، وسر من أسرار اعتناء الله عز وجل بهم

لقينا منهم بمسينة فتى اسمه عبد المسيح ، من وجوههم وكبرائهم — بعد تقدمة رغبة منه الينا فى ذلك — فاحتفل فى كرامتنا وبرنا ، وأخرج الينا عن سره المكنون ، بعد مراقبة منه فى مجلسه ، أزال لها كل من كان حوله ممن يتهمه من خدامه محافظة على نفسه . فسألنا عن مكة — قدسها الله — وعن مشاهدها المعظمة ، وعن مشاهد المدينة المقدسة ومشاهد الشام ، فأخبرناه وهو يذوب شوقا وتحرقا ، واستهدى منا بعض ما استصحبناه من الطرف المباركة من مكة والمدينة — قدسهما الله — ورغب فى أن لا نبخل عليه بما أمكن من ذلك .

وقال لنا : أنتم مدلون باظهار الاسلام ، فائزون بما قصدتم له ، رابحون ان شاء الله فى متجركم . ونحن كاتمون ايماننا ، خائفون على أنفسنا ، متمسكون بعبادة الله وأداء فرائضه سرا ، معتقلون فى ملكة كافر بالله ، قد وضع فى أعناقنا ربقة الرق ، فغايتنا التبرك بلقاء أمثالكم من الحجاج ، واستهداء أدعيتهم ، والاغتباط بما تلقاه منهم من تحف تلك المشاهد المقدسة ، لنتخذها عدة للايمان وذخيرة للاكفان .

فتفطرت قلوبنا له اشفاقا ، ودعونا له بحسن الخاتمة ، وأتحفناه ببعض ما كان عندنا مما رغب فيه ، وأبلغ فى مجازاتنا

ومكافآتنا ، واستكتمنا سائر اخوانه من الفتيان ولهم فى فعل الجميل أخبار مأثورة ، وفى افتكاك الأسرى صنائع عند الله مشكورة ، وجميع خدمتهم على مثل أحوالهم .

ومن عجيب شأن هؤلاء الفتيان أنهم يحضرون عند مولاهم ، فيحين وقت الصلاة ، فيخرجون أفذاذا من مجلسه فيقضون صلاتهم . وربما يكونون بموضع تلحقه عين ملكهم ، فيسترهم الله عز وجل ، فلا يزالون بأعمالهم ونياتهم وبنصائحهم - الباطنة للمسلمين فى جهاد دائم . والله ينفعهم ، ويجمل خلاصهم بمنه .

ولهذا الملك بمدينة مسينة المذكورة دار صنعة (البحر) [1] ، تحتوى من الأساطيل على مالا يحصى عدد مراكبه ، وله بالمدينة مثل ذلك .

فكان نزولنا فى أحد الفناديق ، وأقمنا بها تسعة أيام . فلما كان ليلة الثلاثاء الثانى عشر للشهر المبارك المذكور ، والثامن عشر لدجنبر [2] ، ركبنا فى زورق ، متوجهين الى المدينة المتقدم ذكرها ، وضرنا قريبا من الساحل بحيث نبصره رأى العين . وأرسل الله علينا ريحا شرقية رخاء طيبة زجت الزورق أهنأ تزجية ، وسرنا نسرح اللحظ فى عمائر وقرى متصلة ، وحصون ومعاقل فى قنن الجبال مشرفة [3] .

وأبصرنا عن يميننا فى البحر تسع جزائر قد قامت جبالا [4] مرتفعة على مقربة من بر الجزيرة اثنتان [5] منها تخرج منهما [6] النار دائما ، وأبصرنا الدخان صاعدا منهما ، ويظهر بالليل نارا حمراء [7] ذات ألسن تصعد فى الجو — وهو البركان المشهور خبره — وأعلمنا أن خروجها من منافس فى الجبلين المذكورين ، يصعد منها [8] نفس نارى بقوة شديدة تكون عنه النار ، وربما قذف فيها الحجر الكبير ، فتلقى به فى الساعة [9] الى الهواء لقوة ذلك النفس ، وتمنعه من الاستقرار والانتهاء الى القعر ، وهذا من أعجب المسموعات الصحيحة .

وأما الجبل الشامخ الذى بالجزيرة ، المعروف بجبل النار ، فشأنه أيضا عجيب . وذلك أن نارا تخرج منه فى بعض السنين كالسيل العرم ، فلا تمر بشىء الا أحرقته ، حتى تنتهى الى البحر ، فتركب ثبجه على صفحه حتى تغوص ، فيه . فسبحان المبدع فى عجائب مخلوقاته ، الا اله سواه . الى أن حللنا عشى يوم الاربعاء ، بعد يوم الثلاثاء المؤرخ ، مرسى مدينة شفلودى [1] وبينها وبين مسينة مجرى ونصف مجرى .

ذكر مدينة شفلودى من جزيرة صقلية اعادها الله تعالى

هى مدينة ساحلية ، كثيرة الخصب ، واسعة المرافق ، منتظمة أشجار الأعناب وغيرها ، مرتبة الأسواق : تسكنها طائفة من المسلمين ، وعليها قنة جبل واسعة مستديرة ،

فيها قلعة لم ير أمنع منهـا ، اتخـذوها عدة لأسطول يفجؤهم [2] من جهة البحر ، من جهة المسلمين نصرهم الله .

وكان اقـلاعنا منها نصف الليـل ، فجئنا مدينة ثرمة [3] ضحوة يوم الخميس بسير رويد ، وبين المدينتين خمسة وعشرون ميلا ، فانتقلنا فيهـا [4] مـن ذلك الـزورق الى زورق ثان اكتريناه ، لكون البحريين (الذين) صـحبونا فيه من أهلها .

ذكر مدينة ثرمة
من الجزيرة المذكورة ، فتحها الله

هى أحسن وضعا من التى تقدم ذكرها ، وهى حصينة تركب البحـر وتشرف عليـه ، وللمسلمين فيها ربض كبير لهم فيه المساجد ، ولها قلعة سامية منيعة ، وفى أسفل البـلدة حمة * قـد أغنت أهلها عن اتخـاذ حمـام . وهذه البلدة من الخصب وسعة الرزق عـلى غاية ، والجزيرة بأسرها من أعجب بلاد الله فى الخصب وسعة الأرزاق .

فأقمنا بها يوم الخميس الرابع عشر للشهر المذكور ، ونحن قد أرسينا فى واد بأسفلها ، ويطلع فيه المـد من البحـر ثم ينحسر عنه ، وبتنـا بها ليـلة الجمعة . ثم انقلب الهـواء غربيا ، فلم نجـد للاقلاع سـبيلا ، وبيننا وبين المـدينة المقصـودة — المعـروفة عند النصارى ببلارمة — خمسة وعشرون ميلا ، فخشينا طول المقام ، وحمدنا الله تعالى عـلى ما أنعم به من التسهيل فى قطـع المسافة فى يومين ، وقـد - تلبث الزواريق فى قطعهـا — عـلى ما أعلمنـا به — العشرين يومـا والثلاثين يوما ونيفا على ذلك .

فأصـبحنا يوم الجمعة ، منتصف الشـهر المبارك ، على نية من المسـير فى البر عـلى أقـدامنا ، فنفـذنا لطيتنا [1] ، وتحملنا بعض أسـبابنا ، وخلفنـا بعض الأصـحاب عـلى الأسـباب البـاقية فى الزورق ، وسرنا فى طريق كأنها السـوق عمـارة وكثرة صـادر ووارد ، وطـوائف النصـارى يتلقـوننا ، فيبادرون بالسـلام علينا ويؤنسوننا . فرأينا من سياستهم ، ولين مقصدهم مع المسلمين ، ما يوقـع الفتنة [2] فى نفـوس أهل الجهل . عصم الله جميع أمة محمد صلى الله عليه وسلم من الفتنة بهم ، بعزته ومنه .

فانتهينا الى قصر سعد — وهو على فرسخ من المدينة — وقد أخذ منا الاعياء ، فملنـا اليـه وبتنا فيه . وهـذا القصر على سـاحل البحر ، مشيد البناء عتيقه ، قديم الوضع من عهد ملكة المسلمين الجزيرة ، لم يزل — ولا يزال بفضـل الله — مسـكنا للعبّاد منهم ، وحوله قبـور كثيرة للمسـلمين أهل الزهادة والورع . وهو موصـوف بالفضل والبركة ، مقصود من كل مـكان ، وبازائه عين تعرف بعين المجنونة ، وله باب وثيق من الحـديد ، وداخـله مسـاكن وعـلالى مشرفة وبيـوت منتظمة ، وهو كامل مرافق السكنى .

وفى أعـلاه مسـجد من أحسن مسـاجد الدنيا بهاء ، مسـتطيل ذو حنايا مسـتطيلة ،

مفروش بحصر نظيفة لم ير أحسن منها صنعة ، وقد علق فيه نحو الأربعين قنديلا من أنواع الصفر والزجاج ، وأمامه شارع واسع مستدير بأعلى القصر ، وفي أسفل القصر بئر عذبة . فبتنا في هذا المسجد أحسن مبيت وأطيبه ، وسمعنا الآذان وكنا قد طال عهدنا بسماعه ، وأكرمنا القوم الساكنون فيه ، وله امام يصلي بهم الفريضة والتراويح في هذا الشهر المبارك .

وبمقربة من هذا القصر ، بنحو الميل الى جهة المدينة ، قصر آخر على صفته يعرف بقصر جعفر ، وداخله سقاية * تفور بماء عذب .

وأبصرنا للنصارى في هذه الطريق كنائس معدة لمرضى النصارى ، ولهم في مدنهم مثل ذلك على صفة مارستانات المسلمين ، وأبصرنا لهم بعكة وبصور مثل ذلك . فعجبنا من اعتنائهم بهذا القدر .

فلما صلينا الصبح توجهنا الى المدينة ، فجئنا لندخل فمنعنا ، وحملنا الى الباب المتصل بقصور الملك الافرنجي — أراح الله المسلمين من ملكته — وأدينا الى المستخلف [1] من قبله ليسألنا على مقصدنا ، وكذلك فعلهم بكل غريب . فسلك بنا [2] رحاب وأبواب وساحات ملوكية ، وأبصرنا من القصور المشرفة والميادين المنتظمة والبساتين والمراتب المتخذة لأهل الخدمة ، ماراع أبصارنا ، وأذهل أفكارنا ، وتذكرنا قول الله عز وجل : « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون [3] » .

وأبصرنا فيما أبصرناه مجلسا في ساحة فسيحة ، قد أحدق بها بستان ، وانتظمت جوانبها بلاطات ، والمجلس قد أخذ استطالة تلك الساحة كلها . فعجبنا من طوله واشراف مناظره ، فأعلمنا أنه موضع غداء [4] الملك مع أصحابه ، وتلك البلاطات والمراتب حيث تقعد حكامه ، وأهل الخدمة والعمالة أمامه .

فخرج الينا ذلك المستخلف يتهادى بين خديمين يحفان به ويرفعان أذياله ، فأبصرنا شيخا طويل السبلة أبيضها ذا أبهة ، فسألنا عن مقصدنا وعن بلدنا بكلام عربي لين . فأعلمناه ، فأظهر الاشفاق علينا ، وأمر بانصرافنا بعد أن أحفى * في السلام والدعاء ، فعجبنا من شأنه . وكان أول سؤاله لنا عن خبر القسطنطينية العظمى وما عندنا منه ، فلم يكن عندنا ما نعلمه به ، وقد نقيد خبرها بعد هذا .

وكان من أغرب ما شاهدناه من الأمور * الفتانة ، أن أحد [1] من كان قاعدا عند باب القصر من النصارى ، قال لنا — عند انصرافنا عن القصر المذكور — : تحفظوا بما عندكم يا حجاج من العمال المسكين لئلا يقعوا عليكم ؛ وظن أن عندنا تجارة تقتضي التمكيس . فاستجاب له أحد النصارى فقال : ما أعجب أمرك ، يدخلون حرم الملك ، ويخافون من شيء ! ما كنت أود

لهم [2] الا آلافا من الرباعيات ، انهضوا بسلام لا خوف عليكم .

فقضينا عجبا مما شاهدناه وسمعناه ، وخرجنا الى أحد الفنادق فنزلنا فيه ، وذلك يوم السبت السادس عشر للشهر المبارك ، والثاني والعشرين لدجمبر . وفي خروجنا من القصر المذكور ، سلكنا بلاطا متصلا مشينا فيه مسافة طويلة وهو مسقف ، حتى انتهينا الى كنيسة عظيمة البناء ، فأعلمنا أن ذلك البلاط ممشى الملك الى هذه الكنيسة .

ذكر المدينة التي هي حضرة صقلية اعادها الله

هي بهذه الجزائر أم الحضارة ، والجامعة بين الحسنين غضارة ونضارة ، فما شئت بها من جمال مخبر ومنظر ، ومراد عيش يانع أخضر ، عتيقة أنيقة ، مشرقة مؤنقة ، تتطلع بمرأى فتان ، وتتخايل بين ساحات وبسائط كلها بستان ، فسيحة السكك والشوارع ، تروق الأبصار بحسن منظرها البارع ، عجيبة الشان ، قرطبية البنيان ، مبانيها كلها بمنحوت الحجر المعروف بالكذان [3]

يشقها نهر معين ، ويطرد في جنباتها أربع عيون ، قد زخرفت فيها لملكها دنياه ، فاتخذها حضرة ملكه الافرنجي - ، أباده الله . تنتظم بلبتها قصوره انتظام العقود في نحور الكواعب ، ويتقلب من بساتينها وميادينها بين نزهة وملاعب . فكم له فيها — لا عمرت به — من مقاصير ومصانع ، ومناظر ومطالع ، وكم له بجهاتها [1] من ديارات قد زخرف بنيانها ، ورفه [2] بالاقطاعات الواسعة رهبانها ، وكنائس قد صيغ من الذهب والفضة صلبانها . وعسى الله عن قريب أن يصلح لهذه الجزيرة الزمان ، فيعيدها دار ايمان ، وينقلها من الخوف للأمان ، بعزته . انه على ما يشاء قدير .

وللمسلمين بهذه المدينة رسم باق من الايمان : يعمرون أكثر مساجدهم ، ويقيمون الصلاة بأذان مسموع ، ولهم أرباض قد انفردوا فيها بسكناهم عن النصارى ، والأسواق معمورة بهم . وهم التجار فيها ، ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم ، ويصلون الأعياد بخطبة دعاؤهم [3] فيها للعباسي .

ولهم بها قاض يرتفعون اليه في أحكامهم ، وجامع يجتمعون للصلاة فيه ، ويحتفلون في وقيده في هذا الشهر المبارك ، وأما المساجد فكثيرة لا تحصى ، وأكثرها محاضر لمعلمي القرآن . وبالجملة فهم غرباء عن اخوانهم المسلمين تحت ذمة الكفار ، ولا أمن [4] لهم في أموالهم ولا في حريمهم ولا أبنائهم ، تلافاهم الله بصنع جميل بمنه .

ومن جملة شبه هذه المدينة بقرطبة — والشيء قد تشبه بالشيء من احدى جهاته — أن لها مدينة قديمة تعرف بالقصر القديم ، هي في وسط المدينة الحديثة ، وعلى هذا المثال موضوع قرطبة حرسها الله . وبهذا القصر القديم ديار كأنها القصور المشيدة ، لها مناظر في الجو مظلمة * تحار الأبصار في حسنها .

ومن أعجب ما شاهدناه بها من أمور الكفران : كنيسة تعرف بكنيسة الانطاكى . أبصرناها يوم الميلاد — وهو يوم عيد لهم عظيم — وقد احتفلوا لها رجالا ونساء ، فأبصرنا من بنيانها مرأى يعجز الوصف عنه ، ويقع القطع بأنه أعجب مصانع الدنيا المزخرفة : جدرها الداخلة ذهب كلها ، وفيها من ألواح الرخام الملون ما لم ير مثله ، قد رصعت كلها بفصوص الذهب ، وكللت بأشجار الفصوص الخضر ، ونظم أعلاها بالشمسيات المذهبات من الزجاج ، فتخطف الأبصار بساطع شعاعها ، وتحدث في النفوس فتنة نعوذ بالله منها

وأعلمنا أن بانيها ، الذي تنسب اليه ، أنفق فيها قناطير من الذهب ، وكان وزيرا لجد هذا الملك المشرك . ولهذه الكنيسة صومعة قد قامت على أعمدة سوار [1] من الرخام ملونة ، وعلت قبة على أخرى سوار كلها ، كتعرف بصومعة السوارى [2] ، وهي من أعجب ما يبصر من البنيان . شرفها الله عن قريب بالأذان ، بلطفه وكريم صنعه .

وزى النصرانيات فى هذه المدينة زى نساء المسلمين ، فصيحات الالسن ملتحفات متنقبات . خرجن فى هذا العيد المذكور ، وقد لبسن ثياب الحرير المذهب ، والتحفن اللحف الرائقة ، وانتقبن بالنقب الملونة ، وانتعلن الأخفاف المذهبة ، وبرزن لكنائسهن أو كنسهن حاملات جميع زينة نساء المسلمين ، من التحلى والتخضب والتعطر ، فتذكرنا على جهة الدعابة الأدبية قول الشاعر :

ان من يدخل الكنيسة يوما
يلق فيها جآزرا وظباء [3]

ونعوذ بالله من وصف يدخل مدخل اللغو ، ويؤدى الى أباطيل اللهو ، ونعوذ به من تقييد يؤدى الى تفنيد . انه سبحانه هو أهل التقوى وأهل المغفرة .

فكان مقامنا بهذه المدينة سبعة أيام ، ونزلنا بها فى أحد فنادقها التى يسكنها المسلمون . وخرجنا منها صبيحة [4] يوم الجمعة الثانى والعشرين لهذا الشهر المبارك ، والثامن والعشرين لشهر دجنبر ، الى مدينة أطرابنش بسبب مركبين بها : أحدهما يتوجه الى الأندلس ، والثانى الى سبتة — وكنا أقلعنا الى الاسكندرية فيه — وفيهما [1] حجاج وتجار من المسلمين .

فسلكنا على قرى متصلة وضياع متجاورة ، وأبصرنا محارث ومزارع لم نر مثل تربتها طيبا وكرما واتساعا ، فشبهناها بقنبانية قرطبة ، أو هذه أطيب وأمتن . وبتنا فى الطريق ليلة واحدة فى بلدة تعرف بعلقمة ، وهى كبيرة متسعة فيها السوق والمساجد ، وسكانها وسكان هذه الضياع التى فى هذه الطريق كلها مسلمون .

وقمنا منها سحر يوم السبت الثالث والعشرين لهذا الشهر المبارك ، والتاسع والعشرين لدجنبر ، فاجتزنا بمقربة منها على

حصن يعرف بحصن الحمة [2] . وهو بلد كبير فيه حمامات كثيرة ، وقد فجرها الله ينابيع من [3] الأرض ، وأسالها عناصر لا يكاد البدن يحتملها لافراط حرها [4] . فأجزنا منها واحدة على الطريق ، فنزلنا اليها عن الدواب ، وأرحنا الأبدان بالاستحمام فيها ، ووصلنا الى أطرابنش عصر ذلك اليوم ، فنزلنا فيها فى دار اكتريناها .

ذكر مدينة اطرابنش من جزيرة صقلية ، أعادها الله

هى مدينة صغيرة الساحة ، غير كبيرة المساحة ، مسورة بيضاء كالحمامة . مرساها من أحسن المراسى ، وأوفقها للمراكب ، ولذلك ما يقصد الروم كثيرا اليها ، ولا سيما المقلعون الى بر العدوة ، فان بينها وبين تونس مسيرة يوم وليلة ، فالسفر منها اليها لا يتعطل شتاء ولا صيفا الا ريثما لا [1] تهب الريح الموافقة ، فمجراها فى ذلك مجرى المجاز الغريب .

وبهذه المدينة السوق والحمام ، وجميع ما يحتاج اليه من مرافق المدن ، لكنها فى لهوات البحر لاحاطته بها من ثلاث جهات ، واتصال البر بها من جهة واحدة ضيقة ، والبحر فاغر فاه لها من سائر الجهات . فأهلها يرون أنه لابد له من الاستيلاء عليها ، وان تراخى مدى أيامها ، ولا يعلم الغيب الا الله تعالى . وهى مرفقة موافقة لرخاء السعر بها ، لأنها على محرث عظيم . وسكانها المسلمون والنصارى ، ولكلا الفريقين فيها المساجد والكنائس .

وبركنها من جهة الشرق ، مائلا الى الشمال على مقربة منها ، جبل عظيم مفرط السمو متسع ، فى أعلاه قنة تنقطع عنه ، وفيها معقل للروم ، وبينه وبين الجبل قنطرة ، ويتصل به فى الجبل للروم بلد كبير ، ويقال ان حريمه من أحسن حريم هذه الجزيرة ، جعلها الله سبيا للمسلمين .

وبهذا الجبل الكروم والمزارع ، وأعلمنا أن به نحو أربعمائة عين متفجرة ، وهو يعرف بجبل حامد ، والصعود اليه هين من احدى جهاته . وهم يرون أن منه يكون فتح هذه الجزيرة ان شاء الله ، ولا سبيل أن يتركوا مسلما يصعد اليه ، ولذلك ما أعدوا فيه ذلك المعقل الحصين ، فلو أحسوا بحادثة حصلوا حريمهم فيه ، وقطعوا القنطرة ، واعترض بينهم وبين الذى فى أعلاه متصل به خندق كبير .

وشأن هذا البلد عجيب ، فمن العجب أن يكون فيه من العيون المتفجرة ما تقدم ذكره ، وأطرابنش فى هذا البسيط ، ولا ماء لها الا من بئر على البعد منها ، وفى ديارها آبار قصيرة الأرشية ماؤها كلها شريب لا يساغ . وألفينا المركبين اللذين يرومان الاقلاع الى المغرب بها ، ونحن ان شاء الله نؤمل ركوب أحدهما ، وهو القاصد الى بر الأندلس . والله بمعهود صنعه الجميل كفيل بمنه .

وفى غربى هذه البلدة — أطرابنش المذكورة — ثلاث جزائر فى البحر على نحو

فرسخين منها ، وهى صغار متجاورة : احداها [1] تعرف بمليطمة [2] ، والأخرى بيابسة ، والثالثة تعرف بالراهب ، نسبت الى راهب يسكنها فى بناء أعلاها كأنه الحصن ، وهى [3] مكمن للعدو . والجزيرتان لا عمارة فيهما ، ولا يعمر الثالثة سوى الراهب المذكور .

شهر شوال ، عرفنا يمنه وبركته

استهل هلاله ليلة السبت الخامس من يناير ، بشهادة ثبتت عند حاكم أطرابنش المذكورة ، بأنه أبصر هلال شهر رمضان ليلة الخميس ، ويوم الخميس كان صيام أهل مدينة صقلية المتقدم ذكرها ، فعيد الناس على الكمال بحساب يوم الخميس المذكور .

وكان مصلانا فى هذا العيد المبارك بأحد مساجد أطرابنش المذكورة ، مع قوم من أهلها امتنعوا من الخروج الى المصلى لعذر كان لهم ، فصلينا صلاة الغرباء . جبر الله كل غريب الى وطنه .

وخرج أهل البلد الى مصلاهم مع صاحب أحكامهم ، وانصرفوا بالطبول والبوقات . فعجبنا من ذلك ، ومن اغضاء النصارى لهم عليه . ونحن قد اتفق كراؤنا فى المركب المتوجه — ان شاء الله — الى بر الأندلس ، ونظرنا فى الزاد ، والله المتكفل بالتيسير والتسهيل .

ووصل أمر من ملك صقلية بعقلة [4] المراكب بجميع السواحل بجزيرته ، بسبب الأسطول الذى يعمره [5] ويعده ، فليس لمركب سبيل للسفر الى أن يسافر الأسطول المذكور — خيب الله سعيه ، ولا تمم قصده — فبادر[6] الروم الجنويون ، أصحاب المركبين المذكورين ، الى الصعود فيهما تحصنا [1] من الوالى . ثم امتد سبب الرشوة بينهم وبينه ، فأقاموا بمركبيهم [2] ينتظرون هواء يقلعون به .

وفى هذا التاريخ المذكور ، وصلتنا أخبار موحشة من الغرب : منها تغلب صاحب ميورقة على بجاية . والله لا يحقق ذلك ، ويجعل [3] العاقبة والهدنة للمسلمين ، بمنه وكرمه .

والناس بهذه المدينة يرجمون الظنون فى مقصد هذا الأسطول الذى يحاول هذا الطاغية تعميره — وعدد أجفانه ، فيما يقال ، ثلاثمائة بين طرائد ومراكب ، ويقال أكثر من ذلك ، ويستصحب معه نحو مائة سفينة تحمل الطعام ، والله يقطع به ، ويجعل الدائرة عليه — فمنهم من يزعم أن مقصده الاسكندرية [4] حرسها الله وعصمها ، ومنهم من يقول ان مقصده ميورقة حرسها الله ، ومنهم من يزعم أن مقصده افريقية حماها الله ، ناكثا لعهده فى السلم بسبب الأنباء الموحشة الطارئة من جهة المغرب . وهذا أبعد الظنون من الامكان ، لأنه مظهر للوفاء بالعهد ، والله يعين عليه ولا يعينه .

ومنهم من يرى أن احتفاله انما هو لقصد القسطنطينية العظمى ، بسبب ما ورد من قبلها من النبأ العظيم الشان ، المهدى للنفوس بشائر تتضمن عجائب من الحدثان ، وتشهد للحديث

المأثور عن المصطفى صلى الله عليه وسلم بصدق البرهان . وذلك بأنه ذكر أن صاحبها توفى ، وترك الملك بعده لزوجة ولها ابن صغير ، فقام ابن عم له فى الملك ، وقتل الزوج المذكورة ، وثقف الابن المذكور .

ثم ان ابنا للثائر المذكور عطفته الرحمة على الابن المعتقل ، فأطلق سبيله — كان أبوه قد أمره بقتله — فرمت به الأقدار الى هذه الجزيرة بعد خطوب جرت عليه ، فو دها على حالة ابتذال ، ومهنة استعمال خادما لأحد الرهبان ، مسدلا على شارتة الملوكية سترا من الامتهان ففشى الأمر وذاع السر ، ولم يغن عنه ذلك الستر ، فاستحضر عن أمر الملك الصقلى غليام المذكور قبل واستطق واستفهم ، فزعم أنه عبد لذلك الراهب وخديمه .

ثم ان طائفة من الروم الجنويين ، المسافرين الى القسطنطينية ، أثبتوا صفته ، وحققوا أنه هو مع مخايل ودلائل ملوكية لاحت منه . منها — فيما ذكر لنا — أن الملك غليام خرج فى يوم زينة له ، وقد اصطف الناس للسلام عليه ، وأحضروا الفتى المذكور فى جملة الخاصة . فصقع الجميع خدمة للملك وتعظيما لطلوعه عليهم ، الا ذلك الفتى ، فانه لم يزد على الايماء فى السلام ، فعلم أن الهمة الملوكية منعته من المدخل مدخل السوقة . فاعتنى به الملك غليام ، وأكرم مثواه ، وأزكى عيون الاحتراس عليه ، خوفا من اغتيال يلحقه بتدسيس من ابن عمه الثائر عليه .

وكانت له أخت موصوفة بالجمال علق بها ابن العم الثائر على الملك المذكور ، فلم يمكنه تزويجها بسبب أن الروم لا تنكح فى الأقارب . فحمله الحب المصمى ، والهوى المصم المعمى ، والسعادة التى تفضى بصاحبها الى العاقبة الحسنى ، وترمى على أخذها ، والتوجه بها الى الأمير مسعود ، صاحب الدروب وقونية وبلاد العجم المجاورة للقسطنطينية — وقد تقدم ذكر غنائه [1] فى الاسلام فيما مضى من هذا التقييد ، وحسبك أن صاحب القسطنطينية لم يزل يؤدى الجزية اليه ، ويصالحه على ما يجاوره من البلاد — فأسلم مع ابنة عمه على يده .

وسيق له صليب ذهب قد أحمى عليه فى النار ، فوضعه تحت قدمه — وهى عندهم أعظم علامات الترك [2] لدين النصرانية ، والوفاء بذمة دين الاسلام — وتزوج ابنة العم المذكورة وبلغ هواه ، وأخذ جيوش المسلمين معه الى القسطنطينية فدخلها بهم ، وقتل من أهلها نحو الخمسين ألفا من الروم ، وأعانه الاغريقيون [3] على فعله — وهم فرقة من فرق أهل الكتاب [1] ، وكلامهم بالعربية ، وبينهم وبين سائر الفرق من جنسهم عداوة كامنة ، وهم لا يرون أكل لحم الخنزير — فشفوا نفوسهم من أعاديهم ، وقرع الله نبع الكفر بعضه ببعض .

واستولى المسلمون على القسطنطينية ونقلت أموالها كلها — وهو مالا يأخذه الاحصاء — الى الأمير مسعود ، وجعل من

المسلمين فيها ما ينيف على الأربعين ألف فارس ، واتصلت بلادهم بها . وهذا الفتح — اذا صح — من أكبر شروط الساعة ، والله أعلم بغيبه .

ألفينا هذا الحديث بهذه الجزيرة مستفيضا على ألسنة المسلمين والنصارى ، محققين له لا شك عندهم فيه أنبأت به مراكب الروم التى وصلت من القسطنطينية [٣] . وكان أول [٤] سؤال مستخلف الملك بالمدينة لنا ، يوم أحضرنا لديه عند دخولنا المدينة ، عما عندنا من خبر القسطنطينية [٣] ، فلم يكن عندنا علم ، ولا تعرفنا معنى السؤال عنها الا بعد ذلك .

وتحققوه أيضا من جهة ملكها هذا الصبى ، وما كان من اتباع الثائر عليه اياه عيونا تروم [٥] اغتياله فهو اليوم — بسبب ذلك — عند صاحب صقلية محترس محافظ عليه ، لا يكاد يصل لحظ العيون اليه . وأخبرنا أنه رطيب غصن الصبا ، محتدم جمرة الشباب ، صقيل رونق الملك عليه ، ناظر [٦] فى علم اللسان العربى وغيره ، بارع فى الأدب الملوكى ، ذو دهاء على فتوة سنه وغمرية شبيبته .

فالملك الصقلى — على ما يذكر — يروم توجيه الأسطول المذكور الى القسطنطينية [٣] ، أنفة لهذا الصبى المذكور وما جرى عليه . وكيفما توجه الأمر فيه من هذه المقاصد ، فالله عز وجل ينكثه خاسرا على عقبه ، ويعرفه شؤم مذهبه ، ويجعل قواصف الرياح خاسفة به ، انه على ما يشاء قدير .

وهذا الخبر القسطنطيني — حققه الله — من أعظم عجائب الدنيا ، وكوائنها المرتقبة . ولله القدرة البالغة فى أحكامه وأقداره .

شهر ذى القعدة عرفنا الله يمنه وبركته

استهل هلاله ليلة الاثنين الرابع من شهر فبراير ، ونحن بمدينة أطرابنش المتقدم ذكرها ، منتظرين انسلاخ فصل الشتاء واقلاع المركب الجنوى الذى أملنا ركوبه الى الأندلس ، ان شاء الله عز وجل ، والله سبحانه ييمن مقصدنا ، وييسر مرامنا ، بمنه وكرمه .

وفى مدة مقامنا بهذه البلدة تعرفنا ما يؤلم النفوس تعرفه من سوء حال أهل هذه الجزيرة مع عباد الصليب بها — دمرهم الله — وما هم عليه معهم من الذل والمسكنة ، والمقام تحت عهدة الذمة وغلظة الملك ، الى طوارىء دواعى [١] الفتنة فى الدين على من كتب الله عليه الشقاء من أبنائهم ونسائهم .

وربما تسبب الى بعض أشياخهم أسباب نكالية تدعوه الى فراق دينه : فمنها قصة اتفقت فى هذه السنين القريبة لبعض فقهاء مدينتهم ، التى هى حضرة ملكهم الطاغية ، ويعرف بابن زرعة : ضغطته العمال [٢] بالمطالبة حتى أظهر فراق دين الاسلام ، والانغماس فى دين النصرانية ، ومهر فى حفظ الانجيل ، ومطالعة سير الروم وحفظ قوانين شريعتهم ، فعاد فى جملة القسيسين الذين يستفتون فى الأحكام النصرانية . وربما طرأ حكم اسلامى فيستفتى أيضا فيه ، لما سبق من معرفته بالأحكام الشرعية ، ويقع الوقوف عند فتياه فى كلا الحكمين .

وكان له مسجد بازاء داره أعاده كنيسة — نعوذ بالله من عواقب الشقاوة وخواتم الضلالة — ومع ذلك فأعلمنا أنه يكتم ايمانه ، فلعله داخل تحت الاستثناء فى قوله « الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان [1] » .

ووصل هذه الأيام الى هذه البلدة زعيم أهل هذه الجزيرة من المسلمين وسيدهم : القائد أبو القاسم ابن حمود ، المعروف بابن الحجر ، وهذا الرجل من أهل بيت بهذه الجزيرة توارثوا السيادة كابرا عن كابر . وقرر لدينا مع ذلك أنه من أهل العمل الصالح ، مريد للخير ، محب فى أهله ، كثير الصنائع الأخروية من افتكاك الأسارى ، وبث الصدقات فى الغرباء والمنقطعين من الحجاج ، الى مآثر جمة ومناقب كريمة . فارتجت هذه المدينة لوصوله .

وكان فى هذه المدة تحت هجران من هذا الطاغية ، ألزمه داره بمطالبة توجهت عليه من أعدائه ، افتروا عليه فيها أحاديث مزورة نسبوه فيها الى مخاطبة الموحدين — أيدهم الله — فكادت تقضى عليه لولا حارس المدة ، وتوالت عليه مصادرات أغرمته نيفا على الثلاثين ألف دينار مؤمنية ، ولم يزل يتخلى عن جميع دياره وأملاكه الموروثة عن سلفه حتى بقى دون مال .

فاتفق فى هذه الأيام رضى الطاغية عنه ، وأمره بالنفوذ لمهم من أشغاله السلطانية ، فنفذ لها نفوذ المملوك المغلوب على نفسه وماله . وصدرت عند وصوله الى هذه البلدة رغبة فى الاجتماع بنا ، فاجتمعنا به ، فأظهر لنا من باطن حاله ، وبواطن أحوال هذه الجزيرة مع أعدائهم ، ما يبكى العيون دما ، ويذيب القلوب ألما . فمن ذلك أنه قال : كنت أود لو أباع أنا وأهل بيتى ، فلعل البيع كان يتخلصنا مما نحن فيه ، ويؤدى بنا الى الحصول فى بلاد المسلمين . فتأمل حالا يؤدى بهذا الرجل — مع جلالة قدره وعظم منصبه — الى أن يتمنى مثل هذا التمنى ، مع كونه مثقلا عيالا وبنين وبنات ! فسألنا له الله عز وجل حسن التخليص مما هو فيه ، ولسائر المسلمين من أهل هذه الجزيرة . وواجب على كل مسلم الدعاء لهم فى كل موقف يقفه بين يدى الله عز وجل .

وفارقناه باكيا مبكيا ، واستمال نفوسنا بشرف منزعه ، وخصوصية شمائله ، ورزانة حصاته [1] ، وشمول مبرته وتكرمته ، وحسن خلقه وخليقته . وكنا قد أبصرنا له ولإخوته ولاهل بيته بالمدينة ديارا كأنها القصور المشيدة الأنيقة ، وشأنهم بالجملة كبير ، لا سيما هذا الرجل منهم وكانت له أيام مقامه هنا أفعال جميلة مع فقراء الحجاج وصعاليكهم ، أصلحت أحوالهم ، ويسرت لهم الكراء والزاد والله ينفعه بها ، ويجازيه الجزاء الأوفى عليها بمنه .

ومن أعظم ما منى به أهل هذه الجزيرة ، أن الرجل ربما غضب على ابنه أو على زوجه ، أو تغضب المرأة على ابنتها ، فتلحق المغضوب عليه أنفة تؤديه الى التطارح فى

الكنيسة ، فيتنصر ويتعمد ، فلا يجد الأب للابن سبيلا ، ولا الأم للبنت سبيلا . فتخيل حال من منى بمثل هذا فى أهله وولده ، ويقطع عمره متوقعا لوقوع هذه الفتنة فيهم ! فهم الدهر كله فى مدارات الأهل والولد خوف هذه الحال .

وأهل النظر فى العواقب منهم ، يخافون أن يتفق على جميعهم ما اتفق على أهل جزيرة أقريطش من المسلمين فى المدة السالفة ، فانه لم تزل بهم الملكة الطاغية من النصارى ، والاستدراج الشيء بعد الشيء حال بعد حال ، حتى اضطروا الى التنصر عن آخرهم ، وفر منهم من قضى الله بنجاته ، وحقت كلمة العذاب على الكافرين . والله غالب على أمره ، لا اله سواه .

ومن عظم هذا الرجل الحمودى المذكور فى نفوس النصارى — أبادهم الله — أنهم يزعمون أنه لو تنصر لما بقى فى الجزيرة مسلم الا وفعل فعله ، اتباعا له واقتداء به ، تكفل الله بعصمته جميعهم ، ونجاهم مما هم فيه ، بفضله وكرمه .

ومن أعجب ما شهدناه من أحوالهم التى تقطع النفوس اشفاقا ، وتذيب القلوب رأفة وحنانا ، أن أحد أعيان هذه البلدة وجه ابنه الى أحد أصحابنا الحجاج ، راغبا فى أن يقبل منه بنتا بكرا صغيرة السن قد راهقت الادراك ، فان رضيها تزوجها ، وان لم يرضها زوجها ممن يرضى لها من أهل بلده ، ويخرجها مع نفسه راضية بفراق أبيها واخوتها ، طمعا فى التخلص من هذه الفتنة ، ورغبة فى الحصول فى بلاد المسلمين . فطاب الأب والأخوة نفسا لذلك ، لعلهم يجدون السبيل للتخلص الى بلاد المسلمين بأنفسهم اذا زالت هذه العقلة المقيدة [1] عنهم . فتأجر هذا الرجل المرغوب اليه بقبول ذلك ، وأعناه على استغنام هذه الفرصة المؤدية الى خير الدنيا والآخرة .

وطال عجبنا من حال تؤدى بانسان الى السماح بمثل هذه الوديعة المعلقة من القلب ، واسلامها الى يد من يغربها ، واحتمال الصبر عنها ، ومكابدة الشوق اليها والوحشة دونها . كما أنا استغربنا حال الصبية — صانها الله — ورضاها بفراق من لها ، رغبة فى الاسلام ، واستمساكا بعروته الوثقى . والله عز وجل يعصمها ويكفلها ، ويؤنسها بنظم شملها ، ويجمل الصنع لها بمنه . واستشارها الأب فيما همّ به من ذلك ، فقالت له : ان أمسكتنى فأنت مسئول عنى ! وكانت هذه الصبية دون أم ، ولها أخوان وأخت صغيرة أشقاء لها .

شهر ذى الحجة ، عرفنا الله يمنه وبركته

غم هلاله علينا لتوالى الأنواء ، فأكملنا أيام شهر ذى القعدة ، بحسابه من ليلة الأربعاء السادس لشهر مارس ، ونحن بهذه المدينة المذكورة ، طامعين فى قرب السفر ، مستبشرين بطيب الهواء ، والله ييسر مرامنا ، ويتكفل بسلامتنا بعزته . واتفق أن أبصرنا الهلال ليلة الأربعاء كبيرا ، فعلم أنه من ليلة الثلاثاء ، فانتقل حساب الشهر اليها .

وفى ظهر يوم الأربعاء التاسع من الشهر المذكور ، والثالث عشر من مارس ، وهو يوم عرفة – عرفنا الله بركته وبركة الموقف الكريم فيه بعرفات – كان صعودنا الى المركب ، بمنه [1] الله ووزقنا السلامة فيه ، مبيتين للسفر – قرب الله علينا مسافته – فأصبحنا

على ظهر المركب صحة يوم عيد الأضحى ، نفعنا الله بمقاساة الوحشة فيه ، ونحن نيف على الخمسين رجلا من المسلمين . عصم الله الجميع ، ونظم شملهم بأوطانهم بمنه وكرمه ، انه سبحانه كفيل بذلك .

ورمنا الاقلاع فلم توافق الريح ، فلم نزل نتردد من المركب الى البر ، ونبيت للسفر [2] كل ليلة اثنى عشر يوما ، الى أن أذن الله بالاقلاع صبيحة يوم الاثنين الحادى والعشرين لذى الحجة المذكور ، والخامس والعشرين لمارس ، فأقلعنا على بركة الله تعالى فى ثلاثة مراكب من الروم ، قد توافقت على الاصطحاب فى الجرى ، وأن يمسك المتقدم منها على المتأخر . فوصلنا الى جزيرة الراهب – وقد تقدم ذكرها فى هذا التقييد – وبينها وبين أطرابنش نحو ثمانية عشر ميلا . فتعيرت الريح علينا ، فملنا الى مرساها .

فكان من الاتفاق العجب أن ألفينا فيها مركب مركون الجوى ، المقلع من الاسكندرية بنحو مائتى رجل ونيف من أصحابنا الحجاج المغاربة الذين [3] كنا فارقناهم بمكة – قدسها الله – فى ذى الحجة من سنة تسع ، ولم نسمع لهم خبرا منذ فارقناهم ، ولا سمعوا لنا .

وكان فيهم جماعة من أصحابنا من أهل غرناطة . منهم الفقيه أبو جعفر ابن سعيد ، صاحبنا ونزيلنا بمكة مدة مقامنا فيها ، فلحين ما علموا بنا ، تطلعوا الينا من المركب متعلقين بحافاته وجوانبه ، رافعين أصواتهم بشرى السلامة واللقاء ، مسرورين بالاجتماع ، باكين من الفرح دهشين ، داهلين لوقوع المسرة من نفوسهم ، ونحن لهم على مثل تلك الحال .

فكان يوما مشهورا [1] ، اتخذناه عقب العيد عيدا جديدا ، ونزل الأصحاب بعضهم الى بعض ، وباتوا وبتنا بأسر ليلة وأنعمها ، وجعلنا هذا الاجتماع عنوانا كريما لما نؤمله من انتظام الشمل بالأوطان ، ان شاء الله عز وجل

وأهب الله علينا ريحا طيبة فى سحر تلك الليلة ، وهى ليلة الثلاثاء الثانى والعشرين من الشهر المذكور ، فأقلعنا بها ونحن فى أربعة مراكب ، كلها تؤمل جزيرة الأندلس بحول الله تعالى . وسرنا ذلك اليوم كله بريح تزجى المراكب تزجية حثيثة ، ونحن من الشوق الى الأندلس بحال تكاد لها النفوس تقوم مقام الرياح فى حث الرياح وانزعاجها ، والله يمن بالتسهيل والتعجيل ثم انقلبت الريح غربية بعد مسير يوم وليلتين ، فضربت فى وجوهنا فانكصتنا على الاعقاب ، فرجعنا عودا على بدء الى مرسى جزيرة الراهب ، فوصلنا اليه ليلة الخميس الرابع والعشرين من الشهر المذكور .

ثم أقلعنا منه عشى يوم الجمعة بعده ، منفردين دون المراكب المذكورة ، فأزعجتنا

ريح شـديدة خـرق لها المركب فى الجرى . فأصبحنا يوم الأحـد السـابع والعشرين من الشهر ، ونحن على طرف جـزيرة سردانية ، وقد قطعناها جريا — وطولها أزيد من مائتى ميل — فاستشرنا وسررنا ، وقـدر للمركب فى يوم وليلتين قطع نيف على خمسمائة ميل ، فكان أمرا مستغربا .

ثم ان الريح الموافقة ركـدت عنا ، وهبت ريح أسقطتنا ليلة الاثنين الثامن والعشرين،منه — وهو أول ابريل — الى جهة بر أفريقة ، فأرسينا يوم الاثنين المذكور بجريرة تعـرف بخالطة [٢] ، وهى جريرة غير معمورة ، ويقـال انها كانت معمورة فى القديم ، وهى مقصـد العدو ، وبينها وبين البر المذكو . نحو ثلاثين ميلا ، وهـو منا رأى العين . فأقمنا بها بعـد أهـوال لقيناها فى دخول مرساها ، عصم الله منها ، وتوالت الأنواء علينا فيها ونحن تنتظـر فرجا من الله تعالى ، وكان مقامنـا فيها أربعة أيام آخرها يوم الخميس مستهل محرم .

شهر محرم سنة احدى وثمانين
عرفنا الله بركتها بمنه

غم هلاله علينا ، فحسبناه على الكمال من ليلة الخميس الرابع لشـهر أبريل ، عرفنا الله بركة هذه السـنة ويمنها ، ورزقنـا خيرها ، ووقانا شرها ، ومن علينـا بنظم الشمل فيها . انه سميع مجيب .

وفى ليلة الجمعة الثـانى منـه ، أهب الله علينا ريحا شرقية أقلعنا بها وهو لين رخاء ، الى أن استشرى فعاد ريحا شديدة ، جـرى بها المركب أقوى جرى وأعـدله . وما زلنـا منذ ركبنا البحر نتنسم هـذا الأفق الشرقى ، شوقا الى ريحه ، فلا يهب منـه نسيم ، حتى خلناه لعدمه عنقاء مغربا [١] الى أن تداركنـا الله بلطفه وجميل صنعه ، فأجراه لنا الآن فى شهر نيسان ، عرفنا الله السلامة بمنه وكرمه .

وصحبتنا هذه الريح الشرقية [٢] نحو يومين سرنا فيهما [٣] سـيرا حثيثا ، وتركنا جـريرة سردانيـة عن يميننا ، ثم تلاعبت بنـا الرياح المختلفة ، فأقمسـا بها نضرب البحـر طـولا وعرضا ، ولا يتـراءى لنا بر ، حتى سـاءت ظنوتنا ، وتوهمنا اسقاط الرياح لنا [٤] الى جهة بر برشلونة — دمرها الله — الى أن أذن الله بالفـرج ، فأبصرنا برَّ جـزيرة يابسة ليـلة السبت ، العاشر من الشهر المذكـور ، ونحن لا نكاد تتبينه — لبعد — خيالا خفيا .

فلما كان يوم السبت المذكـور بان لنـا ، فدخلنا مرسى الجـزيرة المذكـورة مع الليل ، بعد * مـكابدة اختـلاف الرياح فى دخوله ، فأرسينا والمدينة منا على مقدار أربعة أميال . وكان ارساؤنا بازاء جزيرة فرمنتيرة [١] ، وهى منقطعة عن جزيرة يابسـة ، وبينهما [٢] مقدار أربعة أميال أو خمسـة ، وفيهـا قرى كثيرة معمورة . فأقمنا بمرساها ، ونحن بمقربة من الجبلين المنقطعين المتناظرين المعـروفين بالشيخ والعجوز .

وفى تلك الليلة مع المغيب أبصرنا جبال بر الأندلس ، وأقـربها منا جبل دانية المعـروف بقاعون [٣] ، فحدقت الأبصار لهذا البر سرورا

بمـرآه ، واستبشرت الأنفس بالدنو منـه . وأصبحنا يوم الأحد الحادى عشر من الشهر بالمرسى المذكور ، والريح غربية ، ونحن ننتظر تتميم الصنع الجميل من الله عز وجل بارسال الريح المـوافقة نشرا بين يدى رحمتـه ، ان شاء الله .

وفى ضحوة يوم الثـلاثاء الثـالث [4] عشر منه ، أقلعنا — على اليمن والبركة — بريح شرقية لينة المهب لهـا نفس خافت ، داعين لله عز وجـل فى احيـاء ذمائهـا [5] ، وتقـوية اجرائها ، وجبال دانية أمامنا رأى العين ، والله يتمم فضله علينا ، ويكمل صـنعه بعزته لنا . وتمادت وانتشرت ، بفضل الله تعالى ، فنزلنـا بقـرطاجنة عشى يوم الخميس الخامس [6] عشر منه ، شاكرين لله على ما من به من السـلامة والعافية ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على محمد خاتم النبيين وامام المرسلين .

ثم أقلعنا منها اثر صلاة الجمعة السـادس عشر منـه ، فبتنا فى فحص قرطاجنة ، بالبرج المعروف ببرج الثلاثة صهاريج ، ثم منـه يوم السبت الى مرسية ، ومنها فى اليوم بعينه الى لبرالة [7] ، ثم منها يوم الأحد الى لورقة ، ثم منها يوم الاثنين الى المنصـورة ، ثم منها يوم الثلاثاء الى قنبالش [8] بسـطة ، ثم منها يوم الأربعاء الى وادى آش ، ثم منها يوم الخميس الثانى والعشرين لمحـرم والخامس والعشرين لأبريل الى المنزل بغرناطة .

فألقت عصاها واستقر بها النـوى
كما قـر عينـا بالاياب المسافر

والحمد لله على الصنع الجميل الذى أولاه ، والتيسير والتسهيل الذى والاه ، وصـلواته على سيد المرسلين والآخرين : محمد رسوله الـكريم ومصـطفاه ، وعلى آله وأصـحابه الذين اهتدوا بهداه ، وسلم وشرف وكرم .

فكانت مدة مقامنا ، من لدن خـروجنا من غـرناطة الى وقت ايابنا هـذا ، عامين كاملين وثلاثة أشهر ونصفا ، والحمد لله رب العالمين [9] .

